

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة



الأمير عبد القادر الجزائري

-المجاهد العالم الصوفي-

كتاب جماعي بمناسبة تخرج الدفعة السابعة والثلاثين (37)

28 ذو الحجة 1445 هـ-04 جويلية 2024 م

معلومات الاتصال بالجامعة

عنوان الجامعة:

نهج قدور بومدوس، ص ب 137، قسنطينة - الجزائر

الهاتف / الفاكس:

00213.31.92.17.95

00213.31.92.21.41

البريد الإلكتروني:

contact@univ-emir.dz

موقع الجامعة في شبكة الانترنت:

www.univ-emir-constantine.edu.dz

صفحة الجامعة على الفيسبوك

<https://www.facebook.com/usieak>

الأمير عبد القادر الجزائري -المجاهد العالم الصوفي-
كتاب جماعي بمناسبة تخرج الدفعة السابعة والثلاثين، 2023-2024

الإشراف العام:

الأستاذ الدكتور السعيد دراجي مدير الجامعة

رئيس لجنة القراءة والتحكيم: الأستاذ عزيز حداد

نائب مدير الجامعة المكلف بالتكوين العالي في الطورين الأول والثاني والتكوين المتواصل والشهادات وكذا التكوين العالي في التدرج بالنيابة

أعضاء لجنة القراءة والتحكيم:

أ.د. عبد الناصر بن طناش أ.د. زين الدين بن موسى

أ.د. علاوة عمارة أ.د. عيسى بوعافية

أ.د. عبد الرحمان خليفة

الإشراف الإداري والتقني: السيد / عادل صال

متصرف مستشار ورئيس مصلحة التكوين المتواصل

الطباعة: وحدة الطبع بمركز الطبع والسمعي البصري

بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة -الجزائر-

- جوان 2024 -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

اللَّهِ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ

مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا }

سورة الأحزاب، آية 23.

صدق الله العظيم

كلمة أ.د. السعيد دراجي مدير الجامعة.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله

دأبت جامعتنا على إنجاز كتاب نهاية كل سنة جامعية تكريما لدفعة الطلبة المتخرجين في مختلف تخصصاتها وتهديه للشخصية التي تحمل اسم الدفعة وهي سنة حميدة أقرتها الجامعة منذ سنوات بتسمية الدفعات المتخرجة برموز وطنية وعلمية بارزة وتدوينها في كتاب خاص بالدفعة تكريما لها.

وعليه فإن كتاب دفعة التخرج هذه السنة الجامعية 2023-2024 خصص لشخصية جزائرية كبيرة لها بعد وطني وبعد دولي وإنساني، ساهمت في رسم تاريخ العالم بما أوتيت من مزايا سياسية وقيادية وفكرية وأدبية أهلتها ليكون نموذجا فاعلا ومكتملا.

هذا الكتاب ساهمت في انجازه نخبة من الأساتذة، وهو لفحة اعتراف وتقدير وتمجيد له. فكل الشكر والتقدير للذين أسهموا في إنجاز هذا الكتاب من أساتذة ومشرفين ومنظمين. وتتشرف جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بتسمية الدفعة المتخرجة في هذه السنة الجامعية **2023-2024** السابعة والثلاثين (37) باسم المجاهد العالم الصوفي الأمير عبد القادر بن محي الدين، وهو أحد علماء الجزائر الذين خلدوا أسماءهم من ذهب في حقل العلم والتراث الإسلامي والجهاد والأدب والشعر.

فهو ذلك العالم المجاهد الصوفي، الأديب الشاعر، والسياسي والثائر، الذي بحق يستحق هذه المكانة التي بادرت بها الجامعة، ويكفي أن جامعتنا سميت باسمه منذ أربعين سنة (40).

إنني جد مسرور أن نحتفي بتخرج الدفعة السابعة والثلاثين ونحن نعيش أجواء الاحتفال واستعادة
السيادة الوطنية بعيد الاستقلال والشباب **05 جويلية 2024**، بعد ثورة مجيدة لتحرير هذا الوطن
الغالي الذي دفعنا فيه ثمنا باهظا بمليون ونصف مليون من الشهداء، الذين سقت دماؤهم الزكية
هذه الأرض الطيبة لننعم نحن جيل الاستقلال بالحرية والعيش الكريم.

فالشكر موصول إلى أسرة الجامعة من المسؤولين والإطارات الإدارية والعلمية والأساتذة والطلبة
والموظفين كل على مستواه، على ما بذلوه من مجهودات، وتفانيهم في إنجاح الموسم الجامعي
والمحافظة على رسالة هذه الجامعة التي تبقى صرحا مميزا للجزائر وللشعب الجزائري وللإنسانية جمعاء.
وباسمهم كذلك أتقدم بالتهنئة لطلبة الدفعة السابعة والثلاثين المتخرجين، والأوائل منهم خاصة،
راجيا من الله عز وجل أن يسدد خطاهم وأن يكونوا خير سفراء للجامعة في حياتهم العملية
والمهنية.

قسنطينة في: 2024 /06/30

تقديم الأستاذ عزيز حداد

نائب مدير الجامعة المكلف بالتكوين العالي في الطورين الأول والثاني
والتكوين المتواصل والشهادات وكذا التكوين العالي في التدرج بالنيابة

تعود جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية لتجدد العهد والوفاء في حفل نهاية السنة الجامعية 2024/2023 بتسمية دفعة الطلبة المتخرجين السابعة والثلاثين (37) الموسومة: "الأمير عبد القادر الجزائري -المجاهد العالم الصوفي-"، -رحمه الله- وهذا استمرار لما بذله رجال ومفكرون وعلماء وسياسيون في هذا الوطن الحبيب عبر التاريخ، وقد كان لي الشرف أن حضرت في ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين (21) سنة 1987 حول الحياة الروحية في الإسلام بالمحمدية معسكر، وقد شاركت بعد ذلك بمقال حول مبايعة الأمير عبد القادر صدر عن الجامعة، وكما قال جمال الدين الأفغاني: (لا جامعة تقوم لا لسان لهم، ولا لسان تقوم لا أدب لهم، ولا عزة تقوم لا تاريخ لهم، إذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها، فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطني، بدايته الوطني ووسطه الوطني وغايته الوطني...)، وها هو شاعر الثورة مفدي زكرياء يخلده في إياذته بأبيات شعرية حول مسيرته فيقول:

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| أيا عبد قادر كنت التقدير | وكان النضال طويلا عسيرا |
| شرعت الجهاد فلباك شعب | وناجاك رب فكنت النصيرا |
| ونظمت جيشا وسست بلادا | فكنت الأمير الخبير الخطيرا |
| وألهبت في القابعين الحنايا | وأيقظت في الخانعين الضميرا |
| وحملت ماريان مالا تطيق | وجرعت بيجو العذاب المريرا |
| ثمان وعشرا تخوض المنايا | وتجزى السرايا وتبني المصيرا |
| وتدمغ بالعلم من جادلوك | فكنت الطليع وكانوا الحميرا |
| وكم رام إغراءك العابثون | فلم تك غمرا صبيا غريرا |
| وكم عاهدوك وكم أخلفوا | وكنت بما يضمرون بصيرا |
| وعبدت للشعب در الفدا | وما خست مذ خطفوك أميرا |

كما أنه يضاف لأسماء الدفعات المتخرجة التي كانت تحمل أسماء قامات علمية ورموز وشخصيات وطنية عالمية بارزة، ابتداء بـ:

- الانتفاضة الفلسطينية (2001م) - الشيخ أحمد حماني (2002م) - الشيخ الفضيل الورتلاني (2003م) - الرئيس الراحل هوارى بومدين (2004م) - الأستاذ مالك بن نبي (2006م) - الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم (2007م) - الأستاذ يحيى بوعزيز (2008م) - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (2009م) - الشيخ أحمد بن يوسف أطفيش قطب الأئمة (2010م) - الشيخ عبد الرحمن الجيلالي (2011م) - الشيخ الشهيد العربي التبسي (2012م) - الرئيس الشاذلي بن جديد المجاهد المناضل (2013م) - الأستاذ عبد الرحمن شيبان المجاهد المرابي المصلح الأديب (2014م) - الدكتور أحمد عروة المجاهد الحكيم المفكر الأديب (2015م) - من أعلام قسنطينة في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية (2016م) - المجاهد بوعلام باقي من معركة التحرير إلى البناء والتشييد - تضحية وعطاء - (2017م) - المجاهد المصلح الشيخ نعيم النعيمي عطاء متنوع متميز (2018م) - المصلح المرابي الفقيه الشيخ سيدي محمد بن لكبير (2019م)، ثم توقف إنجاز ذلك بسبب جائحة كوفيد وآثارها، لتعود هذه الدفعة المحتفى بها لهذه السنة.

ومن باب الاعتراف بفضل هؤلاء الأعلام والقامات والرموز الذين نقشوا أسماءهم في سجلات بأحرف من ذهب وتركوا بصماتهم ونتاجهم الحضاري عبر العصور، فقد انبر قلم واحتهد مجموعة من الأساتذة الأفاضل بالكتابة عن الأمير عبد القادر (1223هـ-1300هـ/1808م-1883م) باعث ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة والعالم المتبحر والمقاوم المجاهد ضد الاستعمار الفرنسي الصوفي، ومع ذلك لا يمكن الإحاطة بجميع جوانب حياته وأعماله ومواقفه العلمية والعملية والفكرية، وإنما يفتح المجال للكتاب والباحثين للتعلمق أكثر بالإضافة إلى ما كتب الكثير، ومنه حفيده محمد باشا في كتابه 'تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر'، ز"حياة الأمير عبد القادر السلطان السابق لعرب الجزائر" لشارل هنري تشرشل، وما كتب وأنجز حول شخصيته وجهوده المتميزة والرد على شبهات وادعاءات المغرضين الحاقدين، وهذا أقل ما يقدم له اعترافا لجهوده في خدمة الإسلام والوطن والأمة والإنسانية...

فمصدقا لقول صلى الله عليه وسلم: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" فإننا نشكر كل من أسهم في إنجاز هذا الكتاب من أساتذة ودكاترة وباحثين ومشرفين فنيين وإداريين، وكذا لجنة التحكيم فجزاهم الله خيرا.

كما نهنئ الجميع وخاصة طلبة دفعة التخرج السابعة والثلاثين والمتفوقين منهم خاصة وأولياءهم، ونرجو منهم أن يكونوا في مستوى رسالة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية التي تحمل اسمه بأهدافها، ورسالة الذين ضحوا بالنفس والنفيس خدمة لهذا الوطن العزيز وقيمه، وأن يكونوا خير خلف لخير سلف، خاصة ونحن في غمرة الاحتفالات: بهذه الدفعة المتخرجة وذكري الخامس (05) جويلية عيد الاستقلال والشباب، ثمرة لصبر وتضحيات جسام، وعزيمة في طريق العلم والعمل والوفاء بالعهد.

وإذ نضع بين أيديكم هذا التأليف الجماعي المحكم، حول الأمير عبد القادر الذي تناول جوانب من حياته ومآثره ونضاله وجهاده ونشاطه العلمي والفكري والإنساني، وصور عن مسيرته، في مراحل حياته: نشأة علمية ومقاومة وجهاد نم الأسر والمنفى والاستقرار في الخارج، ليعود جثمانه الطاهر إلى أرض الوطن زمن الرئيس الراحل هواري بومدين رحمه الله، وتعمل الدولة الجزائرية حاليا بكل جهد في إطار ملف اللجنة المشتركة الجزائرية الفرنسية للتاريخ والذاكرة لاسترجاع الأرشيف والمنهوبات وهاجم شهداء المقاومة والثورة وكل ما هو متعلق بإرثنا وتراثنا، وما أرتكبه الاستعمار الفرنسي الغاشم من إبادته للشعب الجزائري وجرائم فضيحة، ومنها ممتلكات الأمير عبد القادر وأسرتة ومن معه، الحبيسة في مراكز ومتاحف فرنسا.

وتعتز وتتشرف جامعتنا بحمل اسمه إلى جانب الجامع منذ وضع الحجر الأساس ثم تدشينها في 14 أكتوبر 1984: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، فرحم الله الأمير عبد القادر المجاهد العالم الصوفي، والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار، وتحيا الجزائر.

وفق الله الجميع وسدد خطانا في خدمة البلاد والعباد.

المحور الأول:
شخصية الأمير عبد القادر
ومقاومته

مصادر قراءة تاريخ الأمير عبد القادر

الدكتور محمد هيشور، أستاذ متقاعد من جامعة وهران
وعضو مؤسسة الأمير عبد القادر.

مقدمة

ينبغي أن نعترف بداية أننا حين نتحدث في تاريخ الأمير عبد القادر من خلال موضوع بحثنا حول مصادر قراءة تاريخ الأمير عبد القادر، أو موضوع آخر تاريخي أو غير تاريخي، فإننا لن نأتي بكل ما ينبغي الإتيان به؛ لأن الإمام والإحاطة غاية لا تُدرَك، ولذا ينبغي التواضع أمام الحق والاعتراف بالعجز والنقص والخطأ، فقد أحضرنا شيئاً وغابت عنا أشياء، تركناها وراءنا مجهولة كانت أو معلومة، وقد تكون هي الأكثر، وقد يكفي الباحث أنه اغترف غرفة من بحر علم موضوعه وإن لم يرتو، وفي الأثر اثنان لا يشبعان طالب علم وطالب مال، وأتمنى أن يُبارك بالفائدة في هذا البحث لقارئه، وذلك ما أحسبه يكون لأنه مُحال به لذكائه ليخرج الآخر منه من بين سطورهِ؛ حيث يهدف البحث إلى تحقيق جملة غايات وضعها تصوره ورسمتها هندسة منهج إعدادهِ منها: توفير خبر من تاريخ الأمير عبد القادر وغرف غرفة من بحره وتعزيز مصداقيته بعرض بعضه وهو قليل والإحالة على صحيح مصادره ومراجعهِ حسب ترتيبها الأبجدي الأحسن فالحسن حسب ما أرى وبناءً على ذلك توسيع رسم خريطة دائرة تاريخ الأمير عبد القادر ومقروئته ضمن خريطة دائرة التاريخ العامة وبخاصة تاريخ الجزائري ضمن التاريخ عربي والإسلامي وارشاد القارئ وتوجيهه نحوه وإليه وبخاصة القارئ الناشئ المبتدي وذلك بوضع تعريف بذكر بعض بيوغرافية ما كُتِب في تاريخ الأمير وأخذ علماً بذلك صحيحاً إن شاء الله وهذا مما يُثير جوانب خفية من تاريخ الأمير ويُعرف بمجهول منه ويوطئ أقدام باحثين بأرض بوره ويُدحض شُبهات اثارها أعداؤه والمتربصون به

منذ كان حياً ومازال لهم اتباعا ييغون ما بغى سلفهم مثلما له أنصار وحنود يردون عنه سهام أعدائه ويذودون بالأمس واليوم وهذه من غايات البحث العلمي التاريخي وغيره إلى أن يُحصص الحق ويبلغ العدل مداه ومراده إن شاء الله...

وقد جاء في الأثر: 'أن العلم دين فليَنظر أحدكم على من يأخذ دينه'، ومن أقوال علماء البلاغة العربية في دراسة أساليب البيان العربي قولهم في تعريف أسلوب الخبر: إنه ما احتمل الصدق والكذب. ولذلك تُنفق الجهود لإثبات صدق الخبر أو كذبه؛ لأن رواة الخبر ذوو مقاصد مختلفة، كاختلاف مشاربهم ومناهجهم ومصادر أخذهم، وكلّ ينفق مما عنده، ومن هؤلاء وأولئك أصدقاء وأعداء، وشهادة العدو ضد عدوه تُرفض بين يدي القضاء، ومثل ذلك شهادة الصديق مع صديقه؛ ولذا بات من الضروري توثيق الخبر وتمحيصه ووضع شروط الأخذ وضبط تأويلات القراءات حتى يوضع الخبر في موضعه ويُعطى كل ذي حق حقه، ولا تُخرج قراءة تاريخ الأمير عبد القادر كغيرها من قراءات التاريخ الأخرى عن دائرة قاعدة هذه الإشكالية، حفاظاً على الأمانة العلمية، حيث يكون عليه من الخصوم ما عليه وله من الأصدقاء العدول ماله، وهذا داع أساس من دواعي إعداد هذه الدراسة، بقصد الإسهام ولو بقليل في وضع هذا الأمر في موضعه وبيان نقاطه على حروفها، وقد وضعت هذه الإشكالية التاريخية حيثياتها فاقتضى الأمر بيان مصادر قراءة تاريخ الأمير عبد القادر الراجحة الثقة والمرجوحة الحذرة ضعيفة الثقة، وأحسب أن هذا الأمر يجري على وضع شبه أسس وشروط لقراءة ما يُكتب عن الأمير عبد القادر من مختلف المشارب وبمختلف المناهج من أجل مقاصد وبنوايا كثيرة، وما كتبه عن نفسه وهو ذو خبر محترم من ناحية الأمانة العلمية والإفادة التاريخية؛ لأنه توافر فيه ما لم يتوافر في غيره، لما خطه بيده أو تحت إشرافه، وأحسب أنها أربعة كتب وديوان شعر، وفيما يأتي عرض لأهم مصادر ومراجع تاريخ الأمير، سواء تلك التي ألفها الأمير بنفسه أكتبت حوله من أقاربه أو أبناء وطنه ولغته أو غيرهم، وفق ما يأتي:

1- تُحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر

يعد هذا الكتاب أفضل مصادر تاريخ الأمير في رأيي، لما وفّره من أخبار، ولو أحيط من الناحية المنهجية بكثير من تاريخ الجزائر مما شمله عنوانه وما لم يشمله من تاريخ المغرب العربي، ولا سيما زمن دويلاته، حيث استغرق ذلك أكثر من 120 صفحة من الجزء الأول، وهو كتاب تاريخي بأسلوب أدبي يحمل بصمة يومئذ، ولعل مما دفع مؤلفه محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري إلى التفصيل أكثر ثقافته الواسعة، ورغبته في الإفادة، وحماس إخلاصه الشديد لقضيته التي وجد لها في التاريخ فسحة مجلس حديث عنها وعن من حولها كحديثه في تاريخ دويلات المغرب العربي يومئذ؛ بينما اقتصد في تاريخ الأتراك لأسباب؛ رغم ما بين المؤلف والترك يومئذ من مودة، وحب لتاريخ العثمانيين، وأما تاريخ فرنسا فلم يخض فيه إلا بتلطف حين يمس خيرا ما من أخبار موضوعات تاريخه، وكأن هناك موانع من غير موانع المنهج حالت بينه وبين ذلك، وحتى ولو كان من زوار الأمير حينئذ زوّار فرنسيون أتقنتهم أحاديث مجالسه، وهي أصل فكرة موضوع الكتاب عند مؤلفه محمد بن الأمير عبد القادر، وهي مجالس زوّار الأمير بين باريس وبورصا ودمشق، ولو أن أكثرها فيما أرى مجالس دمشق؛ لطول إقامته بها ولما فُسح له في شيء من الحرية، التي حضر ابنه الأكبر محمد بعضها أو كلها ورأى أن أحاديث أبيه ورؤيته رحمه الله قد اتحفت زوّاره فاشتق عنوان كتابه من حالها، ولا شك أن زوّار الأمير كانوا أكثرا ومن كبار الشخصيات من العرب والمسلمين ورجال دين أوربا والمستشرقين والسياسيين والجواسيس وغيرهم من أصناف الزوّار، ولذلك ألهمته تلك المجالس قوة التأليف، إلى جانب أسباب أخرى مثلما قد يكون أوحى له به بعض جلساء الأمير، وبخاصة خلفاؤه كالخليفة مصطفى بن التوهامي الذي ربما أعانه وآخرون على ذلك التأليف، ولذلك فمن المتفق عليه أن تأليف كتاب تحفة الزائر كان تحت عين أبيه ومراجعته وزوّده بأخباره؛ لأنه يوم صُنِع ذلك التاريخ في جبال الجزائر ووهادها كان محمد بن الأمير صغيراً لا يُدرك من أسرار

الحياة وأثقالها إلا قليلا، ومما جاء في كتاب تُحفة الزائر في صلب موضوعه كغرفة من بحر أنه ذكر البيعة الأولى والثانية وبعض المعارك¹، ولذا ينبغي أن يكون ما ذكره كتاب تُحفة الزائر من أخبار اختلف حولها المؤرخون أو اتفقوا هو القول الفصل في تاريخ الأمير، وما لم يذكر يُرجع أمره إلى ما كتبه الأمير عن نفسه في مصادر أخرى كمدكرته أو سيرته الذاتية التي اعتمد محققوها تحفة الزائر مصدرا فيما رجعوا إليه من استدلال على ما ذهبوا إليه، ولعله لهذا لم تنل المذكرة ما ناله كتاب تحفة الزائر من دراسة وقراءة حسب ما يظهر من خلال ما يسمع أثناء ملتقيات تاريخ الأمير، وبخاصة ذكريات أيامه كذكريات البيعة الأولى والثانية وذكريات المعارك، كمعركة خنق النطاح والمقطع وسيدي إبراهيم، ولعل من أسباب ذلك أنها لم تتوافر إلا قليلا ومنذ عهد قريب فقط كما توافر كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر وهو ما تناولته أياد كثيرة، وما عرف من إشكاليات حديث، اللهم إلا ما قيل عنه أنه ضاعت منه النسخة الأولى بسرقة وأعيدت كتابته مرة أخرى ثم ظهرت النسخة الثانية التي لم يخرجها التحقيق بعد، وهذا في حدود علمي ومن الضروري أن تكون هناك فروق بين النسختين حيث تحمل كل منهما من المحاسن والنقائص ما لا تحمله الأخرى، وقد كان هذا سؤال مني سألته عاثر النسخة الثانية التي كانت مفقودة فأجابني أنه ليس ثم فرق كبير بينهما، ولكن الأمر يستحق تبين اهتمام تحقيق دقيق ومما ولاشك فيه أنه سيتناوله تحقيق النسخة الثانية من باب المقارنة والمناظرة بين هذه وتلك، وهذا لا يضُرُّ بقيمة الكتاب بل سيزيده أهمية ويُقيمه مصدر مقروئية كبير، من أهم مصادر قراءة تاريخ الأمير، إن لم يكن أهمها لوفرة أخباره وديناميكية محرك تأليفه مما أعطاه مصداقية والسلامة من كثير من النقد والتجريح.

¹. يُنظر فهرس الكتاب في الجزءين.

1-1-مدخل لقراءة كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر

أعتقد أن أساس قراءة الكتاب شرحه وبيان أهميته وتبسيط صعبه بين يدي القارئ وبخاصة المبتدئ، كما قد يضع الكاتب شيئاً من التشويق بين جنبات الكتاب المقروء ليُحبذه ويحببه للقراء، فهذه مجمل غايات قراءة الكتاب التي صارت تظهر عنواناً لبعض الكتب، ولذلك منهجه؛ بل مناهجه المتبعة فيُصبغ كل قارئ ما قرأ بصبغة ثقافته وخبرتها فيُضيف لموضوع الكتاب ويزيد في قيمته وأهميته، ومن منهج قراءة الكتاب التعريف به منذ البدء بقراءة مقدمته ثم صلب موضوعه ثم خاتمته وفهرسه، وليس شرطاً أن يقرأ كل أخباره وأفكاره ويُعلق عليها بالنقد والتقييم، وإنما قد يكفي قراءة كبريات ذلك ومركزيتها ورئسيتها بمقتضى منهج بل مناهج.

1-2-قراءة في مقدمة كتاب تحفة الزائر

الأصل أن يُعنى بمقدمة الكتاب أيما اعتناء لأنها هي واجهة الكتاب ومدخل التعرف عليه والتعريف به والدليل إليه، فإذا فُهمت المقدمة فُهم كثير من مضمون الكتاب ولذا ينبغي بث شيء من التشويق في الأسلوب ليُشوق القارئ على قراءة صلب مضمون الكتاب؛ لأنه إذا فشل المؤلف في ذلك وكان فشله جزءاً من فشله في مهمة فإنه لا ينبغي فشل بيان القارئ الدارس للكتاب فلهذه الدواعي بدا لي من الضرورة وضع بعض نقاط قراءة الكتاب ونحن نتحدث عن مصادر قراءة تاريخ الأمير عبد القادر التي أرى أن من أحسنها كتاب تحفة الزائر، وقد تضمنت مقدمة ناشره قبل مقدمة مؤلفه بعد دياجة الحمدلة وآيات من القرآن، وبعد رأيه في أنه لا يسعه إلا الوقوف إجلالاً وإكباراً أمام الأبطال الذين صنعوا التاريخ، وذلك بثمين تضحياتهم بالمال والأنفس في سبيل الله لكي تعيش أممهم حياة العز والكرامة، ولذا فإن أي تكريم لهؤلاء الأبطال هو دون مقام مراتبهم العالية ومن الاعتراف بقدرهم دراسة سيرهم والسِّيَر على نهجهم بالإفادة من تجاربهم وتمثل أفكارهم، بدءاً من سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، ومن العيش مع الأبطال الحديث عنهم، ومن بينهم الأمير عبد

القادر الذي تعد شهادة أعدائه بفضلته كشهادة أصدقائه؛ بل شهادة الأعداء أقوى، لما قيل الفضل ما شهدت به الأعداء، وهذا موضوع يتسع بمجاله وليس له حظ من ذلك في هذا المقام ولو أن بعضه سيتخلل الكتاب، وأما عن مقدمة المؤلف محمد بن الأمير عبد القادر فقد ذهب رحمه الله بعد الحمدلة وذكر بعض صفات الله والصلاة والسلام على رسول الله و ذكر افتقاره لغنى مولاه على دأب سنة الأولين إلى بيان نسبه وأنه ابن الأمير عبد القادر الحسيني ثم يتكلم بلسان والده ويستمر في ذكر مواهبه ومآثره وفضائله إلى أن يقول إذ فاجأتنا طوارق الدهر وجاءتنا جنود فرنسا من البحر كالدر؛ بمعنى كالنمل، واختيار هذا الوصف لها له قصده عند صاحبه وهو كناية عن الكثرة. فظفنا نُدافع عن الوطن بكل حمية فاتصلت بيننا حروب للظهور قاصمة ومع ذلك لم نترك المدافعة حتى أحاطت بنا جيوش من دولتي فرنسا ومراكش وليس في العُلب بعد بذل الوسع عيب ومن شأن الدوائر أن تدور ولما أراد الله ألا نثبت في وجوههم رأينا التسليم للأقدار أولى فألقينا السلاح للفرنسيين بشروط مقررة وعهود محررة وبالقدر فارقتنا البلاد. وهنا يقول كلام في غاية الأهمية وفي وصف في غاية الدقة¹. ولبثنا في فرنسا خمسة أعوام صابرين على القدر صبر الكرام. نترقب من الحكومة ويقصد فرنسا. وفاء وعدها إلى أن سلك الله بنا للنجاة منها فخرجنا من فرنسا ممتطين غارب البحر إلى أن وصلنا اسلامبول دار السعادة ومقر الخلافة الإسلامية فمكثنا سبعة أيام²، وتشرف سيدي الوالد بمقابلة حضرة السلطان الغازي عبد المجيد خان فخلع عليه اللطف والإحسان ثم توجهنا إلى بورصة بقصد الإقامة فأقمنا عامين وستة أشهر في عز وكرامة وكان سبب خروجنا منها زلزلة عظيمة مست ساكنها بمصائب جسيمة، وهنا يذكر المؤلف محمد باشا بن الأمير أن منزلهم كان مقصد الزوّار وأن حديثهم إلى والده وإليه وحديثهما إلى زوارهما كان يستغرب لما يخبرهم

¹. أنظر في محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر ج 1 ص 12 وما بعدها.

². أنصح القارئ الكريم ليقراً تفصي هذا الكلام الجميل في موطنه من كتاب تحفة الزائر ليفيد أكثر ويستمتع بأسلوبه ومفردات لغته العربية الفصيحة أكثر فأكثر لأن الاختصار مخل به لالتزامه غيابه.

بما وقع لوالده من الوقائع الجسام ويودون تدوينه في كتاب ليبقى ثابتاً مدى الأزمان والأحقاب فيبلغه الشاهد الغائب فيسير ذكره في المشارق والمغارب ليتلقى بقبول حسن فتقبض قبضة من أثره¹، ومن خلال ما تقدم من هذا الكلام وما مثله يبدو وعي المؤلف بقيمة ما يكتب من تاريخ والده، والذين كانوا معه كما أدخل مقدمة كتابه ضمن إطار منهج كتابة المقدمة بأسلوب مناهج العصر ولذا فإن كلامه هام جدا في مصدرية مقروئية مصادر تاريخ الأمير عبد القادر رحمه الله، وقد عززت قيمته التاريخية عظمة الأمير، وما أشبهه بعمر بن عبد العزيز في زهده ويوسف صلاح الدين الأيوبي في جهاده ثم ما كُتِبَ به من لغة راقية ثم يذكر المؤلف أنه طُلب منه مراراً وتكراراً أن يكتب وقائع أيام والده وأعوامه وشهوره وهو صاحب سرِّه ورب البيت أدري بما فيه فوجب علي أن أُجيب وأطرق الباب وقد تحملت إداً . والإد { الأمر الداهية الفظيع . وراح يشكو مشقة المهمة ولكنه استخار واستشار وفعل فحالفه في رأينا التوفيق حتى حقق أكبر كتابة انجاز تاريخي في تاريخ الأمير وربما في تاريخ المقاومة الجزائرية مع ما وصف به أمره صعوبة العمل ويبدو أنه كانت له يد عون من والده والذين معه مثلما ترجمت له بعض الوثائق إلى العربية عن اللغة الفرنسية ويقصد الفرنسية التي ربما ثقل على لسانه نطقها لأنه يُحكى عنه أنه كان يبغض فرنسا لما عاناه بين يديها وهو صغير إثناء إقامته بالسجن رفقة والده الذي رآه هو الآخر يتعذب من شدة شر ما يجد ويعاني وهنا قد صحح محمد باشا بن الأمير كثيرا من الأكاذيب التي وجدها لُفقت لأبيه وهي خلاف ما كانت تُصرح الجرائد به وذلك بالرجوع لشهادة والده لأنه رب تلك المشاهد ولا يستوي الشاهد والغائب² في الخبر، وبعد قوله هذا بيّن محمد بن الأمير لماذا ذكر جغرافية المغرب ولاسيما المغرب الأوسط أي الجزائر وهو ما أخذناه عليه من ناحية المنهج وذلك أنه لما كان زوّار والده والذين دعوه إلى الكتابة

¹ . تحفة الزائر ج1 ص 14 وما بعدها.

² . تحفة الزائر ج1 ص16 وما بعدها.

متشوقين إلى معرفة تاريخ بلاد المغرب الأوسط وجغرافيتها حتى يقول ولما فرغت من ترتيبه . يقصد كلام كتاب تحفة الزائر التاريخي . وأمعت النظر في تحريره وتهذيبه حصرته في قسمين الأول سيرته السيفية والثاني سيرته العلمية وسميته تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر فسَطَطَ عليه يدُ من لا برك الله بأصله ونسله وسرقته عمداً من حرز مثله، ثم يقول شمרת عن ساعد الاجتهاد لجمع ما تفرق من المواد بعدما فُقد منها الأكثر وبقي من المسودة ما لا يذكر فحاء مطابقاً للأصل وخاب من الحاسد والمنة لله الأمل، محمد بن عبد القادر¹، ومما تدل عليه هذه الحادثة ويحدث كثير مثلها أن تأليف تحفة الزائر وما مثله كان تحت عيون التجسس كما تدل إعادة الكتابة على إرادة البطل محمد بن البطل عبد القادر وذاك الشبل من ذلك الأسد حيث لم تنل الواقعة الأليمة من عزمه ونرده عن قصده ثم شاء الحق سبحانه إظهار النسخة الأولى ولو بعد حين من الدهر بعدما قيل رميت في البحر من سارقها وهي الآن قيد التحقيق وقد ظهرت في استانبول وليس بينها وبين الثانية فرق كبير ويجري تحقيقها من اثنين؛ أحدهما جزائري حسب ما أعلم.

1-3-قراءة في خاتمة تحفة الزائر

لم يكن القدماء إلى زمن تأليف كتاب تحفة الزائر فيما يبدو يهتمون بخاتمة الكتاب ليعطوا ملخصاً لمضمونه وإنما كانوا يكتفون بالأخبار عن تاريخ الفراغ من الكتاب ومتى بدأ تأليفه ومدة استغراق كتابته ثم يُقدم الكاتب نفسه للقارئ وبخاصة بنسبه وقد يتواضع أمام ذلك، فلا يذكر من تعريف نفسه إلا قليلاً وقد لا يذكر شيئاً ومن ذلك تطور الحال وصارت توضع الخاتمة بل صارت ضرورة ذات خطط ومناهج، حتى وصلت أعراف مناهج المعاصرين إلى ما هي عليه فصار البعض لا يقرأ الكتاب إلا من خلال مقدمته وخاتمته وتصفح فهرسة بالنظر في عناوينه، وإذا انقضت الحاجة به عاد إلى صلب موضوع الكتاب مما يهيمه منه أكثر، وضمن منهج هذا السياق جاء سياق كتابة

¹ . محمد بن الأمير عبد القادر تحفة الزائر ج 1 ص 17.

خاتمة كتاب تحفة الزائر زمن تأليفه، قال محمد باشا بن الأمير عبد القادر أنه لما ذكر من أخبار والده قدس الله سرّه ما طاب نشره وفاح في الخافقين عطره عنّ له أن يلحق ذلك بعمود نسبه الشريف كما تلقاه الخلف عن السلف ودوّنه الحفاظ في كتب النسب والشرف في ذكر بعض مصادر ذكر نسبه مثل جوهرة العقول في آل الرسول للحفاظ الحجة عبد الرحمن بن محمد الفاسي، وكتاب التحقيق في النسب الوثيق لأحمد بن محمد بن أبي القاسم العشماوي وغير هذا ثم قال وها أنا أرويه كما تلقيته ويقصد نسبه نسب والده وأجداده فيقول هو عبد القادر بن محي الدين حتى يوصل نسبه بذكر نحو 24 عمامة إلى محمد بن إدريس الأصغر¹، ولذا لم يخرج مؤلف كتاب تحفة الزائر على منهج زمانه في وضع خواتم الكتب وبيان عمود نسب أبيه أي عنعنته بيّن نسبه هو الآخر بطريقة غير مباشرة.

1-4- قراءة في موضوع تحفة الزائر من خلال فهرسه

لم يوضع القدماء فهراس لمؤلفاتهم وإن للفهرس معنى آخر قد يُساوي ما صار يُسمى البيوغرافيا ومن أقدم ما عُرف لمصطلح الفهرس من ذكر في تاريخ الثقافة العربية الفهرست لابن النديم ثم صار للفهرس معنى آخر في زماننا حيث هو ضرورة فلا يُعقل تأليف كتاب من غير فهرس وذلك لما يُيسره في عون القارئ على قراءة الكتاب وفهمه ولذا اجتهد المعاصرون في وضع فهراس ما يحققون من مخطوطات والتي صلتهم كلها مبتورة من فهراسها مثلما وغير محتومة بخاتمة إلا بجملة التأريخ لانتهاء من الكتاب وذكر اسم كاتبه وبعضا من نسبه ولهذا المقتضى فإنه مما جاء في فهرس كتاب تحفة الزائر ذكره عناوين أهم مسائل موضوعه ومن ذلك أنه تحدث في أكثر من مائة وعشرين صفحة من الجزء الأول في تاريخ دويلات المغرب العربي كالأدارسة والمرابطين والموحدين والزيانيين، وذلك لأسباب معرفية وليست منهجية فيما يبدو، ككونه أي الأمير إدريسيا، ولما أدركه من آثار

¹ محمد باشا بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ج 2 ص 487.

تلك الدول مثل الزبانيين على صناعة ما صنع من التاريخ مثلما ذكر بعض أخبار ثوار الطرق الصوفية المهيمنة يومئذ على أكثر الجبهة الغربية من خريطة الجزائر، كأخبار محمد بن الشريف وابن الأحرش وذكر من تاريخ التحيني شيئا، ومن ثم توسع في تاريخ التضاد المشترك بينه وبين الفرنسيين وما خاضه من جهاد حرب ضدهم، كما تحلل مضمون الجزء الأول من كتاب تحفة الزائر مسائل دينية كاحتفال الأمير بالمولد النبوي، وفقهية كحكم التخلف عن الاستنفاًر وعقوبة الجاسوس والنصّاب وعدم جواز بيعه النصرارى وجواز الصلح معهم، ثم بدأ فهرس الجزء الثاني من كتاب تحفة الزائر بذكره ركوب البحر بين يدي فرنسا نحو المجهول، ثم تحدث عن إقامته في فرنسا وتركيا ودمشق وذكر بعض ما سُئل من أسئلة وما كتب من كتب، وإن كان أكثر حديث قلم كتاب تحفة الزائر على لسان المتكلم محمد باشا ابن الأمير عبد القادر الذي ذكر من ضمن ما ختم كتابه به قوله، وإني والحمد لله، من صلبه [الأمير] خرجت وعلى يده تخرجت، ثم ذكر من صفة والده، فقال 'وكان رضي الله عنه معتدل القامة عظيم الهامة ممتلئ الجسم حنطي اللون¹، أسود الشعر كثيف اللحية أقي النيف²، أشهل العينين³'، ثم ذكر أنه توفي في الساعة السابعة من ليلة السبت 19 من رجب سنة 1300هـ الموافق لـ 25 ماي 1883م؛ ثم علّق فقال ومن غريب الاتفاق أنه وُلد في رجب وبويع فيه ومات فيه⁴، وإن هذا تأريخ محمد باشا الدقيق لصفات والده وموته يدل على مبلغه من العلم والوعي.

1. أي يُشبه لونه لون القمح.

2. بمعنى احديداب وسط أنفه.

3. يعني امتزاج سواد عينيه بزرقة.

4. محمد باشا بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج 2، ص 504.

2-مذكرات الأمير عبد القادر

لقد جاءت كلمة مذكرة جمعا والأصل ألا تأتي كذلك وإنما تأتي مفردة ولكن لا يُعلم هل ذلك مجرد هفوة لم يُستدرك عليها أم هناك قصد؟ ولعل هذا الآخر أرجح، وأعتقد أنه عندما يكتب العظيم مذكرته بنفسه ويخط يده أو يملئها على غيره ممن حوله يحقق غايات كثيرة منها أنه أدرى بتاريخه وشئونه مع أنه قد يجرجه ذكر نقائصه والبوح بأخطائه فيتركها ليقولها من يشاء من خصومه، ولاسيما وأن القائد المسلم بطبعه شاعر بعدائية ضده له، ولعل هذا مما جعل الآخر يضع ما سُمّاة نظرية المؤامرة، وهي ما اعتبرها البعض وهماً، والأمر ليس كذلك وإنما نظرية المؤامرة حقيقة واقعية أكدت الأحداث وجودها، والأصل في العاقل صاحب التجربة ألا يحكم على الأشياء من خلال الأقوال وإنما من خلال الأفعال، لأن أكثر الكلام يظل ادعاء حتى تثبته البراهين والأدلة أو تنفيه، وتاريخنا لدى الآخر يدخل ضمن هذا وهو ما زعزع الثقة اتجاه الآخر ودعانا إلى قول صواب تاريخنا وترك أخطائه يقولها أعداؤه، ولذا عمدنا في هذه الدراسة إلى قراءة تاريخ الأمير عبد القادر من خلال كتابات جملة مصادر ثقة ذات مواصفات، ووفق شروط مثل مذكراته وكتاب نُحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، بينما نُقرأ كتابات أخرى بجذر ككتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل مع ما رافقه من تعليقات قراءة المترجم الدكتور سعد الله رحمه الله؛ لأنه ليس كل ما يُقال صحيح، ويتصدر موثوق مصادر تاريخ الأمير عبد القادر ما كتبه بنفسه مثل مذكراته، وما كتبه المخلصون له ثم الأمثل فالأمل، كالكتّاب العرب والمسلمين عن الأمير الذين يعتبرون تاريخه بعضاً من تاريخهم وهذا حتى يبلغ الأمر منتهاه، ولا يتوقع أن يذكر العدو عدوه بخير إلا ما استثنى وهو قليل، ولذلك قيل الفضل ما شهدت به الأعداء كما ورد في م ضرب المثل، وكذلك القول ((وشهد شاهد من أهلها))؛ حيث يقل العدل والإنصاف هناك بين المستشرقين والمستغربين بُجاه تاريخ العرب المسلمين وأمثلة ذلك تُعد على رؤوس أصابع اليد كزبيريد هونكه

المستشرقة الألمانية صاحبة كتاب شمس العرب تسطع على الغرب، ولذا كانت مذكرات الأمير عبد القادر من أحسن مصادر تاريخه كما زينها وعزّز قدرها رأي أبي القاسم سعد الله، وهو ما أبداه من خلال تصديده المذكرات من كلام، فرأى من جملة ما رأى أنه لو استشاره ناشر هذا الكتاب لاقتراح عليه الحلقة الأولى في سلسلة يطلق عليها اسم مكتبة الأمير عبد القادر، ذلك لأن ما سطره بسيفه من الحوادث الوطنية والمعارك العسكرية، وبقلمه من الصفحات التاريخية قد عُرف بعضه ومازال البعض الآخر طي الكتمان ضمن وثائق الدول والأفراد، حتى ولو عرف بعضه هو الآخر قليل من الناس مثل أبو القاسم سعد الله الذي يعرف حسبما يصرح أن كل ما كتبه الأمير عبد القادر من تاريخه كتبه سنوات سجنه بفرنسا من ما بين سنة 1848 إلى 1852م، كرسالة ذكرى العاقل وتنبية الغافل، وهو ما تُرجم ونُشر أثناء حياته، وهذا ما عدا كتاب المواقف وديوان شعره، ومن مؤلفاته أثناء سجنه كذلك كتابه المسمى بالسيرة الذاتية، ومن الأسئلة التي كانت ترد عليه أثناء سجنه وأثناء إقامته بالمشرق كأسئلة طلب معرفة دراسته وعوامل تكوينه وما أسرته وما بيئته وما رأيه في مسائل كثيرة، وأسئلة أخرى كانت تُمطر عليه امطارا، وهذا ما اضطره إلى الإجابة عما يُوجه إليه من أسئلة، وكان حفظ من تلك الأسئلة والإجابة عنها نسخة لنفسه، وقد يكون الجواب بقلمه أو بأقلام كُتبتهم ومنهم مصطفى بن التوهامي حتى كان كتاب ذكرى العاقل وتنبية الغافل من ضمن ما أجاب به المستشرقين، ويبدو أنه من تلك الإجابات ظهر كتاب حياة عبد القادر السلطان السابق لعرب الجزائر لشارل هنري تشرشل، وكان الشاهد الأساس على تلك الكتابات ابنه الأمير محمد باشا ذو الميول العثمانية المعادي لفرنسا، ويُخلص من إشكاليات كتاباته أثناء سجنه بفرنسا، وإقامته بين بورصا بتركيا ودمشق بسوريا أن ما تنفرد به مذكراته أو كتاب سيرته الذاتية يتمثل في معلومات تتعلق بحياته وحياة عائلته ومعلومات أخرى ترتبط بتاريخ الإسلام العام والمعارف الحضارية وبعضها

مُقّم اقحاما حسب رأي أبي القاسم سعد الله¹، ولذا تعدّ مذكرات الأمير عبد القادر مصدرا أساسا لتاريخ الأمير، مهما اعترها ما اعترها من أقوال وآراء بحق وبغير حق وكل يُؤخذ من قوله ويُرد إلا صاحب القبر الشريف صلى الله عليه وسلم، ومن هنا استحق مصادر تاريخ الأمير عبد القادر وبخاصة الأساس منها شيئا من الدراسة لبيان قدرها وقيمتها فيما هي أحسن من غيرها فيه.

2-1- مقدمة فريق تحقيق مذكرات الأمير

لقد حقق مذكرات الأمير عبد القادر ثلاثة دكاترة هم محمد الصغير بناني، محفوظ سمّاتي، محمد الصالح ألبون، وراجعهم محمد الهادي الحسني، وقد أعرب هؤلاء على سعادتهم لتقديم مخطوط سيرة الأمير للقارئ ونشرها لأول مرة بتاريخ 1403هـ 1983م التي اعتبرها هذا الفريق وثيقة أولى ومصدرا أساسا في معرفة أخبار مقاومة الأمير عبد القادر لفرنسا، مع ما أصابها من نقائص لكثرة الأيادي التي تناقلتها وقد ظهرت منذ كانت بحوزة جاك شوفالبي رئيس بلدية الجزائر العاصمة زمن الاحتلال الفرنسي، وعنه استلمها الجنرال بواصوني أحد الضباط الذين تداولوا على حراسة الأمير عبد القادر في سجنه في أومبواز بفرنسا وهو من كتب على هامشها بقلم الرصاص وعنه أخذها كرينال الكنيسة في الجزائر تيسي هيري² الذي سلمها هو الآخر إلى وزارة المجاهدين التي سلمتها للمكتبة الوطنية، ومن هناك كتب عنها المهدي البوعبدلي مقالا³، وإلى هذا يكون قد تداول على سند مخطوط سيرة الأمير عبد القادر نحو ثمانية نسخ؛ منها ما هو بخط يد الأمير عبد القادر ذاته، وقد كتبت كل النسخ بخط مغربي قرآني بجزر أسود قد يكون سمق دواية كتابة القرآن العظيم على الألواح التاريخي، وكان يتخللها من حين لآخر اللون الأحمر مثلما في الفصل السادس، وتفاوت

¹. أنظر تصدير أبي القاسم سعد الله لمذكرات الأمير عبد القادر.

². مذكرات الأمير عبد القادر ص15.

³. انظر: مجلة الثقافة عدد خاص رقم 75 صدر بتاريخ رجب / شعبان 1403هـ / ماي / جوان 1983م.

جودة خطوط أيادي من تداولوها، وأكثرها مُشوّهة، إلا ما كان بخط يد بعض من حوله من المتمرسين، الأمر الذي جعل القارئ يشك في وجود دس وتعمد تشويبه، كما كان الأمير يهمس من حين لآخر بتلميحات من تلك المأساة التي كان يعيشها هو وأصحابه، ما يدل على أن اليأس بلغ لديهم وقتئذٍ منتهاه، ومن خلاله وصلت مذكرات الأمير التي بين أيدينا اليوم في سبعة فصول، لكل فصل عيوب تشوّهه وشبهة دس عليه وتعمد الإساءة لمحتوى المذكرات وهي تودع بريد التاريخ لتصل من تصله من أجيال في وضع مريح سهل التناول وليستدرك من يستدرك على ما يراه يستحق ذلك.

2-2-دواعي تأليف مذكرات الأمير

يبدو أن الداعي للتأليف ما طلب منه بيانه من بعض أساقفة النصارى لما جرى بينهم وبين فرنسا في القطر الجزائري أثناء جهاد الأمير والذين معه، ولذا فمخطوط كتاب سيرة الأمير وضع استجابة لطلب بل لطلبات طلبت منه رحمه الله كحرص القبطان تواسوني على معرفة أحواله العقديّة والنفسية وأحوال الذين معه أثناء سنوات السجن، وذلك ليدرسوا من خلالها نفسية الشعب الجزائري ليقبل اعتناق المسيحية أم لا¹ وذلك حتى يتحقق حلم ظل يراود الصليبية، ثم توسعت قراءة أخبار أسئلة الأمير حتى كتب كتابه المقرض الحاد استجابة للطلب الذي طلب منه، ومثل ذلك أخبار زوّاره الذين تماطلوا، عليه وبخاصة الضباط والقساوسة والساسة، بل زاره أيضا وزراء ملك فرنسا لويس نابليون، وكان ممن زاره أيام حراسته القبطان بواسوني الذي جاء بالمذكرات، وكل زوّاره رغبوا في السماع عنه، ولاشك أنهم كتبوا عنه وسألوه، وقد جاء جزء كبير مما جرى بينه وبينهم من حديث في كتابه تحفة الزائر ومذكراته وسائر كتاباته الأخرى، ولذلك فهناك مادة تاريخية معرفية كبيرة عن إقامة الأمير في كتابه تحفة الزائر أحالت على بعضها مقدمة تحقيق مذكراته حتى بذكر صفحتها، وبعد هذا يدخل اجتهاد حديث المقدمة في البحث عن إثبات مكان كتابة المذكرة وجزئيات أخرى

¹. مقدمة مذكرات الأمير عبد القادر مصدر سابق ص12.

تبدو ليست ذات أهمية كبيرة، ثم عاد حديث المقدمة إلى جوهر مضمون المذكرات، فذهب إلى من بين ما ذهب إليه تقييد أخبار ووقائع الحرب التي وقعت بين جيوش فرنسا والمقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر خلال مدة ما بين 1830 . 1847م؛ ولبيان ذلك قسم كتاب سيرة الأمير إلى سبعة فصول، لكل فصل عنوان، وليست الفصول كلها سواء من حيث قيمة الخبر التاريخي، وقد يكون أفضلها الفصل الرابع لبيانه العوامل التي دعت إلى إنهاء المقاومة.

2-3- أسلوب كتابة مذكرات الأمير

حيز أسلوب المذكرات قراءها ومن بينهم القبطان بواسوني الذي أوعز بالكتاب إلى مصطفى بن التهامي لما يعرفه عنه من كفاءة، أو إلى تأليف جماعي حسب ما علق بقلم الرصاص في بعض صفحات الكتاب مثلما يذكر المهدي البوعبدلي¹ ومن أجمل ما جاء في وصف أسلوب الكتابة؛ قول من قال 'لما قرأ مولانا أيده الله مكتوبه واستوعب معانيه، كلفني -أعلى الله مقامه- بأن أجمع ذلك على حسب ما طلب كاتب المکتوب أي باعث الرسالة فأجبتة بالموافقة فقلت إن استقرأ جميع ما طلب واستقصاء كل ما رغب يقتضي انحصار الجواب في مقدمة وسبعة فصول² وهذه مسألة منهجية غاية في التدقيق، وقد جاءت على لسان متكلم نيابة عن غائب، وقد يكون هذا حقيقة، وقد يكون مجرد اختفاء المتكلم، وهو الأمير، خلف ضمير الغائب، ليسند أقواله وأفعاله إلى شخص آخر، وهذا لاستخدام شيء من التورية أو التقية على رأي آخر، وكثيرا ما يلجأ إليه الحكماء حين يكونون بين أيدي أعدائهم، ومثل هذا كمثل استخدام الأسماء بالاستعارة، وتواصل أسلوب الكاتب بنسخ حديثه، وهو يبني جمل نصوصه على نهج الذكاء والحيلة، كما يفصح الأسلوب عن أداء دبلوماسي راق، وذكر تقديم إصدار تحقيق مذكرات الأمير عبد القادر كان سنة

1. مقدمة مذكرات الأمير عبد القادر مصدر سابق ص23

2. مقدمة مذكرات الأمير عبد القادر مصدر سابق ص24

1983م؛ مما يعني أنه جاء بعد مائة سنة من وفاة صاحبها الأمير عبد القادر الذي خلد الدهر اسمه ضمن عظماء الإنسانية، فكان مخطوطا فريدا من نوعه؛ لأن كل جملة فيه ذات قيمة عزيزة نادرة، ومهما تكلم الأمير عبد القادر عن نفسه بعفة وتواضع أو تكلم عنه غيره فلن يوفى حقه، ولعل القارئ المعاصر يجد صعوبة في نيل فائدة هذا المخطوط، فلذلك كان شرحه ضرورة لتذليل ما قد يلاقى من صعاب تحول من دون نيل مبتغاه؛ لأنه كثيرا ما تتكشف أسطر كتابة المخطوط مفردات دارجة وألفاظ محلية انقرض استعمالها ولا يوجد هناك قاموس يرجع إليه لشرحها.

2-4- مضمون مخطوط مذكرات الأمير عبد القادر

من أهم ما فيه ملخص سيرة الأمير عبد القادر كما وضعها رفيقه مصطفى بن التهامي، وهي مليئة بأخباره وأسرار حياته التي ربما لا يعرفها إلا هو وبعض رفقاءه، والتي بنى تاريخها على بيعة شرعية نادرة في تاريخ نظم الدول وأعراف المجتمعات، فالمخطوط من هذا المنظور شهادة مباشرة للنفس بما لها وما عليها، ولذا سيأخذ قارئ مذكرات الأمير عبد القادر خبرا يقينا عن جهاد الأمير عبد القادر والذين معه، وهم من قدر لهم وعليهم مواجهة فرنسا منذ أيام دخولها الأولى الجزائر على مستوى جبهات الجهاد كلها؛ عسكرية وثقافية وحضارية، وقد كان الأمير والذين حرروا البلاد بعده أهلا لذلك. كما سيظهر للقارئ حين قراءة ما ألفه الأمير من مصادر معرفة تاريخية وما ألفه الذين التزموا السير على نهجه، ويبدو أن عرض مادة التقديم أيسر من التعليق عليه، وذلك من حيث المنهج واكتشاف ما يستحق ذلك ولما يتطلبه من ثقافة وإدراكه التعليق بالتصحيح والتنقيح.

2-5- ما تخلل نص سيرة الأمير الذاتية من تعليقات

لا تكاد تخلو صفحة من كتاب سيرة الأمير من تعليق أو شرح أو توضيح ولاسيما منذ الصفحة 33 إلى الصفحة 315 وذلك في نحو 282 صفحة،، مثلما تخللت الرمزية تعليقات كثيرة، كقوله في الصفحة 33 'من عبد الله القبطان فلاق' ويقصد من جاء بطلب الكتابة القبطان

بوسواني، كما كلفت الألفاظ العامية المحقق ضرورة شرحها، فأتعبته كثرتها، كما حرص صاحب الرسالة على مخاطبه الأمير بما يرضيه من الأساليب، مثلما رد عليه وفق منطق الدبلوماسية على قاعدة المعاملة بالمثل (من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها، وكان الله على كل شيء مقبلاً) [سورة النساء الآية 85]، ولذا أخذ قاموس اللهجة العامية من المحقق جهداً ووقتاً، لما يستحقه من دراسة غير هذه الدراسة العابرة على عجل؛ وما ورد في شرح مفردات النص التعريف بمدن ذكرت فيه، كتعريفه معسكر بأنها أم العساكر، والقيطنة مكان مسقط رأس الأمير، إلى جانب شرح مفردات آخر كبيان معنى البايك والمخزن مما سوى التعريف بالمدن، كما عرّف بكثير من الأشخاص الذين أورد أسماءهم¹، وتضمن نص كتاب سيرة الأمير عبد القادر الإحالة وبخاصة على كتاب تحفة الزائر، كما عرف المحقق ببعض جنرالات فرنسا الذين حاربوا الأمير كلما ذكروا، وكشف نص كتاب سيرة الأمير على شيء من ثقافته الواسعة في علوم الشرع والتاريخ، وذلك بما عرضه من استدلالات للأقوال وما يذهب إليه العلماء من آراء، كما كان لتخريج الآيات والأحاديث في النص حظه، وإلى جانب هذا تضمن نص السيرة رسائل مشفرة لفرنسا، ككثرة حديث الأمير عن الظلم وبيان عواقبه، وضرره أمثلة كثيرة بفرعون ونهايته؛ مما يعني قوله لفرنسا أن عاقبتك كعاقبة فرعون، وما أدراك ما عاقبة فرعون، ولهذا كلها دواعي استحققت لأجل بيانها قراءة الدراسة؛ لما تضمنه من أخبار تاريخه والتي أضاف إليها المحقق من ثقافته هو الآخر فوائد؛ حتى باتت مصدراً هاماً من مصادر تاريخ الأمير عبد القادر والذين معه، وبخاصة في علاقته مع فرنسا؛ حيث قال عن نفسه ما لا يستطيع غيره قوله عنه منذ اشتبك معها حين وطأت أقدامها الجزائر إلى أن نُفي إلى إقامته في دمشق رحمه الله، وكم أتمنى أن تعد رسائل جامعية في دراسة مذكرات الأمير عبد القادر لما تتميز به الرسائل الجامعية من منهجية وخبرة المشرفين والمناقشين،

¹. أنظر ص 50 وعرف بالكتب أنظر 53.

ولاسيما مما قد يأتي على هوامش النص من تعقيب، كما أورد بعضه تحقيق مذكرات الأمير، وقد أورد صاحب التصدير أبو القاسم سعد الله وصاحب التقديم عبد المجيد مزيان وفريق التحقيق شيئا من الأخبار التاريخية والتعليقات المنهجية على هامش صفحات نص الكتاب فوائد كثيرة تعد إضافات معرفية جيدة تحت آخر سطر من ورقة الصفحة.

2-6- شيء في دراسة مذكرات الأمير عبد القادر

لقد دَبَّج نص تحقيق مذكرات الأمير عبد القادر أو سيرته الذاتية بثلاث مداخلات لذوي علم أكاديمي واهتمام تاريخي ممن قد يُعدون من حراس تاريخ الوطن الجزائري ومقوماته، وذلك لقيمة وثيقة هذه المذكرات المعرفية والتاريخية المتضمنة أخبار عزيزة نادرة، ولما مرت به من أوضاع، باعتبارها وثيقة هامة وعلى قدر كبير من الأهمية، ومن ذلك أن بعضها كُتِبَ بخط يد الأمير عبد القادر في نحو 47 صفحة من نحو 226، مجموع عدد صفحات المخطوط¹، وبعضها الآخر بخطوط كُتِبَتْه كمصطفى بن التهامي، ولهذا كان الاهتمام بمذكرات الأمير عبد القادر الرسمي وشبه الرسمي كبيرا، وهو ما بينه بعضه الأساتذة الذين قدموها وصدوا لها.

2-7- تصدير الدكتور أبي القاسم سعد الله

لقد صدَّر أبو القاسم سعد الله مذكرات الأمير عبد القادر بتمهيد قبل الخوض في قراءة مضمونها؛ فكان أن جادت ثقافته بأخبار عزيزة تُنبئ عن اطلاع واسع ودقيق على شؤون تاريخ الأمير، ومتابعة مستمرة له، ترصد كل طارئ جديد عليه وعلى تاريخ الجزائري بصفة عامة؛ ولذا فقد أحسن صنعا الذين أوكلوا له مهمة تصدير تحقيق هذا المخطوط القيم النادر الناجي من عاديات الدهر ونوائبه بقدر الله.

¹. مذكرات الأمير عبد القادر ص 14

2-8- تقديم الدكتور عبد المجيد مزيان بصفته وزيرا للثقافة

يعد الدكتور عبد المجيد مزيان هو الآخر كفاءة علمية مقتدرة في مجال تخصصه الفلسفي، وهو ما يمكنه من تقديم هذه الوثيقة بما تمثله من قيمة تاريخية في ذاتها وقيمة صاحبها، حيث مسّ المذكرات مسا خفيفا في جانبها الشكلي اللغوي، كإبرازه لبعض مفردات البيئة الجزائرية يومئذ التي وظفها الأمير عبد القادر وبعض كُتّاب المذكرات من حوله، قبل أن يتحدث عن نص سيرة الأمير عبد القادر التي كانت بين يديه، حيث كشف أن كتابتها جاءت استجابة من الأمير لمن سأله عن حياته، وكيف نشأ وما عوامل نشأته وتكوينه وما أساليب حربه في كره وفره؛ بينما طرق أبو القاسم سعد الله الذي جاء تصديره في أربع صفحات ونصف جانب الخبر التاريخي فجاء بعزيم نادر مجهول منه، ولكن عبد المجيد مزيان لم يهتم بذلك لأنه يبدو أنه ليس له فيه باع كباعه في الفلسفة التي لو قدم لكتاب في تخصصه لأجاد وأفاد أكثر.

ثم بعد هذه القراءة في عرض مذكرات الأمير عبد القادر أتمنى أن أكون قد يسرت على القارئ المزيد من القدرة على فهمها واستيعابها، وترك له فرصة التعمق في قراءة المذكرة أكثر فأكثر، حيث سيعرف المزيد ويسير من غورها الكثير، وينال ما لم ينله مما عرض عليه باعتماده على نفسه وتوكله على ذكائه بعد توكله على الله، وهذا هو قصد العارضين لهذه المذكرات بالتصدير والتقديم والتحقيق وتعليق التهميش.

3- كتاب المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف

من المعلوم أن الأمير ألف كتاب المواقف إذا صح نسبة إليه في آخر حياته، ولا أخوض في جدل التشكيك في نسب كتاب المواقف لصاحبه كما ذهب البعض إلى ذلك كحفيدته الأميرة بديعة الحسيني الجزائري، لأقول إن هذا الكتاب تأمل فكري معرفي تجريدي، يمثل صفحة أخرى من صفحات جهاد الأمير نفسه في آخر حياته، وقد هدأت بين جنباته حرارة دم الجهاد؛ بمعنى القتال،

لتوالي عاديات الدهر عليه وتقدم سنه وانطواء أكثر عمره، حيث أضحت أعز أيامه وشبابه من الماضي، ولذا فإن كتاب المواقف يعد صفحة أخرى من تاريخ حياة الأمير عبد القادر بات يرغب قراءتها من وافقت هواه ويؤوها من له حاجة في ذلك، ولذا فإن من يستمر يمثل تاريخ الأمير الحق كتاب سيرته الذاتية و تُحفة الزائر، ولا أخوض في جدل التشكيك في نسب كتاب المواقف لصاحبه كما ذهب البعض إلى ذلك كحفيدته الأميرة بديعة الحسني الجزائري، ولكن مع كل يُقال عن كتاب المواقف يظل يُمثل صفحة أخرى من صفحات تاريخ الأمير عبد القادر، وهي صفحات كثيرة، ولكن أهمها في نظري صفحة المعارك الحربية التي نهض تاريخه عليها أول مرة، مثلما هي اليد الطولى فيه وبها عُرف، وقد سجل أكثر أخبارها كتاب سيرته الذاتية و تُحفة الزائر، وإلى جانبها صفحة الأدب والشعر في بعض أغراضه كغرض الحرب والفخر والحماسة من ديوانه وخطبه ورسائله التي ألبتها لغته لبوس أدبي راق مما خطته يده ونُقل عن مشافهته زمن عدم وجود التسجيل الصوتي؛ لأن الأمير تربي فنشأ على لغة عربية فصيحة بليغة؛ وهناك صفحة أخرى في تاريخه على درجة من الأهمية، هي صفحة علمه الشرعي، وهي ما بنى عليها مشروع دولته الجزائر، باستقلالية تامة عن نظم يومئذ، كنظام الترك في آخر أيامه وطلائع نظم الغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وأحسب أن الصفحة الشرعية المباشرة من تاريخ الأمير غير مُطلع عليها بقدر كاف، ويمثل كتاب المواقف جزءا هاما من مادتها المعرفية، وكذلك ما قيل عن بيعته الأولى والثانية وعمل مجلسه الشوري ونظامه ونظام وزارته وإدارتها، وأحسب أن عالم صفحات تاريخ الأمير هذه لم تُولج أبوابه، إلا قليلا، فمازالت قابلة لقراءة أكثر، وللأمير في كتاب المواقف نظرات في تفسير بعض الآيات وشرح بعض الأحاديث، وبعضها منقول عن سبقه من العلماء، ويجد كل من يقرأ كتاب المواقف بتأمل متعة بالغة، لما تفرد به عن سائر الكتب، في وقت عزت فيه الكتابة والتأليف الجديدة وفي هذا أقترح عنوان سيرة الأمير عبد القادر الذاتية دراسة وتحليل، ومثل هذا دراسات في كتابي تُحفة الزائر

والمواقف أما ذكرى العاقل وتنبيه الغافل وكتاب المقرض الحاد فقد سمعنا محاضرات شتى قُدمت فيهما أثناء ملتقيات تاريخ الأمير عبد القادر كما أنهما ربما لا يرقيان إلى مستوى الرسائل الجامعية لقلّة مادتهما المعرفية ولاسيما قد ظهرت هذه الكتب الثلاثة السيرة الذاتية وُحفّة الزائر والمواقف أخيراً في أبهى الطباعات وأجملها مثلما صدر كتاب المواقف في طبعة سنة 1439هـ . 2018م على يد مؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري الدولية للثقافة والتراث تحقيق وتقديم الدكتور بكري علاء الدين أما عن الكتاب، فبعد التقديم جاءت كلمة المؤسسة التي عبّرت عن سرورها بتقديم كتاب المواقف للقراء والباحثين التي اعتبرت الكتاب فكرة تصوف رئيسة ثم بيّنت شيئاً من جهد الدكتور بكري علاء الدين في تحقيق كتاب المواقف وقد عدّ لذلك عُدتته في استقصاء نسخ مخطوطاته ومطبوعاته ومقابلته بين هذه وتلك، ثم أثنى عمله بموامش وتعاليق جمّة أنارت كثيراً من جوانب الكتاب، وأعرت المؤسسة من خلال قلم صاحب كلمتها عن اطمئنانها لهذه الطبعة لكتاب المواقف التي وضعت في سياقه التاريخي العلمي الصحيح وكشفت عما اشتمل عليه هذا الأثر من علم الأمير عبد القادر وشعره وفكره الصوفي ومنهجه العقلي المستند إلى نصوص القرآن، من غير شطحات الطرق الصوفية مثلما بيّنت كلمة مؤسسة الأمير عبد القادر أن كتاب المواقف كتاب الخاصة، وأنه موجه إلى النخبة، كما تمتت المؤسسة أن يجد الأدباء فيه من بدائع شعره مادة أدبية غنيّة جديرة بالدرس والتحليل.

وتحت عنوان حول مواقف الأمير عبد القادر الجزائري كانت مقدمة التحقيق التي ذكر خلالها شيئاً من حياة الأمير عبد القادر ورحلته إلى الحج برفقة والده الشيخ محي الدين، ثم ذُكرت بعض أبرز معاركه وبيعته الأولى وتنظيم صفوف طلائع المقاومة، واعتمد الكاتب كتابي الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري للدكتور يحي بوعزيز و تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر

لمحمد باشا بن الأمير عبد القادر مصدر أخباره¹، ومدد المحقق في المقدمة حتى بلغت اثنين وأربعين صفحة، ومن أهم ما ذكرته من عناوين مؤلفات الأمير عبد القادر التي عرّف ببعضها، ثم عرف بكتاب المواقف، وبعد ذلك دخل في الدراسة حتى بلغت هي الأخرى مائة وست صفحات مسّ خلالها جوانب كثيرة من موضوعات كتاب المواقف ومن حوله، فأبان عن بعض أخباره كاستغراق إعداده من مؤلفه الأمير عبد القادر أكثر من ربع قرن، وقد ورد فيه ثلاثمائة واثنين وسبعين موقفاً ومقدمة؛ حتى كان - في نظر المحقق - أفضل مؤلفات الأمير عبد القادر، وأما عن موضوعات مواقفه فهي في آيات قرآنية، ولعلها أكثر موضوعات المواقف، ورافقتها أحاديث نبوية قد تكون أقل من الآيات، وكذلك الأقوال المأثورة التي لم تأخذ من الكتاب المساحة ذاتها، وإنما تفاوتت في تضمينها نظرات علمية في العقيدة والفقه، ولاسيما حين تتعلق ببعض الآيات، ولكن يبدو أن القارئ يُصر على أنها مواقف صوفية؛ حيث يُبنى ذلك على ما يُصرح به المؤلف الأمير ذاته، كقوله أخذني الحق عن نفسي وأخذني الحق عن العالم، وكقوله ألقى إليّ ثم ردي بعد أن ألقى إليّ، مثلما تحدث عن المشاهدة والكشف والمبشرات، وأثناء الكتاب يصرح الأمير عن بدء علاقته بالتصوف، وأنها قديمة منذ صباه، حين كان يقرأ لكبار المتصوفة، فيصف حاله؛ فيقول كنت مغرماً بمطالعة كتب القوم منذ الصبا غير سالك طريقهم، فكنت أثناء المطالعة أعرّ على كلمات تصدر عن سادات القوم وأكبرهم يقف شعري وتنقبض منها نفسي²، وهذا ما يعني أنه رحمه الله كان مُطلعاً على أفكار التصوف وأخباره ولكن لم يكن صاحب سلوك.

ومن الشائع أن طبعة كتاب المواقف الأولى كانت سنة 1329هـ 1911م ولو تداول الكتاب قبل هذا التاريخ كثيراً مخطوطاً بين أيادي النساخ وذلك مما قد يكون حاله بينه وبين الفقد

¹. الأمير عبد القادر المواقف ص 10

². الأمير عبد القادر لمواقف ص 17.

والضياع ومن ثم طار الكتاب بين المطابع، ويستدرك الدكتور علاء الدين بكري على التاريخ ويرى أن طبعة كتاب المواقف الأولى كانت سنة 1344هـ 1926م على يد أحد المحسنين على أن يُهدى للعلماء والباحثين ولا يُباع¹، وقد صار كتاب المواقف في ذاته مادة تاريخية ولاسيما وأنه إضافة هامة لفكر التصوف، حيث احتضنته المتصوفة على أنه يخدم قيمهم ومبادئهم ويكثر قراءهم، نظراً لما للأمر من اهتمام واسع لدى الناس ومصداقية عندهم، ومن هنا لا بد أن يدخله الرأي والرأي الآخر، ويُقال فيه الصحيح وغير الصحيح ويُصيبه ما يُنقص من قدره من خصوم صاحبه وفكرته، كما يظهر بالضرورة من حين لآخر من يُسانده ويزيد في قدره، ككونه كُتب أول مرة بخط يد صاحبه وأنه عزز قدره تعليقات كبار علماء دمشق يومئذ، وهي تزكية له وإضافات هامة ولعل النسخة الأصل الأولى مازالت ترقد في مكتبة الظاهرية بدمشق ولطبعت كتاب المواقف بالجزائر هي الأخرى مالها وما عليها لأنها مسقط رأسه ولو أنه لم يطبع أول مرة إلا سنة 1996م كما طُبع في بيروت والأصل في طباعة بيروت تجاري ولم يخل حظ القاهرة من طباعة كتاب المواقف ومن ما مست به طبعة القاهرة كتاب المواقف استلال الموقف رقم 248 من نص الكتاب العام ونشره كتاباً مستقلاً سنة 2004م²، وأعتقد أن هذا الكلام لا يينه اشكالية كتابات الأمير عبد القادر ولا كتاب المواقف منها بصفة خاصة.

4-ديوان الشعر

أعتقد أن ما عُرف بديوان الأمير عبد القادر الشعري لا يتضمن شعره كله؛ بل يوجد كثير من شعره مُبعثراً بين مؤلفاته الأخرى، وبخاصة تحفة الزائر، إضافة إلى أن لغة الأمير عبد القادر ومن معه من العلماء لهم أدبيتها وأساليبها، حسب ما جاء في مقدمة تحقيق سيرته الذاتية التي تعد بذاتها

¹. المواقف للأمير عبد القادر تحقيق بكري علاء الدين ص 19.

². كتاب المواقف تحقيق علاء الدين بكري ص 20

عملا فنيا أدبييتا جديرا باحتلاله موقعا ضمن الأعمال الأدبية، رغم ما تخلل النص من ألفاظ عامية جزائرية وربما بعضها شامي مما قد يُشعين زينة النص وجمالية سلاسة سرديته الأدبية، ولعله لهذا سُمّي الأمير كتاب سيرته الذاتية ديوانا؛ لأنه نُحج في أسلوبه نُحج أهل الأدب الذين ينتقلون من حال إلى حال بحثا عن الترويح عن النفس ويقتطفون من كل شيء بطرف من أجل الغاية ذاتها¹، وهكذا يكون الأمير قد أدى واجب السيف وخلاله ومن بعده أدى واجب القلم فخدم أغراضه ومنها اللغة وأساليب البيان العربي فشارك ولو ربما من غير قصد في وضع ارهاصات الأدب الجزائري المعاصر، وبذلك أسهم في صنع ملامح مستقل الجزائر الحضاري من وجهته الأدبية إلى جانب أوجهه الأخرى، وهذا ما يُفصح عن اطلاع الأمير وكثير من الذين معه على مصادر كثير من مصادر الأدب العربي، ولاسيما الأمهات المتداولة يومئذ، كما يُبين اهتماماته الأدبية، وهذا ما بيّنه مُحقق ديوانه ممدوح حقي، ولعله أول مُحقق لديوان الأمير، وقد صدرت طبعته الأولى بدار اليقظة ببيروت سنة 1960م، ثم نُشر في طبعة ثانية سنة 1964م تحت عنوان ديوان الأمير عبد القادر الجزائري شرح وتحقيق، ومن جميله أنه وضع القصائد في موضع سياقها، ببيانه أكثر مناسبة قولها، حسب اطلاعه وخبرته؛ ثم كان تحقيق زكريا صيام سنة 1986م ولذا كانت لقراءة تحقيق الكتب فوائدها.

ويبدو أن ممدوح حقي الكاتب السوري كان متأثراً جداً بتاريخ الجزائر وتاريخ الأمير عبد القادر وثورة التحرير، وذلك لقرب المكان والزمان حيث صُنِع بعضه بمسقط رأسه سوريا، وكذلك تأثر بتاريخ ثورة التحرير الجزائري التي واكب أحداثها، ومن خلال قراءة عاجلة في مقدمة الديوان تظهر فوائد تحقيق ممدوح حقي في هوامش شرح الديوان؛ حيث التقطت هوامش شرح أخبار كثيرة وهامة، التي اكتسبها من محيط حياته، فقد عاش حيث عاش الأمير بدمشق، ومن المرجح أن دمشق كانت تعج يومئذ بأخبار الأمير عبد القادر فكانت الرواية الشفوية مصدرا هاما من مصادر شرح

¹. مذكرات الأمير عبد القادر ص 26.

ممدوح حقي لديوان الأمير عبد القادر، حيث أصبغ عليها من ثقافة بيئته كما أصبغ عليها محققون آخرون من ثقافة بيئتهم وهذا ما يستحق قراءة من خلاله.

كما أنه لا شك أن هناك دافع دفع زكريا صيام إلى تحقيق ديوان الأمير، مثلما يُفترض أنه اطلع على تحقيق وشرح ممدوح حقي وأنه وجد فيه ما ينبغي أن يُقال ولم يقل، ولذلك أقدم على تحقيقه 1986م وقد صار وضع تاريخ الأمير عبد القادر غير وضعه السابق سنة 1964م، مثلما وضعه في بيئة الجزائر هو الآخر غير وضعه في بيئة سوريا وثقافة الجزائر زمن تحقيق زكريا صيام غيرها زمن تحقيق ممدوح حقي ومثل ذلك سوريا ودمشق بخاصة ولو لكل نكهة تجربته التي بصمت تحقيقه ووجهة نظره في نص الكتاب وصاحبه وكل مولي وجهته قبلتها وهذا ليس في ديوان الأمير الشعري وإنما في كل كتبه بل في كل كتاب يُكتب أو يؤلف.

5-المقراض الحاد في قطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد

يبدو مخطوط كتاب المقراض الحاد أنه قد كتب بخط مصطفى بن التوهامي، وهذا ما يعطيه قيمة علمية رفيعة؛ لما لابن التوهامي من كفاءة ومن مكانة عند الأمير عبد القادر وعند قارئ تاريخه وعارفه بصفة عامة، حيث أوكل له الأمير عبد القادر من المهام أثقلها وأخطرها كاستخلافه له على مدينة معسكر سنة 1836م وكتوليته مهمة مفاوضة الطريقة التيجانية سنة 1838م والتي ناوأَت الأمير عبد القادر بشدة، وعلى كل حال فإن كتاب المقراض الحاد هو أول كتاب يؤلفه الأمير عبد القادر، وقد أخذ من عمره الشريف ثلاث سنوات، وكان مكان تأليفه سجن امبواز بباريس، وموضوعه الرد على مُنتقدي الإسلام من الكتاب الفرنسيين، ومن موضوعاته الجزئية: تعريف العقل، ومراتب النظر، وتفاوت الإدراك بين الناس، ونقد نظرية الفيض أو الفيوض الفلسفية، وبذلك تبنى نظرية ابن عربي التي تقول بالتحلي وتُنكر القول بالفيوض، ووضع بابا لإثبات الألوهية وطريق معرفة الله، ثم تحدث عن النبوة، وفي الباب الثالث تحدث عن الأخلاق؛ ثم استفاض في ذكر سيرة القائد

صلاح الدين الأيوبي¹، والثقافة الأوربية، ومنها الثقافة الفرنسية فقيرة في هكذا موضوعات وردت الكتاب، وهذا من أكبر نقائصها، ولذلك تُستبعد فرضية توفير فرنسا مكتبة للأمير عبد القادر، إن لم تكن صادرت ما كان بين يديه منها حين أسره، وهو ما يبرر التساؤل عن مصادر استدلالاته بأقوال كبار العلماء على ما ذهب إليه من آراء ومواقف؟، فهل كانت له مطالعات أيام جهاده بالجزائر، أم اكتسب ثقافة ذلك يوم كان طالبا في زاوية والده بمعسكر، أو أيام قراءته بوهران؟! أم أن أساس مطالعته المعتمدة فيما ذهب إليه من بيان ورأي موهبته رباني ربما يدخل ضمن كراماته الكثيرة رحمه الله.

6- كتاب ذكرى العاقل وتنبية الغافل

وهذا أول وآخر كتاب ألفه الأمير عبد القادر في مدينة بورصة التركية سنة 1271هـ 1855م؛ حيث استقر به المقام وطاب له الحضور، وعرض من موضوع كتابه هذا بعض معارفه الفكرية التاريخية؛ ومن جملة موضوعاته: بيان فضل العلم، والعلم الشرعي منه بخاصة، وفضل الكتابة والتأليف، وجوهر الكتاب في فكرته الرئيسة رسالة موجهة إلى المستشرقين، ولعله لذلك تُرجم بسرعة من قبلهم إلى اللغة الفرنسية بعد إصداره مباشرة، ونُشر ببيروت سنة 1855م، ثم أُعيد نشره بباريس سنة 1857م تحت عنوان رسالة إلى الفرنسيين، ثم نُشر بدمشق بتحقيق ممدوح حقي²، ومما يدل هذا عليه التأليف أن الأمير عبد القادر كان يُتابع حركة الحياة السياسية والفكرية العسكرية وغيرها، ولم يكن غافلا عما يجري حوله، كما كان مُهتما به هو الآخر حيث كان على عين أصدقائه وأعدائه، ولألفاظ الكتاب دلالتها، ومن ضمن ما تعنيه بصفة عامة التذكير والتنبية، وكل موجه وجهة يضمها صاحبه وربما يصرح بها.

¹. المواقف تحقيق بكري علاء الدين ص 15

². بكري علاء الدين المواقف ص 16، 15.

7-الكتابات حول سيرة الأمير، من ذريته وغيرهم من جزائريين وعرب وعجم

إن الكتب الأولى التي كتبت عن تاريخ الأمير عبد القادر مع تاريخ الأتراك هي مصادر مباشرة لتاريخ الأمير مُستمدة مادتها من الواقع المباشرة، ومن هذه الكتب طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر للأغا بن عودة المزاربي؛ حيث تناول صاحبه في الجزء الثاني قسطا من تاريخ الأمير عبد القادر، وأفسح له في مجال الكتاب من صفحة 95 حتى بلغ الصفحة رقم 254، ومثله كتب أخرى كان دأبا طلوع سعد السعود، وهي مصادر أساس مباشرة في تاريخ الترك، وإلى جانبه تاريخ الأمير عبد القادر ضد فرنسا، وهذا تاريخ كان أكثره حينئذ مبثوثا بين الناس يداولونه بينهم في ندية ربما متكافئة كرواية شفوية وليس صغير عن كبير وحفيد عن جد، أو مخطوطة.

7-1- ما قالته الرواية الشفوية

هذه الروايات قليلة تنوسي أكثرها لذهاب أصحابها دون أن يدونوها، وقد كانت تزخر بهم الجزائر وبخاصة منطقة معسكر مسقط رأس الأمير وما جاورها، وإن مازالت تتناقل الرواية الشفوية عبر تاريخ العائلات أخبار تاريخ الأمير والذين كانوا معه، وهو ما يذكر بعضه أثناء المجالس ولقاءات ذكريات أيام الأمير عبد القادر وبخاصة من خلال أقاربهم الذين كانوا معه.

7-2- ما تحفظه المخطوطات من تاريخ الأمير

مازال الباحثون يعثرون من حين لآخر، وخاصة من ذوي الاهتمام بالمخطوطات، على شيء من تاريخ الأمير عبد القادر، رغم أن بعضها قد نشر؛ لأن للمخطوط أكثر من نسخة واحدة لكثرة النسخ، علاوة على مخطوطات الرسائل التي كانت بين الأمير وغيره، سواء أثناء مرحلة حملته السلاح في الجزائر، أو أثناء تواجده في المنفى سجنه بفرنسا أو بورصة بتركيا أو دمشق، وفي هذا السياق عثرت على رسائل بين الأمير عبد القادر أثناء حربه والطريقة التيجانية، وجوهر مضمونها

إعفاء أتباع الطريقة ومريديها من دفع الزكاة، والضريبة إلى حكومة الأمير، وكذلك على بعض مراسلاته إلى الزاوية القاسمية بالهامل، ومضمونها الإعراب عن الود والاحترام المتبادل بينهما، كما أن لي مراسلة بين أهلي وبين الأمير سأنشرها في موقع ما من كتاباتي، هي وسواها إن شاء الله.

7-3- كتابات ذرية الأمير تاريخه

لقد كان العلماء من ذرية الأمير الذين حملوا القلم فلاذوا عن التاريخ وأفكاره فحسوا أنهم مسئولون أمام التاريخ أكثر من غيرهم، ولو أن مسئولية حفظ تاريخ الأمير وغيره ليست مسئوليتهم وحدهم لأن تاريخه ليس ملكهم فقط وإنما ملك للإنسانية جمعاء وليس حكرا على جهة ولكن حق ذوي القربى وواجبها أولى ولذا فإن الذين نافحوا ومازالوا يُنافحون عن تاريخ الأمير عبد القادر كُثر ومنهم بعضٌ من ذريته بل حتى من ذرية ذريته لما يدعو إليه انتماء النسب عند ذوي الوعي من شعور بالمسئولية ربما زائد عن عما سواهم.

أ- الأمير خالد بن الهاشمي

قد يكون للأمير خالد حسب ما يُذكر عنه نصيب وافر من شجاعة جده عبد القادر بل حتى من مزاج طبعه الحاد ولذا ظل لسانه رطب بذكر تاريخ جده ومن طبيعة الحفيد جعل جده قدوته مهما اعتراه من نقص وضعف ولاسيما والحفيد خالد ليس ببعيد من عهد جده.

ب- الأمير سعيد

وُلد الأمير سعيد سنة 1883م بدمشق ومات بالجزائر سنة 1968م وهو نائر كابن عمه الأمير خالد الذي ناضل على أثر نضال جده ويذكر مآثره ويسعى للاقتداء به وهو من أوعى ذرية الأمير برسالة جده، وظل كذلك لكن أكثر تاريخه شفويا حتى حين كتب مذكراته وعنوانها مذكرات الأمين محمد سعيد الجزائري نشر مؤسسة الأمير عبد القادر الدولية للثقافة والتراث، ولم يكن حظ تاريخ الأمير فيها كبيرا وإنما ملأها بموضوعات أخرى وهي في نحو أربعمئة صفحة.

ج- الأميرة بديعة

قد تكون هي أكثر نساء ذرية الأمير نشاطا ومتابعة لتاريخ جدها الأمير، وأكثرهم اهتماما بشؤونه، حتى كتبت في تاريخ جدها كتبا بديعة، ولم يُعرف عن الأميرة بديعة الحسيني الجزائري نشاط سياسي أو اجتماعي واضح، وإنما ما عُرف عنها العمل الثقافي، وبخاصة التاريخي منه، ولعله الأفضل لحاجة المجتمع في نظري إليه أكثر من غيره، وقد كان لها منه أو فيه تأليف كتب مثل كتاب ناصر الدين الأمير عبد القادر الجزائري بن محي الدين سيرته الجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر نشر دار السلام دمشق سنة 1992م...، وتقول أنها ما لبثت من الانتهاء منه حتى جال خاطرها بأبحاث أخرى عن حياة أبناء الأمير، وتقول إنها بدأت تتناول بالبحث سيرة كل فرد منهم، ولا يجب أن يغيب عن الأذهان سيرة هؤلاء الرواد، ومن الذين تناولتهم من ذرية الأمير بالدرس والتحليل: الأمير عز الدين، والأمير عمر الحسيني الجزائري، والأمير عبد المالك، والأمير محمد الباشا، والأمير محي الدين الباشا، والأمير علي الباشا، والأمير عبد القادر الحفيد، أو الأمير عبد القادر الصغير، والأمير الأمين سعيد، ولها كتاب يُسمى الجذور الخضراء وصادر بدمشق سنة 1994م بتقديم من الدكتور شوقي أبو خليل، ولعلها تقصد بالجذور الخضراء أصول الأمير عبد القادر.

ومن كتبها: كتاب عنوانه دراسة لكتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر وهو ما صدر سنة 1430هـ 2009م، وكتاب آخر عنوانه فكر الأمير عبد القادر الجزائري، وتمتعت الأميرة بديعة بسمعة طيبة، ولكن نفيها نسبة كتاب المواقف للأمير عبد القادر جرَّ عليها نقداً؛ لاسيما حين اتهمت بأنها دُفعت إلى ذلك من قبل من يخالفون المتصوفة الرأي، وأنها مدت نقدها إلى بعض ممن له صلة بكتاب المواقف، كمؤلف كتاب حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر الشيخ عبد الرزاق البيطار، وهو شخص له علاقة تاريخية وفكرية بكتاب المواقف

وصاحبه¹، وبالغت في نفي كتاب المواقف عن صاحبه؛ حتى اعتمدت على خبراء محلّفين لإثبات ذلك، كما جمعت تواعيع من نحو أحد عشر شخصا ممن وافقها الرأي؛ منهم: خمسة من ذرية الأمير عبد القادر، كشهادتهم أن النسخة الأولى ظهرت مخطوطة بعد موت الأمير عبد القادر بثمانية وعشرين، سنة بخط مشرقى لا بخط مغربى²، ولكن يبقى الثابت من الأمر أن الأمير من زاوية وطريقة صوفية وليس له مذهب فكري سوى التصوف.

ويعد الدكتور خلدون المكى الحسينى ممن ردوا على الذين أنكروا نسبة كتاب المواقف للأمير عبد القادر؛ حيث أدلى بدلوه في هذه المسألة بعلم ودراية؛ مما يعني أنه مُتابع مهتم بتاريخ جده مع أنه طبيب غير دارس للتاريخ بقدر كاف، ولكنه رأى أنه لا يمكن نفي التصوف عن الأمير، وبذلك خالف ما ذهبت إليه الأميرة بديعة التي نفت تأليف كتاب المواقف عن جدها ونسبته إليه³، وليس رأي الدكتور خلدون استثناء في هذه المسألة، وإنما هو رأي إلى جانب آراء أخرى، رأى بعضها أن مؤلفه هو الشيخ محمد الخاني صديق الأمير الذي أمّ المسلمين في الصلاة عليه، وأحد نُسّاخ كتاب المواقف الأولين، والذي عُرف بإخلاصه الشديد وحبه الوثيق للأمير، ولكن ما يهم الأمر أكثر في مسألة نفي نسبة كتاب المواقف إلى الأمير من عدمه في هذا الموقع من هذه الدراسة، رأى ذرية الأمير في المسألة حيث هم أدرى بالأمر ومصدر أساس فيها، لما يتابعه لمتقفون منهم من دقيق أخبار الأمير رحمه الله.

¹ . المواقف ج 1 ص 61.60.

² . المواقف ج 1 ص 59.58.

³ . المواقف للأمير عبد القادر تحقيق الدكتور بكرى علاء الدين ص 54...55.

7-4- كتابات المؤرخين الجزائريين

يبدو أنه ما من مؤرخ جزائري إلا وكتب شيئاً في تاريخ الأمير عبد القادر أو عنه، ولو تفاوتت الكتابات في ذلك بينهم مثلما تباينت آراؤهم فيما شاب تاريخه من شبهات؛ حسب مصادر قراءتهم ومداس اطلاعهم وقد تعددت بين يدي المؤرخين الجزائريين مداس التاريخ وأيديولوجياته، ولذا ليس المؤرخون الجزائريون مثل غيرهم؛ سواء فيما كتبوا عن الأمير وغيره؛ وسواء من حيث الوفاء للأمانة العلمية، أو من حيث توفير الخبر وتوثيقه، ولا من حيث الأسلوب والصياغة، ومسائل أخرى، وإني لمجتهد في اختيار أحسن ما كُتب عن الأمير من بين كل الكتاب قدر ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وفي هذا أحسب أنه من خير من كتب في تاريخ الأمير عبد القادر من المؤرخين الجزائريين وأكثرهم اهتماماً بتاريخه قائمة هي من عُرفت بالوطنية والإخلاص للقيم الإنسانية.

أ-الدكتور أبو القاسم سعد الله

لعل جوهر ما كتبه ما جاء في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ومن ترجمته كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل، وتصديره مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق كل من محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح أيجون، وكان أبو القاسم سعد الله من حين لآخر يطلع على القارئ بجديد نشر ترجمة وثائق، أو إخراج مخطوط كان مدفوناً مهجوراً بالفناء، أو مقال موضوع نادر الكتابة عنه، ومن ذلك ما نشره في مجلة الأصاله خلال عقدي سبعينيات القرن العشرين الميلادي وثمانينياته؛ كمقاله عن العلاقة بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر، من خلال قصيدة تتحدث على أن الشاذلي القسنطيني قد زار الأمير عبد القادر في أول سنوات سجنه في امبواز بفرنسا نحو سنة 1849 أو 1850م، وذلك بإيعاز من فرنسا لمؤانسة الأمير، وكان الشاذلي قاضياً لدى فرنسا وتثق في ولائه لها، كما أنه كان عالماً من علماء الجزائر يومئذ، وأديباً، فكانت مهمة الشاذلي في نظر أبي القاسم سعد الله كأنها تليين عريكة الأمير عبد القادر، ورفع معنوياته،

وتخفيف حدة طبعه ورأيه في الحضارة الغربية، وبذلك كانت مهمة الشاذلي نحو الأمير مهمة سياسية، وليست مهمة إنسانية، ولكن مهما كان الأمر فإنه حسب رأي أبي القاسم سعد الله فقد توطدت العلاقة بين الأمير والشاذلي، فتعددت الزيارات بينهما، لما كان يتردد الشاذلي على باريس، وذات مرة مرض فأصيب بالكآبة فكان الأمير يواسيه بشيء من الشعر، فصارت مهمة الشاذلي الإنسانية نحو الأمير هي مهمة الأمير نحوه، والله في خلقه شؤون، لاسيما وأن الشاذلي أصيب بغرام فتاة فرنسية فعذبته، فآنسه الأمير، وأية مؤانسة لما بادله به من شعر قاله الشاذلي عن حاله وعن علاقته بتلك الفتاة الفرنسية الشقراء¹، وعلى كل فإن المسجلات الشعرية بينهما تظهر أن الأمير كان يسمع عن الشاذلي قبل زيارته له سنة 1849 أو 1850م ويرغ في لقائه، ومثل ذلك كان الشاذلي، ولكن لم يكتب لهما اللقاء في الجزائر، حتى كان اللقاء في فرنسا بعدما شاء الله، ومن أهم ما يميز ما كتبه أبو القاسم سعد الله عن هذه العلاقة بين الأمير عبد القادر والشاذلي القدرة على قراءة العلاقة والاستنتاج الفكري التاريخي والسياسي والذكاء في فهم النص؛ حيث يكشف من خلالها الخبث الفرنسي، وهذا مما يعطي لقراءة حدث العلاقة قيمة كبيرة، فيدعو إلى قراءة ما كتب أبو القاسم في تاريخ الأمير رحمه الله، واعتبار كتابته مصدرا هاما موثوق الخبر والفكرة، وقد أخذ بعض أخبار كتابته هذه وغيرها من كتاب تحفة الزائر، مما يعني أن تحفة الزائر كان مصدرا معتمدا موثوقا لدى أبي القاسم سعد الله، وهذا تركيبة له، وإن لم يغفل المصادر الفرنسية؛ حيث يذهب من حين لآخر إلى شيء من المقارنة، كقوله في عقب هذا المقال: ومهما يكن من أمر فإن المصادر الفرنسي تذكر أن الشاذلي لم يقيم لدى الأمير بدور الرفيق المسلمي ولكنه قام بدور المطمئن المعرف بالحضارة الفرنسية، وأن هناك مشاكل منعت فرنسا من العناية بالأمير حق عنايته، وهذا في الوقت

¹. مجلة الأصالة العدد 12 السنة 3 بتاريخ 1393هـ. 1973م الجزائر ص 109.

الذي كان الأمير يرى نفسه أنه بات في السجن نسيا منسيا وأنه سيعيش السجن المؤبد¹، واستدلال أبي القاسم سعد الله بالرواية التاريخية الأخرى؛ يعني اطلاعه على المصدر الآخر، مصدر العدو ذو الرواية المدلجة بأيديولوجية صاحبها، وهنا يبدو أبو القاسم وكأنه يُحذر من هذه الرواية أو يُنبه على أنها رواية أخرى ذات رأي آخر محكوم بأيديولوجية مصالِح أخرى أوفر حظها لفرنسا، وليس هذا فقط ما جاد به قلم أبي القاسم سعد الله في تاريخ الأمير عبد القادر؛ بل هذا أنموذج فقط، وإنما هناك سيولة أخرى منه في تاريخ الأمير تستحق تأليف خاص يُظهر ما قدمه أبو القاسم لهذا التاريخ من خدمات من حيث إخراج مكنونه والتعريف بمجهوله بأسلوب يستحق هو الآخر بيانه مثلما يظهر في كل ما كتب.

ب- ما كتبه يحيى أو عزيز

يبدو أن تاريخ الأمير عبد القادر كان حاضرا في اهتمام يحيى بوعزيز بقوة يظهر ذلك من خلال ما انتجه من كتابات، حيث أصدر كتبا وديج مقالات كثيرة، وبخاصة في مجلة الأصالة والثقافة، ومن ذلك ما جاء في كتابه ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين الجزء الأول، وهو ما احتل الحديث عن الأمير عبد القادر أوله من نحو ثمانين صفحة، وامتد اهتمام يحيى بوعزيز إلى ما حول تاريخ الأمير عبد القادر وارتبط به وتوسعت دائرة اهتمامه حتى شملت بعض تاريخ والده وذريته كأبنائه وأحفاده وخلفائه، ومن ذلك ما كتبه عن مصطفى بن التوهامي كنقله لقصيدته في كتاباته، وله مقال في مجلة الأصالة العدد 48 سنة 1971م عنوانه جهود الأمير وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية، كما كتب يحيى بوعزيز عن محي الدين بن الأمير، وليس والده، مقالاً في مجلة الأصالة العدد 38 سنة 1396هـ. 1976م عنوانه وثائق جديد عن دور محي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1971م، وفي ما أعلم أنه لم يُجرح النقد كتابات يحيى بوعزيز عن

¹. مجلة الأصالة عدد 12 سنة 3 بتاريخ 1393هـ 1973م ص 110.

الأمير عبد القادر إلا في مسألة هُدنة 1847م التي أنهت جهاد الأمير عبد القادر العسكري في الجزائر التي يعتبرها يحي بوعزيز استسلاما، مثلما يعتبرها البعض الآخر، وقد سمعت بعض أساتذة جامعة وهران يعيبون عليه رأيه ذلك، فللهدنة أسبابها؛ منها ما استشعره الأمير من سياسة فرنسا، وأنها تنتهج نهج الإبادة الجماعية للشعب الجزائري، على نهج إبادة الهنود الحمر في أمريكا، وأنها تقتفي أثر محاكم التفتيش في الأندلس التي أبادت المسلمين هناك، وكتابه الأساس فيما كتبه عن الأمير عبد القادر: عنوانه الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، وقد تغني كلمة رائد الكفاح عن باقي مضمونه؛ حيث تعد تجربة جهاد الأمير عبد القادر التجربة الأولى في تاريخ المقاومة الجزائرية منذ دخول فرنسا الجزائر، وقد جمعت ذاتها جهاد الشعب الجزائري للإسبان، وهو ما لم تظهر فيه بطولات بمستوى ما ظهر في مقاومة فرنسا، وهذا مما يُثمن تجربة الأمير عبد القادر ويُعزز ريادتها، وهذا مما أبان عنه كتاب الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، وعززه كتابه الآخر مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليية، ولذا فإن ما كتبه يحي بوعزيز عن الأمير عبد القادر وما تعلق بتاريخه يعد مصدرا هاما.

ج- كتابات الاستاذ اسماعيل العربي

كانت كتاباته عن الأمير قليلة، وجوهرها كتابه "المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر" وهو كتاب تناول جوانب من تاريخ الأمير عبد القادر، منها ما وعد به خلال مقدمته كقولهِ: إن الأمير فرض نفسه ملكا على الجزائر، وتفاوضت معه فرنسا على أساس ذلك من قبل الحرب وبعدها، ودليل ذلك دعوته لحضور مناسبات أكبر، كحفل فتح قناة سويس سنة 1869م¹، ومثل هذا كثير، مما عبر عنه بروز صدره مُزينا بالنياشين والميداليات الفخرية، وهذا ما يبرهن على عبقرية الأمير في الحرب والإدارة، مما اعترف له به خصومه بل أعداؤه، وأما عن محتوى الكتاب الذي

¹. اسماعيل العربي المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ص 2.

ورد في نحو ثلاثمائة وعشرين صفحة، وحسب ما يُظهِر فهرسه فإن حديثه في جوهر تاريخ الأمير، وبخاصة الحربي منه كالمعارك والمعاهدات، ووعد المؤلف رحمه الله يومئذ بكتاب آخر عن الأمير عبد القادر عنوانه العلاقات الدبلوماسية لدولة الأمير عبد القادر، وهذا جانب هام هو الآخر من تاريخ الأمير، وهذا يفصح عن موقع تاريخ الأمير من اهتمام اسماعيل العربي الذي أحسب أنه ينال به المرتبة الثالثة بعد يحيى بوعزيز، من حيث ما وقّره من خبر لتاريخ الأمير عبد القادر وأبي القاسم سعد من حيث عزة خبر تاريخ الأمير وندرته، وأحسب أن اسماعيل العربي قد ابتغى بين ذلك سبيلا، ولو من حيث لا يقصد، وتبعه آخرون على النهج ذاته أو على أنهج أخرى، وهذا لا يغلق الباب دون كتابات فضلاء آخرين، حيث إنه ما من كاتب جزائري إلا وأدلى بدلوه في بحر تاريخ الأمير عبد القادر، وأخرج منه ما أخرج؛ ولذا تتعدد مصادر قراءة تاريخ الأمير عبد القادر، ويشق الإمام بها، ناهيك عن الإمام بأخبارها والإحاطة، اللهم إلا ما قد يُحقق بعضه مشروع إعداد موسوعة الأمير عبد القادر التاريخية التي تجمع أشتات تاريخه، بقدر ما يجد جُدها ويُتقن عملها، ويتوسع فتحقق من دلالة اسمها شيئا يكثر أو يُقل بمقتضى توافر شروط هذا أو ذلك حسب تنوع مشاركة أقلام اعدادها وجدها.

7-5- كتابات المؤرخين العرب

لقد لقي تاريخ الأمير عبد القادر رحمه الله اهتماما بالغا في كتابات المؤلفين العرب؛ فقلما يوجد مؤرخ عربي معاصر لم يكتب شيئا عن تاريخه؛ بما جعل من الصعب الإمام بما كتبوا في بيوغرافيا فهرسة تجمع أشتات عناوينه ناهيك عن جمع نصوصه؛ ولذا فإن كل ما يُدرس من الكتابات العربية في تاريخ الأمير وشؤونه تُكتب من باب من التبعية والنموجية وضرب المثل، وفي هذا المعنى يحضرنى كتاب الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وأثرها في أدبه، تأليف محمد السيد الوزير، أمموجا لما أريد بيانه، وهو يُمس جانبين من تاريخ الأمير عبد القادر، هما ثقافته وأدبه،

والثقافة في أبسط ما عُرفت به هي ما يتوفر لحافظة الإنسان من معارف ويستقر بها بعدما يذهب ما يحفظه، ومن أكثر ما تُوصف به الثقافة السعة والقلة والسطحية والعمق، ويُوصف المثقف بالكبير إذا كان يملك ثقافة واسعة غزيرة، مثلما الأمر مع الأمير عبد القادر، وذلك ما يؤثر في سلوكه وحديثه إلى الناس وكتاباتهِ وغير ذلك مما يُنتجه الإنسان مما يؤثر به من حوله، وقد تنعت ثقافة الشخص بنعت ما كالقول ثقافة فلان علمية أو تاريخية أو عسكرية أو قانونية أو أدبية حينما يتوافر له من هذا الجانب أو ذلك كثير، وكل نعت من هذه النعوت له صفاته وخصوصياته، مثلما قد يجمع الشخص أكثر من صفة ثقافية، وحين تطبيقها وإسقاطها على شخص الأمير عبد القادر رحمه الله يُعرف أنه صاحب ثقافة؛ لأنه موهوب، ولما له من اطلاع واسع على مجريات الحياة، وأخبارها التاريخية والاجتماعية والسياسية وغيرها، ولاسيما في آخر حياته وتقدم عمره وكبر سنه، كما أنه موهوب مُطلع من الناحية الأدبية وبخاصة الشعرية، ولذا أصاب مؤلف كتاب الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، وأحسن التعبير عن مُرادهِ في سبك لغوي بليغ دقيق، وهذا ما يُمكن القارئ من الاطلاع على جانبين هامين من تاريخ الأمير عبد القادر، هما: الجانب الثقافي حسبما عرضناه والجانب الأدبي، وهو ما طرقه حين عرض بيان قراءة ديوانه الشعري. ويبدو هذا الكتاب في ذاته من خلاله مصادره ومراجعته الأدبية وعناوين فصوله أنه كتاب أدبي يستهدف خدمة الجانب الأدبي في حياة الأمير عبد القادر، كما يبدو أنه رسالة جامعية قد يكون ماجستير أو دكتوراه، ولو لم يذكر صاحبه ذلك، ولكنه ترك ما يُقرأ من بين السطور، ويبدو أنه لكتاب 'الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه' زيادة سبق في مجاله؛ فلم أر من أَلّف مثله في موضوعه من بعده، حسب اطلاعي، مما سوى أشاد به مقدمات تحقيق ديوانه، وهذه من صفات فضائل سبق التأليف، لأن هناك مؤلفات أخرى في تاريخ الأمير مثلما في تاريخ غيره ظلت تحتكر فضل سبق وتحافظ على موقع الريادة في مجالها، ومنها ما يتعلق بتاريخ الأمير فيما أرى كتاب أديب حرب

'التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847م'، ولعله الكتاب الأكبر حجما من بين كل ما كتب المؤرخون العرب في تاريخ الأمير، وقد بلغ أكثر من ألف ومائة صفحة من حجم صفحة الكتاب الكبيرة.

وإنه لمن الجميل أن يكتب كل في جانب تخصصه بالنسبة لحياة الأمير، كأن يكتب العسكري عن معاركه والإداري عن نظام إدارته والسياسي عن ديبلوماسيته والأديب عن شعره ولغته الجميلة والفقيه عن الجانب الشرعي في ثقافته ونظام دولته ولعل هذا ما فعله أديب حرب في كتابه التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر.

-وجهة نظر في كتاب الدكتور علي محمد الصلابي كفاح الشعب الجزائري ضد

الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر:

يذكر الدكتور الصلابي في مقدمة كتابه هذا أنه بعد إصداره جملة موسوعات في التاريخ الإسلامي، صار يتحدث في موسوعة كفاح الشعوب، فكان الكتاب الأول منه في كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وهو ما صدره في الحديث عن الأندلس والشمال الأفريقي، مثلما شمل حديثه كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الإسباني ..، ولكن جديد الدكتور الصلابي في الكتابة في تاريخ كفاح الشعب الجزائري تأتي من أنه مؤلف متحمس جدا للتعريف بتاريخ العرب والمسلمين، وبخاصة تاريخ الجزائري منه، وكأن هاجسه في ذلك إثبات الذات الحضاري، وقد وجد ضالته تلك في تاريخ الجزائري المعاصر، لما يتميز به من حرارة وصدق مشاعر ربما أكثر من غيره، فعمل على إبراز ميزة تاريخ الجزائر تلك، وهذا ما يظهر من كتابه كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الأمير عبد القادر، الكتاب الذي يُظهر فهرسه أنه ذكر أكثر موضوعات تاريخ الأمير؛ ولكن جديد قلم الدكتور علي الصلابي يأتي من كونه صاحب صيغة أسلوب لغوي جميل، وصاحب رغبة شديدة في توصيل ما يريد قوله، لإيمانه به إيمانا شديدا أنه هو الحق، وهذا من

طبيعة أقلام أهل القيم الإنسانية ومبادئها الغيورين عليها، كغيرة الصلابي على تاريخ العرب والمسلمين، وبخاصة تاريخ المقاومات وحركات التحرر التي يتصدرها تاريخ المقاومة الجزائرية ليُمثل ذروتها ورأس حريتها، وهذا مما يجعل كتابات الدكتور الصلابي وبخاصة التاريخية مهينة للإضافة من جوانب أخرى كالجمع والتنسيق وزينة الأسلوب والترغيب، من غير إضافة كبيرة زائدة في الخبر العزيز المفقود من تاريخ الأمير عبد القادر وغيره، وهذا ما يحسبه البعض جديداً، وأما الباحث المتخصص المتعمق فيرضى من كتابات الدكتور الصلابي في تاريخ الجزائر جوانب أخرى كجميل أسلوبه وحرارة إيمانه بأفكاره لأنه كاتب فكرة معرفية أكثر منه كاتب خبر تاريخي، مثلما يُحَيِّ الصلابي على احترامه الشديد لمن صنعوا موضوعات تاريخ كتاباته، وأعتقد أن صناعة التاريخ أشق من كتابته وهذا ما جادلت مجاهدين فيه رأوا أن كتابة التاريخ أصعب من صناعته وما اقنعوني وما أقنعتهم ولذا ما زال باب نقاش المسألة مفتوحاً، فهذه بعض نكهة كتابات الدكتور الصلابي أرجو أن تُتاح فرصة أخرى لتوضيح صفحتها أكثر وبخاصة في تاريخ الجزائر بصفته قلم فارس يجوب ساحة خريطة التاريخ الاسلامي الجغرافية والمعرفية يُنافح ويُكافح ويُطهر تراب أرضها من كل عشب ضار وبخاصة تاريخ العظماء العلماء والأبطال وهو ما وجد مرتعه منه في تاريخ الجزائر حيث يستدعي له الأمثلة من تاريخ المشرق العربي ما به يوضح ما ينبغي توضيحه ويُبين ما يريد قوله، مثلما استدعى من تاريخ بابلون بونابرت في حملة على مصر لبيان سلوك غزو فرنسا الجزائر¹، ومن هذا وما على شاكلته نشأت مقروئية كتابات الدكتور الصلابي في تاريخ الجزائر وبخاصة تاريخ الأمير عبد القادر لدى الجزائريين، ويُضاف إلى ما سلف مما ذكر من محاسن كتابات الصلابي جرأة قلمه وصدعه بحجته في رد شبهات الخصوم ودحض مفترياتها، كما يظهر الأمر كذلك في منهج تعامل الصلابي مع مظالم

¹. وفي هذا تمنيت لو اطلع الدكتور علي محمد الصلابي على كتاب التأسيس فيما وقع وسيقع من الفرنسيين. والقصد ما وقع هو أفعال حملة نابليون في مصر وما سيقع ما وقع بعد ذلك في الجزائر.

فرنسا في سجن رفقاء الأمير حتى مات بعضهم من التعذيب، ولم ينجح الأمير من عذابها إلا حين استقراره في دمشق، كما أفصح الصلابي من خلال ما كتب عن الأمير عبد القادر وغيره عن مقاصد محترفي تشويه تاريخ الإسلام، أنهم يريدون هدم ما ينبغي أن تترى عليه الأجيال من قدوات كالأمر عبد القادر، ولو أنه ذهب مذهب من ينفون عن الأمير نسبة كتاب المواقف إلى تأليفه، لما جاء فيه من آراء لا يطمئن إلى صحتها في حقه وما زالت المسألة آخذة في جدليتها ولا تؤذن بقرب فصل القول فيها.

- كتاب بسام العسلي 'الأمير عبد القادر الجزائري'

يعتد بسام العسلي كاتباً جاداً وذا قلم مُتكرم بفضل حبه على تاريخ الجزائر بكتابات كثيرة بلغت نحو عشرين كتاباً من الحجم الصغير، كما تُبين مراجع كتاباته اطلاعه الواسع عن تاريخ الجزائري، وهو ما أوصى كثير من المؤرخين والمفكرين بقراءته، لما يتضمنه من مضرب المثل في البطولة وحب الوطن والغيرة على قيم الإنسانية، مثلما يبرز بسام العسلي بعضها من خلال ما كتبه تحت عنوان جهاد الشعب الجزائري، ومنه عنوان 'الأمير عبد القادر الجزائري' وهو كتاب صادق في حق تاريخ الجزائر عامة وتاريخ الأمير عبد القادر بصفة خاصة، حيث كرر الكتاب بعض ما قالت كتب أخرى وجاء بجديد ولو قليل مما لم يقوله غيره¹ ولكن كيف ما كان الأمر فإن للكاتب إسهامه الواسع في نشر تاريخ الأمير بما لإصدارات دار النفائس ببيروت من مقرؤة.

7-6- كتابات الأجنب حول الأمير

لعل أبرز ما كتبه الأجنب في تاريخ الأمير عبد القادر وأشهره كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل، ولعل شهرته جاءت من ترجمة أبي القاسم سعد لسعة مقرؤيته، ولكن من الذي دعا شارل هنري إلى الإسهام في كتابة حياة الأمير عبد القادر، ولم يكتب في جانب آخر من

¹ . أنظر مقدمة الكتاب وفهرسه.

تاريخه الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي أو العسكري أو ما سوى ذلك، وهذا مما يجعل أنه من الأفضل حين يكتب الكاتب العربي في تاريخ الأوطان العربية عن من كتبوا عنها ممن ليسوا من أهلها، أن يكتب بروح النقد والمتابعة والمراقبة؛ لأن أهل مكة أدرى بشعابها، وهذا مما ينبغي التعامل به مع كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل، لأن هؤلاء خصوم غير مؤتمنين، ولو أن لكل قاعدة استثناء، وهذا في ذاته إشكال أساس في حق تاريخ العرب والمسلمين، ومنه تاريخ الجزائر؛ لأنهم كثيرون ومُتعددو النوايا والمقاصد والمشارف والمناهج ودواعي الكتابة، مثلما ما يُوضح مؤرخ خبير به فيقول كُتبت عشرات الكتب بمختلف اللغات عن الأمير عبد القادر والأغلبية الساحقة منها ما وضعه الفرنسيون، وأكثرها مليئة بالأساطير والأكاذيب والتفسيرات المغرضة، وقد لا ينجو من هذا الحكم سوى عدد صغير لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة وعلى أية حال فإن ما كتبه الفرنسيون¹، وهذا شبه طبيعي لأن تاريخ الجزائر وبخاصة المعاصر منه حدث على أساس مشترك ضدية العدائية بينها وبين فرنسا التي تريد أن يُقرأ تاريخها على غير ما هو عليه واقعه، ولذا لا بد أن تلجأ إلى التحايل على القارئ لتوهمه بغير الحق، وهذا لن يكون لها إلا على حساب تشويه تاريخ طرف شراكة تاريخها، وهو تاريخ الجزائر، ومن أساليب تحقيق التشويه إنكار حق قراءة تاريخ الجزائر بأنه ما كان إلا للدفاع عن نفسه وحقوق صانعه وعزة وطنه، والعدائية سنة من سنن الحياة، فلا حق إلا وقابله باطل، وفي القرآن العظيم ((وجعلنا لكل نبي عدواً))، وما النبي إلا ممثل للحق، ولذا لا بد من قراءة التاريخ بوعي وبخاصة كتابات التاريخيين مستعمراتهم وبخاصة تجاه الجزائر حيث يدسون السم في العسل باسم حقوق الإنسان والحرية والعدالة وما سوى هذا من شعارات، ومن عناوين التأليف في تاريخ الأمير عبد القادر كتاب الجنيرال بول أزان الأمير عبد القادر بين تعصب المسلم والمواطن الفرنسي، وما يريد قوله هذا المؤلف أن الأمير عبد القادر ذو شخصيتين:

¹ . اسماعيل العربي المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، أنظر مقدمة الكتاب.

التعصب حين يكون مسلما - لم يقل جزائريا- ولن يكون غير كذلك إلا حين يكون مواطنا فرنسيا، وما أقبح هذا المنطق المخل بالحق والواقعية.

8- مادة تاريخ الأمير من خلال إحياء ذكرياته والملتقيات والندوات والإعلام

لقد حضرت بعض مناسبات إحياء ذكريات الأمير، كذكريات البيعة الأولى والثانية وذكريات تاريخ بعض معاركه مما تنظمه السلطات المحلية الرسمية ومؤسسة الأمير عبد القادر، فكان من أهم ما يميزها من الناحية المعرفية تعميق الخبر التاريخي، وبخاصة تاريخ ذكرى المناسبة، وتحدد وجوه الحضور مما يعني اكتساب مطلعين أو قراء جُدد لصالح تاريخ الأمير عبد القادر، ولو تكررت موضوعات الحديث فإنه قليل ما يتكرر المتحدثون، ومن هنا فمن حين لآخر يُكتشف الجديد من أخبار تاريخ الأمير بفضل إحياء ذكريات أيام تاريخه المجيد؛ حيث يكون البعض قد أطلع على ما لم يعلم البعض الآخر، لتوافر مصدر ما للمتحدث ما، كما يظهر التحليل فتُستنتج أفكار جديدة لم يسبق الإفصاح عنها، وهذا المعهود المتوقع من إحياء ذكريات أيام تاريخ الأمير عبد القادر، وتلك مادة منه ذات خصوصية قد يشبثها النقاش كمسألة من مسائل تاريخه أو ينفبها.

كما تناولت الكثير من المحاضرات والملتقيات والندوات العلمية، الوطنية والدولية، موضوعات حول الأمير عبد القادر، وكثير ما يخرج البحث العلمي الخبء من التاريخ، وهو من مجهول المعرفة ليُعرف فيُضم إلى المعلوم ويصير منه بعدما كان ضمن قائمة ما لا يُعلم، وذلك من عزيز العلم لندرتة وفقده فيكون كمن وُلد من البشر وحضر من الغائب وأصيب من التيه وأُرشد من الضلال، ومن ظاهر الملتقيات، ومنها ملتقيات تاريخ الأمير عبد القادر، تعلمت الكثير مما سمعت مثل علمي بشيء من ثقافة الأمير، وأنه رجل قارئ مُطلع على التاريخ كسائر أبطال الإسلام، مثل خالد بن الوليد، وعلوم الشرع، كمختصر خليل جريا على سنن مقرر الزوايا يومئذ، وهذا ما دعا بعض الأساتذة إلى بيانه ومقارنة فكره بفكر آخرين، وذلك مثل اطلاع الأمير عبد القادر على مقدمة

عبد الرحمن بن خلدون 808هـ وقراءة لبعض ما كتب أقطاب التصوف كأبي حامد الغزالي 505هـ، وبالمقابل عرفنا من خلال بعض محاضرات ملتقيات تاريخ الأمير أن المصلحين وقادة المقاومات في الجزائر اطلعوا على تاريخ واستفادوا من تجربته؛ مثل الإمام عبد الحميد بن باديس وقادة ثورة التحرير الكبرى 1954م . 1962م، ولعل فرنسا أدركت هذا فأتلقت مكتبته باقتناء ما اقتنته وحرقت ما أحرقته، ومما لفت نظري من عناوين بعض محاضرات ملتقيات تاريخ الأمير توسيعها دائرة الاهتمام بتاريخه وتجديد أفكاره بين الحاضرين والقراء والتعريف به، وهذه أهداف الملتقيات، وأحسبها كثيرة، ولعل أغزرها مادة ملتقى تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية الدولي سنة 2012م وعنوانه عبد القادر رجل عابر للزمن، وهو ما قُدمت خلاله مائة وخمس محاضرة، منها ست وستون باللغة العربية وتسع وثلاثون بالفرنسية، وملتقى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة سنة 2024م وعنوانه الأمير عبد القادر الجزائري والانفتاح الفكري والأدبي، وقدمت خلاله سبع وأربعون مداخلة، ومثل ملتقى معسكر الوطني سنة 2024م وعنوانه الأمير عبد القادر الجزائري العالم العارف، وقدمت خلاله واحد وعشرون محاضرة، وما هذا سوى نماذج مما عُقد من عشرات الملتقيات في تاريخ الأمير منذ استرجاع الجزائر سيادتها، إن لم تكن مآت الملتقيات، وهذا ما يعني أن هناك مادة تاريخية معرفية هامة من تاريخ الأمير عبد القادر تتضمنها ملتقياته يؤسف لعدم إخراجها في كتب بل في موسوعة.

ولم يتخلف الإعلام بمختلف وسائله عن إبراز جوانب عديدة من سيرة ومسيرة الأمير عبد القادر، فهناك مادة معرفية هامة من تاريخ الأمير في ثنايا المجلات والصحف والتصريحات الصحفية، ومن أهم ما يميزها بيان جديد أحبار تاريخه ومواكبة مقروئته؛ وذلك ما تقتصر عليه وسائل الإعلام، وهو ما يحيط به الأساتذة المختصون جماهير قراء تاريخ الأمير عبد القادر علما، وتلك إفاداتهم حين ينشرون ما لديهم من علم بتاريخ الأمير عبد القادر، مثلما يُصرح بعض من ذريته

ورؤساء مؤسسة الأمير عبد القادر وكبار أساتذة البحث التاريخي في الجزائر الذين لهم من قدرة الاطلاع على المخبوء من التاريخ وشؤونه مما ليس لغيرهم، وهذه مادة عزيزة ليست في متناول أكثر القراء؛ بل حتى الباحثين الذين التحقوا بركب البحث العلمي التاريخي وغيره.

الخاتمة

إن ختام بحث قراءة في مصادر تاريخ الأمير عبد القادر هذه ومراجعته لا تدعي أنها أملت بجوانب موضوعها ولا ينبغي لها ذلك لأن هناك مصادر أخرى كبيرة لم تدخل حيزها، ناهيك عن ذكر المصادر المتخصصة في جانب من جوانب فكر الأمير وثقافته، كجانب التصوف وما أثير من جدل فيه، مثل الجدل في كتاب التصوف والأمير عبد القادر لجواد المرابط الصادر بدمشق سنة 1966م وما على شاكلته ومنهجه، لذا فالجميل في درس الأمير عبد القادر وبحوثه وغيره الإشارة إلى عناوين موضوعاته والإحالة على مصادرهما على أمل استزادة التأليف في جوانب تاريخه كما تحددتها دائرة الموضوع والزمان وجغرافية المكان، مثل كتاب الأمير الجزائري في دمشق للباحث فارس العلاوي وهو جملة وثائق ظهرت أول مرة سنة 2009م وفارس العلاوي هو من يعتكف على تحقيق نسخة كتاب تحفة الزائر المفقودة التي اصطلح على تسميتها بالنسخة المسروقة، وهي مما كان يرتقب ظهوره من مخطوط كتابات الأمير عبد القادر، وما تعلق بتاريخه بصفة عامة، ومن جميل منتظر كتابات في حق تاريخ الأمير وعد بإعداد موسوعة في تاريخه تجمع أشتات أخبارها من هنا ومن هناك وهنالك من منابر شتى تناوئه أو تناصره.

المصادر والمراجع

- 1- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر تأليف محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، عناية، أ. داود بخاري، أ. رايح قادري، إصدار دار الوعي الجزائر الطبعة الثانية في جزئين سنة 1336هـ/2015م.
- 2- المواقف صنعة الأمير عبد القادر، تحقيق وتقديم د. بكري علاء الدين، منشورات مؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري الدولية للثقافة والتراث في ثلاثة أجزاء سنة 1339هـ. 2018م

- 3-المقراض الحاد لقطع لسان مُنتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد تأليف الأمير عبد القادر الجزائري إصدار دار الطاسيلي للنشر والتوزيع الجزائر الطبعة الأولى سنة 1989م
- 4-مذكرات الأمير عبد القادر . سيرة ذاتية . تحقيق الدكتور محمد الصغير بناني، د. محفوظ سماتي، د. محمد الصالح ألبون. إصدار دار الأمة الجزائر الطبعة الثانية سنة 1998م.
- 5-المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، اسماعيل العربي، إصدار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1982م.
- 6-مذكرات الأمين محمد السعيد حفيد الأمير عبد القادر منشورات مؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري الدولية للثقافة والتراث الطبعة الأولى الجزائر سنة 1968م والطبعة الثانية دمشق سنة 1437هـ. 2015م
- 7-طلوع سعد السعود تأليف أغا بن عودة، تحقيق ودراسة الدكتور يحي بوعزيز، إصدار دار الغرب الإسلامي بيروت في ثلاثة أجزاء الطبعة الأولى سنة 1990م
- 8-التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري تأليف الدكتور أديب حرب إصدار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر سنة 1403هـ. 1983م.
- 9-محمد السيد الوزير، الأمير عبد القادر ثقافته وأثرها في أدبه إصدار مكتبة الملك فيصل القاهرة 1404هـ
- 10-كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر الجزائري الدكتور علي محمد الصلابي إصدار دار الصحوة القاهرة الطبعة الأولى سنة 1437هـ. 2015م
- 11-الأمير عبد القادر الجزائري تأليف بسام العسلي إصدار دار النفائس بيروت ط 3، 1986م

جوامع النبوغ في شخصية الأمير عبد القادر من خلال بعض الكتابات الأجنبية والعربية

الأستاذ الدكتور / سعد طاعة
جامعة ابن خلدون - تيارت

مقدمة:

اتصف الأمير عبد القادر بصفات كثيرة حميدة لا حصر لها، فهو مقاوم ومناضل شرس شهد على ذلك البطولات والمعارك الكبرى التي قادها ضد جنرالات فرنسا، كما أنه رجل دولة ومحاور ذكي قاد مجموعة من المفاوضات مع الحكومة الفرنسية أثبت فيها عبقرته السياسية والدبلوماسية حتى اعترفت هذه الحكومة بحدود دولته، وحاول أن يرأس الدول الكبرى في هذا الشأن، وللأمير ميزات أخرى قلما نراها تتوفر في شخصيات دولية صنعت التاريخ ومنها فكره الثاقب، ظهر ذلك في الإنتاج الأدبي والشعري والصوفي والديني الذي تركه، وفي المراسلات التي كانت بينه وبين الإدارة الفرنسية، حيث أن القارئ يقف عند قيمة علمية عظيمة ساهمت مساهمة كبيرة في الجهود الثقافية للجزائر الحديثة والمعاصرة، دون أن ننسى أخلاقه الفاضلة وإنسانيته النابعة من القيم الإسلامية العظيمة.

كان الأمير عبد القادر حريص أشد الحرص على تطبيق المبادئ الإنسانية في الحروب التي خاضها أو حتى في حالة السلم، وقدم في ذلك وصايا لجنوده وأتباعه يلزمهم بذلك وهي كلها خصال نابعة من تدينه، وظهرت إنسانيته كذلك في الحرب الطائفية التي جرت بالشام سنة 1860م، هذه الصفات العظيمة كانت مجال اهتمام الساسة والضباط والقناصل والكتاب والمهتمين من عرب وعجم، لاكتشاف جوامع النبوغ في شخصية الأمير عبد القادر، ومن هذا

المنطلق جاء هذا المقال للإجابة عن إشكاليات أهمها ماهي الأعمال العظيمة التي قدمها الأمير وكانت مجال اهتمام الكتاب الأجانب والعرب؟ وما مجالات وجوانب اهتمام هؤلاء المهتمين بشخصيته وتناولوها بالتحليل؟ وهل كانت هذه الكتابات منصفة أو مغرضة؟ وللإجابة على هذه الأسئلة أُعتمد على المنهج التاريخي الذي أسلوبه سردي تحليلي للوصول إلى حقائق علمية تميظ اللثام عن كثير من القضايا التي أحاطت بالأعمال العظيمة التي قدمها الأمير عبد القادر.

أولاً: نشأة الأمير عبد القادر، الإنسان ورجل الدولة

1- نشأة الأمير عبد القادر:

لا يتسع المقام هنا للحديث عن نشأة الأمير عبد القادر في سطور ولكن لضرورة المقال فإننا نختصر حياته في نقاط هامة، فهو يعتبر بحق قائد أمة ومناضل وإنسان ومثقف كرس حياته لخدمة وطنه، كافح بسيفه وقلمه ضد الهمجية الاستعمارية الفرنسية ولم يتوان يوماً في خدمة قضيته العادلة، وشهد له العدو قبل الصديق عن شجاعته وقوته وعبقريته في كسب معارك كبيرة ضد جيوش مدرية مزودة بأسلحة حديثة، وهناك محطات كثيرة عسكرية وبطولية وفكرية تحتم على الدارس والقارئ للتاريخ أن يقف عندها لأخذ العبر من عظمة هذه الشخصية المتكاملة، فالأمير الذي ولد أوائل 1808م قد أبدى منذ نعومة أظفاره نباهة ونجابة، جعلت والده يفضله على غيره من أبنائه، وفي سن مبكرة حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ العلوم اللغوية والدينية، وترى على ركوب الخيل كما تلقى علوم الحساب والجغرافيا والتاريخ على يد الشيخ أحمد بن طاهر قاضي أرزيو، ثم أرسله والده إلى وهران لإتمام تعليمه(1). ويمكن للقارئ أن نميز ثلاث مراحل مهمة في حياة الأمير عبد القادر، أما المرحلة الأولى وهي مرحلة النشأة إلى غاية اصطحاب والده إلى الحج حيث تربي في كنف الكتاتيب وزاوية الأب محي الدين ثم السفر إلى أرزيو ووهران لتعلم العلم والفقه واللغة والفروسية، أما المرحلة الثانية فهي التي تبدأ منذ 1832 إلى غاية 1847م وهي مرحلة الكفاح والنضال

العسكري والمقاومة المنظمة ضد الاستعمار، أما المرحلة الثالثة التي تبدأ من المنفى إلى غاية وفاته في دمشق سنة 1883م وهي حافلة بالإنجازات السياسية والإنسانية والأدبية والفكرية.

تمكن الأمير من أن يجمع في شخصيته القوية صفات كثيرة فكان مثقفاً، متديناً، متخلقاً، سياسياً بارعاً، ودبلوماسياً شجاعاً، اشتهر بالمحافظة على الوفاء بالعهد وصدق الوعد فكان حريصاً مثلاً أن الأسير المسلم إذا سرحه العدو وشرطوا عليه أن لا يغزوهم يلزمه الوفاء (2)، كما كانت ميزته رجاحة العقل، فبالرغم من صغر سنه، تمكن من تأسيس دولة فتية، وفاوض فرنسا، وهي أكبر قوة سياسية وعسكرية في حوض البحر الأبيض المتوسط آنذاك، وهو عن نفسه قال: "العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر و النور من الشمس، والرؤية من العين فكيف لا يشرف من هو وسيلة للسعادة في الدنيا والآخرة" (3).

إن الأمير عبد القادر كان رجل دين ودولة فكان لا يفرق بين الدين والسياسية في الأمور التي تم الوطن، فجعل من الإسلام ومبادئه السمحة مشروعاً لدولته الداخلية ومعاملاته الخارجية، كما كان يذهب بعيداً في طريقة الترضية، لإحلال السلام محل الحرب وقال في ذلك: "لا يحصل الاتفاق إلا إذا عرفتموني شروطكم وما تطلبونه مني، وأنا أعرفكم بمثلها" (4).

2- الأمير عبد القادر إنسان ورجل دولة

للأمير عبد القادر جوانب نضالية وفكرية وإنسانية كثيرة في حياته لا حصر لها من المواقف، سواء هنا في أرض الوطن لما كان يحارب جيوش الاحتلال أو في المنفى وتحديدًا بالشام، ومن هذه المواقف الإنسانية المشرفة هو أنه عندما عاد الأمير من جرجرة واليتيري وسمع بنجر قتل الأسرى تألم كثيراً وكتب في رسالة إلى الملك الفرنسي لويس فيليب شرح له فيها الظروف التي أحاطت بقتلهم، واتهم فيها ضباط الجيش الفرنسي معتبراً إياهم السبب في ذلك المصير المؤلم، وعرض عليه من جديد فكرة تحقيق تبادل الأسرى لديهم مع الأسرى المسلمين، لكنه لم يتلق جواب ومن ثم

أسرع في إطلاق سراح من كان في قبضته من الضباط الأحد عشر الباقين، ولعل ما يعكس سريرته أنه أرسل مع الأسرى الفرنسيين المفرج عنهم السيد قادة بن هاشمي ليوصلهم إلى وهران، وكتب هؤلاء الأسرى بعد عودتهم إلى ديارهم شهادات عن حسن المعاملة التي تلقوها من الأمير(5)، وفي هذا الصدد ركز الأمير على حماية الأسرى وهي من صميم واجباته الدينية والوطنية، قال شارل هنري تشرشل في مؤلفه حياة الأمير عبد القادر إن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداهها الأمير عبد القادر نحو الأسرى، ليس لها مثال في تاريخ الحروب فكبار الضباط المسيحيين عليهم أن يجلسوا عند قدميه(6).

إن الأمير عبد القادر استمد سلوكه الإنساني من أصول دينه الإسلامي، خاصة في احترام حياة وحقوق المدنيين والعسكريين كعدم تعريض النساء والأطفال والشيوخ للخطر مثل القتل أو التعذيب، وحرص على ذلك زمن الحرب وحث عليها جنوده على الالتزام بالقاعدة التي تحظر تحريق العدو بالنار أثناء الحرب، انطلاقاً مما روى من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: "ولا تحرقوا بالنار، فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار والقاعدة التي تمنع قطع الشجر المثمر وتخريب العامر الكنيسة كان أو غير ذلك، وعدم قتل المواشي وتحريق النخل وحظر حرق البيوت والشجر، إذا كانت لهم معاقل وتخريب البيوت"(7).

ومن المواقف المشرفة التي سجلها التاريخ على مدى إنسانية الأمير عبد القادر، هو أنه فرض ضريبة على القبائل لحاجة الدولة الفتية إلى ذلك، إلا أن بعض القبائل رفضت ذلك ومنها قبائل بنو عمر، هؤلاء حضروا إلى معسكر وأدوا صلاة الجمعة في مسجدتها الكبير وفي هذه الأثناء اغتتم الأمير هذه الفرصة ليوضح لهم أن بيت المال في حاجة دائمة إلى المال لمواجهة النفقات الجارية، وأن على القبائل أن تقوم بدفع المستحق عليها من الزكاة والضرائب بانتظام، وقد تأثر زعماء القبيلة بلهجة الأمير وبالجو الديني الوطني الذي كان سائداً في المسجد، حيث ألفوا أن يسمعوا النداء تلو

النداء لرفع السلاح والمضي للجهاد فقبلوا بدفع الضريبة والمعونة (8)، وفي إطار الصفح عن خصومه الذين ناصبوه العدا، جهز حملة ضد مصطفى بن إسماعيل رأس المتآمرين عليه في منطقة السيق سنة 1834م، وتمكن منه وأصيب ابن إسماعيل بجراح وتفرق عليه أتباعه وهبطت قيمته، بحيث لم يعد يمثل شيئاً ولكن كرم الأمير أبي إلا أن يعفو عنه ويعيده إلى مكانته، بل بعث إليه يدعوه لمقابلتها لإحلال الوثام محل الخصام، كما عفا كذلك عن ابن أخيه المزاري (9)، هذه الإنسانية التي تميز بها الأمير لم تكن مع بني جلدته فقط وإنما كذلك مع النصارى والأوروبيين الذين اعترفوا له بهذه الخصال، ومن بينهم مترجم الأمير يوهان كارل بيرنت الذي قال: "إن الأمير إنساني إلى أبعد الحدود وقد أوصى جنوده بذلك، حيث كنت مع بعض الحرس في ندرومة ورحب بي الخليفة نفسه، وأمر بإعطائي ألبسة جديدة وبنديقية، كما قدم لي حصاناً استعمله ريثما يتصل بالسلطان ويتسلم منه أوامره بشأني" (10).

كان الأمير عبد القادر حريص أشد الحرص على تطبيق المبادئ الإنسانية في الحروب التي خاضها أو حتى في حالة السلم، وقدم في ذلك وصايا لجنوده وأتباعه يلزمهم بذلك وهي كلها خصال نابعة من تدينه، وهو نفسه في ذلك قال: "إن المسلمين إذا تقاتلوا مع العدو ثم أن العدو طلب الأمان فنشر المسلمون المصحف وحلفوا أنهم لا يقتلونهم، وجاءوا فيلزم المسلمين الوفاء وهو أمان لازم قاله الإمام ابن أبي زيد، ومنها كذلك أنه يلزم المسلمون أمان الصبي الصغير المميز وأمان العبد، ومنها أن الأمان من كل من يلزم أمانه يلزم بالكلام والإشارة من غير كلام، إذا فهمت الأمان قال الشيخ خليل، ومنها إن العدو إذا جاء إلى المسلمين وقال ظننت أنكم تؤمنوني فإنه يلزم أمانه ولا يتعرض له بسوء قال الشيخ خليل وأن ظنه حرب فجاء إلينا أمضى الأمان، وأن المسلمين إذا أخذوا حربياً بأرض الحرب وعليه علامة الإقبال للمسلمين وقال جئت أطلب الأمان، فيلزم أمانه وكذلك أخذ بأرض المسلمين أو بين أرض الإسلام وأرض العدو" (11)، وإنسانيته لم تظهر

فقط في معاملاته بل حتى في فكره من خلال رجاحة عقله ووزانته وحسن رأيه وميزان أقواله وأفعاله، فيما يناسب الناس خاصة ويليق بمنزلهم كباراً وصغاراً، ومواساة ومعاملة وإحسان يطيب بطيب القول ولين الكلام وخفض الجناح وحسن الأدب وسائر الخصال، التي يمتدح بها من نشأ من مثل زاويته فلقد كان من ذلك بالمكان الأعلى والحظ الأوفى، يتعجب المريدون والوافدون أفواجاً لزيارة والده من ذكاء ذهنه وجودة قريحته وسعة أخلاقه، بالقيام بأحوال الضيف إكراماً وإعظماً وتسليماً وإعلاماً يقولون بألسنة أحوالهم (12).

إن إنسانية الأمير عبد القادر لا حدود لها، واعترف له فيها العدو قبل الصديق، والمواقف كثيرة التي برهن فيها على كفاءته وأخلاقه العالية ودينه الراسخ، ومن الأمثلة على ذلك ما تقدم به مساعد أسقف مدينة الجزائر من شهادة تاريخية لما حمّله رئيس الأساقفة رسالة إلى الأمير، وبدأ في وصف هذه الرحلة حيث قال: "أثناء طريقي رحلت أبرز أمر المهمة، وهو موضوع تبادل الأسرى فأجد كل احترام وإكرام من القوات الجزائرية والفرسان الحمر الموزعين فوق الهضاب للحراسة، وكان لا بد لي من أدلاء لإبعادي عن مسرح العمليات العسكرية إلى أن وصلت إلى وادي موسى، حيث وجدت الأمير عبد القادر وكان يجلس على الأرض، ملابسه بسيطة كأني جزائري من حايك عادي إلى برنس أبيض، ولم يكن يحمل سلاحاً وفهمت منه أن حربه إسلامية ضد كفار معتدين لا يحترمون التعاليم المسيحية" (13)، ويضيف قائلاً: "ما منع الأمير تحت طائلة العقوبة قطع الرأس والأذن، أو أي أعمال وحشية على الرغم من أن أعداؤه كانوا يمارسونها ويرتكبون أفظع الأعمال، وكان الأمير يتقيد بشكل دقيق بقوانين الحرب في الإسلام وبالشريعة التي فرضها الله، فكان يكافئ كل مجاهد يأتيه بجندي فرنسي بحالة حسنة، وإذا اشتكى الأسير من سوء المعاملة حُرّم المقاتل الجزائري من أي مكافأة" (14).

ولم تكمن رفعة وسمو أخلاقه فقط في إنسانيته في حدود البلاد بل تعدتها إلى خارج الوطن من خلال الدور الإنساني الذي قدمه في أزمة الشام 1860م، وجهوده في سبيل ترسيخ القيم والمبادئ الإنسانية، حيث تهافت بعض الشخصيات العالمية والدول في إرسال الهدايا والأوسمة ورسائل الشكر والعرفان، فما هو الكاردينال لافيغري يصف لقاءه بالأمير عبد القادر في شهر سبتمبر 1860م بقوله: "بطلب مني وقبل مغادرتي دمشق التقيت بالأمير عبد القادر، والذي اختار هذه المدينة كمنفى وإقامة له بعد حربه في الجزائر وأقامته مدة في فرنسا ثم تركيا ثم دمشق، هذا المسلم يتصف بالقوة والشجاعة التي لا نظير لها تمكن من خلال الخصال التي تتوفر لديه، من حماية الآلاف من المسيحيين الفارين نتيجة الحقد الديني، إن القليل من الرجال من يمتلكون هذه التضحيات التي تتوفر في شخص الأمير عبد القادر، وهذا ما استوجب علي فعله عند نهاية زيارتي حيث قدمت له الشكر باسمي وباسم الكنيسة الكاثوليكية" (15).

كان لموقف الأمير عبد القادر الإنساني في هذه الفتنة صدى كبير في العالم والمجتمع الدولي آنذاك، فجاءته رسائل الشكر مصحوبة بالنياشين والأوسمة من جميع حكام ورؤساء وملوك الدول الأوروبية خاصة، كما نوهت الصحافة العالمية بجهوده وخصاله ومواقفه النبيلة والإنسانية، ومن النماذج عن الهدايا التي تلقاها الأمير من حكومات هذه الدول مثلاً روسيا قدمت له الصليب الأكبر للنسر الأبيض، والسلطة العثمانية منحته وسام المجيدية من الدرجة الأولى، وفرنسا أرسلت له الوشاح الأكبر لجوقة الشرف، كما بعثت له بريطانيا أسلحة من بنادق ومسدسات مطعمة بالذهب ونفس الشيء بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية (16)، ورسائل كثيرة من بعض الشخصيات المرموقة في تلك الفترة، إن الأمير عبد القادر لعب دوره التاريخي (17) الذي كان من المفروض أن يلعبه فهو رجل مقاوم شرس عابد ناسك متخلق، استلهم هذه المبادئ الإنسانية من دينه الإسلامي والمنطلق الفكري الذي استند إليه الأمير للقيام بواجبه الإنساني هو ترسيخ قيم التسامح

ومحاولة إيقاف الخلاف والشجار الديني بفتح مجال للحوار، وتهديب لغة الخطاب حتى تصير متوافقة مع منهج الأديان، وإرساء سبل الأخوة والمساواة بين الأديان السماوية الإسلامية والمسيحية لتجنب مخاطر العنف مستقبلاً (18).

ثانياً: الأمير عبد القادر من خلال بعض الكتابات الأجنبية والعربية:

1- الأمير عبد القادر من خلال بعض الكتابات الأجنبية

كتب الكثير عن مقاومة الأمير عبد القادر وما حققه من إنجازات في حياته ومكاسب لم يسبقه إليها أحد في زمانه، اكتسب خبرة قتالية مع والده منذ ظهور الاحتلال 1830م ويعتبر من الزعماء الذين صيتمهم تجاوز العالمية من خلال مواقفه الإنسانية، لذا كان محل اهتمام الساسة والأدباء والمفكرين والمؤرخين، ومثار إعجاب العرب وحتى بعض الفرنسيين والأجانب ومن بينهم هنري تشرشل (19)، والذي غطى جوانب كثيرة من حياة الأمير وكتب عن معاهدة ديمشال، كما تعتبر كتابات ليون روش (20) من أبرز ما أُجْز في حقل الكتابة عن حياة الأمير عبد القادر، وهو من أهم المصادر نظراً للمهمة العسكرية التي كلف بها روش وهي التجسس على جيش الأمير، وشرع في جمع المعلومات وإرسالها إلى القادة الفرنسيين وكانت أول مراسلة بتاريخ 1837/12/19م، حيث أعطى وصف دقيق عن شخصية الأمير عبد القادر ومناقبه وأوصافه الجسمية والخلقية والدينية وجيشه وسياسته، ومن الكتابات الأخرى ذات الأهمية ما أنجزه يوهان كارل بيرنت (21) الذي تحدث عن معاهدة التافنة من خلال مؤلفه (الأمير عبد القادر) وعن المكاسب التي حققها الأمير من خلال هذه المعاهدة العسكرية والسياسية والتجارية.

كما قدم أحد الجواسيس وهو لويس أدريان بيروجير وصفاً للجيش بعد قيامه برحلة لزيارة الأمير عبد القادر، وجاء فيه "أن جيش الأمير يظهر على شكل دائري، وباستثناء خيمة الأمير التي تقع في الوسط تقريباً ثم الخيام التي تشكل حولها دائرة والمتباعدة الواحدة تلو الأخرى بحوالي ثلاثين

خطوة، وكانت أكبر الخيام تضم 30 رجلاً بينما أصغرهما لا تحوي سوى على اثنين أو ثلاثة رجال" (22)، أما من حيث الشهادات والكتابات حول شخصية الأمير هو ما قدمها الجنود والقناصل وجنرالات فرنسا، أبرزهم بيجو (23) ففي الرسائل التي بعث بها إلى سلطات بلاده، رسالة كانت بتاريخ 1837/05/14م أبدى تخوفه من دهاء الأمير عبد القادر وحنكته التي جعلت منه خطر على الفرنسيين وبأنه قادر على توحيد العرب نحو طريق الحضارة، وفي 1843/03/23م أقر بيجو بأن الأمير رجل معتبر ويجب على التاريخ أن يضعه إلى جانب يوغرطة، وفي رسالة أخرى بتاريخ 1843/06/28م وصفه بالعدو النشيط والذكي سريع الحركة، له تأثير على العرب بفعل عبقريته وقضيته التي يدافع عنها.

كان للجنرال دوماس كذلك رأي في الأمير عبد القادر حيث قال " أن الرجل رفيع المنزلة، وأن التاريخ سوف ينصفه ويجعله يحتل مكانة كبيرة" (24)، كما أضاف دوماس من خلال كتاباته حول حياة الأمير فيقول " كانت له عدة ثكنات عسكرية جزائرية تحت رقابته حوالي 800 عسكري في كل ثكنة" (25)، وتعتبر مراسلات دوماس من المصادر التاريخية الهامة التي تتحدث عن دور قبائل الحشم في دعم المقاومة (26)، والتي ساهمت مساهمة فعالة من حيث التموين والإمداد، كما لا نستثني كتابات الضباط الفرنسيين الذين شاركوا في الحرب ضد الأمير عبد القادر ومن بينهم الملازم سكوت، والذي أنصف كثيراً الأمير في كتاباته وبرأه من الشكوك والشبهات التي قذفته بها الصحافة الفرنسية آنذاك، حيث وصفه " بالبطل الشاب صاحب العقل المستنير الغير قادر على الخيانة وسياسة حكومته متحررة، ولو أُتيح له التربع على عرش الجزائر لجعل من هذا البلد في وقت قصير أكثر بلدان العالم الإسلامي تقدماً وازدهاراً" (27)، أما الضابط أ.ف. دينيزن الذي وضع كتاباً عن الجزائر بحيث يذكر في مقدمته ظهور الحس الوطني عند الجزائريين، ودور الأمير عبد القادر في ذلك (28).

ومن الساسة والقناصل الذين اهتموا بحياة الأمير عبد القادر وشهدوا على تفوقه وإمكانيته وقدرته الحربية والدبلوماسية، نوال مانوشي الذي عاش مدة سنتين بقرب الأمير وقال فيه "أن الأمير تمكن من تأسيس المدن وخلق نظام جديد، ووضع التشريع الخاص بدولته وتوحيد شعبه" (29). وعلى العموم هناك كتابات كثيرة أجنبية خاصة الفرنسية منها ، حول الأمير عبد القادر منها المنصفة والتي تتسم بالموضوعية، عاجلت الكثير من الجوانب التي تخص شخصية ومقاومة وفكر الأمير، وتعد مساهمة فعلية في إثراء جزء هام من حياته، وإلى جانب ذلك توجد الكتابات المغرضة التي تتسم بالذاتية وعاجلت حياة الأمير من زاويتها الخاصة، فالكتاب الفرنسيون الذين عاصروا الأمير أو المحدثين منهم، حاولوا إبعاد عنصر الوطنية من مقاومته، وذكروا أن جل المعارك التي قادها لم تكن من منطلق ثوري، واتهموا الأمير بالعمالة للخارج، وكل الكتابات التي ظهرت بهذا الشأن كانت بأسلوب مغرض لا يخدم سوى الأهداف الاستعمارية.

2- الأمير عبد القادر من خلال بعض الكتابات العربية:

ظهرت بعض الأقلام العربية التي اهتمت بحياة الأمير ومنها كتابات الرحالة التونسيين أشهرهم الرحالة محمد بن عثمان السنوسي" الذي ولد سنة 1851م بتونس التحق بجامعة الزيتونة سنة 1870م ثم انتخب أستاذاً كاتباً لمجلس جمعية الأوقاف سنة 1874م، وكان محرراً لجريدة الرائد التونسية بدأ رحلته نحو دمشق بتاريخ 25 ماي 1882م وعاد إلى وطنه في 5 فبراير 1883م وبدأ في تحرير ما شاهده في كتاب أسماه "الرحلة الحجازية" وتوفي في 17 نوفمبر 1900م" (30)، وزار السنوسي الأمير عبد القادر في دمشق وتحديداً في بيته الريفي وهو في مرضه الأخير، ووصفه في رحلته بصفات حميدة منها أنه رجل صالح، اجتمعت فيه خصال منها حبه للعلم والأدب والخير والصلاح وسعة الفضل والكرم، كما تحدث عن نسب الأمير وأسلافه ووقف عند المبايعة التي تمت

بكمالها، وقدمت هذه الرحلة جوانب مهمة من حياة الأمير وتعتبر من بين أهم المصادر لكتابة تاريخ هذه المرحلة.

ومن الرحالة المتأخرين الذين اهتموا بحياة الأمير محمد بيرم الخامس التونسي، الذي أكد على إنسانيته وزهده وإخلاصه، وجمع ذلك في كتاب عنوانه "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"، حيث زار الجزائر والتقى بالشيخ علي بن الحفاف والذي التحق بالأمير وتولى إدارة سره، وسرد الشيخ ابن الحفاف لبيرم التونسي السيرة الذاتية للأمير عبد القادر، فتعرض صاحب الرحلة لظهور الأمير والقبائل التي بايعته في الغرب والجنوب، كما تعرض لفصول المقاومة التي خاضها الأمير، والدولة التي أنشأها وصناعة الأسلحة وفي آخر الرحلة حلل أسباب نهاية الأمير عبد القادر، وأشار إلى اتحاد سلطان المغرب مع الحكومة الفرنسية لمحاربتة فاضطر إلى وقف القتال (31).

اهتم الكتاب المغاربة كذلك بشخصيته وحياته حيث نال الأمير عبد القادر إعجاب بعضهم، ومن بينهم الناصري صاحب كتاب الاستسقاء الذي قال: "أن مقام هذا الرجل في الشجاعة معروف، وبصيرته بمكائد الحرب معلومة" (32) وأنه في بعض سنوات قليلة نظم جيشاً قوياً مسلحاً وموله بجباية شرعية (33)، إلا أن هذه الكتابات المنصفة في حق الأمير لم تستمر طويلاً، نتيجة الضغط الفرنسي على المغرب خاصة تجاه السلطان عبد الرحمن، حيث ظهرت كتابات تتهجم على شخصية الأمير خاصة الكتابات التي كانت على صلة بالمخزن فوصفته بمختلف الأوصاف المشينة، مثلاً لما انتهت المقاومة وتوقف القتال وصف السلطان الأمير في إحدى رسائله بالأمير الفاسد، وفي رسالة أخرى بعث بها أحمد الولهامي إلى السلطان سنة 1848م يتهم الأمير بالطمع في العرش (34)، وهذا ما سار عليه كثير من المغاربة "من أمثال أبو العلاء إدريس الذي ذكر بأن الأمير قد تجاوز حده وأنه من جهله طمع في عرش المغرب" (35)، ووصفوه بالفاسد وخليفة الشيطان الذي ظل سبيل الرشاد وأراد شق الإسلام، هذه بعض النماذج القليلة للكتابات

المغربية التي تحاملت على الأمير والسبب في ذلك سياسي واضح، وهو خوف السلطان من الضغوطات الفرنسية التي كانت تهدد عرشه.

كما اهتمت بعض الكتابات العربية المعاصرة بحياة وشخصية ونضال الأمير عبد القادر خاصة المحدثين منهم، حيث قدم **بركات محمد مراد** وهو من كلية التربية بجامعة عين الشمس بمصر دراسة مهمة حول حياته، عنوانها "**الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي**" في ثلاثة فصول، تعرض إلى نشأته وجهاده وثقافته ومؤلفاته ثم في الفصل الأخير ناقش مسألة تصوف الأمير، ومن الكتاب كذلك الذين اهتموا بحياة الأمير **بسام العسلي** الذي لديه مؤلف عنوانه الأمير عبد القادر، استعرض فيه المبايعة ورفع راية الجهاد، وعاصمة الأمير مدينة معسكر، والدولة التي أنشأها وأهم وزاراتها (36) وكتاب آخر لأديب حرب عنوانه "**التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر 1808-1847**"، وشرح في هذا الكتاب الجانب السياسي والعسكري لمقاومة الأمير، وتطرق إلى موضوع مجلس الشورى الذي أنشأه والجهاز القضائي، وتحليل الخطط العسكرية التي اتبعتها الأمير لمواجهة الإدارة الفرنسية في الجزائر وجزرالاتها، كما تعرض إلى صناعة الأسلحة، وساهم الباحث والمؤرخ اللبناني **محمد علي فوزي** في التعريف بشخصية الأمير، من خلال كتاب "**دراسات في التاريخ العرب المعاصر**"، حيث تطرق إلى مقاومة الأمير عبد القادر وقوة جيشه وهزمه للقوات الفرنسية في كثير من المواقع، والمفاوضات التي كانت بينه وبين الحكومة الفرنسية التي كللت بمعاهدتين واعتراف السلطات الاستعمارية بحدود دولته، دون أن ننسى الكثير من الكتابات التي أشارت إلى مقاومة الأمير مثل **جورج الراسي** و**عبد الجليل التميمي** و**علال الفاسي** وغيرهم.

استنتاجات وخاتمة:

المتتبع لنضال ومقاومة الأمير وتاريخه المشرف يقف عند كثير من المحطات الهامة منها:

1- شخصية قوية شجاعة مرابطة، صيته تعدى الحدود، شهد لحنكته وصبره العدو قبل الصديق.
2- لم يكن الأمير متعصباً بل أدرك أن رجل الدولة لا بد أن يكون سياسياً، محاوراً، مرناً، كما لم يكن من السهل قيادة هذه الدولة وقد واجهتها النكبات، فالحملة الاستعمارية كانت ما تزال مستمرة مع التصدي للقبائل الثائرة ومحاولة نقل السلطة من الأتراك، ووجود فراغ سياسي نتيجة هذا التغيير. ومع ذلك فإن الأمير تحلى بالصبر، وبرجاجة العقل وبالحنكة السياسية المعهودة، فكان يدرك عدم التزام الحكومة الفرنسية بالعهد، فهياً دولته لكل طارئ. فهو نفسه قال لما نقضت فرنسا معاهدة التافنة: "جرت لهم علينا ولنا عليهم جولات ودولات، مرة لنا ومرة علينا، ونكبات لا تكاد توصف في الفريقين وحشرنا بتلك النواحي من قبائل ترارة والساحل، وعساكر بني بزناسن وفرسان صنديد أجداد، وصرنا كما قال أبو سفيان يدال علينا مرة وندال أخرى والحرب دول وسجال" (37).

3- عُرف الأمير عبد القادر بفكره ودهائه السياسي والدبلوماسي القوي لقد كان دبلوماسياً محنكاً حيث "قاد ذكاه - الأمير - المفاوضات مع أعدائه، فكانوا هم أنفسهم الذين بنوا له العرش الذي كان يريد اعتلاءه" (38) وتظهر عبقرية الأمير الدبلوماسية في نشاطه واتصالاته الخارجية مع الدول العربية، الإسلامية، الأوروبية، وحتى الأمريكية، بغرض طلب المساعدة والاعتراف بدولته. "فجرت بين الأمير وسليمان المغرب مثلاً مراسلات دبلوماسية أسفرت عن تعيين الحاج طالب سفيرا فوق العادة بفاس، ثم راسل الأمير باي تونس وتبادلا الهدايا والرسل، وكاتب خديوي مصر، وشريف مكة وحكومة بريطانيا، وبعد نقض معاهدة التافنة راسل الأمير من جديد بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عن قنصلها في جبل طارق كما راسل الدولة العثمانية" (39).

تميز الأمير في مراسلاته ونشاطه الدبلوماسي بالخبرة السياسية والدبلوماسية، وبعده النظر، وقراءة الحاضر والمستقبل، في علاقته مع الدولة الفرنسية. كما كان الأمير حريصاً على تطبيق السلم مع الحكومة الفرنسية، ولم يكن مراوغةً أو مخادعاً أو متحايلاً كما فعلت هي. كان الأمير صريحاً وواقعياً واضحاً في بنود الاتفاقيات التي وقعها مع الإدارة الفرنسية، وبعد سنة 1834م تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الحكومة الفرنسية وعين من قبله لدى فرنسا سفراء يمثلونه في كل الشؤون وأوكل إليهم مراقبة العدو وتحديد الأماكن التي وضع يده عليها، وهؤلاء السفراء هم مردخاي بن دراب الموساوي في الجزائر، ومحمد بن يخو في وهران ومحمد خليفة بن محمود في أرزيو وعينت فرنسا من قبلها لدى الأمير في معسكر الكومندان عبد الله ويسون سفيراً لها (40).

4- برز الأمير عبد القادر في كثير من جوانب حياته ولكن كان أعظمها إنسانيته المتفردة التي جلبت إليه الاعتراف من الأعداء والأصدقاء، وكان فكره ثاقباً في إدارة شؤون بلده، لذا كانت الكتابات سواء الأجنبية أو العربية التي تناولت حياة الأمير عبد القادر من جوانب ووجهات نظر مختلفة منصفة، برهنت على عبقرية الرجل في الزمان والمكان، ولو أن القليل من هذه الكتابات كان مغرضاً ولكن ذلك لم ينقص من الجهد الذي قدمه في سبيل خدمة قضية بلاده.

وفي الأخير، يعترف الجميع أن الأمير لأمر عبد القادر نبغ في كثير من المجالات، هذا النبوغ صنع منه شخصية قوية متفردة على المستوى الوطني والدولي، وكان مثار إعجاب الضباط والساسة والحكام وقناصل الدول، كما كان مجال اهتمام الكتاب والمؤرخين والمهتمين، درسوا حياته من كل الجوانب العسكرية والسياسية والدبلوماسية والإنسانية والفكرية والدينية، فهو بحق يعتبر شخصية متكاملة فرضت نفسها على الساحة الوطنية وأصبح رمزاً للمقاومة، كما فرضت نفسها على المستوى الدولي وصارت أيقونة في السلم والأخلاق النبيلة والإنسانية.

الهوامش

- 1-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الطبعة الثانية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982م.ص 38
- 2-الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر. تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، الطبعة السابعة، الجزائر، شركة دار الأمة 2010م.ص223
- 3-الأمير عبد القادر، نفسه.ص10
- 4-إسماعيل العربي، المرجع السابق.ص51
- 5-عمر سعد الله، القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر 2007م.ص87
- 6-عمر سعد الله، نفسه. ص 82
- 7-عمر سعد الله، نفسه. ص 82
- 8-إسماعيل العربي، المرجع السابق.ص60
- 9-إسماعيل العربي، المرجع السابق.ص62
- 10-يوهان كارل برنت، الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم أبو العبد دودو، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع 2003م.ص 122
- 11-الأمير عبد القادر الجزائري، المقرض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ. ص226
- 12-الأمير عبد القادر الجزائري، المذكرات، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849م تنشر لأول مرة، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، الجزائر، دار الأمة للنشر والتوزيع 2008م.ص63
- 13-الأميرة بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف، الجزائر، دار المعرفة للنشر 2008. ص60
- 14-الأميرة بديعة الحسني الجزائري، نفسه. ص62
- 15-PERE J CUSAC, Un géant de L'apostolat Le cardinal la vigerie, Libraire Missionnaire 26 rue vavin Paris1903. P 18
- 16-BOUAMRANE CHEIKH, L'émir Abdelkader, Résistant et Humaniste, éditions ENAP2001.P101
- 17-BOUALEM BESSAIH, De L'émir Abdelkader à L'imam Chamil, Le héros Des Tchétchènes et du Caucase, ENAG, Alger 2008. P 291

18- ABDELAZIZ FERRAH, Le temps D'une Halte Rencontre Avec L'émir Abdelkader, Deuxième édition, Les éditions APIC 2004, P 282

19- تشرشل شارلز هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر، عالم المعرفة 2009. ص 8

20- ليون روش، ولد في مدينة غرونوبل بفرنسا 1809م وتوفي في 26/06/1901م، نال شهادة البكالوريا في 1828م، كان ميالاً للمغامرة والتحق بوالده في الجزائر سنة 1832م الذي كان يشتغل بالعتاد العسكري، وعين روش ترجماناً محلياً في اللجنة الإفريقية وكانت مهمته شرح المصطلحات، ينظر يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832م-1847م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 2009. ص-ص 11-13-18

21- يوهان كارل بيرنت، ولد بألمانيا سنة 1812م، درس بالجامعة والتحق بالفرقة الأجنبية ووصل الجزائر سنة 1834م ثم التحق بالجيش الأميري وعمل تحت بعض خلفاء الأمير وكان بيرنت يعرف باسم عبد الله وحاول الفرار والتحق بالفرنسيين في وهران ينظر يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، دار هومة 2009. ص 7

22- لويس أدريان بيروجير، ولد في باريس سنة 1815م وتوفي سنة 1869م بالجزائر وهو من أصل ألماني تعلم اللغة العربية وكان عضو في مجلس عمالة الجزائر وهو رجل سياسي ومفكر ومؤرخ ومستشرق اشتغل كجاسوس جاء إلى الجزائر سنة 1835م وقام برحلة إلى الأمير عبد القادر سنة 1837م وكانت مهمته كتابة تقرير عن جيش الأمير، ينظر لويس أدريان بيروجير، مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير عبد القادر في البويرة 1837-1838م، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار غرناطة للنشر والتوزيع 2010. ص ص 12-

13-14

23- ينظر جلال يحيى، العالم العربي الحديث والمعاصر، الجزء الأول، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث 1998. ص 162

24- أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، عصر الأمير عبد القادر، ويليه القول الأوسط في الأخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، الجزائر، دار البصائر، د.ت. 248

25- GEORGE YVER, Correspondance du Capitan DOUMAS, consul a mascara (1837-1839), Alger, typographe Jourdain 1912. p17

26- سلطنة عابد، قبائل معسكر ودورها في دعم مقاومة الأمير عبد القادر من خلال مراسلات القنصل دوما 1837-1839، كتاب جماعي حول معسكر المجتمع والتاريخ، الجزائر، مكتبة الرشد للطباعة والنشر 2014، ص ص 214-215

27- الكولونيل سكوت، مذكرات عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841م، ترجمة إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981، ص 175

- 28-أ.ف دينينز، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية، ترجمة أبو العيد دودو، الجزائر، دار هومة 2009، ص3
- 29-محمود بوعيداد، الأمير عبد القادر الإنسان الثقافة، ع 75، تصدرها وزارة الثقافة والسياحة 1983، ص.283
- 30-عبد القادر خليفي، محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة 1830-1962، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية (د.ت) ص.14
- 31-المهدي البوعبدلي، وثائق أصلية تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر، الثقافة، ع75، الجزائر، وزارة الثقافة 1983، ص ص148-149.
- 32-عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ط1، ج3، لبنان، المركز الثقافي العربي 1999، ص.125
- 33-نفسه، ص.538
- 34-عتو بلبروات، اهتمام الجامعات الجزائرية بالأمير عبد القادر 1808-1883، كتاب جماعي الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، ص.111
- 35-بن جبور محمد، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الأمير عبد القادر 1830-1847 من خلال الأرشيف المغربي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وهران 2012. ص269
- 36-بسام العسلي، الأمير عبد القادر، لبنان، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت)، ص.35
- 37-ابن التهامي الحاج مصطفى، سيرة عبد القادر وجهاده، تحقيق يحي بوعزيز، لبنان، دار الغرب الاسلامي 1995م، ص.107
- 38-كارل بيرنت يوهان ودينينز.أ. ف، الأمير عبد القادر، ترجمة أبو العيد دودو، الجزائر، دار هومة للنشر 2009م. ص61
- 39-يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الجزائر، ابن خلدون للنشر والتوزيع 2002، ص 88
- 40-يحي بوعزيز، نفسه، ص88.

المصادر والمراجع

1-المصادر:

أ/ باللغة العربية

- 1-الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر. تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، الطبعة السابعة، الجزائر، شركة دار الأمة 2010م

2- الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة، د. ت

3- الأمير عبد القادر الجزائري، المذكرات، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849م تنشر لأول مرة، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، الجزائر، دار الأمة للنشر والتوزيع 2008م

4- الشقراي الراشدي أحمد بن عبد الرحمن، عصر الأمير عبد القادر، ويليهِ القول الأوسط في الأخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، الجزائر، دار البصائر، د. ت

5- الكولونيل سكوت، مذكرات عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841م، تر إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981.

6- ابن التهامي الحاج مصطفى، سيرة عبد القادر وجهاده، تحقيق يحي بوعزيز، لبنان، دار الغرب الاسلامي 1995م، ص. 107

7- أ. ف دينزين، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية، تر أبو العيد دودو، الجزائر، دار هومة 2009

8- تشرشل شارلز هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر، عالم المعرفة 2009م

9- كارل بيرنت يوهان ودينزين. أ. ف، الأمير عبد القادر، ترجمة أبو العيد دودو، الجزائر، دار هومة 2009م

10- لويس أدريان بيروجير، مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير عبد القادر في البويرة 1837-1838م، تر أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار غرناطة للنشر والتوزيع 2010م

11- يوهان كارل برنت، الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع 2003م.

ب- باللغة الفرنسية:

12- GEORGE YVER, Correspondance du Capitan DOUMAS, consul a mascara (1837-1839), Alger, typographe Jourdain 1912

13- PERE J CUSAC, Un géant de L'apostolat Le cardinal la vigerie, Libraire Missionnaire 26 rue vavin Paris 1903

2- المراجع

أ/ باللغة العربية

14- العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الطبعة الثانية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1982م.

15- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر حقائق ووثائق بين الحقيقة والتحريف، الجزائر، دار المعرفة للنشر 2008م.

- 16- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط1، ج3، لبنان، المركز الثقافي العربي 1999م.
- 17- العسلي بسام، الأمير عبد القادر، لبنان، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت).
- 18- بوعزيز يحيى، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الجزائر، مؤسسة ابن خلدون للنشر والتوزيع 2002م.
- 19- خليفني عبد القادر، محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة 1830-1962، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت.
- 20- سعد الله عمر، القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر 2007م.
- 21- مناصرية يوسف، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832م-1847م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 2009م.
- 22- يحيى جلال، العالم العربي الحديث والمعاصر، الجزء 1، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث 1998.

ب- باللغة الفرنسية:

- 23- BOUAMRANE CHEIKH, L'émir Abdelkader, Résistant et Humaniste, éditions ENAP2001.P101
- 24- BESSAIIH BOUALEM, De L'émir Abdelkader à L'imam Chamil, Le héros Des Tchétchénes et du Caucase, ENAG, Alger 2008. P 291
- 25- FERRAH ABDELAZIZ, Le temps D'une Halte Rencontre Avec L'émir Abdelkader, Deuxième édition, Les éditions APIC 2004, P 282

3- المقالات والرسائل:

- 26- البوعبدلي المهدي، وثائق أصلية تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر، الثقافة، ع75، الجزائر، وزارة الثقافة 1983م
- 27- بلبروات عتو، اهتمام الجامعات الجزائرية بالأمير عبد القادر 1808-1883، كتاب جماعي الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر 2014م.
- 28- بوعبيد محمود، الأمير عبد القادر الإنسان، الثقافة، ع75، الجزائر، تصدرها وزارة الثقافة والسياحة 1983.
- 29- سلطانة عابد، قبائل معسكر ودورها في دعم مقاومة الأمير عبد القادر من خلال مراسلات القنصل دوما 1837-1839، كتاب جماعي حول معسكر المجتمع والتاريخ، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر 2014.
- 30- بن جبور محمد، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الأمير عبد القادر 1830-1847 من خلال الأرشيف المغربي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وهران 2012.

التنوع الخطابي عند الأمير عبد القادر وأهميته في إنجاح المقاومة الجزائرية (1832-1847م)

د. لطرش حنان، أستاذة محاضرة قسم أ

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

توطئة:

تعتبر مقاومة الأمير عبد القادر ملحمة بطولية مستمدة من أصالة الشعب الجزائري الذي دافع عن هويته منذ بداية الاحتلال الفرنسي، وذلك من خلال مقاومته العسكرية التي احتاجت الى توعية وتعبئة القبائل الجزائرية للانضمام اليها، باستعمال مختلف الأساليب الخطابية. يمكننا القول أنّ الأمير عبد القادر استعمل اساليب خطابية متنوعة، وذلك لتنوع مقاومته حيث أن سر نجاح مقاومته يكمن في اعتماده على المقاومة الفكرية والسياسية والمسلحة ليتمكن من الحفاظ على دولته. لهذا وجب عليه استعمال أساليب متنوعة من الخطاب كالخطاب الديني والأخلاقي والتراثي والفلسفي الصوفي انطلاقا من تشبعه بالثقافة العربية وبعدها الروحي الصوفي المتمثل في انتمائه لطريقة القادرية وكذا انتمائه القبلي لنسبه الشريف بني هاشم، كما أنه استعمل الخطاب الفلسفي الإصلاحى القائم على اجتهاداته وتأثره ببعض مزايا الحضارة الغربية كبناء المدن وتشبيد الحصون، فكل هذه العوامل تداخلت وتكاملت لتشكيل خطاب مقاومة الأمير عبد القادر، ونتناول هذه الدراسة من خلال العناصر الآتية.

أولاً- مفهوم الخطاب:

1- تعريف الخطاب لغة واصطلاحاً

-لغة: كلمة الخطاب لغوياً مستمدة من الفعل الثلاثي "خَطَبَ"، والخطب هو الشأن صغر أو عظم، وخطب الخاطب على المنبر خطبة -الخطبة اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب-، والمخاطبة هي المحادثة، أما الخطاب فهو الكلام المتبادل بين شخصين أو أكثر¹، وهو مجموع التعابير الخاصة التي تحدد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الأيديولوجي².

وقد جاء في لسان العرب أن كلمة الخطاب تعني الخطاب والمخاطبة أي مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما يتخاطبان ومن ثم فهو كلام يتم بين متخاطبين بقصد الافهام، اما المفهوم الثاني للخطاب في لسان العرب فهو مستنبط من قوله تعالى "و شددنا ملكه وأتيناها الحكمة وفصل الخطاب" وهو معنى يدل على الكلام الراشد والمنطقي، ويفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده³.

-اصطلاحاً: يعرفه الدكتور محمد شومان بأن الخطاب طريقة معينة للتحدث عن الواقع وفهمه كما أنه مجموعة النصوص والممارسات الخاصة بإنتاج النصوص وانتشارها واستقبالها مما يؤدي إلى إنشاء وفهم الواقع الاجتماعي، فالخطاب هو واقعنا الاجتماعي ومن دونه لا يمكن فهم واقعنا وتجارنا⁴.

¹ -جان نعوم طنوس، تحليل خطاب، مفاهيم نظرية ونصوص تطبيقية، ط1، دار المنهل اللبناني، بيروت، 2014،

. سعيد علوش، معجم الدراسات الأدبية، الدار البيضاء، لبنان، 1985 ص. 83. ²

. ابن المنصور، لسان العرب، دار الجليل ودار لسان العرب، بيروت 1988، مج 2، ص 856 ابن منظور أبو

الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ج14، مادة (خطب) ص 1194 ³

. محمد شومان، تحليل الخطاب الإعلامي، الدار المصرية، لبنان 2007، ص26 ⁴

أما المفكر الفرنسي ميشل فوكو فيعرف الخطاب بقوله أنّ الخطاب مجموعة من الملفوظات بوصفها تنتمي إلى نفس الشكلية الخطابية فهو عبارة عن عدد محصور من الملفوظات التي تستطيع تحديد شروط وجودها¹، فالخطاب هو توجيه الكلام نحو الغير للإفهام وفي اصطلاح الحكماء مجموع قوانين يقدر من خلالها على الاقتناع في الموضوع المراد وحمل السامع على التسليم بصحة القول وصواب الفعل أو الترك².

2- خصائص الخطاب:

الخطاب نمط من الأفعال: إذ هناك من يرى أن اللغة هي أقوال تتحول إلى أفعال مختلفة باختلاف السياقات التي ترد فيها. وقد تدعم هذا التوجّه بنظرية الأفعال الكلامية التي طوّرها "أوستين" و"سيرل". "الخطاب تفاعل يتجلى في المحادثات التي يسعى فيها أصحابها إلى التنسيق بين مختلف ملفوظاتهم أثناء تحاورهم. ويشمل هذا النمط الخطابى كلّ ما يصدر عن المتكلم من خطاب، أحضر المستمع فيه أو لم يحضر، كالمحاضرات، والخطابات السياسية... الخ وعادة ما يخضع الخطاب لمجموعة من المعايير الاجتماعية والأخلاقية، تتكفل قوانين الخطاب بتبianaها، فالأفعال الكلامية كالأمر والوعد والنهي... لا يمكن لها أن تصدر دون الخضوع لمعايير حدّتها الأخلاق والقيم الاجتماعية والثقافية والدينية³.

3- تصنيفات الخطاب :

على العموم يصنف الخطاب إلى أنماط مختلفة استنادا إلى مجموعة من المعايير وهي المجال والقصد والآلية والقناة على النحو التالي⁴:

1. ميشل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد بيسيلا، دار الشوير، بيروت 2007، ص. 5¹

2. الشيخ علي محفوظ، فن الخطابة واعداد الخطيب، دار الاعتصام، ص 13

3 G. Mounin (1974) : Dictionnaire de la linguistique, Quadrigue

4. صورية جغبوب ومرتم بوقرة، الخطاب: مفهومه أنماطه ووظيفته من وجهة نظر الوظيفية أحمد المتوكل نموذجاً،

*من حيث المجال : لكل مجال مواضيع ومصطلحات خاصة به، فالمجال الأدبي مثلا يختلف عن العلمي وعن السياسي، ومنه ينعت الخطاب بالأدبي والعلمي والسياسي والايديولوجي...

*من حيث القصد او الهدف : تختلف أنماط الخطاب باختلاف الأهداف المنشودة من الخطاب فيكون الخطاب إخباريا أو إقناعيا أو تضليليا أو تفسيريا أو العكس.

*من حيث الآلية: والتي ترتبط بالأسلوب فيختلف الخطاب باختلاف الآلية المستخدمة، فيمكن أن نميز بين الخطاب السردي والخطاب الوصفي والخطاب الحجاجي.

ويرى " دومينيك منغو Dominique Maingueneau"¹ أن التصنيف العام الذي يوزع الخطاب حسب عائلات كبرى-حسب الموضوع- إلى خطاب ديني، خطاب إخباري، خطاب سياسي.... هو تصنيف غير واضح تماما، فالتمييز بين نماذج الخطاب Types de discours وأجناس الخطاب Genres de discours يستلزم مواقف تحليلية مختلفة، على سبيل المثال، يصنف الخطاب إلى خطاب تعليمي وخطاب توجيهي حسب هدفه الاتصالي (Sa visée communicationnelle).

وحسب رأي الدكتور عمير اوي احمدية: فالخطاب يكون في التفكير العقلي ضمن إطار منهجي إيديولوجي ويتحدد بملفوظات خطابية تنم عن اتجاهات فكرية، في أشكال خطابية كلامية وفي ممارسات نظيرية وكلها مشدودة إلى مرجعية ثقافية ومطبقة بمنهجية علمية وتسعى إلى تحقيق أهداف مستقبلية وبهذا يكون مفهوم الخطاب المعني في المقاومة الوطنية الجزائرية، هو الممارسة والإبداع (المتحرك) أي بأكثر من مضمون والذي يكون فكريا وسياسيا أو إصلاحيا والذي يختلف عن مفهوم الخطاب في اللسانيات واللغة تراثا واحترار الثابت في المضمون المعرفي الواحد ، ولا يمكن

مجلة تاريخ العلوم، العدد العاشر، ديسمبر 2017، ص 302-303

¹Roselyne Ringoot, Analyser le discours de presse, Armand Colin, Paris, 2014, p12

للخطاب أن يكون معزولا عن الفعل الفكري في المسار التاريخي بل يكون ملتصقا بالموقف الإيديولوجي ومن ثمة تكون من مهام هذا الخطاب تكريس الرهان السياسي الموافق مع المحيط الاجتماعي لهذا تتجلى مظاهره في التنظير لتطوير الواقع أو في الضغط الرافض للهيمنة وللمصادرة ، ومن هنا يمكننا القول إن فكر الامير يتجسد من خلال خطاباته المختلفة لمقاومة مختلف الأخطار سواء الداخلية أو الخارجية .

يتعدد الخطاب من مستوى إلى آخر فقد يكون خطاب ما مدركا للواقع الذي يعيش فيه من دون أن يكون قادرا على تغيير ذلك الواقع (إسكانه) وهذا النوع ليس بالتأكيد للأمير ، بينما هناك خطاب يكون مدركا للواقع ومنظرا له، في حين يكون خطاب آخر مدركا ومنظرا وقادرا على التغيير، أي أنه قادر على حل مشكلات الواقع ويحدث أن يكون خطاب آخر ليس مدركا ومنظرا وقادرا على التغيير بل مشكلات الواقع فقط، بل يكون ذا مشروع ضامن الاستمرار أيضا كفعل حضاري¹، وقد يتجسد هذا من خلال مقاومة الأمير حيث أن هذا الأخير لم يقم بمجرد مقاومة عسكرية بل حاول إيجاد أسس يتمكن من خلالها في إحداث التغيير لما هو أفضل لمجتمعه وذلك ليتمكن من مواجهة كل المشاريع الفرنسية الاستيطانية.

4-أنواع الخطاب:

للخطاب أكثر من نوع، فهناك خطاب قانوني، خطاب اجتماعي سياسي، وخطاب الأدبي والفني، خطاب إعلامي ومعلوماتي، وخطاب منطقي علمي، وخطاب تاريخي، وديني، وفلسفي أخلاقي... الخ².

1. عميراوي احمدية، مواقف نضالية وإصلاحية، دار الهدى، عين مليلة 2009، ص. 105

2. بسام مشاقبة، مناهج البحث الإعلامي وتحليل الخطاب، دار أسامة، عمان، الأردن 2009، ص. 13

أ-الخطاب الديني: وهو أكثر أنواع الخطابات عمومية بكل أشكاله ومدارسه وتنوعاته سواء كان مقدسا أو دنيويا، ويمتاز الخطاب الديني بأنه سلطوي أمري يطالب بالإيمان بالغيب بالقضايا العقيدية ويعتمد على التصوير الفني وإثارة الخيال والحياة المستقبلية وما بها من وعود وخلص من آلام الشر فهو خطاب عقائدي كما هو في علم الكلام أو باطني كما هو في التصوف أو تشريعي كما هو في الفقه.

ب-الخطاب الفلسفي: تخرج هذا الأخير من منعطف الخطاب الديني لكنه حاول تطوير الخطاب الديني من حيث نزع الجانب العقائدي النقلي السلطوي وتحويله إلى خطاب عقلي برهاني، يمتاز هذا النوع من الخطاب بالحوار والرأي والرأي الآخر، قادرا على التعميم والصياغة النظرية للقوانين إنساني النزعة منفتح على الحضارات الأخرى، يخاطب جمهور العقلاء بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية والسياسية وتزدهر به الحضارات¹.

ج-الخطاب الأخلاقي: وهو الخطاب الفضائل والتميز بينها وبين الرذائل يختزل العقائد والنظريات إلى مجرد سلوك فاضل ومعاملة حسنة واشتهرت به مدرسة فلسفية أخلاقية واعتبرت الأخلاق جوهر الآيات².

د-الخطاب التراثي: وأساسه اللغة الدين والعرف السائد كقناعة ومبدأ لدى شعب ما.

ه-الخطاب الإصلاحية: يقوم على إصلاح جوانب من حياة المجتمع³.

. بسام مشاقية، مناهج البحث العلمي وتحليل الخطاب، ص.13. ¹

. ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد 2004، ص.40 ²

. عميراوي الحميدة، بحوث تاريخية، دار الهدى، عين مليلة، 2006، ط.2، ص.196 ³

و-**الخطاب التاريخي**: هذا النوع من الخطاب يركز على المواعظ واستفادة نماذج بطولات التاريخ ومفاخره، فالحاضر كله في الماضي والمدينة الفضيلة كانت في عصر النبوة والخلفاء الراشدين وستعود بعد الموت في الحياة الأخروية فالخبر في هذا الخطاب أحد مصادر المعرفة¹. وقد أدرجنا مختلف هذه المفاهيم لنتمكن من معرفة أي نوع من هذه الخطابات استعمل الامير لبسط نفوذه واستمراره في مقاومته رغم المشاكل الخارجية والداخلية التي واجهته.

ثانيا- مفهوم المقاومة وأنواعها:

1- تعريف المقاومة لغة واصطلاحا

-**لغة**: تعني مقاومة شيء لشيء آخر كي يحل محله²، و**اصطلاحا**: هي رد الفعل ومواجهة العناصر الدخيلة ورفض تقبلها والتصدي للاعتداءات التي تقع من طرف أي أجنبي³. وحسب الدكتور عميراي فالمقاومة لغة ليس لها نفس المعنى في الفيزياء أو المقومية في الميكانيك فمقاومة الشيء لشيء آخر لكي يحل محله بناء على هذا يكون كل جزائري أو فرنسي قد قاوم الآخر لكي يحل محله، بينما نجد تاريخيا أن المقاومة ولدت كرد فعل جزائري ضد فعل فرنسي، وعليه يكون المصطلح غير متطابق تاريخيا على معناه اللغوي لذلك يكون استعمال الجهاد بدل المقاومة لان كلمة الجهاد أدل وأوسع⁴. ومن هنا يتضح لنا أن مصطلح الجهاد هو أدق وأعمق دلالة لما قام به الجزائريون من ردود الفعل المختلفة عبر كامل التراب الوطني.

1. بسام مشاقبة، المرجع السابق، ص، 116، 117.

2. ابن منظور، لسان العرب، ص. 2.

3. محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1945، منشورات المتحف الوطني للمجاهدين، الجزائر 1994، ص. 19.

4. عميراي احميدة، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، ط2، عين مليلة، 2004.

وحتى تتمكن من تحديد أنواع الخطاب في مقاومة الأمير علينا قبلًا تحديد أنواع المقاومة لنجسد من خلالها ما هو الخطاب الذي استعمله الأمير في مقاومته؟

2-أنواع المقاومة:

أ-المقاومة السياسية:

ففي الموسوعة السياسية نجد أن المقاومة بالمعنى السياسي تعني الوقوف في وجه الاعتداء سواء كان مصدره قوة أجنبية غازية أو قوة داخلية مستبدة¹.

وهي عمل سياسي يقوم به طرف ما قد يكون هو صاحب الحق الشرعي من جل التأثير على السلطة والضغط عليها لغاية ترك البلاد أو إرغامها على وضع مشاريع تخدم الصالح العام، وقد برز هذا النوع في العاصمة وسلك طريق التفاوض والسلم مع السلطة الفرنسية لأنها أدركت تفوق خصمها وعدم مناسبة الظروف لها، ومن قادتها حمدان خوجة، أحمد بوضربة².

كما قام الامير بذلك خلال مقاومته مستندا في ذلك على شرعية وصوله للحكم عن طريق البيعة ومن ثم وجب على الجميع الانسحاق والخضوع لأوامره، عبر كامل التراب الوطني وبين مختلف الفئات الاجتماعية لذلك استعمل القوة ضد كل من رفض بيعته وامتنع عن البيعة له.

ب-المقاومة المسلحة:

وهي أسلوب انتهجه الجزائريون بقيادة زعماء روحين برزوا في الأرياف والبوادي وكانت المقاومة شعبية مسلحة ببساطتها وأساليبها التقليدية بمثابة السبيل الوحيد الذي اختاره الجزائريون

1-احمد عطية الله القاموس السياسي

2-عميرواي احميدة، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، ص.ص. 116، 117

لحفاظ على أرضهم وطنهم، وقد كان الوازع الديني هو القوي لمختلف المقاومات الشعبية المسلحة التي احتضنها الريف الجزائري إلى غاية بداية القرن العشرين.¹

وجاءت هذه المقاومة لعدة أسباب:

- عدم احترام السلطة الفرنسية بما تعهدت به من احترام السكان ودينهم وممتلكاتهم وفقا لما جاء في المعاهدة.

- الغيرة على الدين الإسلامي خاصة أن السلطة الفرنسية راحت تتصرف على أنها سيدة البلاد وأن الواجب الديني يقتضي منها تأديبها ومنع نشر المسيحية خاصة بعد تحويل بعض المساجد إلى كنائس وكانت تبرر ذلك بقولها أنه لا فرق بين أن تكون الكنيسة مكان المسجد مادام الله واحد.

- مصادرة الفرنسيين لأموال الجزائريين وأراضيهم وفرض الضرائب عليهم... الخ

وكل ذلك وغيره من الأسباب ضاعف من سخط السكان ورؤسائهم الذين تزعموا لواء المقاومة الشعبية تحت راية الجهاد في سبيل الله والأرض والشرف، ففي ضواحي العاصمة تولاهما أمثال ابن زعمون، والحاج سيدي السعدي ومحي الدين بن المبارك؟

ويعتبر ابن زعمون وهو من قبيلة فييسة من أوائل المقاومين لتقدم الجيش الفرنسي نحو البليدة غير أن قواته قد انهزمت في 1831م بسبب سوء التنظيم، بعدها انضم إليه كل من سي سعدي والحاج محي الدين على رأس قبائل كثيرة حيث توالى الهجومات على الجيش الفرنسي محدثة ردود فعل في الأوساط الفرنسية خاصة والإدارة المحلية والحكومة فشنت حرب إبادة ضد الأهالي² وانتهت

. عبد الوهاب بن خليف، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، دار طليطلة، الجزائر 2009، ص. 67¹

. ابو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال، عالم المعرفة، 2009، ص. 87²

بانتصارهم لعدة أسباب منها عدم تكافؤ الطرفين في القوة والتحكم في الميدان¹ فانضم بعدها بجميع قواته إلى صفوف الأمير².

أما سيدي السعدي³ التحق مباشرة بصفوف المقاومة بعد رفضه دخول مدينة الجزائر وهي تحت السلطة الفرنسية، وانضم إلى محمد ابن زعموم فكان بحق الرجل الروحي للمقاومة، كما عينه الأمير عبد القادر خليفة له على متيجة ما بين 1835م. 1837م، وقد توفي سنة 1843م.

أما محي الدين بن مبارك، فهو مرابط مدينة القليعة عين أغا على العرب في منطقة متيجة سنة 1831م امتاز بالحكمة والورع والنظام غير أنه فيما بعد انضم للأمير عبد القادر وعينه خليفة له على مدينة مليانة وأصبح من المقاومين البارزين⁴.

أما عن المقاومة في الغرب الجزائري فأثما تكاد تكون مند البداية منظمة وذلك بفضل تنوع خطاب وجهود الأمير عبد القادر كما سنوضحه لاحقا.

ج-المقاومة الفكرية:

وهذا النوع من المقاومة أساسه الدين، فكل المستويات الفكرية الجزائرية التي رفعت لواء المقاومة جعلت من الدين الإسلامي العماد الأقوى في كفاحها على الرغم من اختلاف تكوينها واختلاف وجهات نظرها إذ كانت السلفية والطرقية الصوفية والتجديدية⁵، والتي تنعت

1. عميرواي احميدة، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية 1827.1840، دار البعث قسنطينة، ص. 130¹

2. ابو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. 87²

3. فهو من عائلة دينية ثرية لها زاوية قرب سيدي عبد الرحمان الثعالبي فقد ترعرع في وسط ديني، وقد أدى فريضة الحج 1827م وبقي لمدة عامين بالمشرق وأثناء عودته زار مدينة ليفورنيا والتقى بالداي حسين بعد نفيه

4. ابو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. 90⁴

5. لسلفية: هو الفكر القائم أساسا على النص القرآن الكريم والحديث الشريف والهادف إلى إعادة المجتمع الإسلامي إلى صفاتها الأولى.

الاحتلال باسم "المسيحي الكافر"، ومن شعاراتهم الجهاد وخاصة شيوخ الدين السنيين والطرقين الدين مزجوا الدين بالسياسة وحاولوا تولي السلطة خاصة بعد انهيار الخلافة العثمانية وحدث فراغ في السلطة. حيث دعا السكان إلى إعلان الولاء إلى بعض الزعامات الجزائرية وقد لعبت الزوايا دورا كبيرا في تنظيم الصفوف والذال على ذلك أن أغلب الانتفاضات التي قامت ضد التوسع الفرنسي إنما كانت بتحريض من شيوخ الزوايا وفي مقدمتها زوايا الطريقة الرحمانية والقادرية، وأحسن دليل على ذلك المقاومة التي قادها الأمير كان أساسها طريقا وأن المقاومة الشعبية كانت تعتمد على قوة إيمانها، كما أن هذا النوع من المقاومة تمكن من حفظ التوازن للشخصية الجزائرية في جهود الشيوخ¹.

ثالثا-أسس مقاومة الأمير عبد القادر وتجليات خطابه وامتداد نفوذ دولته:

لقد كانت المقاومة الوطنية المسلحة من أبناء الجزائر شاملة عمت كامل الأقاليم، منها مقاومة الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري من 1832م إلى 1847م، ومن خلال طرحنا سنحاول الاجابة على تساؤلاتنا السابقة والمتمثلة في نوع المقاومة التي قام بها الأمير وماهي أساليب خطابه

التجديدية: هو الفكر القائم على حرية الفكر والتجديد والانبهار بالغرب عميرواي احميدة، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، ص.105

الطرقية: وقد ظهرت في الجزائر خلال القرن 16، ثم أخذت تنتشر على نطاق واسع خلال القرن 18م والرابع الأول من القرن 19م ولها دور كبير في معظم الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية وقد أعدها البعض ب 16 طريفة وقد وجدت زواياها في كل أنحاء الوطن سواء للتعليم أم للإطعام أم لتقبل الهدايا، إلا أن الطرقية تمكنت من الانتشار وما أن جاء الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر حتى عمل الطرقيين على توحيد القبائل التي تبلورت خاصة بظهور دولة الأمير عبد القادر

عميرواي احميدة، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، ص.32، 33.

. عميرواي احميدة، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، ص. 111¹

التي مكنته من جعل مقاومته لا تقتصر على الجهاد فحسب؟ فما هو سر نجاح الأمير في جمع لواء القبائل تحت سلطته؟ وما نوع الخطاب الذي استعمله ليخضع تحت لوائه وتمكن عن طريقه من تأسيس دولة ذات بعد وطني ودولي؟ وما نوع المقاومة التي واجهه من خلالها التوسعات والمشاريع الاستعمارية الفرنسية؟ خاصة وأن مقاومة الأمير عبد القادر تطورت إلى حركة وطنية جمعت شمل العشائر القبائلية، حيث التحمت فيما بينها للوقوف أمام الخطر الخارجي عن طريق مبايعة عبد القادر أميراً عليها وبدوره طور هذه الحركة إلى أن أصبحت دولة¹، تركز على مصادر وأهداف مشروعة وأساليب متنوعة في الخطاب والمقاومة، مما أوسع نفوذها ومشروعيتها في الداخل والخارج.

1- مصادر وأسس مقاومة الأمير وأساليب خطابه:

بعد البيعة انكب الأمير على تنظيم هذه الدولة بأن وزع المهام على رجال أكفاء ومحل الثقة ثم وجه النداء إلى القبائل لوحدة الصف وتابع هذا النداء بمحاربة كل من خرج عن طاعته منهم بنو عامر، وذلك ليتمكن من التفرغ لمحاربة الفرنسيين، وبفضل نجاحه وانتصاراته تمكن من إحداث ردود فعل من طرف الفرنسيين والجزائريين، ونلمس هذا من خلال نجاح مقاومته السياسة التي بنى من خلالها دولته، معتمداً في إنشائها على أسس إسلامية، حيث كان **مصدره الأول** الشريعة الإسلامية ويتضح ذلك من خلال البيعة، والألقاب الخاصة بنظام حكمه كاتخاذ لقب الأمير وليس السلطان أو الملك².

فقد أدرك الأمير أن دوره خلال هذه الفترة يركز خاصة على الجهاد لذلك فأنسب لقب هو الأمير، كما أن البيعة مطابقة للشريعة الإسلامية وهي لا تحدد مدة المبايعة ولا تحدد صلاحيات الأمير، وبهذا أصبح عبد القادر أميراً مبايعاً فالتزم حدود الشريعة الإسلامية وأسس علاقاته مع

1. عميرايو احميدة، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية، ص. 218.

2. عميرايو احميدة، موضوعات في تاريخ الجزائر السياسي، ص. 21.

مختلف الجهات انطلاقا من هذا الاعتبار أي انه حارب كل من خرج عن بيعته باعتباره الحاكم الشرعي خاصة وأنه من الناحية الدينية لا يجوز أن يتنازل لزعيم آخر لم يبايعه المسلمون لأنه مسؤول أمام الله وليس أمام الرعية ويتضح ذلك من خلال البيعتين:

- نص البيعة ديني مستمد من الكتاب والسنة.

- المبايعة جاءت بطلب من أهل الحل والعقد.

- جاءت البيعة بعد نهاية الحكم العثماني.

- إيمان علماء الجزائر الذين بايعوا الأمير بأن الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن.

- اختيار عبد القادر ليكون إمام عدل مبني على توفر شروط الإمامة فيه على المذهب السني

"حزم وعزم وعقل سليم وذات سليمة..."

-الهدف من البيعة إقامة دولة سنية¹.

كما يتضح ذلك من خلال الشعارات التي وضعها على العملة والتي تعتبر رمز مهم من رموز

السيادة ك: الفرنكان، الفرنك ونصف الفرنك، حيث كتب على وجه الفرنكان ما يلي: "ومن يتبع

غير الإسلام دينا فلن يقبل منه"، وعلى وجه الفرنك "إن الدين عند الله الإسلام"، وعلى وجهي

نصف الفرنك "ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا"².

-المصدر الثاني الذي أعتمد عليه الأمير في مقاومته هو اعتماده على ثقافته العربية

الواسعة في مختلف العلوم وفروع الأدب، حيث درس من كتب الأدب والفقه والفلسفة والحديث

والجغرافيا والتاريخ والفلك... الخ³، ونلمس هذا من خلال أشعاره ومؤلفاته ورسائله، منها المقراض

الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطن والإحاد، وهي رسالة مطولة كتبها بسرارية

. عميراوي احميدة، موضوعات في تاريخ الجزائر السياسي، ص18، 19. ¹

يحي بوعزيز، الامير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، دار البصائر، الجزائر، ص85، 86. ²

. عميراوي احميدة، ابحاث في الفكر والتاريخ، دار الهدى عين مليلة 2003، ص119. ³

(أمبواز) في فرنسا وذلك ردا على الطاعنين في الإسلام بقصد النيل من أصله ومبادئه، المواقف: وهو كتاب في علم التصوف من 3 أجزاء، ذكرى العاقل وتنبية الغافل وهي رسالة مطولة كتبها للأكاديمية الفرنسية عندما بلغه أن علماءها منحوه عضويتها وسجلوا اسمه في قائمة أعضائها باعتباره من مفكري ذلك العصر وقد تناول فيها عدة مواضيع في مختلف العلوم مثل التاريخ والفلسفة والدين والإصلاح الاجتماعي والأخلاقي وكانت الرسالة كلها مليئة بالأفكار الجديدة والحكم ومختلف التوجيهات المبنية على التجربة وبعد النظر¹، وقد استغل ثقافته العربية الإسلامية لصالح إنجاح مقاومته منتهجا الخطاب الديني والفلسفي والتاريخي والأخلاقي والإصلاحي لأنه مدرك تمام الإدراك أن المقاومة العسكرية لوحدها لا يمكنها هزيمة دولة كفرنسا بل يجب أن تكون الى جانبها المقاومة الفكرية والسياسية و قد جسد ذلك في الواقع من خلال الاسس التي بنى عليها دولته و التي تدل على عبقريته المتكاملة في جميع المجالات.

-أما المصدر الثالث للمقاومة فيتمثل في الاعتماد على البعد الروحي والصوفي، فالطرق الصوفية ذات السلطة الروحية والدينية وحتى المدنية لها من الولاء الشعبي ما يضاهي بل يفوق الولاء لنظام الحاكم، كما كان لها دور هام في إقرار التوازن الاجتماعي بين الريف والمدينة، وقد حاول الأمير وضع استراتيجية دولته على هذا الأساس، خاصة وأن أصول تربيته صوفية (انتمائه للطريقة القادرية).

وبما أن الريف حسب قناعة الأمير هو الذي يشكل الأغلبية في بنية المجتمع الجزائري، بسبب اعتماده على الأرض التي تعبر عن هويته، وعلى هذا الأساس يكون المكان للجزائري هويته أكثر مما هو عيش مادي فحسب، وقد حاول الأمير الاعتماد على الخطاب الصوفي لأنه الفضاء الروحي

. يحي بو عزيز، المرجع السابق، ص 98. ¹

والوجداني الذي يتجاوز الحيز المكاني إلى ما بعد أفق الإنسان¹، ومنه يمكننا القول عن خطاب الأمير عبد القادر انه جمع بين مطالب التصوف والدين ومطالب السياسة والحرب في إطار الخصائص الذاتية المرتبطة باتمائه الحضاري، والخصائص الإنسانية للحوار والتسامح والعيش المشترك، والتعايش بين الحضارات والديانات. فالأمير عبد القادر تختلف رؤيته الإنسانية والتي تتضح من خلال خطابه الصوفي حيث تكون النظرة الى الانسان من حيث كونه تجلياً² من تجليات أسماء الله بالتعبير الصوفي وبالتالي لا يوجد تمييز على أساس الاختلاف الديني فالفلسفة الصوفية للأمير عبد القادر حسب ذكره: "فكل شيء من الأشياء هو تجلٍ من تجلياته تعالى"³ وذلك سيفسر كل الاختلافات والتعددات الموجودة بين الطوائف والأديان بأنها مظاهر وتجليات لمعاني الألوهية. أما منهجه الصوفي فيتميز في كونه ينطلق في البداية مما يمكن أن نسميه التفسير الظاهري للنصّ القرآني، إذ يعرض أقوال المفسرين السابقين وأحياناً اللاحقين، فمثلاً في تقديمه لكتاب المواقف يقول: "بأنه يدرك عن الحق بفهمه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بالفهم الرباني"⁴، وهو في كلامه في هذا المجال يخاطب الخاصة غير المقلّدين: "إذا كنت مقلّداً فإنّ كلامي ليس معك"، وهو رغم تأثره بالشيخ الأكبر ابن عربي إلّا أنّه يعتبر شارحاً له وبالتالي هو من دعاة الفهم الجديد للدين⁵. وهذا يدلّ على التطور وتجديد الفكر الصوفي⁶. كما تأثر الأمير بسبب اتجاهه الصوفي بنوعية الخطاب

. عميرايوي احميدة، موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي، ص 52. ¹

²التجلي والجلء لغة بمعنى الخروج. أنظر: ابن منظور (د.ت)، لسان العرب، المجلد التاسع، دار صادر، ص 24.

³ - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبية الغافل. تقديم سليمان عشراقي، وهران: الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 95.

⁴ الأمير عبد القادر، نفسه، ص 82.

⁵ الأمير عبد القادر، نفسه، ص. 43.

⁶ غراس، عبد الوهاب. (2011). أطروحة دكتوراه في الفلسفة غير منشورة. الحدث التاريخي في اللحظة الصوفية من خلال تجربة الأمير عبد القادر. إشراف محمد عبد اللاوي، جامعة وهران، ص 118.

الجهادي ضد الاستعمار الفرنسي ومحاربة الظلم وهي عناصر أساسية في التصوف القائم على الفتوة والرباط هنا تتجسد قيم الفتوة بوصفها مقاما صوفيا ليس فقط في الشجاعة بل في تسامحه مع الخصوم وحمائته ودفاعه عن المستضعفين¹.

-أما المصدر الرابع لمقاومة الأمير عبد القادر ضد سياسة فرنسا الثقافية والتي اعتبرت الشعب الجزائري بربري لا صلة له بالتمدن والحضارة، هو اجتهاداته وتأثره ببعض مزايا الحضارة الأوروبية، مستغلا الخطاب المنطقي العلمي وقد جسد ذلك من خلال تشييد الحصون وبناء المصانع والمباني وإنشاء السدود وترميم القلاع كتشييده لحصون "سعيدة"، و"سبدو" في الجهة الغربية و"بوغار" و"سباو" و"بوخرشفة" و"تازا" و"تاكدمت" في الجهتين الشرقية والجنوبية، إضافة لإنشاء المعامل التي تصنع الأسلحة والبارود والرصاص في كل من المدية ومليانة ومعسكر أما في تلمسان فأقام معمل لصنع المدافع²، كما شرع الأمير مند بيعته وتعيينه لرجال الدولة والجيش النظامي في بناء المدن على الرغم من أنه ريفي المولد والنشأة، وكان هدفه الأكبر من وراء ذلك تأسيس دولة إسلامية جزائرية قوية موحدة إذ قال في هذا الأمر "إن الإرادة الإلهية اختارتني لتوحيد شعب يحكمه من ليس له من الإسلام سوى الاسم، إننا نحارب من أجل أرضنا وأطفالنا، ونسائنا وكل ما يتعلق بديننا"³، وبهذا يكون قد ربط تأسيس المدن بهدف الجهاد وهذا يدل على قناعته بوجود علاقة بين الخطاب المنطقي العلمي والخطاب الديني وتكاملهما لتحقيق هدف واحد وهو لم يقتصر في تأسيسه لهذه المدن بهدف الجهاد فحسب، بل شمل أهداف أخرى تتمثل فيما يلي:

-بناء مختلف المدن لأهميتها التجارية والصناعية

¹Bentoune, Kh. Solt, B. (2009). La Fraternité en Héritage-Histoire d'une confrérie soufie. Éditions HIBR, Barzakh. p 26-27

. يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 85، 86.²

³. فريدة قاسي، الدولة في فكر الأمير عبد القادر، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة 1999، ص 111.

- تثبيت وتقوية الدولة الجزائرية

- لحماية المدن الكبرى مثل معسكر بمدن وحصون أخرى

- لمواجهة فرنسا بدولة وسلطة وجيش تواجه الدولة الفرنسية بكل قوتها

- جمع السكان في مراكز حضرية لتسهيل إدارة شؤونهم

- ربط الصحراء بالمناطق الساحلية.

- السيطرة على مختلف القبائل الثائرة¹.

لا يمكن أن ننكر أنه بفضل هذه الاستراتيجية تمكن الأمير من الصمود بحوالي 30000

ألف محارب فقط بين نظامي وغير نظامي أمام قوة فرنسا التي بلغ عدد قواتها ب 106000

محاربا، ومن أهم المدن التي بناها معسكر، تلمسان، تاقدامت، مليانة، المدية، بوغار، سعيدة،

سبدو، تازة، برج حمزة، مازونة، بسكرة، الاغواط.

وبهذا يكون الأمير قد أدرك أن النجاح ضد العدو لا يكون إلا بالاعتماد على مختلف أنواع

المقاومات مستغلا كل أشكال الخطاب ليتمكن من الصمود والنجاح وفي هذا يقول الفريد نيتمان

"لقد كان للأمير طموح كبير وأمال سامية ومشاعر عميقة ومبادئ شريفة لبعث قومية عربية على

أنقاض الإمبراطورية العثمانية"²

فمن عبقرية الأمير أنه أدرك بأن المعركة بينه وبين الفرنسيين لن تكون سهلة وكان واعيا

لمقاصد الدول الأوروبية عامة والفرنسية خاصة المناهضة بمطامعها في دول إفريقيا المستضعفة³.

كما انه كان واعيا بأن الشعب الجزائري من الشعوب التي لا تستسلم بسهولة فصمم على

المقاومة، وقد أدرك الأمير أن المقاومة المسلحة لوحدها غير كافية لمواجهة قوة كفرنسا إذ بقيت

. عميرواي احمدية، موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي، ص 58. ¹

²-nettement alfred ; histoire de la conquete de l'Algérie, écrite sur des documents inédits et authentique ; 2ème édition ; Paris, p 148

³-Rocher ; dix ans à travers l'islam 1834-1844 ; 3édition ; Paris ; 1904 : p69

الجزائر مقسمة إلى مجموعة من العشائر وقبائل متناحرة لدى يجب جمع هذه القوة ضمن دولة واحدة محكمة النظام، ومخاطبتها من منطلق ديني وطرفي صوفي، لذلك اتخذ لنفسه لقب الأمير كما أشرنا سلفا ودعا القبائل لإعلان الطاعة، وكان واعيا أن النجاح في ميدان المعارك لا يكفي لتدعيم سلطته، لذلك قرر أن يقيم سيادته على أرضية أكثر صلابة.

2-تناسق خطاب الأمير مع أهداف مقاومته ومبادئها

حدد الأمير أهدافا ومبادئ لمقاومته، حيث كان يسعى لتحقيق أهداف سامية، لا سيما:

- السعي لتحقيق وحدة الجزائريين في صف قوي
- إحياء الشعور الوطني لدى قبائل القطر الجزائري، وقد حاول تحقق أهدافه عن طريق غرس فكرة الجهاد ضد المسيحي الكافر وذلك حتى يتمكن من الوقوف ضد السياسة الاستعمارية "الاستيطانية" وهذا حتى يتمكن من حماية الأراضي الجزائرية التي اغتصبها المستعمر عن طريق القوة والمصادرة.
- إعطاء البعد الوطني لدولته في إطار تجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الوحدة الوطنية وإعطاء مفهوم عصري لها على أساس الجمع بين الدين والوطنية¹.
- توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.
- دفع الفرنسيين للاعتراف بالجزائر كدولة وعبد القادر أميرا.
- الدفاع عن الحريات الإنسانية
- تدعيم الروح الوطنية الشعبية عن طريق الأخوة والحفاظ على النفس
- نشر الأمن وتأديب الخونة وبالتالي تجميع القوى الوطنية².

¹ C haleur julien ; histoire de l'Algérie contemporaine ; Paris1964 : p179

. محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية من 1830 إلى 1954، ص.35²

وكان الهدف الأسمى من خلال مقاومة الأمير هو جمع شمل الجزائريين وتوحيدهم ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم وبعث الروح الوطنية فيهم وإيقاظ كل قدراتهم سواء للحرب أو للأخلاق أو التعليم ثم توج كل ذلك بطابع الحضارة الحديثة¹، ويظهر ذلك من خلال المبادئ التي أسس من خلالها دولته وتمكن من خلالها مقاومة الاستعمار الفرنسي:

- حيث انبثقت دولته عن شورى وبيعة شرعية جسد من خلالها الخطاب الديني، في وقت كانت فيه الدول في العالم الإسلامي تعيش على السلطانية والحكم الموروث،
- كما اعتمد على مبدأ الشورى في دولته حتى يبين أن سلطته لم تكن مطلقة بل كانت معززة بمجالس للفتوى والشورى وضبط الخطط والقوانين، فقد اعتمد الشورى المعروفة عن السلف الصالح ويمكن القول أن استعانته في مقاومته بالخطاب الديني الفلسفي التاريخي مكّنه من توسيع نفوذ دولته، كما حرص الأمير على إبعاد الطابع الفردي والاستبداد عن حكمه حيث اعتمد على المشاورة حتى خارج الوطن، إذ كان يستعين برجال العلم من الأزهر والزيتونة وجامع القرويين بفاس، وكبار المدرسين بالعواصم الإسلامية، وذلك حرصا على استكمال الإجماع وضبط الاجتهاد وربط الصلات بين أطراف الأمة الإسلامية الواسعة².

- اعتماده على مبدأ الالتزام بالقانون، مجسدا ذلك في أرض الواقع، حيث كان شعاره (سأحكم والقانون في يدي) ويتمثل القانون عنده في تطبيق الشريعة الإسلامية³، ويمكن اعتبار هذا كنوع من الخطاب التراثي الإسلامي، والخطاب القانوني.

. تشارشل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أ بو القاسم سعد الله، الدار التونسية، تونس 1974، ص. 148¹

. مزيان عبد المجيد، عبقرية متكاملة، الثقافة، ع(خاص) 75، 1983، ص. 6²

. شريط عبد الله، مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير ونظرية ابن باديس، الثقافة، ع 57، 1983، ص. 237³

-الالتزام بمبدأ المساواة، حيث بنى دولته على المساواة وعدم التمييز وهذا ما تميزت به الخلافة الراشدة، ويتجسد ذلك من خلال قول الأمير "... لا تسألوا أبدا عن أصل الرجل بل أسألوا عن حياته وأعماله وشجاعته ومؤهلاته..."¹، خاصة وأن الحكم السابق قام على امتيازات الأتراك والكولغلي وقبائل المخزن وفرض الضرائب خاصة أواخر العهد العثماني، حيث اعتمد على نهب السكان لصالح هذه الفئات المتميزة، فما كان على عبد القادر عند مبايعته إلا أن تعهد بالقضاء على كل المفاسد وأقام بذلك نظاما إداريا وقضائيا وماليا يتساوى في الجميع أمام القانون والضريبة والخدمة العسكرية²، ومن خلال هذا يتضح لنا أنه قد يكون هدف الأمير من خلال تجسيد دولته على هذه الأسس تحقيق الخطاب القانوني الاجتماعي السياسي التراثي الإصلاحية.

-اعتماده على مبدأ الجهاد فهو يفضل الجهاد على بقية المناسك الإسلامية الأخرى:

عبد الحرمين لو أبهرتنا

لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه

فصدورنا بدمائنا تتخضب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا

وهج الشابك والغبار الأطيب³

ويمكن أن يكون الأمير من خلال اعتماده على مبدأ الجهاد جسد مقاومته المسلحة من خلال الاعتماد على الخطاب الديني والأدبي والفني والسياسي، حيث يتضح ذلك من خلال مواجهته للاستعمار الفرنسي وكذا مجابته للطرق الصوفية التي يعتقد انحرافها، لا سيما التيجانية والدرقاوية معتمدا على نفوذه الديني ولكن ليس القادري، وإنما كأمر للمؤمنين حاملا راية الجهاد بموجب البيعة العامة معتمدا على علماء الذين جمعهم من حوله وكان دوما يشركهم في أعماله وقراراته،

فريدة قاسي، المرجع السابق، ص. 115¹

. طلاس مصطفى، الأمير عبد القادر فارس الجزائر، ص. 116.²

. طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص. 263.³

كما حصل على تأييد رجال الدين في المغرب والرأي العام، إضافة الى سلطات المغرب في مواجهة الدراوة والتيجانية¹.

وفي سياق مجابهة بعض الضلال حسب معتقده، التفت الأمير إلى الأغواط، وكانت تقطن بها قبائل بني عراش وهي قوية وكثيرة العدد يتزعمها محمد بن سالم التيجاني، الذي رفض أن يكون هناك سلطان في البلاد غيره، وبناء على هذا لم يجب على رسائل الأمير، وقام بتحديه إذ رأى نفسه محصنا، ولهذا قرر الأمير مواجهته وأرسل كتابا إلى وكيله يخبره بأن يخوض الحرب ضد التيجاني خوفا من أن تكون الرأفة به سببا في ضياع الهدف المنشود وهو جمع الجزائريين على كلمة واحدة، مبينا أنه استعمل حقه الشرعي في السيادة لان الذين يفرض علينا محاربتهم وهو بذلك اعتمد على الخطاب الديني الفلسفي لتوطيد دعائم دولته. كما قام بتعيين الحاج العربي خليفة له في الأغواط، وقد جلب تعيينه عددا من القبائل الصحراء إلى الجهاد تحت راية الأمير وبهذا تمكن من تنصيب حكومته في الأغواط بعد أن تغلب على أنصار احمد سالم².

3-توسع نفوذ دولة الأمير بفضل تنوع أساليب المقاومة والخطاب:

بفضل شرعية حكم الأمير واستخدامه لمختلف أنواع المقاومة السياسية والفكرية إضافة للمقاومة المسلحة مسخرا في دعوته مختلف أنواع الخطاب السياسي، الثقافي، التراثي، التاريخي، الديني تمكن من تثبيت حكمه وتوسيعه بعد أن كانت ولايته في البداية تقتصر على عمالة وهران فقط تمكن بعدها بفضل مجهوداته الحربية التي بدلها، ونفوذها لسياسي والاجتماعي من توسيع نفوذه وتقسيم دولته إلى عدة مقاطعات وهي:

-مقاطعة تلمسان وضواحيها وعاصمتها تلمسان

1. طلاس مصطفى، المرجع نفسه، ص 235.

2. تشرشل هنري، المصدر السابق، ص 130، 132.

-مقاطعة معسكر وعاصمتها معسكر

-مقاطعة مليانة وضواحيها عاصمتها مليانة

-مقاطعة التيطري ونواحيها حاضرتها المدية

-مقاطعة مجانة ونواحيها وتمتد من سطيف إلى واد سوف حيث التوارق المثلثين إلى ما وراء جبال زاوة وعاصمتها سطيف.

-مقاطعة الزيبان والصحراء الشرقية وعاصمتها بسكرة

-مقاطعة الجبال أو (برج حمزة) وعاصمتها برج حمزة

-مقاطعة الصحراء الغربية¹

فقد تجسدت المقاومة السياسية والفكرية من خلال إنشاء دولته، وكان يجب أن يصطحبها بمقاومة عسكرية لأنه لا يمكن إيجاد دولة دون إيجاد جيش يدافع عنها ويحميها، ويظهر ذلك من خلال التنظيم العسكري للأمير:

حيث قام بإنشاء جيش نظامي على غرار الجيوش الأوروبية وهذا يدل على إيمانه بالخطاب الفلسفي، حيث بلغ عدد جيشه في بعض الأحيان إلى 15300 مزودين بأحدث الآلات الحربية وأحدث الأسلحة العصرية وقد قسمه إلى الأصناف الثلاث وهي:

◀ الراكبون وسماهم "الخيالة"

◀ المشاة وسماهم "العسكر المحمدي"

◀ المدفعيون وسماهم "الرماة أو الطوبجية"

ويقود العساكر المشاة والخيالة أبطال مغامرين داع صيتهم في الأفاق أمثال (قدور بن بحر) و(عبد القادر بن عز الدين) و(محمد قوشارمة) و(محمد السنوسي) وغيرهم أما العساكر المدفعيين

. يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص. 80¹

فقادهم "محمد آغا" المعروف بابن كسكسه (الكولا وغلبي)¹، وقد تركزت المقاومة المسلحة خاصة في المناطق الريفية وصلت حوالي ثلاثين معركة خمسة منها فقط في المدن مثل ما سنوضحه فيما يلي:

- معركة خنق النطاح الأولى في ماي 1832
- معركة خنق النطاح الثانية
- معركة برج رأس العين غرب وهران
- معركة قرية فليتة المتمرده
- معركة وهران الأولى
- معركة واصل ناحية تلمسان
- معركة مستغانم ضد الدوائر والزماله
- معركة المقطع 1836
- معركة تلمسان الأولى جانفي 1837
- معركة سكاك بالقرب من تلمسان في جويلية 1837
- معركة الغزوات بضواحي نهر الشلف بالمدينة ضد محمد بن عبد الله البغدادي
- معركة عين ماضي ضد محمد التيجاني
- معركة موازية قرب المدينة
- معركة ضد بيجو بضواحي مليانة
- معركة مليانة... الخ²

. يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص. 85¹

. عميراوي احميدة، موضوعات في تاريخ الجزائر السياسي، ص 67. ²

وقد قامت استراتيجية الأمير عبد القادر الحربية على ثلاث قوى هي: جيش نظامي جزائري خفيف، مدن دفاعية محصنة وقبائل موالية له، وذلك مقابل استراتيجية العدو القائمة على: جيش فرنسي نظامي ثقيل وقبائل جزائرية مالت إلى السلطة الفرنسية وقبائل ثائرة ضد الأمير من دون أن تميل للجيش الفرنسي¹.

خاتمة:

وفي الأخير يمكننا القول إنّ خطاب مقاومة الأمير عبد القادر هو متنوع وذلك لتنوع مقاومته حيث أن سر نجاح مقاومته يكمن في اعتماده على المقاومة الفكرية والسياسية والمسلحة ليتمكن من الحفاظ على دولته، لهذا وجب عليه استعمال أساليب متنوعة من الخطاب كالخطاب الديني والأخلاقي والتراثي والفلسفي الصوفي انطلاقاً من تشعبه بالثقافة العربية وبعدها الروحي الصوفي المتمثل في انتمائه لطريقة القادرية وكذا انتمائه القبلي لنسبه الشريف بني هاشم. كما أنه استعمل الخطاب الفلسفي الإصلاحية القائم على اجتهاداته وتأثره ببعض مزايا الحضارة الغربية كبناء المدن وتشيد الحصون، فكل هذه العوامل تداخلت وتكاملت لتشكيل خطاب مقاومة الأمير عبد القادر.

. عميراوي الحميدة، المرجع نفسه، ص 68.¹

قائمة المراجع والمصادر

- جان نعوم طنوس، تحليل خطاب، مفاهيم نظرية ونصوص تطبيقية، ط1، دار المنهل البناني، بيروت، 2014.
- سعيد علوش، معجم الدراسات الأدبية، الدار البيضاء، لبنان، 1985.
- ابن المنصور، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، دار الجليل ودار لسان العرب، بيروت 1988، مج 2.
- محمد شومان، تحليل الخطاب الإعلامي، الدار المصرية، لبنان 2007.
- مشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد بيسيلا، دار الشوير، بيروت 2007.
- صورية جغبوب ومرتم بوقرة، الخطاب: مفهومه أنماطه ووظيفته من وجهة نظر الوظيفية أحمد المتوكل نموذجاً، مجلة تاريخ العلوم، العدد العاشر.
- احميدة عميراي، مواقف نضالية وإصلاحية، دار الهدى، عين مليلة 2009.
- بسام مشاقبة، مناهج البحث الإعلامي وتحليل الخطاب، دار أسامة، عمان، الأردن 2009.
- ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد 2004.
- احميدة عميراي، بحوث تاريخية، دار الهدى، ط.2، عين مليلة، 2006.
- محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1945، منشورات المتحف الوطني للمجاهدين، الجزائر 1994.
- احميدة عميراي، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، ط2، عين مليلة، 2004.
- عبد الوهاب بن خليف، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، دار طليطلة، الجزائر 2009.
- ابو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال، عالم المعرفة، 2009.
- عميراي احميدة، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية 1827.1840، دار البعث قسنطينة.
- عميراي احميدة، من المنتقيات التاريخية الجزائرية، دار الهدى، الجزائر 2007.
- يحي بوعزيز، الامير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، دار البصائر، الجزائر.
- احميدة عميراي، اجاث في الفكر والتاريخ، دار الهدى عين مليلة 2003.
- عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبئه الغافل. تقدم سليمان عشراقي، وهران: الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2004.
- عبد الوهاب لغراس، أطروحة دكتوراه في الفلسفة غير منشورة. الحدث التاريخي في اللحظة الصوفية من خلال تجربة الأمير عبد القادر. إشراف محمد عبد اللاوي، جامعة وهران، 2011.

-فريدة قاسي، الدولة في فكر الأمير عبد القادر، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة 1999.

-محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية دار البعث قسنطينة، الجزائر 1985

-تشارشل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية، تونس 1974.

-عبد المجيد مزيان، عبقرية متكاملة، الثقافة، ع(خاص) 75، 1983.

-عبد الله شريط، مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير ونظرية ابن باديس، الثقافة، ع 57، 1983.

-G. Mounin (1974) : Dictionnaire de la linguistique, Quadrige

-Roselyne Ringoot, Analyser le discours de presse, Armand Colin, Paris, 2014.

-Bentounes, Kh. Solt, B. (2009). *La Fraternité en Héritage-Histoire d'une confrérie soufie*. Éditions HIBR, Barzakh.

-nettement alfred ; histoire de la conquete de l'Algérie, écrite sur des documents inédits et authentique ; 2éme édition ; Paris.

-rocher ; dix ans à travers l'islam 1834-1844 ; 3édition ; Paris ; 1904.

-C haleur julien ;histoire de l'Algérie contemporaine ;paris1964.

الجهاد عند الأمير عبد القادر من خلال كتابه: "المقراض الحادّ لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد"

د. نجاة بوقزولة، أستاذة محاضرة قسم أ،
جامعة محمد بوقرة بومرداس.

توطئة وتمهيد

"ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود به دفع ضرر الأمم المخالفة ورفع كلمة الإسلام بالقتال أو بغيره، ولو توهم حصول ذلك من غير قتال ولا دفع، ما وجب القتال"

الأمير عبد القادر (المقراض الحادّ)

لقد بدا القرن التاسع عشر كأنه زمن الصّراع بين الغرب والشرق، ففيه استعدّ الغرب بكلّ ما أوتي من صنوف التّعنت والظلم للسيطرة على الشرق، متحقّياً وراء ذرائع نقل الحضارة المتطورة إلى الشرق المتخلف - في نظره - وقد كان من أسباب ذلك الغزو التحول الاجتماعي والتطور الاقتصادي والسياسي والعسكري وحاجته للموارد الطّبيعية التي يزخر بها الشّرق بل تجاوزت أسباب الصّراع والغزو الأسباب المادّية لتطال الجوانب الرّوحية والقيم الحضارية في سعيه لإشاعة ونشر نموذج الحضاري[□].

[□] يقدّم بعض المؤرّخين الذين عنوا بهذه الفترة من تاريخنا الحديث أسباباً أخرى للاحتلال تتلخّص في رغبة المحتلّ استعادة مجد الكنيسة بالمغرب العربي ومجد أجداده الرومان بالمنطقة ويستدلّون على هذا النزوع الغربي لحمالاته وهو يسعى لاستعادة مجد الكنيسة بالمغرب العربي المسلم بالكثير من المواقف والكتابات التي سبقت وصاحبت الحملة العسكرية على الجزائر من ذلك مثلاً الاقتراح الذي قدّمه "شاطو بريان" أمام البرلمان الفرنسي لاستعمار المغرب

وعاش الأمير في تلك الفترة الحرجة من التاريخ الإنساني، بل كان مشاركاً وفاعلاً في الأحداث، فبعد أن افتعل الغرب الحروب والدمار بسعيه للسيطرة على الشرق ونهب خيراته وإذلال الشعوب من أجل رفاهيته نخض الأمير يذبّ عن دينه وأرضه بمعية القبائل التي بايعته على الجهاد في سبيل الله والوطن لمقاومة هذا الشرّ، ودحر القوات الغازية، وخاض معارك طاحنة ضد الفرنسيين، وقاتلهم دون هوادة وألحق بهم هزائم نكراء، مستندا في ذلك إلى تعاليم القرآن الكريم وسنة نبيه الطاهرة مرسخا فكرة الجهاد لدى القبائل على أنها السبيل للدفاع عن الأمة، وتخليصها من هذا الشر الكبير الذي أطاح بها.

والسؤال الذي نجده مشروعا هنا، هل يمكن اعتبار المرحلة الجهادية للأمير مرحلة استثنائية وتعارض مع موقفه الإنسانية التي اشتهر بها؟ أم تراه هو جوهر هذه القيم والسبيل الوحيد لتحقيقها؟ باعتبار أن الحرية في حد ذاتها قيمة إنسانية مشتركة بين جميع البشر؟

العربي جاء فيه: "لقد رأيت أيها السادة أنقاض قرطاجة والتقيت بين تلك الآثار مع الذين أطلقوا أولئك المسيحيين المساكين الذين قدم سان لويس حياته فداءً لتحريرهم [...] إن عدد هذه الضحايا يتضاعف كل يوم، أليس يتعين على الفرنسيين الذين خلقوا للمجد والأعمال العظيمة أن يكملوا العمل الذي شرع فيه أسلافهم؟ ففي فرنسا وقعت الدعوة للحرب الصليبية الأولى وفي فرنسا يجب أن نرفع راية الحرب الصليبية الأخيرة": مبارك بن محمد الهلالي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، د.ط، ج3، ص283.

ويستعرض أبو القاسم سعد الله الكثير من مواقف الكنيسة وأعمالها الشنيعة ضد الدين الإسلامي التي رافقت الاحتلال في بداياته والرغبة في تنصير الجزائر ويؤكد أنّ الفرنسيين في بداية احتلالهم كانوا يتحدون مشاعر المسلمين بتهدم المساجد وتحويلها إلى كنائس أو ثكنات عسكرية وإقامة القداس، واحتفالات استعادة الكنيسة الرومانية مثلما فعل القس مونسنور ديوش في عهد الجنرال بيجو في 30 أكتوبر 1842م، حين أقام تظاهرة كبيرة احتفالا باستعادة بقايا رفات القديس أوغسطين ونقلها إلى الجزائر، تلك التظاهرة وصفت عند المعاصرين بأنها تشبه استعادة رفات نابليون من سانتا هيلينا إلى فرنسا، وقد كتب على قوس النصر حينها "لقد رجعت هيونا يا أوغسطين" في استعراض سافر - على حد تعبير أبو القاسم سعد الله - لتلك الحملة التنصيرية على الجزائر:

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، 1998م ج06، ص ص 111/112.

ويقودنا هذا الطرح إلى سؤال آخر هل جسد الأمير عمليا هذه الطّروحات التّظريّة في جهاده ضدّ الفرنسيين؟ وما علاقة الذي كتبه في المقرّض الحادّ أثناء سجنه بأبواز وما قام به في الجزائر أثناء مقاومته للعدوّ ومحاولة ردّ مظالمه؟

ولكي نجيب على هذه الإشكالات لابدّ أن نتطرق إلى مفهوم الجهاد وغاياته من منظور الأمير عبد القادر وشروطه وأخلاقياته من خلال كتابه المقرّض الحادّ، والنظر في المرتكزات المعرفية التي اتخذها الأمير منطلقا له على أرض المعركة.

1- مرجعية الجهاد عند الأمير عبد القادر ومبادئه:

لا بدّ لأيّ باحث في تراث الأمير ومواقفه الجهادية ممارسة وتنظيراً، لا بد من موضعيته ضمن السياق التاريخي الذي جاء فيه وربطه بالظروف التي صاحبت القيام به، للنظر في مدى توقّف الشروط اللازمة به والغايات والأهداف التي حددها الأمير لجهاده ثمّ النظر في مدى التزامه بها، وما هي أخلاقيات الجهاد كما تجلّت عنده سواء على أرض المعركة أم على صفحات الكتب التي خلفها. وهل له أبعاد غير الأبعاد القتالية؟

إنّ النهج الذي اعتمده الأمير في هذه المسيرة النضالية وهو يفدي المسلمين بروحه، هو القرآن الكريم والشريعة الإسلامية وبالتالي فشعبه الجهاد هي التزام ديني أولاً وإنساني ثانياً.

فقد بايعه المسلمون على السمع والطاعة ونصرته في جهاده مقابل الحكم بكتاب الله واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعهّد هو بالحكم بالقرآن الكريم، فقد أعلن بعد مبايعته مباشرة: "لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده، فلو أن أخي الشقيق أحلّ دمه بمخالفة القرآن لها."¹

¹ شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، 1974م، ص 59.

1-1- مبادئ الجهاد عند الأمير ومكانته من خلال كتابه المقراض الحاد:

لم يكن الجهاد بالنسبة للأمير مناهضاً للقيم الإنسانية أو متعارضاً مع المبادئ التي كان يؤمن بها، بل كان الجهاد مطلباً شرعياً استدعته ظروف معينة وكانت غايته نبيلة وإنسانية، وهي إحلال الأمن وإقامة العدل وردّ الظلم وإجراء الحق.

ولقد فصل الأمير في رسالته المقراض الحاد التي كتبها أثناء سجنه بأبواز، الحديث عن الجهاد مبيناً شروطه ومكانته ومقاصده وغاياته مستنداً في ذلك إلى أمرين:

الأول: مرجعيته الدينية الأصيلة المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

والثاني: مرجعية واقعية وثيقة الصلة بالمرجعية الأولى وتمثّل في خبرته التي اكتسبها من ممارسته الفعلية وقيامه بأمر الجهاد على أرض الواقع ونتائجه التي حققها وتلمّس آثاره الحضارية والإنسانية.

أ- مكانة الجهاد في الشريعة من خلال كتاب المقراض الحاد:

لم يخرج الجهاد عند الأمير عن الإطار الذي حددته الشريعة الإسلامية، ولئن كانت النصوص والآيات القرآنية واضحة في ذلك، فإن السنة النبوية مثلت له الميدان العلمي والتطبيق الفعلي لما نصّ عليه القرآن الكريم، ولقد وجد الأمير فيها نهجاً ونبراساً سار على هديه، يقول الأمير مبيناً أهمية الجهاد في سبيل الله: " فمن أراد أن يعرف مقام الجهاد ومرتبته في هذا الدين الحمدي، فلينظر في هذه الآية ويعتبر: (يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) المائدة 54.

ومنها يعرف تشديد الوعيد في التقاعد عن الجهاد والنكوص عنه، حيث أطلق على ذلك لفظ الردّة عن الدين.¹ ثم يردف مؤكداً ارتباط الجهاد بأعلى مرتبة يمكن أن يبلغها الإنسان إذ لا يبلغها إلاّ المخلصون والأصفياء يقول الأمير شارحا الآية مؤكداً محبته تعالى للمجاهدين، ومبرزا من خلالها قدسية هذه الشعيرة عند الله عز وجل: " وفي الآية الثناء الجميل والوعد الذي هو بكلّ فضل كفيل على القائمين بأمر الجهاد حيث قال: " يجبهم ويحبّونه"، وأي منقبة أعظم مكرمة وأفخم من محبة الله تعالى للمجاهد، وهي مرتبة خاصة بالمجاهدين لها آثارها في الدّنيا والآخرة، كما أن محبة المجاهدين له تعالى؛ محبة خاصّة زائدة على محبة المؤمن غير المجاهد لظهور آثار المحبة من الجانبين.²

ثم إنّه إن سأل سائل كيف أنّ القتال الذي يصاحب الجهاد بالسّلاح يفضي إلى المحبة الإلهية؟ مع ما يستلزمه من قتل لأنفس التي خلقها الله وكرّمها؟ وإن كان ذلك بتشريع وبأمر منه.

يجيبنا الأمير عن ذلك في كتابه عيّنة البحث وسنورده تحت عنوان:

ب - غايات الجهاد وأهدافه الإنسانية من خلال المقرض الحاد:

يرى الأمير أن الأصل في الإنسان الخير، وأن الحرب حلّ أخير يلجأ إليه الإنسان في أحلك الظروف، وقد أظهر الأمير الغاية والأهداف الإنسانية التي نتلمس آثارها من خلال شعيرة الجهاد وقد ورد ذلك في ثنايا حديثه عن الأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها المؤمن، يقول الأمير وهو يشرح قوله تعالى: (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين) الأنبياء آية 107، فإن قلت هذا ينافي ما في شرع الإسلام من الجهاد والقتال فإنه ليس يحسن في وصفه ولا رحمة ظاهرة فيه، لأنه تعذيب عباد الله وتخريب لبلاده وليس ذلك بحسن.³ وقبل أن يظهر الأمير في كتابه الحكمة من الجهاد وأبعاده

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد دار الطّاسيلي للتّشريع والتّوزيع، الجزائر ط1، 1989م ص 200.

² الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 200.

³ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 196/197.

الإنسانية وما يترتب عليه من ردّ للحقوق ودفع للمظالم، يعلي من قيمة النَّفس البشرية مهما كانت هذه النَّفس ومكانتها في جميع الشرائع والأديان موردا لبعض الأدلّة والبراهين لتأكيد ذلك، ليفهمنا أنّ الحرب وقتل هذه النَّفس وإن بالحقّ أمر ليس بالهين عند الله بل هو أمر جليل فما بالنّا إن كان ظلما وجورا، فقد أورد قوله صلى الله عليه وسلم: "الآدمي بنيان الربّ ملعون من هدم بنيان الرب." ثم أورد ما جاء في الحديث عن "نبيّ الله داوود عليه السلام الذي كان كلما بنى بيت المقدس تهدّم، فأوحى الله إليه ألا" يستقيم ولا يكمل على يدك لأنك تسفك الدّماء، فقال له يا رب أليس ذلك بأمرك وفي سبيلك؟ فقال له بلى ولكن أليسوا عبادي.¹ ويستمرّ في إيراد الحجج والبراهين على صحّة ما يذهب إليه من ارتباط طول أعمار بعض الملوك ودوام الحضارات وقيامها مرتبط بالعدل وإيثار النَّفس البشرية، من ذلك أنّ: نبيّ من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام؛ سأل ربّه عن تعمير ملوك فارس وقد كانوا عمّروا الأعمار الطّوال، فأوحى الله إليهم أنهم عمّروا بلادهم فعاشر فيها عبادي، وفي رواية أنصفوا عبادي وعمّروا بلادهم فأدمت لهم الملك.²

لقد ساق الأمير هذه الأحاديث ليدلّل بها على أنّ الأصل والغرض من وجود البشرية هو تعمير الأرض وأنّ النَّفس الإنسانية أثيرة عند الله عزّوجلّ.

وبعد هذا التّقديم وهذه الحجج والبراهين ينعطف الأمير فيجيبنا عن السّؤال الذي قد يخطر ببالنا عن الوجه الحسن في الجهاد والحكمة من تشريعه قائلاً: "وإنما صار حسناً بواسطة دفع الضّرر عن الإسلام وقطع إذية المحاربين."³ وهي الغاية القصوى من الجهاد، فإذا ما حلّ الظلم وجب الجهاد في سبيل الله من أجل دفعه وهنا يزول اللبس، فالأمير إنّما قصد من خلال طرح هذا السّؤال ثم الإجابة عنه، وفصل بين السّؤال والإجابة بتقديم أدلّة عن المهمة الأساسية المنوطة ببني البشر أن

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 197.

² الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 197.

³ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 197.

يقوموا بها في الأرض، ومكانة النفس البشرية عند الله، كلّ ذلك حتى يبيّن للقارئ والسائل والغرب جميعاً أن الدّين الإسلامي هو دين رحمة وتسامح لادين كراهية وجور، وأنّ الجهاد في سبيل الله رهن بشروط ومبادئ تؤكّد سماحة الإسلام وعدله وأنّ الجهاد في سبيل الله بعيد كلّ البعد عن الظلم والجور والعصبية فالإسلام بريء من كلّ ذلك. يقول الأمير: "فتبين من هذه الأمور التي ذكرناها والنصوص التي جلبناها أنه ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود به دفع ضرر الأمم المخالفة ورفع كلمة الإسلام بالقتال أو بغيره، ولو توهم حصول ذلك من غير قتال ولا دفع، ما وجب القتال؛ لأنّ الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدمًا، كما إذا طاع العدوّ بدفع الجزية، فإنه يحرم قتاله وجهاده، لأنه تحقق عدم الضرر منه حينئذ." ¹ يبين الأمير في هذا النص أن الجهاد ليس القتل أو العدوان أو هدم للحضارات الإنسانية، ولا هو من أجل أخذ أموال الغير أو نهب خيرات البلدان والشعوب، بل يجمل الغاية منه في أمرين:

الأول: دفع ضرر الأمم المخالفة.

والثاني: رفع كلمة الإسلام أي رفع رايته، حتى يحكم في الأرض بشريعة الله والنهج الذي ارتضاه للبشر. وهو بهذا يبرّئه من كلّ تطرّف أو تعصّب ويقدم مفهوما واضحا للجهاد. ولكن الجهاد لا يعني دائماً القتال - يؤكد ذلك الأمير في كتابه - فقد تتحقق هذه الغايات سلماً عن طريق الدعوة السلمية إلى الإسلام؛ هذا أيضاً جهاد في سبيل الله، بل إنّه يجب وقف القتال إذا اختفت العلة الداعية إليه، وهنا تبرز الغاية السلمية من الجهاد؛ وهذا ما يؤكّد أنّ منظور الأمير للجهاد ينحى منحى إنسانياً وفق ما أقرته الشريعة الإسلامية إذ الحرب هي الخيار الأخير، حين تصبح أقلّ الضّارين لدفع ضرر أكبر يهدد كيان الأمة وحرية المسلمين، لأنّ أعلى شيء يمكن أن يفقده المرء هو حرّيته، فاستغلاله واستعباده واسترقاقه، هي من أكبر الأضرار التي يمكن أن تلحق

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص. 200.

بالإنسان وأعظمها مما يوجب قتالاً ودفاعاً، ثم يقدم الأمير شرحاً مستفيضاً ليبين أن الضرر الظاهر الذي قد يلحقه المجاهد وهو يقاتل في سبيل الله، يخفي منافع عظيمة لأنه يقضى بذلك على شر كبير، فيستحضر في ذلك قولاً للسهروردي المتصوّف الكبير "خيرٌ كثير يلزمه شرٌ قليل ولا يجوز على رحمة لمبدع إهماله، لأن في ترك خير كثير يلزمه شر قليل شراً كثيراً، كالنار فيها منافع كثيرة وإن كان يلزمها أحياناً حرق ثوب فقير".¹ يسعى الأمير من خلال هذا الاستحضار إلى التأكيد على الجانب الإنساني والرحمة التي تحملها رسالة الجهاد، والتي لا تتعارض مع القيم الإنسانية التي يقدها كل الناس؛ عدل، حرية، مساواة وفيها خير كبير للإنسانية جميعاً من دفع لل جور والظلم وتحقيق للعدل، ومنافعه كثيرة مقابل الأضرار الصغيرة، فإذا كان حصول الخير الكثير رهن بإيقاع ضرر صغير فلا بد إذا منه، ثم أعطى الأمير دليلاً عقلياً يؤكد من خلالها أنّ الحكمة من تشريع الجهاد هو جلب مصلحة كبيرة، يقول: "ألا ترى أن العقل يحسن قطع الأئمة إذا أضيف فساد الأصبع، ويحسن قطع الإصبع إذا ضيف فساد الدراع، ويحسن قطع الدراع من أصله إذا كان ذلك يجلب مصلحة للبدن الذي هو أكثر، وإذا كان هذا عدل ولا جور فيه وحسن ولا قبح فيه فذلك ذاك".²

فشبه لنا جميع الإنسانية بالجسد الواحد وإذا فسد جزء منه وكان في فساده ضرر مهدد بهلاك الجسد، فمن المصلحة قطع ذلك الجزء الصغير حفاظاً على استمرارية البشرية وبقائها، تقديماً لمصلحة الكل على الجزء، وهو مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية ليخلص الأمير إلى دعوة القارئ لإمعان النظر في المثال فإن رأى في ذلك عدل ولا يحتمل ظلم بأي وجه من الوجوه، فإن الجهاد كذلك يرتجى منه خير كبير للإنسانية جمعاء.

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 198

² الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 198.

وهذه الرؤية للجهاد وما يستلزمه عند المسلمين من دواعٍ لإحلال الأمن والسلام التي أبرزها في كتابه المقرض الحادّ، كانت ملازمة له منذ أن كان قائداً محارباً للفرنسيين وهذا ما يظهر في رسالة بعثها إلى ملك فرنسا يوضح له أسباب استئناف الحرب يقول: "من المعلوم قديماً وحديثاً أن المسلمين في دأبهم محاربة عدو دينهم قياماً بما أوجبه الشريعة الإسلامية عليهم من الجهاد، إما لإعلاء كلمة الله أو للدفاع عن الدين والبلاد، فإذا عارضتهم أمور سياسية أو ضرورات شرعية فلهم أن يجنحوا للسلم ووضع أوزار الحرب."¹

كان الأمير واضحاً مع العدو في خطاباته، ولم يكن يخف أبداً مرجعيته التي أمدته بهذه الطاقة والقوة لدحر الفرنسيين وردهم على أعقابهم، فالشريعة الإسلامية أوجبه على قتال من هدد الاستقرار والأمن، لكنه في المقابل كان يترك باب الحوار مفتوحاً وقد ألح إمكانية التعايش وعودة السلم إذا ما عارضتهم أمور طوعاً، ويتحقق الاستقرار ويتحول عندها الإنسان إلى إعمار الأرض بالخير وبالعطاء.

ثم إن وقف القتال يصبح واجباً إذا انتفت علّة وجوده، ويدل على هذا المبدأ والشرط في الجهاد بقوله صلى الله عليه وسلم "دعوا الحبشة ما دعوكم" رواه أبو داود عن بن عمر². يقدم الأمير شرحاً للحديث ويوضح العلة من النهي عن محاربة الحبشة، وفيها دليل على أن الغرض من الجهاد هو تحقيق أمن المسلمين ذلك أن الحبشة ضعيفة، لا يخشى منها ضرر على الإسلام لهذا نهي عليه السلام عن قتالهم بما أنّ المسلمين قد آمنوا شرّ أهلها-بحسب ما قدّمه الأمير من شرح للحديث-³، ثم يسوق قولاً للخطابي: "والجمع بين هذا وبين قوله تعالى (إِنَّ عِدَّةَ

¹ محمد بن الأمير عبد القادر، محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر - سيرته القلمية - المطبعة لتجارية خرزوري وجويش الإسكندرية سنة 1930م، ج1، ص220.

² الأمير عبد القادر، المقرض الحادّ ص 198.

³ الأمير عبد القادر، المقرض الحادّ، ص198.

الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ¹ التوبة: 36، إذ الآية مطلقة والحديث مقيد، فيحمل المطلق على المقيد، ويجعل الحديث مخصصاً.¹

يحرم القتال إذا بطلت موجباته، كأن يتمكن المسلمون من دفع كلمة الإسلام من غير قتال، أو قبول العدو دفع الجزية، يقول: "عادة شرع الإسلام دفع أعظم الضررين بإيقاع أذناها، فإنه أمر أولاً بالدعوة إلى الجزية لأنها علامة السر على أن المخالف في الدين لم يبق ضرراً يخاف من جهته."²

وهذا دليل آخر يقدمه الأمير على أن الغرض من تشريع الجهاد ليس الفساد في الأرض، وإنما الإصلاح وإقامة العدل، فإنه يشرح لنا كيف أنّ الشرع بدأ بأقل الضررين وهو دفع الجزية، لكي يدفع ضرراً أكبر وهو القتل.

ليتضح لنا من خلال الأدلة التي قدمها الأمير من أن الجهاد ليس عدواناً أو بغياً في الأرض، ولا هو إلحاق للأذى بالناس، ولا إبادة للبشر وإنما حلٌّ أخير يلجأ إليه المسلمون "للدفع الضرر وإظهار علو الإسلام، فيحصل الأمن للمسلمين."³

ثم إنّ الشريعة الإسلامية لم تترك باباً في الجهاد إلا سدّته، فلا يعني بأنّ الجهاد حين يجب على المسلمين يلزمهم ذلك قتالاً حتى لو أدّى قتالهم إلى إبادتهم، وهنا يؤكد الأمير على ضرورة إبرام الصلح حقناً لدماء المسلمين، عندما تعظم شوكة المخالف، يقول: "إذا عظمت شوكة المخالف المحارب وتحقق المسلمون أنهم لا طاقة لهم على دفعه وعجزوا على جميع الوجوه، وجب عليهم

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 198.

² الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 201.

³ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 198.

الصلح، لأن الصلح مع المخالف في الدين تعزّيه الأحكام الخمسة، فيكون واجباً كما في هذه الحالة المذكورة.¹

وهذا بالفعل ما قام به الأمير حين أيقن أن العدو قد تخلّى عن إنسانيته وما عادت تعنيه أخلاقيات القتال، وعرض الأهلالي إلى الحرق أحياء فضلاً عن الزرع وكلّ شيء يدبّ، فلم يعد بمقدور الأمير أن يضحي بالضّعفاء وقادته إنسانيته أن يقدم مصلحتهم على كبرياء جيشه -مع قدرته على مواصلة القتال وخوف الفرنسيين منه- لكنّه لجأ إلى الاستئمان، فقرّر عقد معاهدة الصلح الأخيرة مع الفرنسيين حقناً لدماء المسلمين وهو ما يؤكّد أنّ مفهوم الجهاد عند الأمير لا يخرج عن الإطار الذي حدّته الشريعة الإسلامية وأنّه في كلّ مراحلها كان يتمثّل صورة الإنسان الكامل الذي يفدي الآخرين، لكن بالمقابل عزف جنرالات فرنسا عن التفاعل مع الأمير ولم يكونوا بمستوى هذه التّضحيات ولم يستطبعوا فهم مواقف الأمير وخافوا من عودته مجدّداً لمحاربتهم، فخانوا العهود التي أبرمت واقتادوه سجيناً وهم يعجبون لأمره ويتطلّعون لمعرفة من هو هذا العدو النبيل.

3- الجهاد والمخالف في الدين عند الأمير:

يؤكد الأمير أن الجهاد في سبيل الله كما جاء بذلك الدين الإسلامي إنما هو لدفع الضرر، ولا يستوجب قتال المخالف في الدين إن هو آمنه، ويسوق في ذلك أدلّة وبراهين للرد على أولئك الذين رموا الإسلام بالنقص، وأنه دين عنف يحرص على القتال بلا هوادة المخالفين في العقيدة، ويحرص أتباعه على إكراه المخالف في الدين على اعتناق الإسلام أو القتل يقول الأمير مدللاً على بطلان هذه التهمة: "إنّه لو كان القتال لغير دفع الضّرر، وكان لأجل المخالفة في الدين لكانت

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص201.

الجزية لا تقبل من الحربي إذا طاع بها، مع بقاءه على دينه، مع أنّه إذا طاع بها على شروطها يحرم قتاله ولا يجوز إبادته من غير خلاف بين المسلمين.¹

إن الأمير ينبغي أن يكون الفاتحون قد أكرهوا الناس على اعتناق الإسلام وترك معتقداتهم تحت التهديد بالقتل، لأنه يعي جيداً أنها تهمة ألصقت بالدين، ويسوق من أجل إبطال هذه التهمة حجة قوية؛ وهي لو كان القتل لأجل الإكراه على اعتناق الإسلام " ما كان قبل منهم دفع الجزية،" وهي ضريبة أقلّ بكثير من الضرائب التي كان يفرضها الإقطاعيون قديماً في الأنظمة الإقطاعية والتي حرّرها المسلمون مسيحيي الأندلس مثلاً عندما تم فتحها.

ويرد قائلاً: " ومنها لو كان القتال لأجل الدخول في الدين لكانت المرأة تقتل، مع أنّها لا تقتل وتترك على دينها."² إذن يوضح الأمير أنّ الأصل في الجهاد هو دفع الضرر وليس المقصود منه المفسدة وإتلاف النفوس وهدم بنيان الله، يقول: " لأن الأصل عدم إتلاف النفوس وإتلاف النفوس من القتال ما يمنع المفسدة."³ ويسوق لنا بعض الآراء الفقهية المتعلقة بوضع المرأة وحرمة قتالها أثناء الحرب، على الرغم من أنّها مخالفة في الدين مؤكّداً أنّ هذا رأي القرطبي و هو متفق عليه، وليس المرأة وحسب من يحرم قتلها كما ورد في كتاب الأمير ، بل أيضاً كل الضعفاء، والذين لا يقوون على القتال ولا يخشى منهم الضرر، وكذا كل من ينتفع بهم المجتمع من صنّاع، فلاّحين وغيرهم يحرم قتلهم والحكمة من ذلك هو أن لا تحدث فجوة كبيرة، وفراغ حضاري مريع، يقول: " ولو قاتلت بالحجارة وغيرها ، لا يجوز قتلها لا في وقت القتال على الأرجح ولا بعد الأسر اتفاقاً وكذلك

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 199.

² الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 199.

³ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 199.

الصبيان المطيعون للقتال والزمناء والضعفاء والفلاحون وأهل الصنائع والقسيسون والرهبان وكل هؤلاء المذكورين لا يقتلون ويعطى لهم ما يكفيهم في عيشهم ولباسهم من أموال المحاربين.¹ يعدّد لنا الأمير إذا الشروط والمبادئ التي وضعها الإسلام للجهاد مع المخالف في الدين، وأعطى مثالا بالمرأة والصناع، فالمرأة قد حماها، الدين الإسلامي حتى لو كانت قادرة على القتال لا تقتل، ولعلّ الحكمة من ذلك أنّها بالإضافة إلى ضعفها فهي نتوج لأنها تلد، وقتلها فيه قطع للنسل البشري وإبادته، والمجاهد ملزم ألا يتعرض للضعفاء من نساء وأطفال.

كما أمر بعدم التعرض للقسيسين والرهبان فهم مؤمنون وربما هم أقرب إلى الدخول في الدين من غيرهم، والمسلم ليس له الوصاية على أحد من عباد الله وهو وإن كان مأمور بتبليغ الدعوة لكنّه غير مكلف بمحاسبة العباد على عدم الالتزام بهذه الدعوة إذ "لا إكراه في الدين" فأمر محاسبتهم بيد الله وحده، وتحريم قتلهم أثناء الحرب لأدل الدليل على أن الإسلام لا يأمر بالقتل لأجل المخالفة في الدين. فالإسلام يعلي قيمة الحرّية والعدل ورفض الظلم، ليس بين المسلمين بعضهم ببعض ولكن لا بدّ من إجراء هذه القيم مع المسلمين وغيرهم.

ولأن الخير والرفاه لا يكون إلا بالصناع والفلاحين ألزم الشارع المجاهدين على عدم التعرض لهم، فعلى الرغم من أنّهم مخالفون في الدين حماهم الإسلام بل زاد أن حفظ كرامتهم ومكانتهم، وألزم المجاهدين بتخصيص لهم مقدار من المال، ما يكفي حاجتهم تقطع من أموال المجاهدين وهو ما ينمّ عن إنسانية ورحمة لا تضاهى.

لم يقف الأمير على إعطاء الحجج والبراهين على أن الإسلام لم يأمر بقتال المخالف في الدين من أجل عقيدته، بل ذهب يبحث في هذه الحجج من خلال استحضار موقف عيسى عليه السلام من المخالف في الدين في آخر الزمان ليجعل ذلك حجة عليهم يقول: "مع أنه إذا طاع بها

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 199.

على شروطها (الجزية) يجرم قتاله، ولا يجوز أذيته من غير خلاف بين المسلمين، ولكن لا يقبل منه إلا الدخول في الدين أو القتل كما يكون الحكم عند نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، فإنه لا يقبل الجزية وليس إلا الدخول فيما يدعوا إليه أو القتل.¹

وهي رسالة إلى الغرب ودعوة له لإعادة تصحيح صورته عن الإسلام، وأنّ الجهاد في الحقيقة لا يخرج عن إطار الحفاظ على القيم الإنسانية التي تجلّها كلّ الأمم، فالجهاد بهذا المفهوم ما هو إلا طريقة مثلى للحفاظ على هذه القيم وتأكيداها.

4- أخلاقيات الحرب عند الأمير:

أوضح الأمير عبد القادر في كتابه المقرّاض أنّ المجاهد في سبيل الله، ينأى عن أن يتصف بصفات تنزل بإنسانيته منزلة الغدر والكذب والخيانة، فهي أخلاق ذميمة يتنزه عنها شرع الإسلام والمسلم في سلمه فضلا عن حربه، وبالمقابل يوجب عليه أن يلزم سامي الأخلاق، ولذلك استحضّر الأمير حديثنا للرسول صلى الله عليه وسلم يظهر مقدار الرحمة والرأفة التي يبديها صلوات الله عليه وسلامه اتجاه الضعفاء الذي لا قبل لهم بالحروب والقتال، قال: "وكان عليه السلام إذا بعث جيشاً أو سرية يقول لهم: أغزوا باسم الله ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً."² ويردّف الأمير قائلاً: فالمرأة في الإسلام لضعفها لا تقتل والصبي أيضا.³

كما استلهم الأمير هذه الأخلاق من مواقف وأحداث تاريخية، ليدلّل بها على سماحة الإسلام والمسلمين في جهادهم ووفائهم بعهودهم، وأدائهم الأمانات إذا أوّتمنوا وصدقهم مع من يخالفونهم في العقيدة، وتجنّبهم الغدر والخداع والكذب، وساق لنا الكثير من تلك المواقف المضيئة في

¹ الأمير عبد القادر، المقرّاض الحاد، ص 199.

² الأمير عبد القادر، المقرّاض الحاد، ص 200.

³ الأمير عبد القادر، المقرّاض الحاد، ص 200.

تاريخ الحضارة الإسلامية، والتي كانت مؤثرة في الأمير فكراً و ممارسةً، إذ تمثلها في جهاده، كما تمثلها الذين رافقوه في مسيرته، ومن تلك المواقف التي عرضها موقف سعد بن أبي وقاص مع الأسير الذي استأسره طلحة بن خويلد الأسدي، ووعده أن يعطيه الأمان شرط أن يصدق، ولما صدقه القول، وفي سعد بن أبي وقاص وأطلق سراحه، فأبى الأسير العودة إلى معسكره، وقال: "والله ما تهرمون ما دمت على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح، لا حاجة لي الرجوع إلى قومي، وبقي في عسكر الإسلام."¹

كما أورد الأمير في كتابه بعض أخبار الصحابة ليظهر أخلاقهم في فتوحاتهم من تقوى وروع وإصلاح من ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، بعدما أرسله إلى فتح العراق: "أما بعد فإن أحب عباد الله إلى الله وأعظمهم عنده منزلة، أتقاهم له وأشدهم منه وجلا، فعليكم بتقوى الله والإصلاح ما استطعتم، وما التوفيق إلا بالله، ألزموا الطاعة يجمع الله لكم ما تحبون من دينكم ودنياكم، وأوفوا بالعهد بمن عاهدكم وإياك والغدر والغلول، فإنه من يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة، ومن غدر أدال الله منه غدره وهي كبده فافهموا ما توضحون به، واعقلوا عن الله أمره، ولا تكونوا كالجفاة الجاهلية والسلام."²

لقد وجد الأمير في وصايا الصحابة، ومواقفهم الجانب العملي، والتطبيق الفعلي لما شرعه الإسلام من ضرورة التحلق بأئبل الأخلاق أثناء الجهاد، والتعامل مع الغرب المخالف في الدين والعقيدة بمنتهى الإنسانية، ومن أجمل ما أورده أيضا الأمير وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه

¹ للتفصيل ينظر: الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 234.

² الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص 233.

ليزيد بن أبي سفيان، لما أرسله إلى الشام وأمره أن "لا تقتل امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ولا تقطع شجراً مثمراً ولا تخربن عامراً."¹

يدلل الأمير من خلال هذا الاستحضار على حرص الدين الإسلامي على حضارات الشعوب والأمم على اختلافها، وعلى الرقي والاستقرار الإنساني، فقد حذر أبو بكر الصديق عامله من الانزلاق الأخلاقي الذي يؤدي إلى وقف عجلة النمو والتقدم الإنساني، فقد نهى أن يقطع الشجر المثمر، كما نهى عن تخريب العمران، فالشجر المثمر يمثل الغنى الطبيعي الذي به يتحقق الغنى الاجتماعي، وذلك ما يضمن استمرار الحضارات ورفيها واستقرار الشعوب وتطورها، وقد قدم للحديث عن ذلك بالحرص على المرأة والصبي والكبير حرصاً منه على الإنسان؛ لأنه هو من يبني ويزرع ويعمر ويستخلف في الأرض.

فالإسلام إذا نهى عن القتال الذي يؤدي إلى وقف عجلة النمو والتقدم الإنساني، إذا ما تهدمت الصوامع والبيع وأحرق الزرع والنبت، وقد امتثل المسلمون لذلك في فتوحاتهم ومما أورده الأمير في هذا السياق خبر صلاح الدين وكيف استجاب للنصارى حتى طلبوا الأمان لما رأوا قرب هزيمتهم، يقول: "لما نزل السلطان صلاح الدين بن أيوب على بيت المقدس وضيق على الفرنج ونصب المجاذيف ورمى بها تهدم غالباً السور، ثم أخذ المسلمون في ثقب السور مما يلي واد جهنم، واشتد القتال وتباشر المسلمون بالفتح برز أكابر من الإفرنج لكلب الألمان فأعرض عنهم السلطان صلاح الدين وقال لا آخذها إلا بالسيف مثل ما أخذها الفرنج من المسلمين، ثم عادوا هادوه في طلب الأمان فأجابهم بشرط خروجهم منها وشروط آخر.² كما ذكر أيضاً أن علياً بن أبي طالب

¹ الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، ص 200.

² للتوسع ينظر الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، ص 239.

إذا رب عدوه في الجهاد لا يعاود له ثانية حتى ينظر ربما أنه مات من الأولى، واندفع ضرره الذي هو مقصود الشرع في الأمر بالقتال، فتكون الضربة الثانية قبيحة ل دخل لها في السن.¹

لقد جاء الأمير بهذه الأخبار، ليدلل على مدى حرص الصحابة رضوان الله عليهم، على الالتزام بمقصود الشرع من أمر الجهاد، وأنهم إنما تخلقوا بأخلاق ربانية حفظتهم من الانزلاق الأخلاقي حتى مع ذلك الذي من شأنهم أن يسيء إلى عقيدتهم.

وإن كان الأمير قد نوه بهذه الأخلاق في رسالته المقرض الحاد التي كتبها بعد المرحلة الجهادية، فإن الكتب التي أرخت حياته تشهد بنبل أخلاقه في حربه وفي معركته. ليتأكد لدينا أنّ ما كتبه في رسالته هذه كان عبارة عن خلاصة خبرته الحربية، ودليل قاطع على التهج القويم الذي انتهجه في حربه.

فقد كان نبيلاً شريفاً متخلقاً في جهاده بأسمى الأخلاق في حربه ضد الفرنسيين، فكان يعامل الغرب في حربه كما في سلمه بروح المسلم المتخلق بالأخلاق الإسلامية، وكان يعطي المثل به وبالمجاهدين معه على نبل الأخلاق الإسلامية من صدق وشجاعة وحلم ووفاء بالعهد؛ تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وقد انبثق من رحم هذه الأخلاق الفاضلة التي نهجها في جهاده انتصارات جمّة فكان شجاعاً مقداماً، وحققت انتصارات عدة على الجيش الفرنسي وريح معارك أخضعت الغرب وخفقت لها قلوب الفرنسيين خوفاً حتى أصبح الاستسلام للأمير قبل انطلاق المعركة أمراً واقعاً² ولكنّه إلى جانب ذلك كان أكثر ما يكون متسامحاً فكان في

¹ الأمير عبد القادر، المقرض الحاد، ص200.

² من ذلك مثلاً ما تناقلته الكتب التي اهتمت بسيرة الأمير العسكرية أنّه بعدما فرغ من وقعة الغزوات التي حقق فيها انتصاراً على الفرنسيين توجه بجيوشه إلى بلادي عامر فالتقى بفرقة من الجيش الفرنسي معها مهمات حربية قاصدة بما تلمسان فلما تراءت الجيوش الإسلامية لهذه الفرقة رفعت علامة التسليم فتقدم إليهم الأمير فاستسلموا له وألقوا إليه سلاحهم بدون قتال وكانت الفرقة يزيد عددها على ستمائة جندي ومعهم من الذخائر

أخلاقه وجهاده يتمثل أخلاق النبوة حتى حاز على إعجاب أعدائه ، وحقق أمناً وبعثاً حضارياً
لأتمته شهدها الأمير تتحقق خلال فترة وجيزة من بدء الجهاد. [□]

كما اشتهر الأمير في حكمه بالعدل والحزم في تطبيق أحكام الشريعة إذا ما اقتضته الضرورة
على ميله دائماً إلى العفو إذا ما وجد إلى ذلك سبيلاً؛ من ذلك عفوهم عن شق عصا الطاعة من
القبائل المتمردة، ومما يرويه محمد بن الأمير في كتابه - تحفة الزائر - عفوهم عن قبائل وادي الزيتون الذين
تحالفوا مع الفرنسيين وخالفوا الأمير وامتنعوا عن دفع الزكاة والعشور لبيت مال المسلمين مع ما
أظهروه من عتوّ واستكبار، والأمير يقابل إساءتهم بالمعاملة الحسنة.¹

السّمحاء أن نخلص إلى أن شعيرة الجهاد عند الأمير كما تجلّت في كتابه المقراض الحادّ
تستند إلى مرجعية أصيلة تستمدّ مبادئها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأن الغاية منه
ليس إتلاف العباد أو سرقة أموالهم بل من أجل دفع ضرر المخالف في الدّين وإعلاء كلمة الله في
الأرض ونشر العدل وإحقاق الحق.

الحرية الشيء الكثير فذاعت هذه الأخبار وسط الأقطار المغربية وبث الرعب في قلوب الفرنسيين (ينظر: محمد
بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، ص294).

[□] لولا ما كان من الفرنسيين من خرق للمعاهدات ما أدّى إلى تحطيم مشروعه الحضاري فتوقف، بعد أن دارت
دائرة الحرب من جديد وآل الأمر إلى ما آل إليه من سجن الأمير عام 1847م قبل أن يتم تحريره واستقراره في
دمشق

¹ محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج1، ص 193/192.

الخاتمة:

ختاماً هكذا أمكن الأمير، في كتابه المقرض الحادّ؛ إظهار حقيقة وكنه شعيرة الجهاد المقدسة، التي ما فتى يحن إليها وهو في الأسر، فضمن مؤلفه القيم شرحاً مفصّلاً، أمكننا اليوم بعد قرابة قرنين من الزمن أن نستبين الكثير من مواقفه الإنسانية في خضمّ جهاده؛ ففي الجهاد إعلاء لقيمة الإنسان من خلال تخليصه من الظلم الذي قد يحيط به، وبه تتحقق إنسانية الإنسان حين يفتدي الآخرين بروحه، وبه يرقى إلى مقام المحبة الإلهية التي لا يبلغها العباد في محاربتهم. [□] كما أمكننا أيضاً أن نفهم سبب وقفه للجهاد فذلك أيضاً كان غرضه إنسانياً في سبيل تجنيب شعبه إبادة محتومة على يد مؤسّسة عسكرية لا يعينها أبداً أن تهدم حضارات الشعوب إن هي حققت مصالحها وهو ما يتوافق ومبدأ الاستئمان في شريعتنا، و ساق الأمير أدلّة كثيرة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف على الأبعاد الإنسانية، والحكمة من تشريع الجهاد وكذا قدسية هذه الشعيرة، كما ساق أدلّة عقلية لإظهار الغابات التّيبلة للجهاد و التي قد تخفى على الناس العاديين، واستحضر أقوال العلماء وسيرة الخلفاء والسلف الصّالح في جهادهم في سبيل الله وأشاد بأخلاقهم العالية وصدق وصحة المنظومة القيمية التي استرشدوا بها في فتوحاتهم، وهذه الرّؤية الجهادية في فكر الأمير قد استنزها وتمثّلها في جهاده ضدّ العدو، فكان شجاعاً مقداماً، وحقق انتصارات عدة على الجيش الفرنسي وريح معارك أخضعت الغرب وخفقت لها قلوب الفرنسيين خوفاً ولكنّه إلى جانب ذلك كان أكثر ما يكون متسامحاً فكان في أخلاقه وجهاده يتمثّل أخلاق النّبوة حتّى حاز على إعجاب أعدائه.

[□] يقول الأمير مبرزاً قيمة الجهاد في سبيل الله وبلاء المجاهد: مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّه بِدَمَوِعِهِ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَصَّبُ (ينظر: الأمير عبد القادر الجزائري، الأمير عبد القادر: الديوان، تحقيق العربي دحو، منشورات ثالة، ط

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- مبارك بن محمد الهلالي، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، د.ط، ج3.
- 2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، 1998م ج06.
- 3- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، 1974م.
- 4- الأمير عبد القادر، المقرض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإحاد دار الطاسيلي للنشر والتوزيع، الجزائر ط1، 1989م.
- 5- محمد بن الأمير عبد القادر، محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر - سيرته القلمية - المطبعة لتجارية خرزوري وجويش الإسكندرية سنة 1930م، ج1.
- 6- الأمير عبد القادر الجزائري، الأمير عبد القادر: الديوان، تحقيق العربي دحو، منشورات ثالة، ط3، 2007م.

بين المقاومة والشعر: صور الأمير عبد القادر في المجلة الإفريقية

الدكتور الأستاذ الباحث / كمال بن صحراوي
جامعة ابن خلدون - تيارت.

مقدمة:

وأنا أبحث في موضوع الأمير عبد القادر في المجلة الإفريقية شدتني ملاحظتان اثنتان: أولاهما شهرة الأمير الإنسان، الأمير المقاوم، والأمير ذي المكانة الدولية. وثانيتها شهرة المجلة الإفريقية التي لم تترك مجال البحث التاريخي والأنثروبولوجي مدة قرن كامل بغض النظر عن طبيعة الطرح الذي كانت تتبناه. ولذلك تساءلت: كيف مجلة بارزة ألا تهتم بالأمير البارز إلا قليلا.

فالأمير لم يكن بالنائر المغامر الذي قُضي عليه في فترة وجيزة، ولا بالأمي الذي لحقت به جماعة صغيرة ما لبثت أن تفرقت، ولا حتى بالمغمور الذي انطمس ذكره بمجرد موته. لقد ملأ الأمير الساحة جهادا مثلما ملأها شعرا وأدبا، وخاض حربا ضروسا ضد عشرات الجنرالات الفرنسيين، وألحق الهزيمة بكثير منهم في معارك مشهورة. وحتى حين هُزم لم يمض ذكره، فقد انتقل من شهرة إلى شهرة حتى صار له حضور في المحافل الدولية والمناسبات الفرنسية.

إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تهتم به المجلة الإفريقية إلا قليلا؟ ولماذا ركز هؤلاء على حياة الأمير في الجزائر وأهملوا ما كان منها خارجها رغم طول مدتها وتميزها بالحيوية والنشاط والمكانة الرفيعة. فقد شارك في دمشق في إطفاء نار فتنة طائفية خطيرة، واكتسب تقديرا خاصا حتى صار له حضور في المحافل الدولية كافتتاح قناة السويس.

إن الدراسة التي سنضعها بين أيدي القراء الكرام تركز على محورين بارزين:

المحور الموضوعي الذي سنقف من خلاله على ما تمت معالجته في هذه المقالات من حياة الأمير، منبهين منذ البداية إلى وجود نوعين من المواضيع؛ المواضيع التي جاءت لتعالج قضايا تخص الأمير مباشرة، وتلك التي اهتمت بمسائل أخرى ولم يرد الحديث عن الأمير ضمنها إلا عرضاً. المحور التقني الذي سنتتبع من خلاله حضور الأمير في المجلة الإفريقية لنقف على مسألة التهميش من خلال النسب والأرقام والرسومات البيانية.

غير أننا اقتصرنا في مداخلتنا فقط على المقالات التي اشتملت عناوينها على اسم عبد القادر بلقب الأمير أحيانا ولقب الحاج أحيانا أخرى، أو بدوئهما أصلاً أي بذكر اسمه مجرداً، وهذا رغم وجود دراسات عديدة لمسائل مختلفة مرَّ الباحثون فيها على الأمير، كدراسة الحياة الثقافية بالجزائر في بداية المرحلة الاستعمارية مثلاً، أو الحديث عن ليون روش ودوره في الجوسسة، أو المعارك الطاحنة التي شهدتها الجزائر خلال ذات المرحلة.

كما تجدر الإشارة إلى أننا لم نهتم بكل التفاصيل الواردة في هذه المقالات بقدر اهتمامنا بالمنطلقات التي يعتمدها كل كاتب في بيان أفكاره وهو يدرس جانباً من حياة الأمير عبد القادر والقضايا الرئيسية التي يركز عليها في مقاله.

أولاً- الدراسة الموضوعية:

1- الحاج موسى أو بو حمار والأمير عبد القادر عام 1835¹

بيدي بربريجي (Berbrugger) ابتداء ملاحظة هامة حول مادة البحث التي يمكن الاعتماد عليها لدراسة تاريخ الحرب التي يشنّها منذ 1830، إذ توفر المصادر الفرنسية -حسبه- ما يكفي، غير أن العمل يبقى غير مكتمل لأن المصادر العربية غير متوفرة تماماً، خصوصاً فيما يتعلق بعلاقات الجزائريين فيما بينهم. كما يلقي بربريجي باللائمة على المؤلفين الفرنسيين الذين لم

¹- Adrien Berbrugger & Gorguos.. « El-Hadj- Moussa ou l'Homme à l'âne et l'Emir Abd-el-Kader, en 1835 ». R.A (01/1856), p. 41

يهتموا بالحاج موسى الأغواطي - كمثال عن الثوار الجزائريين- إلا قليلا كما فعل بليسيي (Pellissier) صاحب الحوليات الجزائرية (Annales algériennes).

يعتمد بربريجي في دراسته لهذا الموضوع على رواية الحاج موسى قارة مفتي دلس الذي التقى به في أكتوبر 1855 فأدلى له بشهادة حول هذه الشخصية، وهي شهادة سُجّلت وترجمها جرجوس (Gorguos) إلى الفرنسية.

نشير هنا إلى أن بربريجي لا يخفي أهمية هذه الدراسة، حيث لا يعتبرها مجرد عمل تاريخي بل يراها توفر معطيات سياسية لا تخلو من أهمية. كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن المقال لا يحوي إلا ذكرا عابرا للأمير عبد القادر اقتضاه بيان علاقته بالحاج موسى الأغواطي.

ويتتبع بربريجي في مقاله مراحل مقاومة الحاج موسى مرورا بخلافه مع الأمير وهزيمته أمامه في معركة خسر فيها 280 من أتباعه¹ وأخذت زوجته وابنه أسيرين إلى مليانة، وهو ما يجعله يعود إلى الأغواط ليشغل بيعع الشواشي ويتزوج من امرأة أخرى في انتظار إطلاق سراح زوجته وابنه اللذين سيلتحقان به. وبعد تنقل مستمر بين الأغواط ومسعد وبريان يلجأ الحاج موسى إلى واحة الزعاطشة ليشترك في ثورتها ضد الفرنسيين حتى استشهد عن عمر ناهز 53 عاما.

¹ - لما بلغ خبر موسى الأغواطي إلى الأمير أمر عامله على تلمسان البوحميدي بأن يعسكر قرب وهران ليشغل الفرنسيين وتوجه هو نحو المدينة في ديسمبر 1834 حيث التقى جيشه بجيش بوحمار وهزمه. هذا تاريخ المواجهة في تحفة الزائر، بينما هو عند ابن التهامي أفريل 1834. والأغواطي شهيد واحة الزعاطشة، وجمجمته محتفظ بها - بغير حق - في متحف الإنسان بباريس تحت رقم 5942.

2- ترجمة لإحدى قصائد الأمير عبد القادر¹

قام مدوّن الوقائع (Chroniqueur) والمترجم الشاب مارك أرنو بترجمة قصيدة الأمير عبد

القادر الشهيرة التي يتحدث فيها عن البادية وفضائلها، والتي مطلعها:

يا عاذرا لأمرئ قد هام في الحضر ... وعاذلا لمح البدو والقفر

ونظرا لأنه ترجمها دون شرح ولا تعليق تم نشرها في القسم المخصص للوقائع.

ملاحظة: لم تسلم هذه الترجمة من بعض الأخطاء، فقد جاء في القصيدة قول الأمير:

من لم يمّت عندنا بالطعن عاش مدى ... فنحن أطول خلق الله في العمر

أما الترجمة فكانت كالتالي، حسب أرنو دائما (ص 314)

**Celui qui, parmi nous, n'est pas mort de la peste vivra
longtemps**

فترجم الطعن على أنه الطاعون، وبين هذا وذاك فرق شاسع.

3- حصار الحاج عبد القادر بن محي الدين لعين ماضي²

يبدأ الكاتب أرنو مقاله بتعريف عين ماضي وبيان موقعها وأهميتها وعدد سكانها الذي لا

يتجاوز 700 نسمة؟ ثم يعرج على تاريخ التيجانية منذ مولد شيخها وعلى أواردها وأتباعها.

وقبل استعراض حصار عين ماضي يقف المؤلف عند شخصية الأمير فيصفه بالطموح الذي

منعه كبره من الاعتراف بالحواجز التي كانت تقف بينه وبين هدفه المتمثل في إنشاء دولة قوية على

أنقاض ما تركه العثمانيون بالجزائر.

¹ - M. Arnaud, « Traduction d'une poésie d'Abd-el-Kader ». R.A (05/1861), p314

² - L. Arnaud, "Siège d'Aïn Madi par El Hadj Abd El Kader B. Mohi Ed-Din". R.A (08/1864), p354

ولعل الكاتب قد توهم أنه صاحب حق -كفرنسي- في كيل التهم للأمير بالكبرياء والعجرفة، ولعله أيضا نسي أو تناسى أنه يتحدث عن الأمير صاحب الحق باعتباره جزائريا له بيعة شرعية.

ومن ضمن النعوت التي أطلقها أرنو على الأمير نعت "تاكفاريناس الجديد" الذي لم يكن يبحث عن النصر بقدر ما كان يهتم بخنق الفرنسيين في الشمال ليجعلهم يندمون على غزو الجزائر. ثم يعلق: "أي هذيان هذا؟؟؟"

وبينما لا يخفي المؤلف فرحته بهذا الفشل الذي حكم العلاقة بين الأمير وبين التيجانية، يذكر القارئ بالجهود التي بذلها الحاج عبد القادر ليصنع قوته، ومنها بناء تحالف قوي مع معظم الزوايا ذات التأثير على المجتمع.

في نهاية المقال يشير أرنو إلى نهاية التيجاني وهي دخوله في طاعة الفرنسيين منذ ربيع 1844، وقد ظل كذلك حتى توفي في 1852، كما يشير إلى أن معرفته -ككاتب- بتفاصيل الحصار يعود الفضل فيها إلى "ريان" قائد القصر الذي كان له دور كبير في مناجزة الأمير.

4- وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب¹

هذا الموضوع خاص بكتاب قدور بن رويلة الذي ألفه عن جيش الأمير عبد القادر والذي عنوانه: "وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب" ويشير بربريجي ابتداء إلى أن الضابط بواصوني (Boissonne) (هكذا) قد نشر نصه العربي بقسنطينة، كما أشار إلى نسخة في المكتبة الوطنية تحمل ترجمة للكتاب، لكنها لا تحمل اسم المترجم الذي يبدو أنه مترجم رسمي.

¹- A. Berbrugger. «Ouichah el-Kataib [Règlements de l'armée d'Abd el-Kader». R.A (08/1864), p98

أهم ما في هذا المقال بيان تركيبة جيش الأمير من الخيالة والمشاة والرماة، ثم تفصيل للمهام، وفي النهاية تعليق -خطير جدا- على استخدام هذا الجيش النظامي، إذ لم يكن يُستخدم ضد الفرنسيين - حسب بربريجي- بقدر استخدامه لترهيب القبائل التي تخرج عن طاعة الأمير.

وفي نهاية الموضوع الذي حرره بربريجي وردت ملاحظات هامة من هيئة التحرير بناء على معلومات جديدة زودها بها الضابط بواصوني مفادها أنه نشر الكتاب في مارس 1848 بعد أن أشرف على نسجه من مخطوطة بخط يد ابن رويلة! وقد ظهر "الوشاح" بدار النشر Hachette تحت العنوان الفرنسي التالي: *Quelques poésies d'Abdelkader ; Ses règlements militaires* غير أن الأساس في العنوان جعل تابعا لما هو ثانوي، وكان الناشر يعلم هذا ولكنه أراد أن ينشر شيئا عن الأمير المشهور ربما لتحصل له بذلك شهرة.

كما وردت معلومة هامة تفيد بأن الكتاب ترجمه المترجم العسكري رزوتي (Rosetti) ونشره الجنرال ماري (Marey) في *Spectateur Militaire* يوم 15 فبراير 1844، ولعل الفرنسيين استفادوا من الكتاب -والحرب بينهم وبين الأمير لازالت قائمة - فتعرفوا على تركيبة الجيش ورسوموا الخطط الضرورية لمواجهته.

كما أن قدور بن رويلة كان من الطبقة المتعلمة والتحق بالأمير فكتب مراسل إيميري (Marcel Emerit) عام 1954 يلوم دولته على أنها آنذاك لم تحسن معاملته هو وأمثاله، وبذلك دفعتهم إلى الالتحاق بالمقاومة، وهو بهذا ينفي "الوطنية" ومقتضياتها عن هؤلاء "المتقفين"، ويتحول من مجرد مؤرخ إلى منظر للسياسة الاستعمارية وحرّب التحرير يومئذ على الأبواب.

5- تاريخ الحاج عبد القادر من خلال ابن عمه الحسين بن علي بن أبي طالب¹

نجد في هذا المقال ترجمة دالباش لكتاب تاريخ الأمير لابن عمه الحسين بن علي ابن أبي طالب بن سيدي قادة بن المختار، وآثرت إدراجه هنا رغم حديثه عن فترة استعمارية، والمبرّر هو أن الكتاب شمل الحديث عن أسرة الأمير والمنطقة الغربية عموماً خلال الفترة السابقة.

وقع الحسين بن علي بن أبي طالب أسيراً يوم 11 أبريل 1843 بعد هجوم **Tempoure** على قوات الأمير بقيادة ابن علال، وقد أسره اثنان من قوات "القوم" فلما تعرفا عليه سهّلا له مهمة الفرار، وبعد تنقله لسنوات بين قبيلة وأخرى انتهى به المطاف إلى الوقوع في الأسر مجدداً بالبليدة وظل كذلك حتى 1848، ليتم إلحاقه بالأمير في تولون لكن الأخير كان مستاء منه بسبب "خضوعه المبكر" للفرنسيين.

خلال فترة الأسر بالبليدة قرر الحسين تأليف كتاب عن الأمير ولم "ينسَ نفسه" فيه. غير أن كتابه لم يتميز بالأسلوب الراقى وإنما باستخدام لغة عادية، حيث اعتمد على ذاكرته في ترتيب مادته فبدأه بتقديم شجرة النسب الخاصة بعائلة الأمير عبد القادر ثم مضى إلى "النبوءات" التي تعلق بإمارته، ومن هناك إلى "انتخابه" أي مبايعته.

يتحدث الحسين عن حالة الجزائريين وعن الأحداث التي أعقبت نشأة الأمير، ويقر دالباش بأن المعطيات التي يحملها الكتاب تصبح أكثر أهمية بدخول مرحلة الأسر، لكنه آثر حذف ما تعلق بالتجوال في الجزائر ليمر مباشرة إلى الخاتمة التي تضمنت آمال الكاتب على غرار بقية الجزائريين. ويزعم دالباش في نهاية المقدمة التي كتبها عن الكتاب بأنه استخدم ترجمة "منطقية وواضحة" للمعاني الواردة فيه دون الابتعاد عن مقتضى "الحرف" ولعل سبب رغبته في إنجاز هذا كله هو التفاصيل الخاصة التي وردت في الكتاب عن الأمير، والتي وجب توضيح كثير منها في الهوامش.

¹ - Delpech. « Histoire d'El-Hadj A'bd-El-K'Ader: par son cousin El-Hossin Ben A'Li Ben Abi T'Aleb ». R.A (20/1876), p417

6- ارتجال الأمير عبد القادر¹

لو أن شخصا ما لم يسمع بالأمير عبد القادر إطلاقا ولم يقرأ عنه إلا في الصفحتين الأولى من هذا المقال لاكتفى بهما ليعتبره بطلا جزائريا بذل الغالي والنفيس من أجل الجزائر، حتى اضطر إلى وضع سلاحه مستسلما للقدر بعدما ضاق عليه الأفق الرحب.

هكذا صوره جان (Guin) الذي نصّب نفسه عارفا بالحالة الثقافية بل والنفسية التي آل إليها الجزائريون الذين ينحدرون من أصول عربية (!) لطالما تعايشت مع الشعر وعاشت به. وظل هذا التناغم مع الشعر يضعف تدريجيا حتى لم يعد في المجتمع الجزائري من يحفل بالشعر أو يعيره اهتماما، ناهيك عن الارتجال الذي كان من أهم سمات المجتمع العربي.

وبعد مقدمة طويلة حملت هذا المعنى باستفاضة، يقف جان على استثناء بارز مثله الأمير عبد القادر الذي ذُكرت أمامه تلمسان فارتجل شعرا جميلا خلد ذكراها موصيا الفرنسيين بها خيرا وقد صارت بأيديهم. وقد ترجم صاحب المقال هذه القصيدة إلى الفرنسية مع إدراج أبياتها بالعربية قبل ذلك. ومن جملة الأبيات التي وردت بها:

تلمسان للتقبيل مدت يداها² ... فلبّ أيها ذا صوتِ نداها

وقد رفعتْ عنك الإزارَ فلجَّ به ... وبرّدْ حشاك من زلالِ نداها

وفي النهاية تبّه قان إلى أن المجلة الإفريقية نشرت عام 1861 عمل المترجم العسكري الشاب مارك أرنو الذي ترجم من خلاله قصيدة الأمير عبد القادر التي خلد فيها ميزات الحياة البدوية.

¹ -Guin. « Une improvisation de l'Emir Abdelkader ». R.A (27/1883), p224 et suite

² -هكذا والصواب: مدت يديها

7-ارتجال الأمير الحاج عبد القادر¹

هذا مقال مقتضب جدا حول ارتجال الأمير عبد القادر، وقد مهّد له صاحبه باتروني (Patroni) بالحديث عن الوضع الصعب الذي عاشه الأمير عام 1847 وقد اتفقت ضده - حسب الكاتب طبعا-الحكومتان الفرنسية والمغربية².

وحين ضاق عليه الأمر أكثر لجأ إلى الدبلوماسية لكن فرنسا أغلقت هذا الباب، ورغم هذا بعث الأمير خليفته على تلمسان محمد البوحميدي الوهاصي إلى سلطان مراکش المولى عبد الرحمن. ويلجأ باتروني إلى مذكرات ليون روش ليسوق لنا بعض ميزات البوحميدي، وكان روش قد تعرف إليه منذ 1837. وهي ميزات العالم بالدين القائد المقتدر والجندي المتمرس. فلما حان وقت توديع الأمير لخليفته انتابه شعور غريب امتزج بخوف شديد. فما ابتعدت القافلة إلا قليلا حتى ارتجل قصيدة عبّر فيها عن هذه المشاعر ورسم من خلالها صورة لمخاوفه. ومنها هذه البيات:

قلدتُ يومَ البينِ جيدَ مودّعي ... دُررًا نظمتُ عقودها من أدمعي
وحَدًا بهم حادي المطايا فلم أجد ... قلبي ولا جلدي ولا صبري معي
ودّعُهم ثم انشيتُ بحسرة ... تركت معالم معهدي كالبلقمي
يا نفسُ قد فارقتِ يومَ فراقهم ... طيبَ الحياة ففي البقا لا تطمعي

¹-F. Patroni, « Une improvisation de L'Emir El-Hadj Abdel-Kader ». R.A (40/1896), p221 et suite

²-أسالت علاقة الأمير بالقصر المغربي الكثير من الحبر، والحديث فيها منقسم بين من يعتبرها مرت بمرحلتين، ساد التفاهم في الأولى والاختلاف في الثانية، ومن يعتبرها غير سوية منذ البداية لخوف السلطان على عرشه من شخصية مجاهدة صارت تستقطب الأضواء وتمثل شبح القيادة الضرورية لمقاومة المد الأوربي على حساب البلاد الإسلامية. أما مسألة التواطؤ بين المغرب وفرنسا كما يدعي صاحب المقال فتححتاج إلى تريث.

وبعد سرد أبيات القصيدة قام باتروني بترجمتها إلى الفرنسية، ثم كتب معلقا بأن أحاسيس الأمير المسبقة صدقت، فالبوحميدي مات مسموما بفاس في ذات الوقت الذي قُتل فيه بتازة المغربية زميله محمد بن عيسى البركاني خليفة الأمير على المدينة.

يختم باتروني مقاله بملاحظة هامة يزعم من خلالها أن هذه القصيدة جديدة لم ينشرها أحد قبله، وأن ما نشره شربونو عام 1850 لم يكن سوى نسخة منها غير مكتملة. ثم يتقدم بالشكر لعائلة برحال بندرومة لأنها ساعدته على العثور عليها.

8- اقتراحات من بعض المغامرين لتسليم عبد القادر إلى فرنسا¹

موضوع هام يدرج من خلاله جورج إيفر اقتراحات وردت من "مغامرين" كثيرين على الإدارة الفرنسية مفادها تقديم العون لها للإطاحة بالأمير عبد القادر مقابل مبالغ مالية حددها بعضهم وترك بعضهم الآخر تحديدها للجهات الفرنسية المختصة بما فيها الملك الفرنسي ذاته.

ومن الملاحظات الهامة في هذا الموضوع أن بعض هؤلاء المغامرين كانوا عاملين ضمن الجيش الفرنسي فأرادوا استغلال فرصة معرفة الأرض للوصول إلى الأمير، وكان أحدهم -حسب ما ادعى- مبعوثا لديه أيام عقد اتفاقية التافنة.

ومما يلفت الانتباه أيضا وجود مغامر من هؤلاء يصفه الكاتب بـ "الجزائري" وهو اليهودي جوزيف بكري مدعيا أن والده كان وزيرا في حكومة الداوي. وهذا طبعا ليس بجديد على الطائفة اليهودية التي كان موقفها من الاحتلال الفرنسي للجزائر مخزيا للغاية.

ففي 1846 كان لبكري مخطط ضد دوق دومال ومخطط ضد الأمير، ولذلك حرصت المصالح الفرنسية المختصة على متابعته حتى نوفمبر 1846 حيث كان من المنتظر ذهابه إلى الجزائر،

¹- G.Yver, « Propositions faites au gouvernement français par des aventuriers offrant de livrer Abd El-Kader »: (1842-1846). R.A (55/1911), p137

ثم وردت أخبار تفيد بأنه لم يعد يشكل خطرا على أحد. لكن صاحب المقال لم يحدد إذا كان الخطر قد زال عن الأمير أيضا أم عن دوق دو مال فقط.

غير أن جورج إيفر وقف على مغالطات كثيرة وردت في هذه الرسائل، حيث ثبت لديه كذب بعض المغامرين في ادعاءاتهم، ثم إن الاقتراحات جاءت في الفترة بين 1842 و1846 وهي تمثل المرحلة الصعبة التي مر بها الأمير، حيث سقطت عاصمته بطاين في ماي 1843 وبدأت قبائل كثيرة تعلن عصيانها، ووجب عليه التوجه إلى المغرب الأقصى ليوفر متنفسا جديدا للمقاومة. ونظرا لأهمية هذه المحاولات الجريئة التي هدفت إلى تصفية الأمير عبد القادر ساندها مسؤولون في الإدارة الفرنسية، فقد أرفقت رسالة ماتي (Mathis) برسالة تزكية من رئيس بلدية أرونج (Orange) يشهد فيها بكفاءة هذا العسكري وقدراته العالية.

كما لم يتوقف الأمر على الفرنسيين فحسب وإنما ضمت القائمة رسالة لإسباني لم يذكر اسمه، وأخرى لهولندي اسمه Maris وثالثة لإنجليزي هو John Anderson وبذلك كثر طلابه.. ونظرا لأن فرنسا كانت تعرف قيمة الأمير ومكانته أدركت أن هذه المشاريع مجرد فقاعات لا جدوى من ورائها، فحين وردت رسالة من جارسان (Garcin) يعرض فيها ذات الخدمة على الإدارة الفرنسية علق الوزير بقوله: "هذا مجنون، لا تردوا عليه" كما رد على رسالة روهو (Rouhaud) بالعبارة التالية: "لا يستحق المتابعة". من هؤلاء المغامرين:

Leon Belin 1842 - Jacquemot Juillet 1843 - Mathis ancien caporal 15 Novembre 1845 - John Anderson 16 Février et 26 Mars (l'année ?) - Jean Frederic Goll ancien militaire retraité (l'année ?) - Maris 16/01/1846 - Garcin (la date ?) - Rouhaud, 14 Novembre 1845 - Joseph Bacri, Mai 1846.

9- بيان الأمير عبد القادر لسكان فيقيق¹

يبدأ الكاتب جونيلون (Gognalons) مقاله بقول الله تعالى في سورة البقرة: "وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْنَاكُمْ" مشيراً إلى أنها الآية 187 بينما هي مرقمة بـ 191 في المصحف الشريف.

يتحدث الكاتب -وهو ضابط مترجم من القسم الأول- عن بيان الأمير عبد القادر الذي وجهه إلى سكان فيقيق يستنهضهم -بكل فصاحة وبلاغة- للجهاد. وبينه إلى أن دراسته هذه تكمل دراسة سان كالبر (Saint-Calbre) (مدير مدرسة قسنطينة) حول الدعوة إلى الجهاد عند المسلمين والتي نشرها في المجلة الإفريقية سنة 1911 (ص 282 وما بعدها)².

ويربط الكاتب دعوة الأمير إلى الجهاد بالانطلاقة الأولى التي عرفتها الفتوحات الإسلامية والتي استخدمت الشعر والحماسة لاستنهاض همم المسلمين، ويعطي مثالا عما قام به عقبة بن نافع وهو يفتح شمال إفريقيا.

ثم يعمد إلى بيان استخدام الأمير للآيات القرآنية للوصول إلى مآرب سياسية، وحتى وإن فشل في تحقيق حلمه فإنه قد أحرز وصول فرنسا إلى "تهدئة البلاد" على حد تعبير الكاتب.

بعد هذا يورد نص الخطاب الذي بعث به الأمير إلى أعيان فيقيق وعلمائها يدعوهم إلى مسانדתه في حرب الفرنسيين، وهو مؤرخ بالسابع عشر من شوال من عام ألف ومائتين وواحد وخمسين (1836/02/05) كما يشير الكاتب إلى حصوله على مخطوطة هذا الخطاب من السيد سي الهاشمي بن محمد، وهو خوجة بمكتب الشؤون الأهلية ببني ونيف، ثم يصفه بالمتقف الدقيق

¹ - L.Gognalons, « Une proclamation de l'Emir Abdelkader aux habitants du Figui en 1836 ». R.A (57/1913), p245

² - Charles Saint Calbre, « De la proclamation de guerre chez les musulmans », R.A, (55/1911), p 282 et suite

الذي نشر دراسة حول تقاليد فيقيق وأساطيرها في Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran Année 1906. كما يشير الكاتب إلى أهم الدراسات التي تناولت تاريخ فيقيق حتى زمانه ومنها دراسة ألفونس دو لامرتينيار (Alphonse de la Martinière) ولاكروا (Lacroix) ودراسة إيدمون دوتي (Edmond Douuté) التي نشرها عام 1902، وكذا ما نشره إيميل جوتيه (Emile Gautier) تحت عنوان: Le Sahara Algérien .

ويعود الكاتب إلى وثيقة الأمير فيعطي وصفا دقيقا لها، ثم يقف عند تاريخها فيشير إلى حدثين سبقاه، وهما احتلال معسكر (شهرين قبل هذا التاريخ) واحتلال تلمسان (شهر واحد قبله)، ويؤكد أنه رغم التقارير الفرنسية التي أكدت على قوة الأمير حتى هذه السنة فإن دعوته لأهل فيقيق تبين أنه أصبح في وضع صعب فرض عليه محاولة توسيع تحالفاته، ولا يجد الكاتب ما يؤكد استجابة أهل فيقيق لنداء الأمير، لكنه يؤكد استفادته من بعضهم في حصار عين ماضي سنتين بعد ذلك (1838) ويتساءل إن كان يومها يريد استخدامهم في استعادة تلمسان في 1836؟ يدعي الكاتب أن أهل فيقيق لم يهتموا كثيرا بما كان يحدث في شمال الجزائر وإنما انشغلوا بحروبهم الداخلية، وأنهم لم يقفوا في وجه "الكافر" بقدر ما جابها "الدخلاء"، فقد هاجم أهل قصر زناقة الحاكم العام جونار (Jonnart) فيما يعرف بركة اليهودية Col de la Juive، وكرد فعل فرنسي على ذلك تم تدمير فيقيق في 8 جوان 1903، وفي 1912 أصبحت فيقيق مقرا لقيادة بني قيل Beni-Guil بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى.

10- الشعر الشعبي السياسي على عهد الأمير عبد القادر¹

بعد الحديث عن أهمية الشعر في المجتمع العربي تحدث الكاتب عن الذين لم يكونوا يرضون بالأمير عبد القادر، سواء كانوا مرابطين أخذتهم الغيرة بعدما رأوا نجمه يعلو، أو أعيانا تضرروا من سلطانه. ويسوق الكاتب أمثلة عن الغماري شيخ الأنقاد وسي العربي الذي كانت سلطته ممتدة من الشلف إلى مستغانم، إضافة إلى زعماء الدواير والزمال².

ونظرا لمواقف سي العربي هاجمه الأمير في البرج ودفع كثير³ من الناس ثمن وقوفهم معه، ومنهم القايد قدور ولد احمد البرجي المدعو بونقاب الذي عزله الأمير، وكان شاعرا فكتب يهجو ويهجو عائلته ليرد عليه شعراء كثيرون منهم الحبيب ولد بوعلام.

وحدث أن الدواير دعوا قدور ولد محمد إلى مآدبة كبيرة وبدأوا يمدحونه حتى شبهوه بابن السويكت³ ثم طلبوا منه هجاء الأمير في قصيدة جديدة، غير أنه رفض خوفا على قبيلته من انتقام الأمير الذي عفا عنه لكنه احتفظ بأفراد عائلته كرهائن، ولما فشلت محاولات إطلاق سراحهم كتب قدور قصيدته الشهيرة التي مطلعها: (يا قريب الضحكة وبعيد في رضاك)

وقد أورد الكاتب هنا قصيدة قدور النقايب كاملة وترجمها إلى الفرنسية وعلق بعدها على مصير صاحبها الذي ظل فارا حتى توفي. ثم ذكر قصة شعبية أشار إلى عدم يقينه من صحتها، مفادها أن قصيدة النقايب ذكرت أمام الأمير فلما وصل الراوي إلى قول الشاعر:

¹ - A.Cour, « La poésie populaire politique au temps de l'Emir Abdelqader ». R.A (59/1918), p. 458

² - تراجع في هذا الإطار دراستنا لكتاب أحمد ولد قاي باشاغا فرندة، الدواير والزمال وحركاتهم، التي نشرناها بمساعدة الباحث زكريا جرادي. دار فهرنهايت 451، 2023.

³ - يقصد قادة بن السويكت السويدي، الشاعر المعارض لحكم البايلك في العهد العثماني. يراجع ما كتبه عنه الشيخ المهدي البوعبدلي في مجلة الثقافة، العدد 97، ص 38 وما بعدها.

يا الغافل لا تفرح زعم واش زهاك

إذا ضحك لك يرجع بالسوء دهر تبدال ... كي مسكت انت ذا البر يمسكك ذاك

وطلب منه الأمير أن يتوقف، ثم علق بأن النقايب كان وليا وأنه-الأمير- لم يكن يعرفه حق المعرفة. أما الشعر الذي كان يدعم الأمير فاختار منه الكاتب ما قاله سي الطاهر بن حوا الذي ركز على نسب الأمير القرشي وعلى خصلة الكرم التي تميز بها، وكان ذلك طبعا للتقليل من الآثار السلبية التي خلفها شعر المعادين له.

11- عبد القادر والمغرب الأقصى في 1838¹

يقدم لنا جورج إيفر في هذا الموضوع رسالتين عشر عليهما ألفرد بال (Alfred Bel) وهما من الأمير عبد القادر إلى ممثله بفاس الحاج الطالب بن جلون.

الرسالة الأولى مؤرخة بـ 16 جمادى الأولى 1254هـ / 06 أوت 1838، وقد بدأت بحمد الله والصلاة على نبيه ثم بالثناء على الحاج الطالب بن جلون والدعاء له. كما تم إخباره بأن كتابه وصل إلى الأمير وهو محاصر لعين ماضي، وتلا ذلك تفصيل لهذا الحصار ثم حديث عن مهام الحاج الطالب المتمثلة في تزويد الأمير بالسلاح والذخيرة، مع تنبيهه إلى أن بعض البنادق التي وصلت إلى الأمير كانت فاسدة، ولذلك تم التأكيد على أن تكون هذه المرة بتوافلها (avec leurs baionnettes)، وقد رافق هذا الحديث ثناءً على سلطان المغرب الأقصى ودعاء له.

وعند ترجمة الرسالة عمد الكاتب إلى توضيح مسائل مختلفة، منها أن الأمير انطلق من تاقدمت يوم 11 جوان 1838 قاصدا عين ماضي التي صار على مشارفها يوم 24 جوان، وبعد محادثات فاشلة -رفض التيجاني مواصلتها - حاول الأمير دخول القصر يوم 08 جويلية لكنه لم ينجح إلا في الاستحواذ على بساتين المدينة.

¹ - G. Yver, Abdel- Kader et le Maroc en 1838. R.A (60/1919), p93

أما الرسالة الثانية فمؤرخة بـ 10 جمادى الثانية 1254 (01 سبتمبر 1838) وقد حوت ذات المقدمة ليصل كاتبها إلى إخبار الحاج الطالب بأن الرصاص متوفر فإن لم يكن قد اشترى كمية منه فلا داعي لذلك، لأن الفائدة منه لم تعد كبيرة.

وقد أورد إيفر ترجمة للرسالة، وأرفق الترجمة ببعض الملاحظات منها أن دوما أورد حديثا عن استقدام الأمير لكميات من الرصاص من وهران في صائفة 1838، وهو ما يؤكد المعلومات التي وردت في الرسالة. كما قدم الكاتب تعريفا كافيا للحاج الطالب بن جلون ودوره في المغرب الأقصى منذ نهاية حكم المولى سليمان.

كما يشير الكاتب إلى المحاولة الجريئة التي قام بها الأمير من خلال محاولة صنع السلاح في مليانة، تلمسان وتاقدمت، وحين فشلت عمد إلى طرق أخرى للحصول على السلاح. ومنها الاعتماد على الحاج الطاهر أخي قايد معسكر الحاج البخاري.

كما يعمد الباحث إلى بيان طبيعة العلاقة بين الأمير وبين السلطان مولاي عبد الرحمن التي عرفت تحسنا كبيرا وافقه تواضع الأمير باعتبار نفسه مجرد خليفة للسلطان، لكنه في المقابل كان يرى -حسب الكاتب طبعا- أن هذه العلاقة لا تمنعه من تحقيق هدف الإمارة على الجزائر رغم أن السلطة الشريفة لم تر في الأمير سوى وسيلة ليصبح غرب الجزائر تابعا لها.

وحتى يبرر الكاتب اتهامه للأمير ببحث النية واستخدام القبائل لتحقيق مآرب شخصية يعمد إلى كتاب الاستقصاء الذي يورد حديثا عن حرب 1844 بين الفرنسيين والمغاربة والتي لم يكن لها سبب آخر -حسبه- سوى دعم السلطان للأمير، كما كان حصار عين ماضي سببا آخر لهذا

الخلاف نظرا لمكانة التيجانية بالمغرب، حتى وإن كان السلطان عبد الرحمن قد أذن للأمير بمهاجمة الواحة، وهو ما يؤكد -حسب زعم الكاتب- تبعية الأمير للقصر العلوي¹.

12- غريم لعبد القادر²

هذا الموضوع خاص بالمقاوم محمد بن عبد الله الذي يعتبره إسكير غريما للأمير عبد القادر، وهو هنا ينقل إلينا رسالة ابن عبد الله إلى ملك فرنسا لويس فيليب يعلمه فيها أن بعض القبائل طلبت منه الموافقة على توليته زعيما عليها عوضا عن الأمير. وقد وافق بعد أن اشترط على هذه القبائل قبول مسالمة فرنسا. ثم اتصل بالحاكم العام عن طريق مصطفى بن سماعيل واتجه معه إلى تلمسان واتصل ببعض القبائل لتسانده. ورغم موافقتها في البداية فإنها بدأت تميل إلى الأمير بعد اتصاله بها.

وهكذا أدت اتصالات الأمير إلى تراجع مكانة ابن عبد الله، لذلك كتب هذه الرسالة يطلب إعادة الاعتبار إليه ما دام قد قدم خدمات كثيرة لفرنسا. وهو هنا يذكر الملك بأصوله العربية وبأجداده الذين حكموا جهات من سوريا ومصر زمنا طويلا.

وتمر الرسالة إلى عرض حال القبائل دون التركيز على الأمير وأخباره، وإذا كان صاحب المقال لا يعترض على كثير من الأحداث التي ورد ذكرها في الرسالة المؤرخة بنهاية رجب 1249هـ / بداية ديسمبر 1833م فإنه يعترض على تاريخها اعتمادا على بيليسي وتروملي واعتمادا على صمت المراسلات -قبل 1841- بين الجزائر وباريس عن ذكر محمد بن عبد الله الذي ليس سوى الطالب براهيم بن أبي فارس أو براهيم بن عبد الله.

¹ - لم يكن الأمير تابعا للقصر الملكي المغربي وإلا لكان أخضع الحشم لإرادة المغاربة بعد دخولهم الأراضي المغربية. ومعلوم أن الأمير اصطدم بجيش السلطان في تازة قبيل نهاية مقاومته أواخر 1847.

² - G. Esquer, « Un rival d'Abd El Kader ». R.A (68/1927), p431

هكذا استغل الفرنسيون بن عبد الله لضرب الأمير لكنهم أدركوا أنه أضعف من أن يكون له دور كبير فبعثوا به إلى مكة ليتجنبوا غدره، غير أنه التقى هنالك بمحمد بن علي السنوسي الذي أقعده بالجهاد فدخل إلى طرابلس الغرب ومنها إلى ورقلة التي أمره أهلها عليهم في 1851. ثم يتتبع الكاتب أخبار بن عبد الله حتى إلقاء القبض عليه من قبل بوبكر ولد سي حمزة ولد سيدي الشيخ، وكيف سجنه الفرنسيون في برينيون (Perpignan) ثم في مقاطعة قسنطينة. غير أن الحديث عن الأمير عبد القادر يكاد يكون غائبا تماما في هذا الموضوع.

13- راهب معسكر والأمير عبد القادر¹

يعالج كاي في هذا المقال قضية في غاية الخطورة متعلقة بنظرة الفرنسيين إلى الأمير، الإنسان قبل أن يكون الأمير القائد. إنها مسألة متعلقة بمكانته في قومه ولدى الآخر. إنها قضية محاولة راهب معسكر إدخال الأمير في المسيحية وما نتج عنها من تجاذبات حتى على المستوى السياسي. بعد تفصيل الحديث عن انتقال الراهب كروزا (Creuzat) إلى المغرب لمقابلة الأمير، وموقف القنصل الفرنسي بطنجة de Chateau من هذا تساءل Caillé عن مهمة الراهب والدوافع التي أدت إليها وعرض لنا قضية أسر جنود الأمير عبد القادر عام 1840 للمتصرف Massot الذي تدخلت زوجته على مستوى أسقف الجزائر Dupuch لتحريره، وكانت نتيجة ذلك عملية تبادل الأسرى يوم 19 ماي 1841 قرب بوفاريك حيث التقى الأسقف بمحمد بن علال خليفة الأمير على مليانة. وبعد أيام انتقل الراهب Suchet إلى غريس فعمل بطريقة جيدة وتم إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الباقين، وهو ما جعل هذا الراهب يقتنع بالعمل على "إرساء دعائم السلام وزرع الانسجام بين الشعبين" ومنطقي جدا - حسب Caillé دائما - أن يكلف

¹ - J. Caille, « Le curé de Mascara et l'Emir Abd El Kader (Août 1845) ». R.A (85/1944), p245

Creuzat بإتمام المهمة رغم المعارضة الشديدة التي أبدتها السياسيون والعسكر لكل تدخل من قبل رجال الدين في السياسة.

ولعل هذا الصراع هو الذي شجع **Creuzat** على محاولة إقناع الأمير بالدخول في المسيحية ليكون ضربة موجعة للذين يعارضون ما رغب أسقف الجزائر **Dupuch** في تحقيقه وهو إدخال الجزائريين في المسيحية، وهي الرغبة التي أنتجت مزيدا من الصراع أدى إلى استقالة الأسقف. ويعترف **Caillé** بأن دعوة الأمير إلى المسيحية كانت تشبه "المدينة الفاضلة" فرغم التسامح الذي عرف به الأمير عبد القادر تجاه المسيحيين واليهود فإنه - حسب **Caillé** دائما - كان شديد الإيمان "بدين محمد".

كما يحاول الكاتب فهم موقف القنصل الفرنسي بطنجة وهو يمنع كاهن معسكر من الاتصال بالأمير، ذلك أن الاتفاقية الفرنسية المغربية الممضاة في 10 سبتمبر 1844 - والتي جاءت على إثر معركة إسلي التي قامت في 14 أوت 1844 م بالقرب من مدينة وجدة بين جيوش المغرب وفرنسا - جعلت مولاي عبد الرحمن يعتبر الأمير عبد القادر خارجا عن القانون ويعمل على إخراجه من المغرب أو حصره في مدينة بغرب المملكة ليكون بعيدا عن الجزائر. غير أن تنفيذ هذا لم يكن سهلا لأنه كان سيدخل النظام المغربي في حرب مع السكان الذين اعتبروا الأمير "بطل الإسلام". لكن في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تضغط على النظام الشريفى لينفذ الاتفاقية السابقة تدخل راهب معسكر قاصدا الأمير للتفاوض. إن هذا التدخل كان حتما سيفسد المخطط الفرنسي لذلك عارضه القنصل بشدة. ورغم هذا يبقى تحرك الراهب كروزا ينم عن مكانة خاصة للأمير الذي استحوذ على القلوب بالجزائر.

ما لم يشر إليه الكاتب هنا هو أن الصراع بين العلمانية والدين في فرنسا لازال حديث عهد، ففرنسا العلمانية كانت قد انتصرت على المؤسسة الدينية الكنسية بانتصار ثورتها عام 1789م،

ولذلك رأت في "تنصير الأمير عبد القادر" محاولة من الكنيسة في الجزائر لاستعادة المكانة من جديد، وهذا ما جعل المؤسسة العسكرية تقف بدعم من الإدارة الاستعمارية ضد المشروع مقدمة مبررات مختلفة.

14- رحلة مانوار إلى بلاد عبد القادر¹

هذا المقال هو تكملة لمقال آخر نشره إيميري في المجلة الإفريقية عام 1953 تحت عنوان: "الصراع بين الجنرالات والأساقفة في بداية عهد الجزائر الفرنسية"، وهو يبدأ بالإشارة إلى الخلاف بين المؤسسة العسكرية ورجال الدين الفرنسيين والذي ظاهره متعلقا بقضية تحرير الأسرى. يبدأ إيميري حديثه هنا عن رحلة دي مانوار (**Du Manoir**) في بلاد الأمير عبد القادر بملاحظة أساسية مفادها قلة المعلومات عن الأمير ذاته حين يتعلق الأمر بفترة ما بعد 1839 أي فترة العودة إلى الحرب من جديد بعد نقض معاهدة التافنة. ثم يتطرق إلى مسألة تحرير الأسرى بعد الهجوم الذي شنته قبيلة حجوط في 04 أكتوبر 1840 وأسفر عن أسر مسافرين كثيرين أبرزهم المتصرف المالي ماسو (**Massot**).

وقد أعطى الحاكم العام للجزائر الجنرال فالي (**Valée**) الضوء الأخضر لكبير أساقفة الجزائر ديبيش (**Dupuch**) للدخول في مفاوضات مع الأمير لتبادل الأسرى، غير أن الجنرال يبجو حين صار حاكما عاما وضع قيودا أمام الأسقف حتى لا تنجح المفاوضات، فقد عملت الإدارة الفرنسية على تفويض دعائم السلم مع الأمير كيلا تمتلك دولته مقومات الاستمرار.

رغم هذا الاعتراض العسكري أعطي الإذن لممثلي الأسقفية؛ القس ستالتر (**Stalter**) والمؤرخ بربريجي والمترحم دي مانوار للدخول في مفاوضات مع الأمير، فتوجه إليه الوفد، غير أنه (أي

¹ - M. Emerit, . Toustain du Manoir au pays d'Abd-el-Kader. R.A (99/1955), p113

الأمير) لم يكن راضيا عن ذلك لأن المفاوضات لم تمس مسألة السلم، لاسيما وأن الرسالة التي حملها هؤلاء إلى الأمير حملت توقيع ليون روش الذي كان أمرٌ بتحسيسه قد اكتُشِف قبل فترة.

ولذلك كله رفض الأمير استقبال هذا الوفد فتوجه إلى ابن علال خليفته على مليانة، وهذا ما

تحدث عنه بربريجي في *Négociation entre Monsieur l'évêque d'Alger et Abdel-*

Qader pour l'échange des prisonniers، وهو في الأصل كتاب لدي مانوار استحوذ عليه

بربريجي ونشره باسمه¹. وبينما نجحت المفاوضات في تحرير 28 فرنسيا وما يعادلهم من الجزائريين أُخذ

كل من بربريجي وفرونكليو رهيتين، وهو ما سماه دي مانوار **Le Second voyage**.

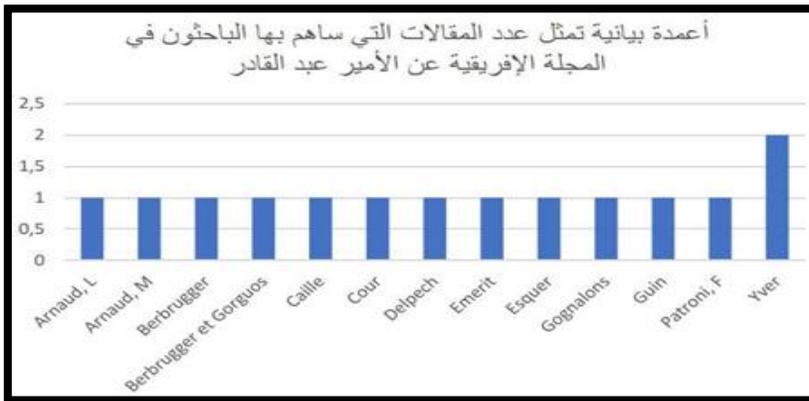
واصلت المؤسسة الكنسية- دون علم بيجو- مفاوضة الأمير بخصوص الأسرى، حيث بعث

ديبيش القس سيشي حاملا كثيرا من الهدايا ومعه المترجم دي مانوار الذي سجل انطباعاته عن

الأمير وبلاده وأوضاع الجزائريين والوضع العام الذي آلت إليه المقاومة في هذه المرحلة.

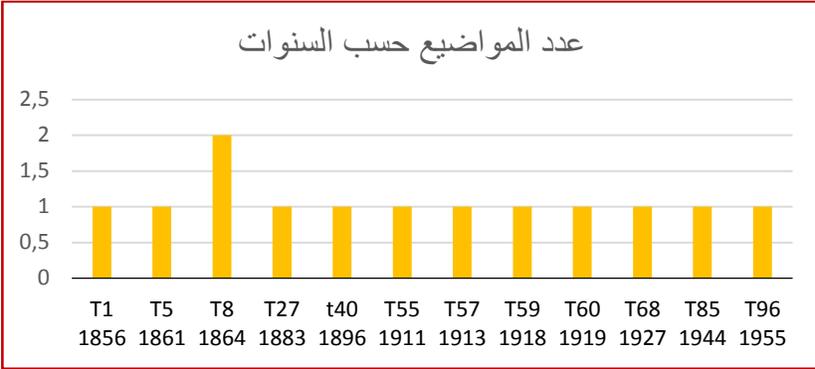
ثانيا-الدراسة التقنية:

1-أعمدة بيانية للمؤلفين الذين وردت لهم مقالات عن الأمير في المجلة الإفريقية



¹ – Emerit, Ibid., p. 114

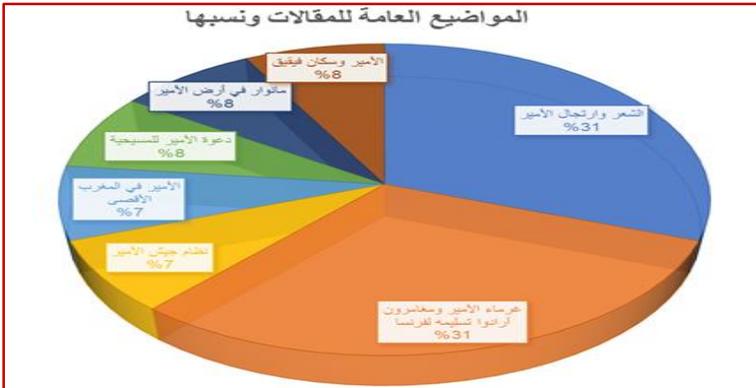
2- أعمدة بيانية تمثل عدد المقالات عن الأمير حسب الأعداد (السنوات):



3- دائرة نسبية لتوزيع المواضيع حسب مراحل الكتابة التاريخية الفرنسية بالجزائر:



4- دائرة نسبية تمثل مواضيع المقالات الخاصة بالأمير ونسبة كل فئة منها:



5- جدول المؤلفين لأكثر عدد من المقالات في المجلة الإفريقية¹

| الرقم | الكاتب | عدد مقالاته | عدد مقالاته حول الأمير |
|-------|-------------------------|-------------|------------------------|
| 1 | BERBRUGGER, Adrien | 136 | 1,5 |
| 2 | FERAUD, Louis Charles | 100 | 0 |
| 3 | RINN, Louis | 67 | 0 |
| 4 | GRAMMONT, Henri- Delmas | 63 | 0 |
| 5 | ROBIN, N | 53 | 0 |
| 6 | FAGNAN, E | 41 | 0 |
| 7 | DESPARMET, J | 35 | 0 |
| 8 | TRUMELET, C | 33 | 0 |

6- أعمدة بيانية تمثل طبيعة المواضيع من حيث الاختصاص:



7- نسبة ما خصصه كل باحث للأمير مقارنة بما نشر في المجلة الإفريقية:

| نسبة ما خصصه كل باحث للأمير مقارنة بما نشر في المجلة الإفريقية | | | | |
|--|------------------------|-----|-----|-------|
| 1 | Arnaud, L | 33 | 1 | 3.03 |
| 2 | Arnaud, M, Chroniqueur | 1 | 1 | 100 |
| 3 | Berbrugger | 136 | 1.5 | 1.10 |
| 4 | Gorguos | 26 | 0.5 | 1.92 |
| 5 | Caille | 2 | 1 | 50 |
| 6 | Cour | 6 | 1 | 16.66 |
| 7 | Delpech | 8 | 1 | 12,5 |
| 8 | Emerit | 16 | 1 | 6.25 |
| 9 | Esquer | 8 | 1 | 12.5 |
| 10 | Gognalons | 4 | 1 | 25 |
| 11 | Guin | 13 | 1 | 7.69 |
| 12 | Patroni, F | 2 | 1 | 50 |
| 13 | Yver | 11 | 2 | 18.18 |

¹- L. Seddiki, *La Revue Africaine de 1856 à 1961: Etude bibliométrique*, Mémoire de Magistère, 2008, Université de Constantine. P. 72

خاتمة:

هكذا إذن حوت المجلة الإفريقية مواضيع مختلفة عن الأمير عبد القادر تنوعت بين السياسة والدين والشعر، وتوزعت عبر فترة زمنية قاربت القرن، وساهم في كتابتها باحثون من مرحلتين مختلفتين؛ مرحلة الكتابة العسكرية ومرحلة الكتابة المتخصصة. غير أن عدد المواضيع المحررة عن الأمير لا يتناسب مع مكانته. فثلاثة عشر عملا لم تكن لتوفي الأمير حقه. ثم إن هذه المقالات اقتصرت مواضيعها على مسائل خصت حياته وهو بالجزائر أو المغرب خلال مرحلة المقاومة، أما حياته بعد المقاومة فلم تحظ بموضوع واحد رغم غناها بالأحداث ورغم المكانة التي صارت للأمير فيها على الساحة الدولية.

نؤكد على أننا اقتصرنا -من الناحية المنهجية -على دراسة المقالات التي حملت عناوينها اسم عبد القادر - كما أشرنا سابقا - بلقب الأمير حيننا ولقب الحاج حيننا آخر، أما غيرها من المواضيع فلم ندخلها ضمن الدراسة رغم أنها حوت معطيات هامة عن الأمير.

وقد رصدت هذه المقالات جوانب مختلفة من حياة الأمير، حيث وقف بعضها على أحاسيسه وهو يودّع بعض أصدقائه بحرقه كبيرة عبّر عنها بشعر مرتجل، ووقف بعضها على حزمه وشدته من خلال حصاره لعين ماضي وطريقة تعامله مع الخارجين عن طاعته، وعالج بعضها ما تعلق بعلاقته بغرمائه. وإذا كان بعض هؤلاء الباحثين قد ثمنوا هذه المواقف الإنسانية بما حملت من ضعف وشدّة فإن آخرين قدّموا قراءات سياسية لها ليعطوا القارئ انطباعا مفاده غلبة السياسة عند الأمير على ما سواها.

كما لم يسلم هؤلاء الباحثون عند الكتابة عن الأمير من تأثير الانتماء الفرنسي كما حدث مع إيميري الذي نصب نفسه ناصحا أميناً للدولة الفرنسية يوجهها في مسألة التعامل مع المثقفين الجزائريين. كما كالتهم التهم للأمير باستخدام الدين لأغراض سياسية، وراح بعضهم ينفي

"الوطنية" عن أهل فيقيق حين تحدث عن عدم اكتراثهم بما كان يحدث بعيدا عن أرضهم، وأنهم لم يقاوموا "الكافر" وإنما قاموا "الدخيل" وفي ذلك تلميح خطير بضمور الدافع الديني لديهم.

لكن تجدر الإشارة في المقابل إلى أن هذه المقالات حوت معلومات جمة عن الأمير وجاء بعضها في سياق جميل احتفى بمشاعره الجياشة، خصوصا ما تعلق بمواضيع الشعر والارتجال فيه. كما عرّفنا هذه المقالات بجوانب خفية لم يُكتب حولها الكثير كمسألة دعوة الأمير إلى النصرانية. وتبقى مهمتنا -كباحثين- هي إمطة اللثام عن هذا الموروث مع أخذ الحيطة عند التعامل معه.

قائمة المصادر والمراجع:

— أحمد ولد قاي باشاغا فرندة، الدواير والزماله وحركاتهم، تقديم وتعليق ومراجعة كمال بن صحراوي وركريا جرادى. دار فخرنايت 2023، 451.

- Arnaud, L. (1864). Siège d'Aïn Madi par El Hadj Abd El Kader B. Mohi Ed-Din. *R.A(08)*, pp. 354-371/435-453.
- Arnaud, M. (1861). Traduction d'une poésie d'Abd-el-Kader. *R.A(05)*, pp.314-316.
- Berbrugger. (1864). Ouichah el-Kataib [Règlements de l'armée d'Abd el-Kader]. *R.A (08)*, pp. 98-103.
- Berbrugger, A., & Gorguos. (1856). El-Hadj- Moussa ou l'Homme à l'âne et l'Emir Abd-el-Kader, en 1835. *R.A (01)*, pp. 41-49.
- Caille, J. (1944). Le curé de Mascara et l'Emir Abd El Kader (Août 1845). *R.A (85)*, pp. 227-238.
- Cour, A. (1918). La poésie populaire politique au temps de l'Emir Abdelqader. *R.A (59)*, pp. 296-297 / 458 - 493.
- Delpech. (1876). Histoire d'El-Hadj A'bd-El-K'Adér: par son cousin El-Hossin Ben A'Li Ben Abi T'Aleb. *Revue Africaine (20)*.
- Emerit, M. (1955). Toustain du Manoir au pays d'Abd-el-Kader. *R.A (99)*, pp. 113-152.
- ESQUER, G. (1927). Un rival d'Abd El Kader. *R.A (68)*, pp. 431-438.
- Gognalons, L. (1913). Une proclamation de l'Emir Abdelkader aux habitants du Figuig en 1836. *R.A (57)*, pp. 245-264.
- Guin. (1883). Une Improvisation de l'Emir Abdelkader. *R.A (27)*, pp. 224-230.
- Patroni, F. (1896). Une improvisation de L'Emir El-Hadj Abdel-Kader. *R.A (40)*, pp. 221-222 / 278-281.
- SEDDIKI, L. (2008). La Revue Africaine de 1856 à 1961 : Etude bibliométrique, , Mémoire de Magistère, 2008, p 72. 72. Université de Constantine.
- Yver, G. (1911). Propositions faites au gouvernement français par des aventuriers offrant de livrer Abd El- Kader : (1842-1846). *R.A (55)*, pp. 137-159.
- Yver, G. (1919). Abdel- Kader et le Maroc en 1838. *R.A (60)*, pp. 93-111.

المحور الثاني:
الجانب الروحي والبعد
الديني عند الأمير عبد القادر

التحصيل الشرعي للأمير عبد القادر وأثره في بناء الدولة

الدكتور حاج بن عودة شعالة
جامعة أحمد بن بلة، وهران 1.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد: فإنه من المعلوم لدى الخاص والعام أنّ الجزائر الحبيبة أنجبت علماء بارزين وصلحاء مشهورين وأدباء وشعراء مفوّهين وقادة جيوش مميّزين ورؤساء دول محنكين، ولكن لا أكون مبالغاً إن قلت أن الجزائر لم تنجب رجلاً جمع بين العلم والعمل والصلاح والشجاعة والجهاد والخبرة العسكرية والسياسية مثل الأمير عبد القادر الإدريسي مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، هذه الشخصية العظيمة التي خلّدها التاريخ في صفحاته الجيدة، وشهد لتميّزها وتصدرها عظماء التاريخ؛ وكانت محل مدح وثناء العدو قبل الصديق.

ومن أراد أن يتصدى لدراسة سيرة الأمير عبد القادر ويفهم بعض ملامح شخصيته عليه أن يأخذ بعين الاعتبار عدة عوامل ومواقف في حياته هي في الواقع مفاتيح لشخصيته في أغنى مجالاتها، وذلك نحو البيئة التي ولد فيها والعائلة التي ينتمي إليها، وكيف أمضى فترة طفولته وشبابه، وما هي العلوم التي تلقاها، وبرع فيها، ومن هم الشيوخ الذين تتلمذ عليهم، ونهل من معين علمهم وصلاحهم وشجاعتهم وحنكتهم، وما هي الكتب التي درسها في صغره ودّرسها في كبره، وما هي أبرز مؤلفاته إلى غير ذلك من المعطيات التي لا بد من الإلمام بها بحثاً حتى يفهم أي باحث حقيقة الجانب المدروس في شخصية الأمير، سواء أكان روحياً أم بطولياً أم علمياً، أم أدبياً، أم إنسانياً أم جانباً غير ذلك.

وقد حاولت في هذه الدراسة المتواضعة تسليط الضوء على الجانب الديني أو الشرعي في مقاومة الأمير عبد القادر ببيان مدى تأثير التحصيل الشرعي المتين الذي حصله الأمير في صغره على مقاومته الشعبية، فجاءت هذه الدراسة موسومة "أثر التحصيل الشرعي المتين في مقاومة الأمير عبد القادر بن محيي الدين".

ولهذا الغرض قسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة مباحث، تطرقت في المبحث الأول: إلى ترجمة موجزة للأمير عبد القادر بن محيي الدين.

بينما خصصت المبحث الثاني: لبيان التحصيل الشرعي الرصين للأمير، أي مدى تمكنه من علوم الشريعة استفادة وإفادة وتأليفا، مُرجِّنا المبحث الثالث والأخير: لبيان أثر هذا التحصيل الشرعي المتين للأمير في مقاومته من خلال بعض النماذج أو المحطات الخالدة في حياته. خاتما هذه الدراسة ككلّ بخاتمة؛ شملت أهمّ النتائج والرؤى والتصورات حول هذا الموضوع، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

المبحث التمهيدي: ترجمة موجزة للأمير عبد القادر.

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده.

هو الشيخ الأمير عبد القادر ناصر الدين بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن أحمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خده (محشي العقيدة الصغرى للسوسى) بن أحمد القاسم بن عبد القادر بن محمد بن عبد القوي عبد الرزاق، بن الغوث الرباني عبد القادر الجليلاني بن صالح بن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد ابن الإمام محمد بن الإمام داوود بن الإمام موسى بن

الإمام عبد الله المحض الإمام الحسن (المثنى) ابن الإمام الحسن (السبط) بن فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجة علي بن أبي طالب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم.¹ والأمير عبد القادر هو الابن الرابع للشيخ محيي الدين، ولد في 23 رجب 1222هـ الموافق (25 سبتمبر 1807م) في قرية القيطنة الموجودة على يمين وادي الحمام بين قرية بوحنيفية وقرية حسين على بعد حوالي 20 كم من مدينة معسكر الواقعة غرب الجزائر.²

المطلب الثاني: أصل أسرة الأمير وعراقة معدنها.

يرجع أصل الأمير وأسرته للأداسة الشرفاء آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذين حكموا المغرب الأقصى والأوسط والأندلس في القرن التاسع للهجرة، فقد كانت أسرة الأمير تعتر بامتداد حلقاتها إلى هذا المعدن الشريف، ففي القرن الثامن للهجرة هاجر إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المغرب، هارياً من بطش العباسيين، وأنشأ دولة الأداسة وعاصمتها فاس، ودام حكمها حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وبعد أن سكنت بعض سلالات العائلة الكبيرة الأندلس، انتقل أحد أجداده عبد القوي الأول في نهاية القرن الخامس عشر، بعد سقوطها عام 1492م، إلى الجزائر، واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف بعد أن اضطرت الأحوال في مراكش، فكان إذا عبد القوي الأول أول أجداد الأمير نزوحاً من المغرب إلى الجزائر.³

سيرة الأمير عبد القا وجهاده، الحاج مصطفى التهامي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1995/1، ص: 47.¹
² الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، دار البصائر، الجزائر، 2009 ص: 39، حياة الأمير عبد القادر/ شارل هنري تشرشل، ترجمة د أبو القاسم سعد الله، دار التونسية، ص: 39.
³ كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي: وسيرة الأمير عبد القادر، علي الصلابي، دار المعرفة، ص:

وذكر المؤرخون أن جدّه مصطفى بن المختار الغريسي درس وتفقه في غريس، وأخذ الطريقة القادرية على الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، ثم حجّ وزار بغداد سنة (1791م)، وجدد أخذ الطريقة، وعندما عاد إلى الوطن أسس قرية القيطننة والزاوية القادرية بوادي الحمام عام (1791م)، وتصدى للتعليم والتدريس، وإعطاء ورد الطريقة، ووظّف في زاويته علماء فطاحل على رأسهم شيخه السيد عبد القادر المشرفي.

وكان الشيخ مصطفى جدّ الأمير مجرا في علوم الفقه والعربية والتصوف والحكمة، وعند عودته من حجته الرابعة أدركته الوفاة بعين غزالة، قرب مدينة درنة في إقليم برقة شرق ليبيا عام (1797م).¹

وأما والده الشيخ محيي الدين بن مصطفى، ولد بوادي الحمام عام (1776م)، ودرس على يد أبيه، وورث عنه مشيخة الزاوية القادرية، واشتهر بالصلاح وسداد الرأي وغزارة العلم والمعرفة، فكثرت عليه طلاب العلم والمعرفة ومريدو الطريقة، كما قاوم سياسة الظلم والقسوة التي نهجها بايات الغرب الجزائري، ولذلك وشى به بعض خصومه إلى الباي حسن بن موسى بوهراي وأشاروا عليه بنقله إلى هناك ليكون تحت رقابته الفعلية، فرحل مع ابنه عبد القادر عام 1821، وبقي هناك حتى 1825.²

وعندما تأكد الباي حسن من بطلان الوشاية، رفع الرقابة عليه، فشدّ الرحال إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج، رفقة ابنه عبد القادر برّا إلى تونس ومجرا إلى مصر والحجاز، ثم رجع مع ابنه إلى

أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009، 244/2، 245. ¹

كفاح الشعب الجزائري: علي محمد الصلابي، ص: 354. ²

الجزائر، ووصل إلى القبطنة أوائل عام 1833م، وقد عرضت عليه الإمارة فرفضها وقبل الجهاد والمقاومة إلى أن توفاه الله سنة 1833م.¹

المطلب الثالث: وفاته.

في منتصف ليلة السبت 26 ماي 1883م، فاضت روحه الزكية وحلّ أجله، فغسّله نزيله وضيفه الشيخ عبد الرحمن عليش الأزهري، وفي الصباح نقل في عربة من قصره في (دمر) إلى داره بالشام، وصلى عليه في المسجد الأموي في مشهد قلّ نظيره، ودفن في مقبرة الصالحية من دمشق أسفل جبل قاسيون بحجّ المهاجرين.²

المبحث الأول: التحصيل الشرعي المتين للأمير عبد القادر بن محيي الدين.

المطلب الأول: مرحلة الدراسة وتحصيل العلوم (التلقي والاستفادة).

لقد تلقى الأمير عبد القادر دروسه الابتدائية في مسقط رأسه تحت إشراف والده؛ الذي بذل قصارى جهده، ولم يدخر جهداً في تربيته وتعليمه، بل كانت تربطه علاقة وطيدة بابنه الأمير منذ أن كان رضيعاً، يقول شارل هنري: "ومنذ طفولته كان عبد القادر موضعاً خاصاً لحب والده؛ فإن الوالد الحنون كان يصبر دائماً على أخذ الطفل إلى حضنه... فقد كان هناك على ما يبدو سر غامض وعاطفة محددة يدفعان الأب إلى أن يخصص اهتماماً غير عادي للطفل الذي سيكون مستقبله محفوفاً بهالة مجيدة ومرتبطة بمستقبل بلاده".³

وقد أخذ الأمير عبد القادر من والده القراءة والكتابة وأتقنها في سنّ مبكرة جداً، ولفت نظر والده ذكائه ونبوغه، وختم القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره.

¹ أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: يحيى بوعزيز، 2/246.

² اكفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي: علي الصلابي، ص: 616.

³ حياة الأمير عبد القادر: شارل هنري تشرشل، ص: 339.

يقول تلميذه ووزيره ورفيق دربه الشيخ مصطفى التهامي: "وكان في مبدأ صباه يشبّ شباباً لم يشبه أهل زمانه... يتخلق بالأخلاق الجميلة والأوصاف النبيلة إلى أن عقل القرى فاستجمع خصال الكبار المكلفين من أحوال ديانتهم؛ كالمجاهد في تعلم دعائم الإسلام... فثنا بعد فن إلى أن جمع الفنون والعلوم ما شاء الله أن يجمع، فأخذ التفسير والحديث والفقه وأصول الدين والفقه على والده؛ وهو أخذ عن والده".¹

ويقول شارل هنري تشرشل: "أمّا الملكات العقلية للولد؛ فقد كانت تدلّ على نبوغ غير عادي، فقد كان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمره، وقد أصبح طالباً عندما كان في الثانية عشرة، أي أنه في هذه السن؛ كان متمكناً من القرآن، والحديث، وأصول الشريعة، وبعد سنتين حصل على تسمية حافظ، فأصبح يستطيع ترتيل القرآن عن ظهر قلب، وفي هذه المرحلة بدأ يعطي دروساً في جامع الأسرة، حيث كان يعقّب ويفسر أصعب وأعمق الآيات والشواهد".²

ومن أجل إتمام دراسته سافر عام (1821م) إلى مدينة أرزيو الساحلية؛ التي تقع شمال مدينة معسكر، على بعد حوالي سبعين كيلو متراً، وذلك على يد القاضي الشيخ أحمد بن الطاهر البيطوي؛ الذي كان مشهوراً بغزارة العلم وسعة الاطلاع.

وفي ذات السنة وُضع الشيخ محيي الدين في إقامة جبرية بمدينة وهران، فأخذ معه الأمير الفتي إلى هناك ليواصل الدراسة على علمائها، ومنهم الشيخ العالم الفقيه أحمد بن خوجة، صاحب رائعة "در الأعيان في أخبار وهران"، ومنهم الشيخ مصطفى بن الهاشمي والشيخ محمد بن أقريد الذين

سيرة الأمير عبد القا وجهاده، الحاج مصطفى التهامي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1995/1، ص 150.

حياة الأمير عبد القادر: شارل هنري تشرشل، ص: 239

درس على يديهما علوم اللغة والفقه والمنطق والنحو والبيان، كما واصل دراسة بقية العلوم الأخرى على والده وتوسع وتعمق فيها كثيرا.¹

وقضى عامين كاملين في هذه الرحلة العلمية، ثم عاد إلى مسقط رأسه القيطرة حيث كلف (سيدي أحمد بن الطاهر قاضي آرزو) بتدريسه واطلاعه على العلوم الحديثة: علم الفلك والحساب والجغرافيا، بالإضافة إلى اطلاعه على الشؤون الأوروبية.

ولم يجد بعد ذلك ما هو أفضل من الانضمام إلى طلاب العلم ممن كانوا يلتفون حول والده محيي الدين، لتلقي الدروس اليومية في الآداب والحقوق والتوحيد.

وكانت له رحلات علمية وروحية رفيقة والده محيي الدين أثناء زيارتهما البقاع المقدسة زارا من خلالها أغلب بلدان العالم الإسلامي مغربا ومشرقاً، فزارا تونس وليبيا، ومصر وأرض الحجاز مكة والمدينة ودمشق وصولاً إلى بغداد ليعودا في يوم مشهود إلى أرض الوطن تحديداً إلى قرينته القيطرة عام 1828 بعد غياب طويل دام أكثر من عامين.²

يقول الدكتور علي الصلابي: "وبعد أداء فريضة الحج زاروا المدينة المنورة ..، ومن المدينة وصلوا إلى دمشق بصحبة الركب الشامي، ومكثوا فيها عدة أشهر، وتعرفوا على مشاهير الصلحاء والعلماء والأعلام، وكانوا يقضون جُلَّ وقتهم في الجامع الأموي، دائبين على القراءات وحضور حلقات الدرس العلمية؛ التي كان يدرس فيها كبار العلماء، وقرأوا الحديث وصحيح البخاري في الجامع الأموي على الإمام المحدث عبد الرحمن بن محمد الكزبري الشافعي الدمشقي محدث الديار

الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري: يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009 ص: 39.¹

المصدر نفسه، ص: 43.²

الشامية، والمشهور بتدريس البخاري الشريف، وكانت عامة العلماء تحضره للأخذ عنه، وأخذوا العلم على يد غيره من علماء الشام".¹

كانت لهذه الرحلة العلمية والروحية أثرها العميق في أعماق نفس الأمير الذي أخذ عند عودته إلى موطنه في الاعتزال عن الناس، والتفرغ للعبادة، وقضاء الوقت في مطالعة مؤلفات كبار المشاهير من أعلام المسلمين، والتي شملت علوم الفقه والحديث، والتاريخ الإسلامي، والفلسفة، واللغة، والبلاغة، والأصول، وعلم الكلام، والفلك والجغرافيا، والطب، فتكونت لديه خلال هذه الفترة مكتبة ضخمة من أثنى المكتبات في تلك الأيام بما آلاف المجلدات وعديد من المخطوطات في شتى العلوم، كانت هي ثروته الدنيوية، وقد استمرت هذه الهواية في مرافقته طوال حياته.²

كما أتاحت هذه الرحلة المباركة للأمير الفتى فرصة الاطلاع على أنظمة البلدان العربية، وسير حياتها في الحكم، والإدارة، ومختلف الميادين السياسية، والاجتماعية، وغيرها؛ فرجع مملوء الوطاب، موفور الزاد بما يصلح أن يسوس به دولة مثل الجزائر التي يحتفظ بها له القدر، ويحببها له الزمن في المستقبل القريب.³

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا الموضوع؛ تكميلاً للفائدة، وتأصيلاً وتدليلاً لما ذكرناه عن مرحلة تلقي الأمير لمختلف علوم الشريعة وفنونها؛ أنّ كل تلك العلوم الشرعية التي حصلها الأمير عبد القادر في فترة طفولته وربيعان شبابه، وكلّ الكتب التي درسها على أيدي مشايخه في مختلف الفنون من فقه، وعقيدة، وحديث، وتفسير، وقراءات، ونحو، وبلاغة، وسيرة، وغيرها؛ كلها علوم أصيلة درس الأمير -رحمه الله- الكتب المعتمدة في هذه الفنون على شيوخه رواية ودراية بالسند المتصل إلى مؤلفيها، وأجيز فيها من قبلهم.

كفاح الشعب الجزائري: علي محمد الصلابي، ص: 1353

² بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري، يحيى بوعزيز، ص 135.

الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري: يحيى بوعزيز، ص: 43.³

يروى تلميذه الشيخ **مصطفى التوهامي** أنه أخذ **التفسير والحديث والفقه وأصول الدين** و**الفقه المالكي** على يد والده، وهو أخذ عن والده أيضا، ووالده أخذ عن الشيخ العالم بمسائل الفقه المتقن لها السيد عبد القادر المشرفي، وهو أخذ عن الشيخ العلامة المدقق الجامع بين المعقول والمنقول الشريف سيدي محمد المنور، وهو أخذ عن محط العلم وأهله القاهرة المحروسة بأزهرها من الأجهريين واللقانيين؛ كالشمس الدين اللقاني، وناصر الدين، والشيخ إبراهيم، وكالشيخ أحمد اعلي الأجهري، والشيخ عبد الرحمن الأجهري، وكأهل القرفة الكبرى.

وسند هؤلاء القرفيين، والأجهريين، واللقانيين إلى خاتمة المحققين أبي الضياء خليل بن إسحاق المالكي، كالشمس في رابعة النهار لا يحتاج إلى تنقيب عن اتصال سندهم إليه، كما هو سند خليل أيضا إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس، رحمة الله عليهم أجمعين.¹

كما أخذ أيضا **علم النحو وجوهرة البيان والمنطق** عن بعض علماء وهران كالسيد مصطفى بن الهاشمي، والشيخ محمد بن اقريد، والأول أخذ عن أخيه محمد بن الهاشمي، والسيد صادق بن حميسي، والسيد الهاشمي بن جلول، والشيخ سيدي محمد الكاتب المستغامي، وعن الفقيه عبدالله بن عبد الله الجلالي، وهو أخذ عن والده، الذي له طريقان، إحداهما: اتصلت بالجزائريين عن طريق مفتي الجزائر اسعيد قدورا، الذي اتصل سنده بالإمام عبد الرحمن الثعالبي، المتصل سنده بالعلامة محمد بن عبد السلام، عن شيخه محمد بن هارون، عن أحمد بن يزيد، عن محمد بن عبد الرحمن، عن محمد بن فرح، عن أبي طالب محمد بن المختار، عن الشيخ أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة المشهورة.

سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، الحاج مصطفى التهامي، دار الغرب الإسلامي، ط:1/1995، ص 150.¹

وأما العلوم النقلية والعقلية؛ فإنه أخذها جُلها عن فقهاء فاس كالفقيه الزروالي اليزمي، والشيخ إدريس العراقي، والشيخ حمدون بن الحاج المحقق المشهور، والعالم المدقق صاحب الرياسة: الشيخ الطيب بن كيرار، فسند هؤلاء في هذه العلوم هو ذاته سند الأمير رحمهم الله جميعاً برحمته.¹ فهذا غيظ من فيض، وطل دون وابل عن الإجازات العلمية الشرعية التي حصلها الأمير طيلة فترة الطلب بالسند المتصل إلى شيوخه، وهي كثيرة الطرق مترامية الأطراف يكفي ما ذكرناه منها تحصيلاً للمقصود، ومن أراد استقصاؤها فدونه المطولات.

المطلب الثاني: مرحلة التدريس (التعليم والإفادة)

لم يكتف الأمير عبد القادر بجمع العلوم وتحصيلها، بل كرّس حياته وأفنى عمره في تدريسها لطلبته كلما حلّ وارتحل، سواء كان في وطنه الجزائر، أم خارجه، ولم تصرفه مشاكل الحياة عن نفع الغير، فقد تصدى للتدريس والإقراء، فدرّس صحيحي البخاري، ومسلم، وكتاب الشفا للقاضي عياض في الحديث، والألفية في النحو والسنوسية في التوحيد، والرسالة في الفقه، وإيساغوجي في المنطق، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والعقائد النسفية في التوحيد، وكانت أماكن تدريسه تختلف بحسب الظروف؛ فتارة في المدرسة الأشرفية التي تدعى بدار الحديث النووية، وأونة بالمدرسة الجقمقية، وفترة بالجامع الأموي، ومرة بالمسجد الحسني، وأخرى بمنزله.²

يقول علي الصلابي: "ومن الكتب والرسائل التي اعتمدها في الغالب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والعقائد النسفية في التوحيد للعلامة نجم الدين عمر النسفي الحنفي، وموطأ الإمام

المصدر نفسه، ص: 1.51

بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري، يحيى بوعزيز، ص: 2135

مالك، وصحيح البخاري الذي كان يحفظه عن ظهر قلب، وصحيح مسلم، والشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وألفية ابن مالك، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي.¹

فالأمر عبد القادر رحمه الله جمع بين الدراسة والتدريس، ومن المعلوم أن للتدريس الأثر الكبير في ترسيخ العلوم وصيرورتها ملكة حقيقية للعالم، فبالتدريس يحفظ العلم من الضياع والنسيان، وبه ترسخ العلوم في الأذهان، وتُزال الإشكالات، وتردّ الشبهات، وتصير غوامض المسائل وصعابها من البديهيات، قال ابن المبارك رحمه الله: (181هـ): " أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم العلم ثم الحفظ، ثم النشر".²

المطلب الثالث: مرحلة التصنيف والتأليف.

لم يكتف الأمر بطلب العلم وتحصيله من مصادره الصافية ومنابعه الصحيحة، كما لم يكتف بيبته في صدور تلاميذه ومريديه، بل سارع مبكراً إلى تدوين ما جادت به قريحته، وأنتجته باكورة أفكاره، وخلاصة تجاربه الدينية والسياسية والعسكرية، وتسطيرها في شكل كتب ورسائل؛ خدمة للعلم الشرعي النبيل، فقد بدأ الأمر الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه، فشرح قبل أن يستلم الإمارة حاشية الصغرى في علم الكلام التي كتبها جدّه عبد القادر بن أحمد المدعو بن خده، ثم تلتها كتب ورسائل، منها:

- رسالة بعنوان «حسام الدين لقطع شبه المرتدين»، كتبها في بداية عهده بالإمارة أي عام (1833م)، وذلك بالرد القاطع من القرآن والسنة النبوية على بعض أشباه الشيوخ، الذين استمالهم واستأجرهم الاحتلال، ليروجوا بين الناس جواز النزول تحت حكم الفرنسيين، وعدم جواز الانضمام إلى دولة الأمير المجاهدة.

كفاح الشعب الجزائري: علي الصلابي، 1531

² الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: ابن فرحون، تحقي: الدكتور محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، القاهرة، 1/408.

- ومنها: كتاب «وشاح الكتائب وزى الجندي المحمدي الغالب». ألفه بعد معاهدة التافنة عام (1837م)، يشتمل على الأحكام والقوانين الخاصة بالجيش المحمدي الفتي، خطه بيده المجاهد قدور بن رويلة تحت إشراف الأمير وأضاف إليه بعض الملاحظات.

- ومنها: كتاب «المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد»: ألفه الأمير عندما كان سجيناً في قلعة أمبواز في فرنسا عام (1852م)، والسبب في ذلك أنه بلغه أن بعض الحكام والضباط الأوروبيين انتقص من دين الإسلام، واعتبر أن الخديعة والغدر من سمات الإسلام نفسه، فوضع الأمير ذلك الكتاب من حفظه دون مراجع مكتوبة للردّ عليهم بالدليل القاطع من القرآن والسنة الصحيحة عوار ما افتروه عن الإسلام.¹

كما كانت للأمير مشاركات أخرى في مختلف العلوم كتابة وتأليفاً؛ وإذا رحنا نستقري جميع رسائله ضاق بنا المقام وخرجنا عن المقصود من هذا المقال، ولكن زبدة الكلام في هذا المطلب أنّ ما كتبه الأمير من كتب في غوامض المسائل، ورسائل إلى الأمراء، أو العلماء والفقهاء، أو أعيان القبائل والعشائر؛ ينم بشكل بارز عن مدى إلمامه الكبير بالعلوم لا سيما الشرعية منها؛ منقولاً ومعقولاً، وأن الرجل كانت له ملكة علمية شرعية حقيقية، إليها يرجع الفضل في مواجهة مشاكل عصره وإيجاد الحلول الشرعية لها من خلال مؤلفاته، بل إليها يرجع الفضل في تأسيسه دولته الرشيدة كما سيأتي في المبحث الأخير.

يقول عنه شكيب أرسلان (1946م): "كان المرحوم عبد القادر متضلعا في العلم والأدب، سامي الفكر، راسخ القدم في التصوف، لا يكتفي به نظرا حتى يمارسه عملا، وله في التصوف كتاب سماه المواقف، فهو في هذا المشرب من الأفراد الأفضاذا، ربما لا يوجد نظيره في المتأخرين، وله كتاب آخر ممتع أسماه ذكرى العاقل وتنبية الغافل في الحكمة والشريعة، وقد ذكر مؤرخو الإفريقية:

كفاح الشعب الجزائري: علي الصلابي، 34 فما بعدها.¹

أن ملكته العلمية والدينية كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها، وأنه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه باللسان".¹

المبحث الثاني: أثر التحصيل الشرعي للأمير في مقاومته من خلال مسيرته.

كان للعلوم الشرعية التي نهل منها الأمير عن أبيه وشيوخه، وتمكّن منها رواية ودراية، ثم تدريسا وإفادة بعد ذلك، مترجما بعض تلك العلوم والمعارف والملكات في شكل كتب ومؤلفات؛ سارت بها الركبان، وقرأها القاصي والداني، وتُلقيت بالقبول عند أهل العلم والعرفان؛ أقول كان لها دور كبير وأثر واضح في جهاد الأمير عبد القادر ومقاومته، وتأسيسه لدولته الفتية، وتشكيله لهياكلها وتعيينه لرجالها، وتنظيمه لأموار جيشها، وتدييره لسائر شؤونها، فالأمير لم يجد عن مبادئ الشريعة المحمدية السمحة التي درسها وتفقه فيها؛ حتى صار من العلماء الراسخين والفقهاء المبرزين فيها قيد أمثلة؛ فلم يكن مبتدعا في شيء من أحكامه وتصرفاته، بل كان متبعا لكتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وسنن الخلفاء الراشدين، وأئمة الإسلام المهتدين، كما سيظهر لنا من خلال النماذج الآتية.

المطلب الأول: أثر التحصيل الشرعي في مقاومة الأمير من خلال نظام حكم دولته.

لما كان الاجتماع ضروريا للبشر؛ كان ولا بدّ للرعية من نصب إمام يسوسها، ويدراً بغي بعضها على بعض؛ لاختلاف الأغراض، درءاً للفوضى وجلبا للنظام، وقد أثر الأمير منذ البداية أن يكون نظام حكمه نظاما إسلاميا أصيلا، فاختار نظام الخلافة الإسلامية، تيمنا بالخلافة الإسلامية الرشيدة، وعن مفهوم الخلافة في الإسلام، فإنها عرفت عدة تعريفات، لعلّ من أجودها تعريف ابن خلدون، حيث عرفها في مقدمته قائلا: "الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في

¹ بهامش كتاب حاضر العالم الإسلامي: لوثروب ستورارد، مكتبة عيسى البابي، القاهرة، 1953، 178/2.

مصالحهم الأخروية والدنيوية الرجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة؛ فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به".¹ كما بين ابن خلدون -رحمه الله- أنها تسمى خلافة وإمامة، والقائم به خليفة، وإماما؛ فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في أتباعه والافتداء به، ولهذا يقال الإمامة الكبرى. وأما تسميته خليفة؛ فلكونه يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته؛ فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقييد.²

ومن المعلوم أيضا في الفقه الإسلامي الذي كان الأمير عبد القادر من المتضلعين فيه أنّ الإمارة أو الإمامة الكبرى، أو الخلافة في الإسلام؛ إنما تتم من خلال بيعة شرعية؛ يبايع فيها الرعية الأمير على السمع والطاعة في المنشط والمكروه، قال ابن خلدون: " البيعة: هي العهد على الطاعة؛ كأنّ المبايع يعاهد أميره على أنّه يسلم له النظر في أمر نفسه، وأمور المسلمين؛ لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه، وكانوا إذا بايعوا الأمير، وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد؛ فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري؛ فسمي بيعة؛ مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدي".³

فالببيعة بمعناها الخاص خصيصة من خصائص نظام الحكم في الإسلام، تفرد به عن غيره من النظم الأخرى في القديم والحديث، وهذا ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته؛ فقد عقد أول بيعة مع وفد من الأنصار عددهم اثنا عشر رجلا سميت ببيعة العقبة الأولى؛ جاء في بنودها ما رواه عبادة بن الصامت بقوله: (كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا؛ فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألا

مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط: 2003/1، ص: 189.¹

المصدر نفسه، ص: 189.²

المصدر نفسه، ص: 205.³

نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر)¹.

ثم تلا ذلك بيعة أخرى هي **بيعة العقبة الثانية**، بلغ عدد المبايعين فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعين رجلاً، معهم امرأتان، قال صلى الله عليه وسلم في مساهل خطبتها: ((أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معمر بيده ثم قال: «نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أوزنا»².

ثم تلت هذه البيعة بيعة أخرى تسمى **بيعة الرضوان**، وقعت قبيل صلح الحديبية دعا النبي صلى الله عليه وسلم الناس فيها إلى مبايعته على الجهاد، وأن لا يفروا من العدو أثناء المواجهة، وكان تحت شجرة متشابكة الغصون، فهرع أصحابه إليه يباعونه على الموت، أو على ألا يفروا، حدّث جابر بن عبد الله بعد ما كفّ بصره قال: "قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض» ، وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة".، وتسمى هذه البيعة (بيعة الرضوان) إشارة لقول الله في أصحابها: ((لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا [18] [الفتح: 18] .³

وما قام به النبي صلى الله عليه وسلم، قام به الخلفاء الراشدون من بعده؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله عليهم جميعاً، وها أنا ذا أسوق إليكم نصّ بيعة أبي بكر الصديق رضي

السيرة النبوية: ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1976، (2/ 1179)

فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، 1426، ص: 122²

فقه السيرة: محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، 1427، ص: 332³

الله عنه؛ كما رواها أصحاب السير، قال ابن إسحاق في السيرة: " حدثني أنس بن مالك، قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله قد جمع أمركم على خيركم -صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين إذ هما في الغار- فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس: فإني قد وليت عليكم وليست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، ولا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ...، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".¹

فهذا الصنيع الذي صنعه النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الله، وتأسيسه لدولة الإسلام، ومجاهته للكفار، وسار عليه الخلفاء الراشدون من بعده هو الذي سار عليه الأمير عبد القادر وجسده بحذافيره في تأسيس دولته ومقاومته، فما انعقدت له الإمارة والإمامة الكبرى إلا بعد أن تمت مبايعته مبايعتين شرعيتين مبايعة خاصة وأخرى عامة.

أما المبايعة الخاصة: وهي الأولى في مسيرته النضالية، فقد جاءت على أعقاب الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني المتأزم الذي عاشته الجزائر عقيب دخول الاستعمار الفرنسي أرض الوطن، فإنه لما طال على أهل الوطن الأمد وتوالى عليهم الكرب والنكد وتسلبت على بلادهم العدو، هنالك اجتمع الأشراف والعلماء وأعيان القبائل من العرب والبربر، وقدموا على حضرة الشيخ محيي الدين، وألزموه أن يقبل بيعتهم له على الإمارة لنفسه، أو لولده عبد القادر،

تاريخ الخلفاء: السيوطي، مكتبة نزار ط 2004/1، ص: 57¹

فأمعن النظر؛ فرأى أنه لعجزه القيام بأعباء هذا الأمر الحتمي العظيم أنّ ولده ترشح للإمارة وتأهل لها، واستكملت فيه شروطها من الهدى وعلو الهمة والقوة والفتوة والعلم والحماسة والعزم، إلى غير ذلك من أفراد الفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسنها؛ فحينئذ استخار الله تعالى، وقدم ولده للإمارة، ومدافعة الكفار؛ فذهبت البشائر بذلك في أقطار الوطن، وعمت أنحاءه وقبلها الولد الأمير، فاجتمع الأشراف والعلماء والأعيان وحضر صغيروهم وكبيرهم، وخيموا بوادي فروحة من غريس صباح (الاثنين يوم الثالث عشر من شهر رجب 1248هـ / 28 نوفمبر 1832م). عند شجرة الدردارة¹، وهي شجرة عظيمة كانوا يجتمعون إليها للشورة بينهم.²

وعندما اكتمل هذا الاجتماع التاريخي، وجاء الشيخ سيدي محي الدين في بنيه وأقاربه وذويه، واجتمع حوله الناس، وجلس الأمير الفتى تحت الشجرة، تقدم الوالد من عبد القادر مبايعاً وشدّ على يده قائلاً: كيف ستحكم البلاد يا ولدي؟ أجاب عبد القادر: بالعدل والحق الذي أمر به رب العالمين، سأحمل القرآن بيد، وعصا من حديد بيد أخرى، وسأسير على هدى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فانظر إلى أثر التكوين الشرعي المتين على سياسة الأمير بن محيي الدين الحكم بكتاب الله وسنته هو منهجه، والعدل والحق أبرز مبادئ حكمه، ثم التفت الشيخ سيدي محيي الدين مخاطباً الجموع قائلاً لهم: إنه ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين، هذا لقبه، ليس سلطاناً ولا ملكاً، وإنما أمير عليكم أيها الأخوة المؤمنون، فبايعه والده على السمع والطاعة ودعا له، وقام عمه علي

¹ أخبرني الدكتور "محمد هيشور" نقلاً عن أعيان منطقة غريس أن هذه الشجرة لها تاريخ عريق ممتد الجذور، فهي الشجرة التي وقعت تحتها المبايعة لأهل غرس لمقاومة الاسبان، وقد شارك فيها ثلاثة علماء أجلاء وأولياء: محمد بن يحيى المدعو قراي الجنون، وعيسى بن موسى المدعو أبو المهدي ضريحه بوادي تاغية، ويحيى بن موسى دفين في فروحة.

تحفة الزائر: محمد باشا، 97/1. 2

أبي طالب فبايعه، وكذا الإخوة، وسائر القرابة، ثم الأشراف والعلماء والأعيان والرؤوس، فبقية أفراد الشعب.¹

ولا يخفى عليك أنّ إيثار لقب أمير المؤمنين على الملك والسلطان؛ يوحي بمضمون هذه الإمارة الإسلامية التي تستشف مبادئها وأهدافها من الخلافة الراشدة لا من الممالك السابقة؛ فللقب (أمير المؤمنين) هو لقب ألصق من غيره بمفهوم الحكم في شريعة الإسلام.

كما لا يخفى ما في وقوع هذه البيعة تحت الشجرة المذكورة أيضاً من الاتفاق الغريب وما فيه من الإشارة إلى متابعة سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقتفاء أثره في بيعة الرضوان التي نَوَّه اللهُ بِذِكْرهَا، وعظّم قدرها في القرآن الكريم كما أسلفنا، تيمنا بتحقيق النصر المبين.²

وعقب البيعة انحدر الأمير ومن معه من الجموع التي تعد بالآلاف إلى مدينة معسكر ودخل المسجد الجامع مسجد الحسن في عين البيضاء، لما لهذا المسجد من مكانة تاريخية حافلة بالأجداد، لقد كان منبراً علمياً ومنطلقاً للمجاهدين عام (1797م) ضد الغزو الإسباني، فقام في الناس خطيباً يحثهم على السمع والطاعة والاستعداد إلى الجهاد والسير على مقتضى الشريعة الإسلامية اقتداء بالخلفاء الراشدين، جاء في خطبته " إنني لست أفضلكم خلقاً وشجاعة وحكمة، ولم يخطر لي هذا المنصب يوماً، ولكنني أجبرت عليه كما تعلمون، فهو مسؤولية أمام الله وأمامكم، أرجو منه تعالى التوفيق والعون؛ لتطهير البلاد من الغزاة، ورفع راية الإسلام عالية في سماء بلادنا، فالإسلام هو الذي وحدّ قبائلنا بعد شتات وجعلها قوة لا تقهر، تدفعنا ميادين المجد والشرف، وجعلنا إخوة يجب أحداً لأخيه ما يجب لنفسه، ولا فرق بين عربي وأعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، وأمرنا بالعدل والمساواة، وإذا عدنا إلى التاريخ نجد كل من دخل هذه البلاد غازياً من رومان وفاندال وإسبان

المصدر نفسه، 1.97/1

تحفة الزائر: الأمير محمد باشا، 1.97/1.²

هزمتهم قوة بأس وشجاعة الأجداد، وكان هدف غزوهم لبلادنا إخضاع شعوبنا وإذلالها، ونهب خيرات بلادنا، لزيادة رفاهية شعوبهم، والذين حالف النصر أعلامهم من الفاتحين حملوا إلى هذه البلاد حضارة إلهية، وشيدوا صروحاً من القيم باقية إلى الأبد لا ينضب معينها، ودخلوا هذه البلاد لتكون دعوة الإسلام حرة فيها، قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * } [الأنبياء: 107]. ومدنية راقية لا تزال آثارها تشهد عليها في مدننا في فاس، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، وفي وهران، وقسنطينة. ... أيها المجاهدون من أبناء هذا الوطن العظيم سنكون أقوياء، سندافع عن الراية والرسالة التي حملها لنا طارق بن زياد، وموسى بن نصير، ... وكما قال والدي: هذا المنصب الذي اخترتموني له لن يكون متوارثاً، وأرفض لقب سلطان أو ملك { حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * } [التوبة: 129]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".¹

فها أنت ترى وتلمس بعمق مدى إلمام الرجل بتاريخ الجزائر القديم والحديث فضلا عن تاريخ الإسلام المجيد، فقد كان بحق يرى أن دولة الجزائر في عهده لن تبنى إلا على وفق الشريعة الاسلامية السمحة، لا على نمط الوندال ولا الإسبان ولا الرومان، ولا على نمط الملوك والسلاطين المسلمين الذين ورثوها لأولادهم، بل على نمط الفاتحين المسلمين المتبعين لهدي النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه وخلفائه الراشدين.

ثم تلت هذه البيعة الخاصة ببيعة عامة: شملت جميع أقاليم الجزائر، قدمت على حضرته الوفود من سائر الجهات فبايعه أولهم وآخرهم... ببيعة تامة كاملة عامة ببيعة سمع وطاعة يمنعون عنه السوء بما يمنعون به أنفسهم وأولادهم وأموالهم، ويبدلون في مرضاته أرواحهم وأكبادهم، ويطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء، وينصرونه في السراء والضراء.²

سيرة الأمير عبد القادر: علي الصلابي، ص: 112.1

تحفة الزائر: محمد باشا، 102/1. 2

المطلب الثاني: أثر التكوين الشرعي المتين في مقاومة الأمير من خلال تنظيم الدولة

لما تمت البيعة العامة للأمير وخضع لسلطانه الصغير والكبير، واستقام له هذا الأمر الجليل؛ شرع في تنظيم أمور دولته الفتية، وتشكيل طاقمها الحكومي؛ من وزراء وولاة وقضاة ونظار وسعاة، وطاقمها العسكري من قادة وجنود على مختلف رتبهم، فعين الأكفاء من الرجال لهذه المهام الجسام، واختار لهذه المناصب أجلة الفقهاء وأساطين العلماء، وأخيار العدل ممن جمعوا بين العلم والورع، والصدق والأمانة والقوة والشجاعة وغيرها من الخصال الحميدة، كما تنص على ذلك مبادئ الحكم في الشريعة، واعتمد الفقه الإسلامي المستمد من وحي القرآن والسنة النبوية الشريفة نظاماً لحكمه ودستورا لبناء دولته، ونبراسا لتنظيم جيشه ومجابهة غزاة بلده.¹

وبعد أن اختار الأمير من منطقة معسكر عاصمة لدولته، ومقرا لحكمه؛ تأنيسا لأهل غريس وتطيبيا لنفوسهم؛ لأنهم كانوا دعاة هذه الأمارة، وكانت منها حركته ونهضته، عين رجال دولته؛ فأسس مجلسا للشورى، مهمته النظر في أحوال البلد، وقضاياه الحاسمة والاجتهاد في إيجاد حلول لها، يشتمل على أحد عشر عضوا من أجلة العلماء، وجعل رئاسة هذا المجلس للعلامة قاضي القضاة السيد أحمد بن الهاشمي المراهي نيابة عن الأمير، وللمجلس سجل خاص، تسجل فيه القضايا والنوازل، ثم تعرض عليه، ويحضر الأمير جلساته ويترأسه، وتصدر الأحكام بعد أن يتفق عليها كل أفراد المجلس المذكور.²

كما أنشأ عدة مناصب سامية في الدولة منها:

منصب وزير: أسنده إلى السيد محمد بن العربي.

المصدر نفسه، ص: 103، سيرة الأمير عبد القادر: مصطفى التهامي، ص: 1131¹

الأمير عبد القادر: يحيى بوعزيز، ص: 276²

منصب كاتب الدولة: أسنده إلى السيد أحمد بن علي أبي طالب، والسيد الحاج مصطفى بن التهامي والسيد الحاج محمد الخروبي.

منصب حاجب الأمير: عين فيه محمد بن علي الرحاوي.

منصب ناظر الخزينة الخاصة: ولى عليه الحاج الجيلاني ابن فريجة.

منصب ناظر على الأوقاف: أسنده للحاج الطاهر أبوزيد.

منصب مأمور على الأعشار والزكاة بأنواعها: ولى عليه السيد الحاج الجيلاني العلوي.

ومنصب نظارة الأمور الخارجية: أسنده إلى الحاج الميلود بن عراش.

فأقام كل فرد منها في مقام يخصّه ورسم له من بيت المال راتباً يكفيه ويلبي حاجته، وبث

العمال والقضاة في سائر الجهات.¹

فها أنت ترى أن الأمير اختار لشغل هذه المناصب السامية أفضل الرجال ممن تتوافر فيهم

الكفاءة العلمية والخبرة الميدانية إلى جانب المكارم الدينية كما هي أسس اختيار الوزراء وتعيين الولاة والسعاة في الفقه الإسلامي، فقد جعل الفقه الإسلامي فقها عملياً بحق.

وكان أول ما بدأ به الأمير إصلاح شأن القضاء وأمور الزكاة، لا سيما إعادة النظر في تعيين

السعاة على أساس الأمانة والنزاهة والخشية من الله، يقول مصطفى التوهامي: "فأول شيء ابتدأ به

النظر في أمر القضاء وأخيار العدل لها في كل موطن، والسؤال على المؤمنين في كل قبيل، ليعينهم

لسعاية وجباية أموال الصدقات من مواشي وغيرها، بعد أن ولى كبير كل وفد على قبيلته؛ عملاً

بالأثر الوارد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وأن تجيزوا الوفد كما كنت أجزيه، أي من كسوة

ومعاملة"².

تحفة الزائر: محمد باشا، 1، 103/1.¹

سيرة الأمير: مصطفى التهامي، ص: 2131²

كما كان أول عمل قامت به حكومته أيضا هو الإعلان عن إلغاء المظالم بين العباد، وإبطال القوانين الجائرة التي كانت تفرض على المواطنين الجزائريين قبل حكمه للبلاد، إحقاقا لمبدأ العدل والرشاد ورفع الجور والظلم الذي التزمه عند مبايعته أميرا للبلاد، يقول ابنه الأمير باشا: "وظفق يردّ على الناس ما اختلسه بعضهم من بعض وينصفهم مما وقع بينهم من أنواع المظالم والتعدييات أيام الفتنة، ويهدم ما كانت الحكومة الجزائرية أسسته من المغارم والضرائب والعوائد، فطار بذلك ذكره وانتشر في المغرب الأوسط أمره."¹

وبذلك استقرت الأمور الجديدة، وبدأت تعمل جاهدة على إرساء قواعد الحكم النزيه على أسس متينة قوامها الدين الإسلامي ومبادئه وأسسها الفاضلة، وكل ذلك يعود فضله بعد الله سبحانه وتعالى طبعاً إلى الأمير عبد القادر لما امتاز به هذا الزعيم من حنكة سياسية وخبرة عسكرية، ودراية كبيرة، ومعرفة دقيقة بأصول الحكم، وتسيير شؤون الدول في شريعة الإسلام؛ فأنشأ - رحمه الله - في أقل من عشرين شهراً دولة إسلامية فتية قوية على نسق الخلافة الإسلامية الرشيدة، دولة طبقت شهرتها الآفاق وأضحت محلّ ثناء وانبهار في المحافل والنوادي المحلية والعالمية.

غير أن ما يجب التنبيه عليه في هذا الموضوع أن هذا الترتيب والتنظيم المحكم الذي أقام عليه الأمير دولته بجميع هياكلها؛ مرجعه في الأساس للتكوين الديني الذي اكتسبه الأمير في صغره؛ فقد سبق وأن ذكرنا أنّ الأمير هذا العالم الفقيه الموسوعي كان متبحراً في جميع علوم الشريعة وفنونها؛ أجزى فيها، وأجاز فيها غيره أيضاً، ومسألة الإمارة أو الخلافة مسألة مبسطة في كتب الفقه الإسلامي وكتب السير والمغازي وكذا كتب التاريخ الإسلامي المجيد، لا سيما تاريخ الخلفاء الراشدين، منها ضف إلى ذلك كتب التراجم والطبقات الحافلة بالجانب السياسي والإداري والعسكري والبطولي لخيرة أمراء وخلفاء الإسلام، وأخص بالذكر منها سيرة الخليفة أمير المؤمنين

تحفة الزائر: محمد باشا، 103/1. ¹

عمر بن عبد العزيز، فالتأمل في سياسة الأمير في تسيير شؤون دولته وسوس أمور رعيته؛ يلمس جيدا مدى اقتفاء الأمير عبد القادر آثار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وإليك موقفين فقط اتخذهما الأمير؛ تيمنا بصنيع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يبين لك صحة ما ذكرناه.

الموقف الأول: يتمثل في تخييره زوجه بين المكوث معه أو الطلاق عقب مبايعته أميراً

للمؤمنين، فاختارت البقاء معه، يقول ابنه الأمير محمد باشا في تحفته: "ثم قام فدخل داره وخير والدتي: إن أردت أن تبقي معي من دون التفات إلى طلب حق فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقا فأمرك بيدك؛ لأني قد تحملت ما يشغلني عنك".¹

هذا التصرف منه - رحمه الله - كما قلنا وليد الثقافة الواسعة بالسيارة العطرة للخليفة عمر بن عبد العزيز، فقد روى أصحاب السير والتاريخ أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خير زوجته أثناء توليه للخلافة بين البقاء معه أو الطلاق؛ فاختارت البقاء معه وتحمل أعباء الخلافة، قال صاحب المعرفة والتاريخ: حدثني إبراهيم حدثني أبي عن جدي قال: كنت أنا وابن أبي زكريا بأبيات عمر بن عبد العزيز، فسمعنا بكاء في داره فسألنا عنه، فقالوا: خير أمير المؤمنين امرأته أن تقيم في منزلها على حالها وأعلمها أنه قد شغل بما في عنقه عن النساء وبين أن تلحق بمنزل أبيها. فبكت وبكى جواربها لبكائها.²

وأما الموقف الثاني: فهو ما تقدم عن الأمير أنّ أول عمل قام به أثناء توليه الحكم هو تحقيق مبدأ العدل بين الرعية، وإلغاء المظالم الواقعة بين العباد وردّها إلى أهلها، وإبطال القوانين الجائرة التي كانت تفرض على المواطنين في الحكومات التي سبقتها، وهذا ما جرى فيه - والله أعلم - الأمير رحمه الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز؛ فقد ذكر من كتب في سيرته العطرة: أنه -

تحفة الزائر: محمد باشا، 1.103/1¹

المعرفة والتاريخ: أبو يوسف، مؤسسة الرسالة بيروت، 1981، 1/ 600²

رضي الله عنه - سعى على الفور إثر توليه الحكم؛ سعى لإعادة توزيع الدخل والثروة بالشكل العادل، الذي يحقق قيم الحق والعدل، فقد كان يراقب الانحرافات السابقة قبل خلافته، ويلاحظ آثارها السلبية على نفوس الرعية، ولقد استخدم عمر للوصول إلى هذا الهدف بعض الوسائل العملية منها: . مصادرة الأملاك المغصوبة ظلماً، التي استولى عليها الأمراء والكبراء، وإعادتها إلى أصحابها، ومنها: زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة، وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال.¹

فالأمير إذا كان متبعاً لمن سبقه من أمراء الإسلام مقتنعاً بقُدوسية حكمهم بداية من حكم نبيّ الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى حكم الخلفاء الراشدين إلى حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز، ولو رحنا نتبع الأسس التي قامت عليها الخلافة الراشدة ودولة الأمير لوجدنا تشابهاً كبيراً بينهما شكلاً ومضموناً، لا سيما كما قلنا مع خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز ولكن حسبنا في هذه الدراسة إشارة واحدة فقط أظن أنها تفي بالغرض، وهي فكرة تأسيس مجلس الشورى الذي اتخذها الأمير بمثابة مجلس الوزراء في زماننا فهي فكرة اقتبسها الأمير من سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد تضافرت الروايات الصحيحة في استشارة النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة في مواطن كثيرة، عملاً بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) الشورى 38. و (شاورهم في الأمر) آل عمران 159، ففي غزوة تبوك مثلاً لما اشتد الحناق عن النبي صلى الله عليه وسلم بفعل الحصار الذي فرضته عليهم قريش سارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عقد مجلس استشاري أعلى، تناول فيه موضوع

¹عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة: علي الصلّائي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر. 2006 م، ص: 26.

خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى، اتفقوا على قرار قدّمه الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه في حفر الخندق...¹

وإذا تأملنا في مواقف الخلفاء الراشدين من قضايا الشورى في المسائل العامة، فإننا نجد أنهم يكثر من استشارة فقهاء الصحابة، وقد ذكرت المصادر أسماء رجال الشورى في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وهم: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت.

ثم توسع نطاق الشورى في خلافة عمر رضي الله عنه لكثرة المستجدات والأحداث وامتداد رقعة الإسلام فكان عمر يجمع للشورى أكبر قدر من الصحابة الكبار، وختم رضي الله عنه حياته حين طعن بتكوين مجلس الشورى من ستة من كبار الصحابة لاختيار الخليفة من بعده وهم: عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام، ويحضر عبد الله بن عمر دون أن يحق له الترشيح، ولا شك أن عثمان وعلي رضي الله عنهما اقتفيا سنة من قبلهم في إنفاذ حكم الشورى.²

غير أن ما يلزم التنبيه عليه في هذا الموضوع أنه لم يؤسس مجلس شورى دائم في عصر الخلفاء بما فيهم الخليفة عمر بن الخطاب؛ فإنه رضي الله عنه إنما كان يجمع المجلس لأمر طارئ، فيرى ضرورة الشورى فيه، أما الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقد أحدث في إمارته مجلس شورى دائم يضّم فقهاء المدينة العشرة.

¹ الرحيق المختوم: المباركفوري، دار الهلال، بيروت، ص: 277

² عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج الحديثين، أكرم بن ضياء العمري، مكتبة العبيكان - الرياض، ط1، 2009 م، ص: 103 فما بعدها.

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى: "عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه قال: لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة واليا عليها كتب حاجبه الناس، ثم دخلوا، فسلموا عليه، فلما صلى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانا على الحق ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأخرج بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني؛ فجزوه خيرا وافترقوا."¹

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على رسول الله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد: فإنّ نتائج هذا البحث تتلخّص في النقاط التالية:

1- يعتبر الأمير عبد القادر بن محيي الدين مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة أبرز رجالات العلم والسياسة، والجهاد والمقاومة في العصر الحديث بلا منازع، كيف لا وهو الذي جمع الله له بين شرف النسب المحمدي، وكمال الخلق الإنساني، وشيم الخلق الإسلامي مع سعة الاطلاع والتبحر في فنون العلم الشرعي.

2- لقد تلقى الأمير دروسه الابتدائية في مسقط رأسه على يد والده الشيخ محي الدين عن جده الشيخ مصطفى بن المختار، كما أخذ عن أساطين العلم بأرض غريس ووهران وفاس والقاهرة والشام وبغداد وغيرها من أمصار الإسلام، فتنفن في علوم شتى منها علوم اللغة والتاريخ والفلسفة والفقهاء، والرقائق، رواية ودراية بالسند المتصل.

الطبقات الكبرى: ابن سعد، ط دار صادر، 5/ 334. ¹

3-اهتم الأمير عبد القادر في سنّ مبكر بتعليم الناس وبث العلم الشرعي في أوصافهم موقنا بأنّ الأمة لا تنتهض، ولا يكتب لها الرقي الفكري والحضاري، ولا يستقيم أمر دينها وديناها وتنتخلص من سطو عدوها إلاّ بالعلوم والمعارف؛ لا سيما علوم الشريعة الإسلامية الغراء، كما اهتم بالتأليف فصنّف كتباً فريدة وتصانيف بديعة انبهر في نسيجها العلماء.

4-كان للتكوين الشرعي الأصيل الذي حازه الأمير من خلال اعتنائه بالعلم الشرعي إفادة واستفادة وتأليفاً، وصرف عمره فيه فهما واستنباطاً، وتنزيلاً على نوازل واقعه المعاش؛ الأثر الكبير في بناء دولته القوية المتينة، فما تشعب به من علوم ومبادئ إسلامية في تنظيم الدول ونظم حكمها وتنظيم جندها وتعيين وزرائها وولاتها من خلال مطالعته المستمرة لكتب الفقه والسير؛ جسده بالفعل في دولته؛ فبنى نظام دولته على نمط الخلافة الرشيدة مقتفياً في تسييرها هدي الخلفاء الراشدين، كتأسيس خلافته على مبايعة الرعية له إماماً ورضاهم به أميراً للمؤمنين، مبايعة خاصة وعمامة، وتأسيسه مجلس شورى من خيرة العلماء والصلحاء، وتعيينه وزراء ونظار وكتاب وجباة من نخبة العلماء والدعاة.

5-الذي يغوص في دراسة سيرة الأمير عبد القادر، وبالأخص مسألة بناء الدولة وتنظيم شؤونها، ومعاملة العمال والرعية بالعدل والإنصاف، وتطبيق أحكام الشرع فيهم يدرك جيداً أن الأمير كان متبعاً لخامس الخلفاء أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في جلّ أحكامه وتصرفاته، ومن رام البحث في تاريخ الأمير وسياسته الرشيدة؛ فعليه إجراء مقارنة بين الدولتين دولة الأمير عبد القادر، ودولة الأمير عمر بن عبد العزيز؛ فإنه سيأتي فيه بالدرر.

المصادر والمراجع:

- 1- سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، الحاج مصطفى التهامي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1/1995.
- 2- الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري: يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009
- 3- حياة الأمير عبد القادر، شارل هنري تشرشل، ترجمة د أبو القاسم سعد الله، دار التونسية،
- 4- كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، علي الصلابي، دار المعرفة،
- 5- أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة: يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009
- 6- بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري، يحيى بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- 7- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: ابن فرحون، ت: محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة.
- 8- بهامش كتاب حاضر العالم الإسلامي: لوثرود ستورارد، مكتبة عيسى البابي، القاهرة، 1953.
- 9- مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط: 1/2003،
- 10- السيرة النبوية: ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1976
- 11- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق، 1426،
- 12- فقه السيرة: محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، 1427،
- 13- تاريخ الخلفاء: السيوطي، مكتبة نزار ط 1/2004،
- 14- سيرة الأمير عبد القادر: علي الصلابي.
- 15- المعرفة والتاريخ: أبو يوسف، مؤسسة الرسالة بيروت، 1981، 1/ 600
- 16- عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة: علي الصلابي، دار التوزيع، مصر 2006 م.
- 17- الرحيق المختوم: المباركفوري، دار الهلال، بيروت.
- 18- عصر الخلافة الراشدة، أكرم العمري، مكتبة العبيكان - الرياض، ط 1، 2009 م.
- 19- الطبقات الكبرى: ابن سعد، ط دار صادر، 5/ 334.

البعد الصوفي في شعر الأمير عبد القادر

د. عبد الرحمن بشلاغم، أستاذ مساعد
المركز الجامعي مغنية.

مقدمة:

يعدّ الأمير عبد القادر⁽¹⁾ من كبار المتصوفة، وكتابه الرائد في التصوّف "المواقف في التصوّف والوعظ والإرشاد" خير دليل على ذلك، إذ عالج فيه موضوع التصوّف، والفكرة الصوفية، وعمد إلى تفسير آيات قرآنية تفسيراً صوفيّاً، وتطرّق إلى شرح أحاديث نبوية، ويشتمل الكتاب على اثنين وسبعين وثلاثمائة موقفاً، ويقع في ثلاث مجلدات في نحو خمسمائة وألف صفحة من القطع الكبير، وقد وجدنا بعض الباحثين تناولوا هذه الشخصية للكشف عن أعماله البطولية الحماسية والنضالية، ضدّ الغزو الفرنسي لأرض الوطن فعرفّه أهل الجزائر مناضلاً وطنياً، وبطلاً صنديداً، ومقاتلاً شجاعاً. وسنحاول في هذا المقال أن نميط اللثام عن شخصيته الإسلامية الصوفية الجديرة بكلّ تقدير واحترام؛ لمكانتها في حُقبة حالكة، هذه الشخصية الصوفية المتحرّرة من قيودها والمتطلعة إلى صفاء الشريعة الإسلامية وجوهرها، مستعينين بالمنهج التاريخي الوصفي، بتحديد الأسباب التي حملت الأمير على سلوك طريق التصوّف منذ نشأته والمراحل التي مرّ بها هذا التصوّف، بالإضافة إلى تبيان

(1) انظر: يحيى بوعزيز، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج(1-2)، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903؛ أبو القاسم سعد الله، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، مقدمة ترجمته لكتاب حياة الأمير عبد القادر، ص8، 13.

طبيعته محاولين الإجابة عن الإشكالية التالية: ما مفهوم التصوّف عند الأمير؟ وما هي أسبابه؟ وما هي طبيعته وتجلياته؟ وإلى أي حدّ وصل تصوّفه؟

أولاً: تصوّف الأمير عبد القادر الجزائري (1808م-1883م):

ولد الأمير عبد القادر بالقيطنة قرب مدينة معسكر وهي تابعة لمقاطعة وهران، تعلّم في قرينته القرآن وعلوم الدين، كما أخذ مبادئ التصوّف وعلومه على يد والده الشيخ "محيي الدين بن عربي بن مصطفى"، حارب الفرنسيين لمدة 17 عاماً، من أشهر معاركه معركة خندق النطاح الأولى والثانية، ومعركة سيدي إبراهيم.

في 23 سبتمبر 1847م استسلم الأمير بعد أن نفذ السلاح واستولت فرنسا على عاصمته الزمالة. أُسرَ في فرنسا مدة خمس سنوات، ثم نفي بعد ذلك إلى تركيا، ومنها إلى دمشق التي استقرّ بها، وفي سنة 1860م حدثت مذابح بين مسلمي ونصارى بلاد الشام، فعمل الأمير مع أتباعه الجزائريين على إطفاء هذه الفتنة، وإخماد لهيبها، توفي بدمشق ودُفِن هناك، وبعد الاستقلال نقلت رفاته إلى الجزائر سنة 1966م.

من آثاره: المقراض الحاد، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، المواقف، ديوان شعري...

1- مفهوم التصوّف عند الأمير:

إنّ التصوّف عند الأمير "جهاد النفس في سبيل الله؛ أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الرّبوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله"⁽¹⁾.

(1) انظر: الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، مج.01، منشورات علي بيضون، ط1، 1425هـ/2004م، (الموقف: 71)، ص.141.

ويوجّه الأمير تحذيره إلى الصوفي الذي "يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك، أو لصرف وجوه العامة إليه أو حصول غنى، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية"⁽¹⁾.
 والصوفيون في نظر الأمير هم هؤلاء الذين عليهم "أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم، حاضرين مع الله تعالى"⁽²⁾، ولقد أطلق الأمير على الصوفيين ألقاباً عديدة؛ فهم تارةً "أهل الله"⁽³⁾ وطوراً "العارفون"⁽⁴⁾ ومرة "أهل الكشوف والعرض"⁽⁵⁾.
 ويخلص الأمير برأيه إلى اعتبار "الصوفية هم سادات طوائف المسلمين"⁽⁶⁾.
 إذن التصوّف عند الأمير جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة، والعبادة الخالصة لله، والحضور الدائم مع الله.

2- الأسباب التي حملت الأمير على تصوّفه:

هناك أسباب عديدة حملت الأمير على سلوك طريق التصوّف منها:

أ- نزعتة الإنسانية: وهي النسب الإرادي الحقيقي، الذي أراده الأمير أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان شرقياً كان أم غربياً، أو أوروبياً، مسلماً أو مسيحياً، إذ أنّ "أساس الديانة، وأصولها بين الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام [كأن في الكلام بتر

(1) المصدر نفسه، ص. 141.

(2) الأمير عبد القادر، المواقف، مج. 01، (الموقف: 12)، المصدر السابق، ص. 46.

(3) المصدر نفسه، مج. 1، (الموقف: 08)، ص. 39.

(4) المصدر نفسه، مج. 1، (الموقف: 08)، ص. 41.

(5) المصدر نفسه، مج. 1، (الموقف: 136)، ص. 302.

(6) الأمير عبد القادر، المواقف، مج. 01، مج. 2، (الموقف: 248)، ص. 678.

(يحتاج إلى تامة)]. فكلّهم يدعون إلى توحيد الإله وتعظيمه⁽¹⁾. وخير دليل على ذلك، تدّخله في أثناء فتنة 1276هـ/1860م المشؤومة في دمشق، فقد شهد له التاريخ بهذا الموقف البطولي الخالد، الذي كشف عن رجولته وشهامته وإيمانه، وعن طابع الإسلام والعروبة الواضح في شمائله، فقد استطاع أن يحقق أسلوب الأريحية العربية في النجدة والبذل، وحماية الدماء، وطابع الإيمان الإسلامي في التسامح والأخوة الإنسانية. [يجب أن يضبط هذا الكلام حتى لا يفهم أولاً أن الأمير يقول بوحدة الأديان، وحتى لا يفهم أن موقفه ذلك كان من هذا المنطلق؛ وإنما هو بدافع ما تملّيه عليه شريعة الإسلام].

ب- **انتماؤه إلى آل البيت:** وهو النسب العفوي الطبيعي، وقد تمسك مؤرّخوه بهذا النسب فأطنبوا وأفاضوا في ذكر نسبه النبوي الشريف، فهو تارة عندهم الحسيني وتارة الحسيني، أما موقف الأمير من أهل البيت، فيظهر لنا في شرحه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33]

قال: «تأمل هذه العناية الكبرى، والمنقبة العظمى، والمنزلة الزّلفى لأهل البيت النبوي، ولفظة أهل تعمّمهم من أولهم إلى آخر مولود منهم، حصر تعالى إرادته فيهم بأنّها لإذهاب الرجس وتطهيرهم من الذنب، تطهيراً كاملاً...»⁽²⁾.

ويخلص الأمير إلى نتيجة، وهي "اعتبار الشارع (النبي محمد ﷺ) للقرابة القلبية الباطنة، أكد من اعتباره للقرابة الجسمية الظاهرة"⁽³⁾.

(1) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المؤسسة الوطنية للكتاب، شارع زيروت يوسف، الجزائر، (د.ط)، 1985، ص.117.

(2) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، (الموقف: 276)، ص.825.

(3) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع السابق، ص.120.

ج- تربيته الدينية الصوفية: لقد شبَّ الأمير عبد القادر في جوِّ تربوي ديني؛ فهو ابن الزوايا والطرق، فقد نشأ نشأته الأولى في مدرسة الزاوية التي كان والده أنشأها، وتلقى مبادئ العلوم الدينية والفقهية فيها، وكان خط الأمير أنّ والده وجدّه عالمان، فعائلته عائلة علمية...⁽¹⁾.

فشخصية والده، المعروف بالورع والتقوى، والتصوّف، لعبت دوراً قوياً في تشكيل ملامح شخصية ابنه، ووجهته نحو سلوك سبيل التصوّف، لقد "كان الأمير يميل إلى التصوّف منذ صغره ولاشكّ أنّ أباه محيي الدين الذي كان صوفيّاً كبيراً من أتباع القادرية، كان ذا تأثير عليه في تربيته الدينية وكان أكبر موجّه له في حياته الروحية الصوفية"⁽²⁾.

د- إيمانه الشديد بالقضاء والقدر: إنّ إيمان الأمير بالقضاء والقدر شديد جداً، ولعلّه يتابع في هذا الرسول ﷺ حين سُئل عن الإسلام فقال: «... أن تؤمن بالأقدار كلّها خيرها وشرّها حلوها ومرّها»⁽³⁾، ونلمس إيمانه هذا في كتاب العهد الذي أعطاه الأمير لويس نابليون وتعهّد فيه بعدم العودة إلى أرض الجزائر قائلاً: «عندما أمرني الله بالنهوض نهضت... ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت وعند ذلك فقط تخلّيت عن السلطة واستسلمت»⁽⁴⁾.

ه- محاربة التقليد والمقلّدين: يعتقد الأمير أنّ الإنسان قد يكون محجوباً باعتقاد سبق إلى القلب، وقت الصبا، عن طريق التقليد، والقبول بحُسن الظنّ، فإنّ ذلك، يحول بين القلب، والوصول

(1) انظر: بومدين بوزيد، الأمير عبد القادر: هزيمة الحرب وانتصار المعرفة، ضمن كتاب: تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، ط1، مخبر الأبعاد القيمية للأبعاد السياسية والفكر بالجزائر، دار القدس العربي، الجزائر، ص.127.

(2) محمد بشير بويجرة، الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، منشورات دار القدس العربي، الجزائر، ط3، 2009، ص.99.

(3) المحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ج1، تحقيق: بشار عواد، دار المنهاج، ص.34.

(4) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع السابق، ص.121.

إلى الحقائق، ويمنع أن ينكشف في القلب غير ما تلقاه بالتقليد، وهذا حجاب عظيم، حجة أكثر الخلق، عن الوصول إلى الحق، لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية رسّخت في نفوسهم، وجمدت عليهم قلوبهم⁽¹⁾.

وما دام الأمير قد عرف هذا الحجاب التقليدي، فإنه يكون غير مقلّد ولا مقيد، وإنما يقول ما أفهمه الله تعالى، في كتابه وسنة نبيه ﷺ بالتفهم الرباني⁽²⁾.

من هنا كانت إرادته الإلهية، ومواقفه الصوفية، ووقائعه "نفثات روحية ولقاءات سبوحية، بعلوم رهبية، وأسرار غيبية، من وراء طور العقول وظواهر التّقول، خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في كتاب"⁽³⁾.

و- تركه الحياة السياسية والعسكرية بعد إستسلامه: إنّ المرحلة الثانية من مراحل حياة الأمير عبد القادر، وهي مرحلة جهاده التي امتدت من عام 1246هـ إلى 1264هـ/1830م إلى 1847م قد إستفادت الشيء الكثير من تفكيره، فإنعصر تفكيره في الأمور السياسية والعسكرية لا يتخطاها إلى القليل النادر⁽⁴⁾.

(1) الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، تحقيق وتقديم: ممدوح حقي، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع، بيروت، 1976، ص.36.

(2) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.01، (الموقف: 209)، المصدر السابق، ص.459.

(3) انظر: فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفًا وشاعرًا، المرجع السابق، ص.123.

(4) انظر: الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرحه وعلّق عليه: د. محمود حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، ط2، 1984، ص.140؛ وينظر: بوعزيز يحيي الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، دار الكتاب الجزائري، مطابع دار الفكر العربي، دمشق، ط2، 1384هـ/1964م، ص.140.

ي-عُزَلته في أسره بأمبوز في فرنسا: كانت هذه العزلة من أسباب تصوّف الأمير بسبب كونها مرحلة هامة من المراحل التاريخية لتصوّفه، إذ كان يشغل نفسه في هذه العزلة "بالدعاء والتضرّع وكشف الرأس حيث ترد عليه الواردات في الوقائع مشيرةً وأمره بالصبر"⁽¹⁾. وقد مثلت هذه الأسباب اللبنة الأولى لتصوّف الأمير عبد القادر.

ثانياً: مراحل تصوّف الأمير وسفره الروحي

1-المراحل التاريخية لتصوّف الأمير:

لقد مرّ تصوّف الأمير بمراحل تاريخية توازي في نموّها، وتساعدّها المراحل التاريخية لسيرة حياته الذاتية، وأنّ هذه المراحل قد نمت عنده نموّاً طبيعياً، وتدرّجت تدرّجاً سليماً في تصاعدها من نقطة البداية، بداية التوبة والورع، إلى نقطة النهاية، نحاية النفس الأمانة بالسوء، حيث الشاهد واليقين، وهاته المراحل هي:

1-1-المرحلة الأولى: التلقّن والتعلّم والمطالعة (1222هـ-1246هـ/1807م-1830م).

تمتدّ هذه الفترة أو المرحلة من ولادة الأمير في "القيطنة" عام 1222هـ/1807م إلى تاريخ نزول الفرنسيين أرض الجزائر عام 1246هـ/1830م. ويبدو أنّ أهمّ فترة زمنية في هذه الفترة، هي الفترة الممتدة بين عامي 1241هـ و1243هـ/1825م و1828م، وهي فترة الرحلة المشرقية التي سافر فيها مع والده لأداء فريضة الحج، فأتاحت له فرصة الاطلاع عن كثب على الطرق الصوفية ومنها⁽²⁾:

(1) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.01، (الموقف: 211)، ص.472.

(2) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع السابق، ص.127-128.

أ- الطريقة النقشبندية⁽¹⁾: أخذها في مدينة دمشق عن الإمام أبي البهاء، ضياء الدين الشيخ خالد النقشبندي السهورودي، إذ كان الأمير يُكثر التردّد عليه، ليسمع منه علومًا شتى في التوحيد والتصوّف.

ب- الطريقة القادرية⁽²⁾: أخذها في مدينة بغداد، من يد نقيب الأشراف شيخ السجّادة القادرية السيّد محمود الكيلاني القادري.

ويومئ الأمير إلى هذه المرحلة التاريخية من مراحل تصوّفه في الموقف الثالث عشر من مواقفه حين كان مُغرماً بمطالعة كتب القوم-رضي الله عنهم- منذ الصبا، غير سالك طريقهم⁽³⁾.

1-2- المرحلة الثانية: الفتوة والمرابطة (1246هـ-1264هـ/1830م-1847م).

لقد جعل الإسلام العبادة وعمل المعروف، والدعوة إلى الخير، ودفع المظالم، والتكسّب من الحلال، والكدح في الأرض عبادة، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]

وتحت ظلال هذه العقيدة التي تجمع بين العبادة النظرية؛ أي العلم، وما بين العبادة العملية؛

أي الجهاد بنوعيه الأصغر والأكبر⁽⁴⁾، قال الأمير: ⁽¹⁾ [ليس من شعر الأمير بل لابن المبارك]

⁽¹⁾ تنسب إلى الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد البخاري المعروف بشاه نقشيند، ولد سنة 718هـ/1318م بقرية صغيرة بالقرب من بخاري، وتوفي سنة 791هـ/1389م، وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهراً وباطناً مع كمال الالتزام للسنة. ينظر: فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع نفسه، ص. 127.

⁽²⁾ تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (470-561هـ/1078-1166م)، وتمتاز طريقته بالاعتدال والتساهل، وإتباع السنة وحب الخير، والشفقة والتواضع، والبُعد عن التعصّب الديني والسياسي. ينظر: أحمد توفيق عياد، التصوّف الإسلامي، تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970، ص. 279-283.

⁽³⁾ الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج. 01، (الموقف: 13)، ص. 46.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، مج. 1، (الموقف: 99)، ص. 214.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بدموعه
فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُعْبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلِ
فَخِيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا
رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطْيَبُ

هكذا كان الأمير عملياً في تصوّفه، يسمو بتدبّينه الصحيح إلى ذروة الفتوة والمرابطة بمعناها الإنساني النبيل، خلافاً لما صار عليه معظم الصوفيين.

1-3- المرحلة الثالثة: مرحلة التأمل والتفكير (1264هـ-1269هـ/1847م-1852م).

انتهى أمر الأمير إلى الأفق الروحاني المشرق، منذ أن كان أسيراً في السجن، ففاضت عليه الأرجاء⁽²⁾، ويبدو أنّ هذه الخلوة أتاحت له ولأوّل مرة في حياته، التأمل الصوفي والتفكير الروحاني الهادئ العميق، فكان يقضي أوقاته مشتغلاً بالذكر والدعاء، وكانت تردّ عليه الواردات في الوقائع مشيرةً وأمره بالصبر، لذا اشتغل في أثناء خلوته هذه بالدعاء والتضرّع وكشف الرأس⁽³⁾.

1-4- المرحلة الرابعة: النضج والتعبير (1269هـ-1300هـ/1852م-1883م).

بدأ الأمير عبد القادر حياته بالجهاد والنضال في ساحة الوعي، وختمها في هذه المرحلة الصوفية الرابعة والأخيرة بالجهاد والنضال في مجال أعظم، وهو "جهاد النفس". وتمتاز هذه المرحلة بأنّها أطول المراحل التاريخية لتصوّف الأمير من الناحية الزمنية، وأغنى مراحل تصوّفه من ناحية النتائج الأدبي والفكري، ففي هذه المرحلة تمّ له الفتح العظيم وكان ذلك في خلوته الصوفية الشهيرة، إذ أقام في مكة والمدينة سنة ونصفاً، مقبلاً على العبادة والخلوة، والتقى فيها بالشيخ الجليل العارف بالله

(1) الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسيني الجزائري، الديوان، تحقيق: زكريا صيام، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 96.

(2) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج. 01، (الموقف: 13)، ص 46.

(3) المصدر نفسه، مج 1، (الموقف: 211)، ص 472.

محمد الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية، فتتلمذ عليه، وشرب عنه الطريقة، وقد تم له الارتقاء في غار حراء؛ لأنه انقطع فيه أياماً معدودة، إلى أن جاءته البشرية، ووقع له الفتح النوراني، وانفتح له باب الواردات، واستظهر من القرآن العظيم آيات ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة⁽¹⁾. وقد أشار إلى هذا الفتح الرباني بقوله: «إن الله تعالى قد عودني، أنه مهما أراد أن يأمرني، أو ينهاني، أو يبشرني، أو يحذرنني، أو يعلمني علماً، أو يُفتيني في أمرٍ استفتيته فيه، إلّا ويأخذني مّي مع بقاء الرّسم ثم يلقي إليّ ما أُراده بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يردني إليّ فأرجع بالآية قرير العين... وقد تلقيت من الله تعالى، نحو نصف من القرآن بهذا الطريق»⁽²⁾.

وكتب الأمير في خلوته هذه إلى أستاذه الشيخ، يصف بدايته ونهايته، ويشي على الله بما أولاه على يده بقصيدة مطلعها⁽³⁾:

| | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| أمسعود جاء السعد والخير واليسر ليالي | وولت جيوش النّحس ليس لها ذكر |
| صدودٍ وانقطاعٍ وجفوةٍ | وهجران ساداتٍ فلا ذكر الهجر |
| ليالي أنادي والفؤاد متيم | ونار الجوى تشوي لما قد حوى الصدر |
| أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر | أمولاي هذا الليل هل بعده فجر |

فقد صور في هذه القصيدة نفسه وما بلغتها من سعادة روحية، وراحة قلبية، في دوحة النورانية، والمعرفة الربانية، وقد انكشفت له الأسرار وزالت عنه الحجب، فتنعم بالأنوار والجلال والجمال، وتمت له لحظات الوصل عن طريق شيخه، فأقبلت أيام سعده وأدبرت أيام نحسه.

2- السفر الروحي عند الأمير:

2-1- مقامات الأمير:

(1) أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مؤسسة هنداوي، 1967، ص 364.

(2) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج. 01، (الموقف: 01)، ص 26.

(3) الأمير عبد القادر، الديوان، المصدر السابق، ص. 197.

اعتبر الأمير مقام التوبة هو "الأساس لسلوك الطريق والمفتاح للوصول لمقام التحقيق، فمن أعطيه أعطى الوصول، ومن حرمة حرم الوصول⁽¹⁾.

ويتحدث عن التوكل، فيقول هو: «الثقة والطمأنينة، لا ترك الأسباب مع الشك والاضطراب، فليس هذا من التوكل المطلوب في شيء»⁽²⁾. ومن هنا فإنّ توكل الأمير هو مقام للتسبب ظاهريًا، والمتوكل باطنيًا، أي أن يكون ظاهره يُوحى بتعلقه بالأسباب، وباطنه متعلق بخالق ورب الأسباب.

2-2-أحوال الأمير:

من الأحوال الأكثر وضوحًا وبروزًا في تصوّف الأمير:

- **حال القرب:** يرى الأمير أنّ "القرب من الله تعالى قرب معنوي، ولا يتم ذلك إلاّ برفع حجاب الجهل، فما بعدنا إلاّ الجهل، ولا قربنا إلاّ العلم"⁽³⁾. "وأهل الله هم القريبون من الله تعالى القرب المعنوي، المقرّبون عنده، الملبّون دعوته، المستجيبون إلى طاعته... الداعون إلى معرفته وتوحيده عن طريق الصوفية أهل العقيقة والسلوك والأحوال... وقطع عقبات النفوس وطبّي المقامات إلى الذروة العليا"⁽⁴⁾.

- **قرب الفرائض:** يرى الأمير أنّ "من كان قربه قرب النوافل فهو قريب، ومن كان قربه قرب الفرائض فهو أقرب"⁽⁵⁾. وكلّما تدانت الديار بين الأمير وبين المحبوب، زاده هذا القرب شجائنًا وأحزانًا، فلا القرب عطشا؟! إلى معرفة الحبيب المطلق، واجب الوجود.

(1) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.01، (الموقف: 197)، ص.430.

(2) المصدر نفسه، مج.01، (الموقف: 165)، ص.369.

(3) المصدر نفسه، مج.1، (الموقف: 178)، ص.135.

(4) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.1، (الموقف: 136)، ص.302-303.

(5) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.2، (الموقف: 284)، ص.869.

وإن قلت يوماً قد تدانت ديارنا لأسلو عنهم زادني القرب أشجانا
فما القرب لي شاف ولا البعد نافع وفي قربنا عشق دعاني هيமானاً⁽¹⁾

- حال المحبّة: ملأ الأمير قلبه معرفةً بالله، وهياماً بمحبّتهن هذه المحبّة الإلهية التي عرف حلاوة مذاقها ونعمة عطائها، فلا يستطيع أن يسلوها أو يتعد عنها، هي محبّة ملكت عليه قلبه، فأشعلت فيه نار الشوق؛ الشوق لمعرفة الحبيب، وازدياد الشوق والمحبّة له⁽²⁾:

عن الحبّ ما لي كلّما رمت سلوانا أرى حشو أحشائي من الشوق نيرانا
لواعج لو أنّ البحار جميعها صَبَّينَ لكان الحرُّ أضعاف ما كانا
فلو أنّ ماء الأرض طرّاً شربته لَمَا نالني رَيٌّ ولا زلت ظمّاناً⁽³⁾

وأعلى مراتب المحبّة عند الأمير من محبّة الله للمجاهدين؛ الذين جاهدوا الجهاد الظاهر، والجهاد الباطن في سبيل معرفة الحبيب الأوّل، واجب الوجود.

- حال المشاهدة: لا يطمئن الأمير الاطمئنان الكامل إلاّ بالشهود⁽⁴⁾، وهذه الحالة هي النوع الثالث من أنواع الهدى، التي طلق عليها "الأعظم هدى"، بحيث لا ينال هذه المحبّة "إلاّ الذي حصلت له الهداية بالكشف والعيان"⁽⁵⁾.

2-3- مجاهدات الأمير:

أ- علم المعاملة عند الأمير:

(1) الأمير عبد القادر، الديوان، المصدر السابق، ص. 222.

(2) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع السابق، ص. 151.

(3) الأمير عبد القادر، الديوان، المصدر السابق، ص. 221.

(4) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج. 01، (الموقف: 118)، ص. 258.

(5) المصدر نفسه، مج. 1، ص. نفسها

لابدّ من الإشارة إلى أنّ الأمير في مجاهداته لا يسمّي الأشياء بأسمائها التقليدية المتداولة، بل يحاول أن يجد لها أسماء جديدة تناسب الحالة الرّوحية الّتي عايشها واختبرها؛ بمعنى أنّ مجاهدتي التقوى والاستقامة لا تأخذان عنده التسمية، بل سُميتا عنده باسم جديد، إذ اعتبرهما رتبة ثانية (وسطى) من رتب الهدى حين قال: «إنّ الهدى أنواع، والموصوفون بالهدى أنواع: فمهتدي، وأهدى، وأعظم هدى.

فالمهتدي هو الذي حصل على الهداية بالدليل العقلي والبرهان.

والأهدى هو الذي حصل على الهداية بتصديق الرسول والإيمان.

وأعظم هدى هو الذي حصلت له الهداية بالكشف والعيان»⁽¹⁾.

وترتيب هذه المجاهدات عنده من الأدنى إلى الأعلى، فتقابل مجاهدتا التقوى والاستقامة عند الأمير مرتبة "الأهدى"، أي مرتبة الإيمان الوسطى، فهي سماء وسقف للمعتدى، وأرض وقاعدة يرتقي منها صاحبها إلى سماء "الأعظم هدى"؛ أي مرحلة المكاشفة.

فكيف جاهد الأمير مجاهدة "الأهدى" كما يحلو له أن يسميها؟

بدأ الأمير مجاهدته بالسّير في خطا الشّرع، ملازمًا طريقة الشّرع الظاهرية لا يجيد عنها قيد أنملة، بل يردّد ما جاء به الشّرع في مفهومه للحق، فإذا قال الشّرع بالتوحيد المحض، قال الأمير: هو ذا، وإن قال الشّرع بالتشبيه والتجسيم وافق الأمير ذلك:

عليك بالشرع فألزم طريقته فحينما سار سر وإن يقف فقف

إذ قال ليس كمثلي قل هو ذا أو قال لي أعين، فقل: بذا كلفي.⁽²⁾

(1) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.01، (الموقف: 118)، ص.257-258.

(2) المصدر نفسه، مج.01، (مقدمة المؤلف)، ص.20.

ورمى من وراء ذلك إلى "القيام بوظائف التكليف والعمل بما رسم المشرّع⁽¹⁾، وعيّر الأمير عن بداية مجاهدته هذه في الموقف الثالث والثمانين، حيث قال: «ومن بعض نعم الله عليّ: أنّي منذ رحماني الله تعالى بمعرفة نفسي، ما كان الخطاب لي والإلقاء عليّ؟ إلاّ بالقرآن الكريم العظيم»⁽²⁾. وبالتالي وصل الأمير إلى "أنّه لا نور يرغب فيه الرّاغبون مثل الاستقامة على الكتاب والسنة، فهو في مجاهدته هذه لا يعيّر إلاّ عمّا فهمه الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ بالتفهيم الربّاني"⁽³⁾. ويكثر الأمير في مجاهدة علم المعاملة من مطالعة كتب الأنبياء وأخبارهم والاطلاع على سيرهم وأحوالهم⁽⁴⁾.

ب- علم المكاشفة عند الأمير:

"إنّ في الوجود معشوقة غير مرموقة، ألا هوية؟؟ إليها جانحة، والقلوب بجبّها طافحة، والأبصار إلى رؤيتها طامحة، يطير الناس إليها كلّ مطار، ويرتكبون الأخطار... ولا يصل إليها إلاّ الواحد بعد الواحد"⁽⁵⁾.

وقد أطلعنا الأمير على مكاشفته ووصوله، وعلى درجة منزلته بين الصوفيين بقوله: «فاعتمدت على الواحد الأحد، لا ألوي على أحد، فمررت في طريقي على فرق من فريقي: فرأيتهم بين سادم باهت، لا هو بالحاصل ولا الفايث، وبين حائر واقف إلتبست عليه المواقف، وبين غريق في لحج تلك البحار، وتائه في تلك المغاور والقفار»⁽⁶⁾.

(1) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع السابق، ص.158.

(2) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.01، (الموقف: 83)، ص.159.

(3) المصدر نفسه، مج.1، (الموقف: 209)، ص.459.

(4) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع السابق، ص.159.

(5) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.01، (مقدمة المؤلف)، ص.10.

(6) المصدر نفسه، مج.1، (مقدمة المؤلف)، ص.12.

فهل تابع الأمير طريقه، أم توقف عند هذا الحدّ أم تراجع؟

يجيبنا الأمير عن هذا سؤالنا هذا بقوله: «ومازلت ممتطيًا سهوتي النّسر والغراب، محملاً نفسي كلّ مكروه، مستعدبًا أنواع العذاب، لا تطمئن بي دار ولا يستقرّ بي قرار، إلى أن ظهرت لي الأعلام، التي ظهرت لمن قبلي من الوافدين الأعلام، ونادى المنادين وحدا الحادي:

أبشّر بولٍ فهذه العلامات كم طالبين ودون الوصل قد ماتوا

لقد وصل الأمير إلى هذه المعشوقة المحبوبة، وحصل عندها على رتبة المنعم عليهم... "من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين"⁽¹⁾.

تبيّن لنا ممّا تقدّم أنّ الأمير قد وصل في مجاهداته إلى مرحلة الكشف ورفع حجاب الجهل، ومع ذلك فإنّ حديثه بقي ضمن نطاق العموميات لا الخصوصيات، والإشارات لا التفاصيل. فما هو موقفه من علم المكاشفة؟ وهل صرّح في حالة الكشف التي وصل إليها، أم بقي مستترًا عن العامّة، وخاصّة الفقهاء من علماء الظاهر؟

لقد أجاب الأمير عن هذه القضية في الموقف الثالث عشر من مواقفه حين قال: «وقد أمرني الحقّ تعالى بالتحدّث بالنعم، (نعم الرؤيا والوقائع والواردات الإلهية بالأمر العام لرسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11] ... وأمرني بالخصوص مرارًا بإشارة هذه الآية الشريفة»⁽²⁾.

قال: «وهذه الآية الكريمة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ألقيت عليّ بالإلقاء الغيبي مرارًا عديدة لا أحصيها... والمراد بالنعمة هنا؛ نعمة العلم والمعرفة بالله تعالى، والعلم بما جاء به الرسل -

(1) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفًا وشاعرًا، المرجع السابق، ص. 161.

(2) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج. 01، (الموقف: 13)، ص. 48.

عليهم الصلاة والسلام- من المعاملات والأمر المغيبات، والمراد بالتحديث بها؛ إنشاؤها وبثها لمستحقيها المستعنين لقبولها...»⁽¹⁾.

ويُنعى على بعض المشايخ من الصوفيين، وعلى مرديهم من أهل زمانه إفشاءهم لبعض الأسرار الإلهية وبتهمهم بالجهل، وبعدم تجربتهم الروحية الذوقية، وبتطاولهم على الجانب الأعلى الإلهي، ويدعوهم إلى صون هذه الأسرار⁽²⁾.

فهل تبقى هذه العلوم والأسرار الإلهية حبيسة الصدور والقلوب؟

نعم تبقى كذلك لكي يتعلم الصوفي "الصبر على المعارف الإلهية، والأسرار الربانية، بعدم إذاعتها لغير أهلها"⁽³⁾، ولكن من ناحية ثانية، "فإن هذه العلوم اللدنية، والأسرار الإلهية يتداولها الصوفيون مع أبناء جنسهم، وأهل جلدتهم، المؤمنين بهم وبكلامهم، فلا يطالبونهم بدليل"⁽⁴⁾.

لقد عرف الأمير السر الإلهي بعد أن أخذه الحق عن نفسه، وقربه إليه حتى "قيل لي مثل قوله الخلاج، غير أنّ الخلاج قالها، وأنا قيلت لي ولا أقولها"⁽⁵⁾.

لذا فالأمير شديد التحقق من ناحية الخوض في المكاشفات، شديد التكتّم والتقيّة، إذ "لو

لا لجام الشرع لقلت ما لم يقل:

ولكن لجام الشرع أحكم حكمةٍ لذا لا تراني حائماً ومموّهاً.⁽⁶⁾

(1) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع السابق، ص.163.

(2) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.01، (الموقف: 158)، ص.355.

(3) المصدر نفسه، مج.1، (الموقف: 189)، ص.415.

(4) المصدر نفسه، مج.2، (الموقف: 231)، ص.519.

(5) الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج.1، (الموقف: 7)، ص.38.

(6) المصدر نفسه، مج.1، (الموقف: 171)، ص.38.

وينتهي الأمير جولته الروحية هذه بالدعوة إلى: «محبّة هذه الطائفة العلية والتصديق لكلامهم، فإنّ محبتهم عنوان السعادة، والإعراض عنهم عنوان الشقاوة»⁽¹⁾.
 وفي القصيدة التالية يتغنّى الأمير بتلك الرّوح في سمائها العلوية، وقد ارتقت إليها روحه، فصارت في معراجها تشدّد وتسبح... فهو في حضرة الذات العلية، وقد تجلّت له، وتكشفت أمامه الحجب، فصار من ذاته قاب قوسين أو أدنى، والقصيدة في خفة وزنها وسهولة لفظها أشبه بالأوارد الصوفية، يقول:

| | |
|---------------------|-----------------------------------|
| يا عظيما قد تجلى | كلّ مجلى له مجلى |
| أنت مبدي كل بادٍ | أنت أبدى أنت أجلى |
| حسنك الباري تعالى | أن نرى عنده مثلا |
| كلّ حسنٍ مستعارٌ | من جمال قد تدلى |
| كنت قبل اليوم صبا | أسأل المحبوب ميلا |
| فأزال الستر عني | فبدا لي الفصل وصلا |
| زادني القرب احتراقا | فأنا بالوصل أصلا |
| عجبي من عشق نفسي | ما أحبت غير أصلا |
| أنا بدر أنا شمس | أنا صبح قد تجلى |
| أنا نور أنا نار | أنا برق ضاء ليلا |
| أنا كأس أنا خمر | أنا أسقي أنا أملا |
| كلّ يوم كلّ حين | كلّ آنٍ فهو يُملا. ⁽²⁾ |

(1) فؤاد صالح السيّد، الأمير عبد القادر متصوّفاً وشاعراً، المرجع السابق، ص. 165.

(2) الأمير عبد القادر، الديوان، المصدر السابق، ص. 270-271.

نجد في القصيدة مصطلحات مثل: "الحسن، الجمال، الصبّ، المحبوب، الحبّ، العشق، الفصل، الوصل، القرب، الاحتراق، الكأس، الخمر، أسقي...".

وهذه اللغة ليست غريبة عن عوالم المتصوّف وأدبياته، فهو إذ يتغزل أو يتشبّب، إنّما يُناجي الذات الإلهية، وإذ يصوّر الخمر ونشوتها؛ ذاك أنّ قلبه قد امتلأ بحبّ الله، وانتشر بهذا الحبّ، يتغنى به رامزاً له بالخمر، يصفها ويتفنّن في وصفها ولذتها أو نشوته بها، لكن خمر المتصوّف من نوع آخر فهي لا تشبه الخمر العادية في ذاتها ووصفها وسكرها⁽¹⁾.

وفي القصيدة نجد فكرة وحدة الوجود التي تبناها الأمير على غرار معلمه الأكبر "ابن عربي"، كقوله: «أنا بدر، أنا شمس، أنا صبح، أنا نور، أنا نار...».

خاتمة:

- يعدّ كتاب "المواقف" حصيلة المجاهدات الصوفية التي جاهدتها الأمير في سلوكه لطريق الحق.
- يعتبر الأمير أنّ التصوّف "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية.
- الأمير سليل زاوية صوفية، وهو شيخ من شيوخ التصوّف، ورث الطريقة القادرية عن أبيه، وكان حظ الأمير أنّ والده وجدّه عالمان.
- رفض الأمير الإيمان التقليدي الوارد عن طريق الآباء والأجداد والكتب، ويعمد إلى الإيمان القائم على تجربة روحية ذوقية لا عقلية.

(1) عبد الله الركبي، الشعر الديني الجزائري الحديث (الشعر الديني الصوفي)، ج. 01، دار الكتاب العربي، القبة-الجزائر، ص. 277.

- لقد جاهد الأمير في سبيل الوصول إلى "الأعظم هدى"؛ أي درجة المكاشفة والعيان، لأنّ "العلم الحقيقي، باسم العلم، ما لا يقبل صاحبه الشبهة ولا يطرأ عليه تغيير، وليس ذلك إلاّ علم الأذواق الحاصل بالتجليات.

- كان الأمير محافظاً على الستر الإلهي، شديد التحقّظ من جهة الخوض في المكاشفات، شديد التكتّم والتقيّة.

- لقد تأثر الأمير بالنبيّ محمد ﷺ وتجلّى ذلك في آثاره الشعرية والنثرية، فكلّها تدعو لإتباع السنّة والسير على هدى النبيّ ﷺ.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، مقدمة ترجمته لكتاب حياة الأمير عبد القادر.
2. أحمد توفيق عباد، التصوّف الإسلامي، تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970.
3. أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مؤسسة هنداوي، 1967.
4. الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسيني الجزائري، الديوان، تحقيق: زكريا صيام، ديوان المطبوعات الجامعية.
5. الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، مج.01، منشورات علي بيضون، ط1، 1425هـ/2004م.
6. الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرحه وعلّق عليه: د. محمود حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، ط2، 1984.
7. الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، تحقيق وتقديم: ممدوح حقي، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع، بيروت، 1976.
8. بوغزني يحي الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، دار الكتاب الجزائري، مطابع دار الفكر العربي، دمشق، ط2، 1384هـ/1964م.

9. بومدين بوزيد، الأمير عبد القادر: هزيمة الحرب وانتصار المعرفة، ضمن كتاب: تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، ط1، مخبر الأبعاد القيمة للأبعاد السياسية والفكر بالجزائر، دار القدس العربي، الجزائر.
10. الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ج1، تحقيق: بشار عواد، دار المنهاج.
11. عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث (الشعر الديني الصوفي)، ج.01، دار الكتاب العربي، القبة-الجزائر.
12. فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر متصوّفًا وشاعرًا، المؤسسة الوطنية للكتاب، شارع زيروت يوسف، الجزائر، (د.ط)، 1985.
13. محمد بشير بوجرة، الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، منشورات دار القدس العربي، الجزائر، ط3، 2009.
14. يحي بوعزيز، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج(1-2)، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903.

الحب الإلهي في شعر الأمير عبد القادر

مصدق بوعافية، أستاذ مساعد قسم أ

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

توطئة:

ترمي هذه الورقة البحثية إلى التعرف على شعر الأمير عبد القادر الجزائري، للكشف عما يحفل به ذلك الشعر من معاني ومقاصد صوفية ومن أبرز تلك المعاني: الحب الإلهي أو الحب الصوفي ويتساءل الباحث عن عوامل ظهور هذا النوع من الشعر لدي الأمير رغم أنه جرد من نفسه مجاهدا يدفع الحيف والظلم عن بلده ويطارد الاستعمار بسيفه وقلمه، كما تكشف الورقة عن مظاهر ذلك الحب ومنابعه وأصوله، وقد خلص الباحث إلى أن حب الأمير كان حبا إنسانيا متوافقا مع أصول العقيدة الإسلامية والمذهب السني الذي تتبعه البلاد الجزائرية.

أولا: مفهوم الحب في اللغة والشرع وفي منهج الصوفية:

1- مفهوم الحب في اللغة والشرع

تدل كلمة حب في معاجم اللغة العربية على معان هي كما يقول ابن فارس: الحَاءُ وَالْبَاءُ أَصُولٌ ثَلَاثَةٌ، أَحَدُهَا اللُّزُومُ وَالثَّبَاتُ، وَالْآخَرُ الحَبَّةُ مِنَ الشَّيْءِ ذِي الحَبِّ، وَالثَّلَاثُ وَصَفُ القِصْرِ¹ فكأن الحب ملازمة المحب لمحبوبه و الحبة من ذوي الحب الواجدة منه و من ذلك حبة القلب أي سيويداؤه² ولا ريب ان الحب موطنه القلب، أما الأصل الثالث وهو القصر فيوصف به الرجل

¹ ابن فارس، مقاييس اللغة، مع: 1، ص ص: 275-276. (مادة حب).

² المصدر نفسه ص مع 3. ص 31.

القصير فيقال ورجل حبحاب¹ و لا ريب انه بعيد عن معنى الحين وللكلمة معاني كثيرة جدا لا يسعنا استقصاؤها في هذا الموضوع

أما الحب في الشرع فيقول فيه أحد العلماء: محبة العبد لربه تكون على درجتين: إحداهما محبة عامة لا يخلو منها كل مؤمن وهي واجبة، والثانية محبة خاصة ينفرد بها العلماء الربانيون وأولياء الله الصالحون وهي أعلى المقامات، فإن سائر مقامات الصالحين كالخوف والرجاء والتوكل... مبنية على حظوظ النفس ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه والراجي إنما يرجو منفعة نفسه بخلاف المحبة فإنها من أجل المحبوب².

أما موجبات المحبة لله فتعود إل أمرين هما: الجمال والإحسان، "فأما الجمال فهو محبوب بالطبع مثل جمال الله في حكمته البالغة وصنعتة البديعة وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار وأما الإحسان فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وإحسان الله إلى عباده متواتر³. فهذا معنى الحب عند علماء الشريعة إجمالا.

2- الحب في منهج الصوفية:

ولما كانت التجربة الروحية عند الصوفية لازمة عن شوق ملح من الوجدان الداخلي في معرفة الله والاتصال به، فقد لزم عن ذلك أن يلازم المتصوف حب إلهي، ويظل هذا الحب يلزمهم جميعا

¹ الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، د.ب، د.ط، د.ت، ج: 3، ص: 31.

² عمر العربي، كتاب التوحيد، الجزائر، 1404 هـ، 11984م، ص 15.

³ المرجع السابق، ص 16.

ويبقى ملازماً لهم في جميع المقامات والأحوال، إذ لولاه لما تحركت النفس شوقاً إلى سلوك الطريق الصوفي¹.

غير أن بعض الصوفية يفرقون بين الحب المادي والحب الخالص: رابعة العدوية ت 185 هـ تفرق بين نوعين منه تسمى الأول حب الهوى وتدعو الثاني الحب الذي لله خالصاً فتقول:²

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عما سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

ويفسر الإمام الغزالي هذا الذي عنته رابعة بقوله: ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة وبجبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما.³

وقد تحول الحب الإلهي من حب بريء خالص من أي شائبة تشوب صفاء العقيدة إلى فكرة الفناء في المحبوب وهي الفكرة التي نادى بها البسطامي⁴ أبو يزيد، وتقوم فكرة الحلول على تجرد النفس عن رغباتها وقمعها لشهواتها وحلول إرادتها في الإرادة الإلهية⁵، ومن ذلك قوله:⁶

¹ علي نجيب عطوي، ابن الفارض شاعر العزل في الحب الإلهي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1414 هـ 1994 م، ص 54.

² المرجع نفسه، ص 61 وانظر: دائرة المعارف الإسلامية ص 297.

³ الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 4 ص 411.

⁴ هو أبو يزيد طيفور بن عيسى، كان جده مجوسياً وأسلم، من كبار الزهاد توفي سنة 261 هـ انظر الرسالة القشيرية ص 61.

⁵ علي نجيب عطوي، ابن الفارض شاعر العزل في الحب الإلهي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1414 هـ 1994 م، ص 69.

⁶ المرجع نفسه، ص 69.

أشار سرب إليك حتى فبيت عنك ودمت أنت
محوت اسمي ورسم جسمي سألت عني فقلت أنت
فأنت تسلو خيال عيني فحيثما درت كنت أنت

يعبر الشاعر هنا عن فكرة الفناء التي لهج بها الصوفية، وعلى قدر اتساع العارف في المعرفة يكون فناؤه عن العالم وبقي مع الله ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا ولا أثرا ولا رسما ولا ظللا يقال إنه فنى عن الخلق وبقي بالحق¹.

ولعل ابن عربي أكبر صوفي جسد فكرة الحب الإلهي وقد أخذها من مصادر عدة، "ولهذا أصبح صاحب فلسفة في الحب فلسفة كونية تنظر إلى الكون في وحدته الوجودية نظرة شاملة وإلى الإنسان على أنه كون أصغر فالكون الأكبر هو العالم والكون الأصغر هو الإنسان والإنسان وهو مظهر من مظاهر الوحدة الوجودية يمثل التحلي الإلهي، لهذا كان الحب في فلسفة ابن عربي الوجودية دينا"².

ويعبر ان عربي عن هذه الفكرة بقوله:³

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
ودير لرهبان وكعبة طائف
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني
فمرعى لغزلان وبيت لأوثان
وألواح توراة ومصحف وقرآن

¹ أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، 1409 هـ... 1989 م مطابع مؤسسة الشعب، القاهرة، ص 149.

² إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، دار الأمين للنشر والتوزيع، د ت د ط، ص 47.

³ ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت، ط 3، 1424 هـ - 2003 ص 43.

لقد انتقل ابن عربي في غزله هذا الحب البشري لأنه يتغزل فيه بامرأة عربية عرفها في مكة المكرمة، إلى الحب الإلهي لأنهما عند ابن عربي شيء واحد أو إن أحدهما يؤدي إلى الآخر¹.

ثانياً: تصوف الأمير ومظاهر الحب الإلهي في شعره

1- تصوف الأمير: 1222 - 1300هـ / 1807 - 1883م

الأمير لقب للسيد عبد القادر بن محيي الدين الذي ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك حاز الأمير شرف الانتماء إلى هذا النسب الشريف² الذي له قبول في قلب كل مؤمن غير أن الأمير لم يكتف بهذا الشرف وحسبك به فقد نشأ نشأة دينية صوفية في أسرة متدينة ووالده كان شيخاً للطريقة القادرية وربما لم يخطر على بال الأمير يوماً أن يصبح رأساً لدولة أساسها الجهاد في سبيل الله فقد كان مؤهلاً ليصير شيخاً صوفياً مثل والده³. وتصوف الأمير ليس بالأمر الذي يحتاج إلى كثير من الجدل ويؤيد ذلك مؤلفات الأمير نفسه، وفي مقدمة تلك المؤلفات، كتابه الذي عنوانه: "المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد"، ويجمع باحثو ودارسو حياة الأمير عبد القادر وآثاره على أن هذا الكتاب هو أهم مصنف ألفه الأمير سواء من ناحية الحجم أو الموضوعات التي يبحثها حيث أودع فيه زبدة تجاربه وبين فيه بوضوح مذهبه الروحي والصوفي والفلسفي في الوصول إلى الحقيقة التي ينشدها وحصيلة تأملاته، حيث أقدم فيه على تناول القضايا العويصة في تاريخ الفكر الإسلامي... وبث فيه آراءه الإصلاحية بثاً دقيقاً أملاً متفائلاً بتحقيق رجائه الودود المنشود في الإصلاح لأن المواقف أمثلة لما

¹ إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف، ص 48.

² عبد الرزاق بن السبيع، الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ص

11.

³ المرجع نفسه، ص 152.

يراه ويريه غيره في مجالسه لا سيما الخاصة منها لخصائه ومريديه"¹، ويبدو أن الأمير اختار هذا العنوان لكتابه متأثراً بغيره من العلماء الصوفية ولعل أظهر من يستشهد به في هذا الموضوع محمد بن عبد الجبار النفري ت354 هـ، في كتابه المواقف والمخاطبات، وليس عجيباً أن يتأثر الأمير بهذا الكتاب إذن إن تأثيره اتسع ليشمل الأعمال الأدبية شعراً ونثراً في الأدب العربي المعاصر ويتجلى ذلك في أعمال الشاعر الحدائي أدونيس فقد تأثر برمزية النفري ولغته الصوفية المواقف². وتتجلى الصوفية في جانبها الإبداعي في ديوان الأمير الذي سيكون من أهم مصادرنا في بحث قضية الحب الإلهي في حياته وشعره.

ومن مظاهر تصوف الأمير انتسابه إلى الطريقة القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني 561 هـ، وقد دخلت هذه الطريقة إلى الجزائر على يد الشيخ أبي مدين شعيب التلمساني 594 هـ، وورث طريقته الصوفية القادرية إلى تلميذه عبد السلام بن مشيش صاحب كتاب "إعانة الراغبين في الصلاة"، وهو يعتبر شيخ شيخ الطريقة الشاذلية القادرية، وقبل وفاة عبد السلام بن مشيش ورث طريقته إلى تلميذه أبي الحسن الشاذلي ومنه انتقلت إلى الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي القادري ومنه إلى ابنه الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر³، ويعد الأمير انتسابه إلى هذه الطريقة من مفاخره مما يدل على اعتقاده الراسخ بسمو تعاليم تلك المدرسة الصوفية وأهميتها في تزكية النفس وتربية مريديها على اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وذلك أن تصوف الأمير من ذلك النبع النقي الذي ينتمي إلى السنة ويتعد عن الغلو والبدع أو التوجه إلى التصوف

¹ المرجع السابق، ص 223.

² النفري، المواقف والمخاطبات، تحقيق: آرثر أربري تقديم عبد القادر محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص 11.

³ عبد الجليل ساقني والصاديق تياقة، الطريقة القادرية كمنهج في التصوف بالجزائر، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية مج، 19 العدد 18، جامعة 20 أوت، سكيكدة، 2019، ص 169.

الفلسفي المغالي في التأثر بأفكار الفلاسفة وبعض المذاهب الغربية عن سماحة الإسلام وتوحيده الخالص لله تعالى وقد أوضح الأمير انتسابه بل اعتزازه بانتسابه للطريقة القادرية في قصيدة فخرية جهادية يقول فيها:¹

فنحن لنا دين ودنيا تجمعا ولا فخر إلا ما لنا يرفع اللوا

مناقب مختارية قادرية تسامت وعباسية مجدها احتوى

يعتز الأمير أولا بانتسابه الى الرسول النبي المختار فذلك لا ريب أعلى المفاخر، ثم يفتخر بعد ذلك بالمدرسة القادرية المعرقة في المجد، غير أن الأمير لا يلبث أن يشيد باتجاهه الفقهي السني حيث يفتخر بتبحره في فقه مالك بن أنس الأصبحي كما يقول:²

وإن رمت فقه الأصبحي فعج على مجالسنا تشهد لواء العنا دوا

ومالك بن أنس هو إمام دار الهجرة الذي تضرب أكباد الإبل لطلب علمه كما أنه إمام في السنة وفي الحديث، وما اعتزاز الأمير بالمذهب المالكي إلا دليل على توقيره للسنة وتمسكه بها.

2-مظاهر الحب الإلهي في شعر الأمير:

أ-تعلق الصوفي بشيخه:

نظم الأمير قصائد صوفية كثيرة و خاصة في المرحلة التي أعقبت إطلاق سراحه من السجن فانتقل الى دمشق و هناك عاش حياة فيها دعة واستقرار لذلك ألف فيها أهم كتبه و نظم فيها أروع قصائده الصوفية كما نظم الأمير قصيدة تشوق فيها إلى لقاء شيخه الفاسي الذي التقاه بمكة وأخذ عنه طريقته وهي من مطولات الأمير وفيها تظهر نزعتة الصوفية بشكل جلي وقد ألم فيها

¹الأمير عبد القادر، الديوان، تحقيق وشرح: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق. ص

²المصدر نفسه، الموضوع نفسه.

هذه الرؤية بكثير من المعاني الصوفية، "ومن عادة رجال الصوفية أن يرمزوا بالحبيب إلى الذات الإلهية في غالب أو إلى الرسول(ص) تارة أخرى الأحيان إلا أن الأمير في قصيدته هذه يرمز بالحبيب إلى الشيخ محمد الفاسي اعتقاداً بل يقيناً من الأمير بأن هذا الشيخ لا يعدو أن يكون ولياً صالحاً وعالماً الذين من أولئك الذين سلكوا سبيل البشير المصطفى والذين وصفهم بهم بقوله: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - سورة يونس، آية 6"¹

يقول في ذلك:²

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| إلى أن دعنتي همة الشيخ من مدى | بعيد ألا فادن فعندي لك الذخر |
| فشمّرت عن ذيلي الإطار وطار بي | جناح اشتياقٍ ليس يخشى له كسر |
| وما بعدت عن ذا المحب تهامةً | ولم يثنه سهل هناك ولا وعر |
| إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا | وحطت بها رحلي وتم لها البشر |
| بطاح بها البيت المعظم قبلةً | فلا فخر إلا فوّه ذلك الفخر |
| بطاح بها الصيد الحلال محرّم | ومن حلها حاشاه يبقى له وزر |

تعتلج في نفس الشاعر عواطف متنوعة فقد طار شوقاً الى لقاء شيخه الذي أخذ عنه الطريقة وقرت به عيناه، ولكم الأمير يتوجه بشعره إلى الواضع التي تذكره بالأحبة فيعطيهما حقها من الوصف الصوفي، فقد جرى كبار المحبين من الشعراء العرب على ذكر المواضع التي تذكرهم بأهل الود الغابرين فكأن تلك المواضع بقية مما ترك أولئك الاحباب فهي دائماً وجهة قلوبهم ومناجاتهم ونحن هنا نذكر أحد كبار الشعراء الذي ألموا بذكر تلك المواضع في مقاطع تفيض رقة ونعنى به الشريف الرضي في حجازياته وابن الفارض وغزلياته الصوفية.

¹عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، ص 157.

²الأمير عبد القادر الديوان، ص 136.

فقد نزل الأمير بمكة وبطاحها فتم له ما أراد وحقق المرغوب لأنه حل بمواضع محرمة لا يباح صيدها ولا يعضد شوكة ولا يقطع شجرها ولا يحل فيها القتال وهي مواضع يزداد أجر العابد فيها ويضعف، لذلك فهي حرة بكل احترام وتوقير وما ذلك إلا أنها موئل قلوب المؤمنين من لدن إبراهيم عليه السلام إلى آخر الدهر.

وقد بلغ الأمير في تعظيم شيخه إلى درجة أنه يقبل قدميه والبساط الذي يجلس عليه، وهذا التذلل للشيخ من صفات المرید الطائع المقبول ولا ريب أن هذا الخضوع نابع من حب الأمير لشيخه وذلك أن حبه في الواقع حب لله تعالى لأن محبة الأولياء واجبة فهو سبحانه يحبهم ويحبونه، يقول الأمير في ذلك:¹

فقبلت من أقدامه وبساطه وقال لك البشرى بذا قضي الأمر

ثم يستطرد الأمير في مدح شيخه على الأسلوب التقليدي في المدح.

ب- رمزية الحب الإلهي:

من المعلوم عند المشتغلين بالخطاب الصوفي أن الصوفية يدبرون كلامهم على الإشارة والایماء، فالأدب الصوفي كله أو أغلبه رمز لأن التصوف هو طريق إلى إدراك عالم الروح والذوق وكل ما هو باطن لذلك لا يتم التعبير الصحيح عنه إلا بالأسلوب الرمزي، وقد توسل الصوفية بالرمز للتعبير عن مقاصدهم لأسباب ودوافع يوضحها الامام القشيري بقوله " اعلم انه من المعلوم ان لكل طائفة من العلماء لهم الفاظ يستعملونها انفردوا بها عن سواهم وتواطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقرب

¹ الأمير عبد القادر، الديوان، ص 137.

الفهم للمخاطب¹. وللأمير قصيدة في الحب على طريق الرمز الصوفي اقتفى فيها أثر السهروردي المقتول ت 586هـ في قصيدته التي أولها:²

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

وقد أراد الأمير أن يجاري هؤلاء الشعراء ليدل بذلك على علو كعبه في التعبير الفني البارع عن المعاني الصوفية التي يختص بها القوم جريا على طريقتهم فالتزم الروي نفسه الذي نظم فيه السهروردي وكثيرا من ألفاظه وعباراته، ونحن نحاول أن نجلي أسلوبه في الإشارة إلى معاني الحب الصوفي.

يستهل الأمير قصيدته بالإفصاح عن فرجته الكبرى بلقاء الحبيب الذي تم لم الوصل به بعد طول بعاد ويعد يوم اللقاء من أروع الأعياد كيف لا والأحبة قد خلوا منه مكان الروح وجالوا في النفس مجال ويتحقق له في هذا اللقاء الارتياح وتناله نشوة السكر لأنه سكر بخمر المحبة، ويكاد الأمير ينسخ معاني السهرودي ذاتها ولا عجب في ذلك فالأمير شاعر صوفي والشعر الجزائري في تلك المرحلة كان شعرا تقليديا على الأعم الأغلب، ويكفي الأمير شرفا أنه أول شاعر جزائري كتب وألف ونظم في المعاني الصوفية، فله فضل الريادة في ذلك.³

ثم ينتقل الأمير الى معنى متداول بين المحبين وهو أنهم يرون الاحبة في كل ما يحيط بهم من معالم الجمال فحيثما وجه وجهه لاح له جمال المحبوب ولكن هل في هذا تشبيه للمحسوب بتلك المعالم الفاتنة، اذا كنا في مجال المقارنة بين محاسن المخلوقات فإن ذلك سائع مقبول، فكثير من

¹القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، كطابع مؤسسة الاشعب، 1409هـ -1989 م ص130.

²السهروردي، ديوان السهروردي المقتول، صنعه وأصلحه: الدكتور كامل مصفى الشبيبي، مطبعة الرفاه، بغداد، 2008 ص 58.

³الأمير، الديوان، ص 152.

الشعراء يرون الحبيبة وردا وعيونها عيون المها و قدما غصنا متأودا وهكذا، لان معاني الحسن هنا أرضية، أما على الصعيد الصوفي فلا يستقيم هذا التشبيه فلم يبق إذن إلا أن يعد ذلك رمزا لله تعالى الذي هو الحبيب بحق سبحانه ولا ريب ان آياته وآلاءه مجلوة لكل عين غير أن تلك الآيات ليست هي عين الذات الإلهية، وأحسن ما يقال فيها إنها آيات تذكرنا بجميل إنعامه وقد دعانا الحق سبحانه الى النظر في تلك الآيات لنستدل بها على صفاته لكن لا ندرك بها ذاته العلية:

يا من إذا اكتحلت عيني بطلعتهم وحققت في محيا الحسن تراتح
دبت حميآهم في كل جوهرة عقل ونفس وأعضاء وأرواح
فما نظرت إلى شيء بدا أبداً إلا وأحباب قلبي دونه لا حوا
نظرت حسن الذي لا شيء يشبهه فما يروق قلبي بعد ملاح
وليس في طاقتي الرؤيا لغيرهم ولو قلنتي الورى في ذاك أو شاحوا

ينتقل الأمير بعد ما أوضح أن جمال محبوبه فوق كل وصف وأنه شيء يثنيه عن حبه، إلى معنى صوفي آخر وهو مسألة كشف أسرار المحبة الصوفية أو كشف الحقائق الصوفية فرغم أن من يصرح بحبه من المحبين لا بد هالك، لكنك تراه متهاككا في ذلك لا يأبه بعذول ويعلل هذا الأمر عند الصوفية بغلبة الحال على الصوفي وذلك لأن الصب تفضحه عيونه كما يقال، وقد عبر السهروردي عن هذا المعنى في قصيدته المشار إليها بقوله:¹

واحسرتا للعاشقين تحملوا سر المحبة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح
وإذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السفاح

¹ السهروردي المقتول، الديوان، ص 58.

وهذا ما يكاد يردده الأمير بلفظه في قوله:¹

لوكنت أعجب من شيء لأعجبني صبر المحبين ما ناحوا ولا باحوا
أريد كنم الهوى حيناً فيمنعني تهتكى كيف لا والحبّ فضّاح
لا شيء يشني عناني عن محبتهم ولا الصوارم في صدري وأرمّاح
قال العواذل فيك السحر قلت لهم نعم ولي صحة فيه وإصلاح

يردد الأمير تلك المعاني ولكنه قد يستخرج منها معاني طريفة من ذلك أنه يعد الهوى سحراً ولكنه سحر تشفى به القلوب، وليس هو من قبيل سحر هاروت وماروت المذكورين في القرآن الكريم، في قوله تعالى:

(وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر فيتعلمان منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه) البقرة-102، وهذا يعني أن سحر الأمير من النوع الحلال لا تأثيم فيه ولا كفر لأن حقيقة السحر إفساد القلوب أما حب الأمير فهو لها شفاء.

ج - الحب الإلهي ووحدة الوجود:

وحدة الوجود من القضايا الفلسفية والصوفية التي كثر فيها الجدل وتعددت الآراء في فهمها وشرحها وتقديرها، ونحن هنا نورد تعريفها مختصراً ثم نعرض على علاقتها بحب الأمير الصوفي، والصوفي يرى الوجود مختلف عما يراه بقية الناس، وذلك أن مظاهر الوجود المختلفة ترجع كلها إلى حقيقة واحدة وبكلمة أخرى أشد صراحة: "أن الله يتجلى في العالم في صور مادية أو روحية مختلفات، فكل نوع من العبادة تجد الله وراءه وكل شكل من الحب يقصد به الله وكل مهر طبيعي

¹ الأمير عبد القادر، الديوان ص ص 153، 154.

يمثل صفة من صفات الألوهية¹، وهي كما يبدو بعيدة عن المعتقد الإسلامي في الألوهية فالله سبحانه وتعالى منزه عن الشبيه والنظير فليس كمثلته شيء وهو السميع البصير لكن سرت هذه الفكرة إلى التصوف الإسلامي من مصادر أجنبية في مرحلة تحول فيها التصوف من طابع السني إلى الطابع الفلسفي، غير أن الشعراء الصوفيين يتدثرون بالرمزية التي تبعدهم عن الظنة والشبهة زمن اشهر من نادى بهذه الفكرة ابن عربي في مؤلفاته النثرية وفي دواوينه الشعرية وعلينا الآن أن نتساءل هل كان الأمير ممن يقولون بوحدة الوجود؟ وكيف تناول هذه الفكرة في شعره؟ يجيبنا الأمير عن السؤال الأول بقوله: واحذر أن ترميني بحلول واتحاد أو امتزاج أو نحو ذلك فإنني بريء من كل ذلك ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله فإنني فهمت منهما ما فهمت أنت وزدت عليه²، وللأمير قصيدة غزلية طافحة اقترب فييها من الهيام الصوفي والوجد وقد اختار لها جامع الديوان عنوانا مقتبسا من أحد أبيات القصيدة وهو قوله: أنا الحب والمحجوب والحب جملة، والحب الأولى بكسر اللحاء ومعناها المحبوب وفيها يلم ببعض الإشارات الى الاتحاد بالمحجوب يستهلها بقوله:

عن الحب مالي كلما رمت سلوانا أرى حشو أحشائي من الشوق نيرانا

لواعج لو أن البحار جميعها صببن لكان الحر أضعاف ما كانا

فلو أن ماء البحر طرا شربته لما نالني ري ولا زلت ظمآنا

يصف الشاعر مقدار حبه وشدة ظمئه ويشير إلى المعنى المتداول عند الصوفية وهو أن من بلغ الري فليس كاملا في الحقيقة لأن المحب الحقيقي والعارف لا يرتوي أبدا لأن الحقيقة لا نهاية لها لذلك فهو يتزيد أبدا، والرسالة القشيرية وغيرها مليئة بأقوال الصوفية في ذلك، ثم يستمر الأمير على

¹عمر فروخ، التصوف في الإسلام، ط 1 بيروت 1366 هـ 1947 م ص 147.

²عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، ص 180.

هذا النمط حتى يصل إلى أبيات يكاد يعانق فيها القول بالاتحاد والحلول أي اتحاد المحبوب بمحبوبه أو الحلول فيه وهذا قريب مما كان يلهج به الحلاج، يقول الأمير:

أسائل من لا قيت عني والهيا ولا أتحاشاهم رجلا وركبانا
وأسأل عن نجد وفيه مخيمي وأطلب روض الرقمتين ونعمانا
منازل كانت لي مصيفا ومرعبا غداة بها أدعى صيبا وشيبانا
ومن عجب ما همت إلا بمهجتي زما عشقت نفسي سواي وما كانا
أنا الحب والمحبوب والحب جملة أنا العاشق المعشوق سرا وإعلانا

يسأل الشاعر كل راكب وراجل في رحلته الى المحبوب عن الديار التي تدمره به وهي مواضع ببلاد الحرمين على طريق الحاج ويتعجب الشاعر من أنه لم يعيش إلا نفسه وذلك لأنه صار وهو المحبوب شيئا واحدا وبلغ الحبي بينهما درجة الفناء فصار لا يشاهد من العالم إلا المحبوب ويعبر الصوفية عن هذه الحالة بقولهم: "فني عن الاغيار أو عن السوى أو فني عن الخلق فلم يبق الا الحق"، لقد تطورت فكرة الفناء فصارت عند المتأخرين حلولا، فهل يعني الأمير بهذه الابيات هذه المعاني الحلولية؟ إذا تذكرنا تحذير الأمير من أن يقرأ شعره على هذا الحمل لم يبق لنا إلا أن نحمله على أنه تقليد فني لا غير.

خاتمة

وفي خاتمة هذه الدراسة نخلص إلى النتائج الآتية:

- التصوف منهج في تزكية النفس وتربيتها في معارج الكمال إلى أن تصل إلى مقام الإحسان حيث يصبح العارف مع ربه كأنه يراه بقلبه.
- للصوفية طريق مختلفة في تلقي العلوم والمعارف، ذلك أنهم مع تمام رعايتهم لعلوم الشريعة من علوم قرآنية وعلوم سنة وفقه وغيرها، مع تلك العلوم الجليلة يأخذون أنفسهم بتلقي علوم أخرى من

غير طريق الرواية والتلقين، بل عن طريق الرياضة والتعبد والزهد، فإذا بلغ الصوفي درجة من الصفاء الروحي ألقى الله إليه بالأسرار والعلوم اللدنية وهذا ما لمسناه في حياة الأمير عبد القادر، فقد تشبع بعلوم الشريعة غير أنه تدرج في مدارج العرفان وتلقى الطريقة عن والده ومشايخه فصار في عداد المتصوفين.

- طرق الأمير في شعره موضوعات واغراضا متنوعة منها ما هو تقليدي ومنها صوفي، وألم بكثير من المعاني التي سبقه إليها غيره من شعراء الصوفية كابن الفارض والسهورودي وغيرهما.
- يقوم الحب الإلهي عند الأمير على التعلق بالله تعالى واللجوء إليه واتخذ في التعبير عن هذا الحب الأسلوب الرمزي فتارة يعبر عنه بأسلوب خمري وتارة بأسلوب غزلي وهو في كل ذلك يتبع الرمزية الصوفية التي تخفي أكثر مما تعلن.
- اقترب الأمير في شعره الغزلي من القول بالوحدة والحلول غير أنه كان في ذلك مقلدا لا معتقدا.

المصادر والمراجع:

- الأمير عبد القادر، الديوان، تحقيق وشرح: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق.
- إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، الأمين للنشر والتوزيع، دت د ط.
- ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت، ط 3، 1424 هـ - 2003 م.
- ابن فارس أبو الحسين بن زكريا الرازي، معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1999 م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، الهلال، د.ب، د.ط، د.ت.
- القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، كطابع مؤسسة الاشعب، 1409 هـ
- عبد الجليل ساقني والصدقي تياقة، الطريقة القادرية كمنهج في التصوف بالجزائر، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية مج، 19 العدد 18، جامعة 20 أوت، سكيكدة، 2019.
- عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري 2002 م.
- العرابوي عمر، كتاب التوحيد المسمى: التخلي عن التقليد، الجزائر، 1404 هـ.
- عمر فروخ، التصوف في الإسلام، ط 1 بيروت 1366 هـ 1947 م.
- السهروردي، أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك المقتول، ديوان السهروردي، صنعه وأصلحه: الدكتور كامل مصفى الشبيبي، مطبعة الرفاه، بغداد، 2008.
- النفري، المواقف والمخاطبات، تحقيق: آرثر أربري تقديم عبد القادر محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

الأثر الصوفي في شرح بيتي الرقمتين للأمير عبد القادر

الأستاذ الدكتور / مراد مزعاش،

المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة

توطئة:

تحاول هذه الدراسة البحث في رسالة الأمير عبد القادر الجزائري: «رسالة في الحقائق الغيبية» وهي شرح البيتين رأّت قمر السّماء فأذكرتني... من خلال التعريف بها وتأكيد نسبتها للأمير عبد القادر والنظر في لغتها وأسلوبها وفي المصطلحات والألفاظ الصوفية التي وظفها، ومن خلال تبيان المنهج المتبع في شرحها والبحث في مختلف الدلالات والمعاني التي تحملها الألفاظ والمصطلحات.

أولاً-التعريف ببيتي الرقمتين¹:

¹ - اختلف في نسبة هذين البيتين على أربعة أقوال هي:

القول الأول: النسبة إلى القاضي عياض، ويقول بذلك: البستاني، محيط المحيط، ص 347. وابتلوني، نفح الأزهار في منتخبات الأشعار، ص 9. والشرتوني، أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد، عبد الله كنون الحسني، النبوغ المغربي، الجزء الثالث، ص 679. والبيتان مثبتان في ديوان القاضي عياض، ص 49.

القول الثاني: النسبة إلى الشاعر الحاجري. ويقول بذلك: العامل، الكشكول لحاتمة الأدباء، الجزء الأول، ص 222.

القول الثالث: التردد في النسبة بين جار الله الزمخشري وابن المستوفي شرف الدين الإربلي. ويقول بذلك: العمادي، اتحاد القمرين، ص 2.

القول الرابع: النسبة إلى أبي البركات المبارك بن أحمد الإربلي شرف الدين بن المستوفي. ويقول بذلك: الخفاجي، طراز المجالس، ص 205. الأنطاكي، تزيين الأسواق، الجزء الثاني، ص 241، العامل، معادن الجواهر ونزهة الخواطر، الجزء الأول، ص 180. بدران، أدبيات الكرامة الصوفية، ص 277. ابن حجلة التلمساني، ديوان

هما بيتان من الشعر لقيتا كثيرا من الاهتمام والعناية، وينظر إليهما بعين الرّوعة والإعجاب إلى حد الانبهار، وقد تناولتهما الأقلام بالنظر والتحليل والدراسة والشرح على تعاقب الأزمان واختلاف المشارب والأفكار، كما أنّهما نالا شهرة كبيرة فشرحا شروحا عديدة ومتنوعة، وجُعلا من الشواهد التّحوية والبلاغية عند كثير من العلماء.

كما أصبحا رمزا بارزا عند الصّوفية فهما عندهم دليل الفناء والعشق والحب والصبابة والهيام، بل هما دليل الارتقاء في مقامات التّرقى والصّعود، وهما أيضا دليل على التّجلي والحضرة، وغير ذلك...

والبيتان من بحر الوافر الذي تتكرر في كل شطر منه تفعيلات (مفاعلتن مفاعلتن فعول) وهي من أكثر الأوزان ورودا في الشعر الصّوفي لأنها تعطي لصاحبها وتتيح له إمكانات تعبيرية غير متناهية. وينتمي البيتان إلى التصوف المتأخر، تصوف القرن السادس الهجري وما يليه حيث استقرار المصطلح فيهما، وهو ما تجلّى في عجز البيت الثاني حيث التفرقة بين الرّؤية والنظر، وكذلك الإشارة بالرقمتين إلى عالم الحضرة الإلهية¹، والبيتان هما:

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَدَّكَرْتَنِي *** لِيَالِي وَصَلِيهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ
كَأَلَانَا نَاطِرٌ قَمَرًا وَلَكِن *** رَأَيْتُ بِعَيْنِهَا وَرَأَتْ بِعَيْنِي

الصبابة، ص 230. علي بن محمد دنية الرباطي، كمال العطية، ص 79. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الجزء الخامس، ص 176.

وهذا الرأي هو الصحيح، وقد حققنا ذلك من خلال أدلة وبراهين قوية وساطعة لا يرتقي إليها الشك في مقالنا: الفنون البلاغية في بيتي الرقمتين لابن المستوفي الإربلي، مجلة منتدى الأستاذ، المجلد 14، العدد 02، جوان 2018م، ص 118/94.

¹ - انظر: يوسف زيدان، شرح رأّت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421 هـ / مايو 2000م، ص 146.

والعجيب أنّ البيتين على قلة ألفاظهما تضمّنًا عددا كثيرا من المعاني والدلالات والمفاهيم ذكرها الشّراح وتوسعوا فيها، كلّ يراها من زاويته المرجعية والفكرية، وربما خلت القصيدة الواحدة من مثل هذه المعاني، غير أنّها تعددت وكثرت في هذين البيتين.

ثانيا- الشروح الجزائرية لبيتي الرّقمتين:

لقي البيتان كثيرا من اهتمام الدّارسين والباحثين فتناولوهما بالشرح والبيان والتّوضيح، وحاول كثير منهم كشف خبايا وأسرار معاني البيتين باعتبار المقاصد والغايات التي كان يرمي إليها صاحبهما، والتي اختلف حولها الشّارحون بين مضيّق وموسع، وبين من نظر إليهما من خلال اللّغة من حيث ألفاظها ودلالاتها ومعانيها، ومن حيث التّراكيب وما ينبني عنها من معاني، ومن حيث البيان وما يتحقق لهما من الفصاحة والبلاغة، بل وحاول بعضهم الغوص أكثر والولوج عميقا من خلال التّفسير الصّوفي والبعد النّفسي والارتقاء الرّوحي الذي تحمّلانه وتحتويانه.

وقد كان اهتمام علماء الجزائر بارزا في هذا المجال بل ولافتا باعتبار عدد الشّارحين، والعمق الذي تناولوا به هذين البيتين على كل المستويات، والتّفوق في ذلك على غيرهم، فمن علماء الجزائر الذين شرحوهما:

1- أحمد بن محمد بن علي البجائي (ت 841هـ)، له على البيتين شرح مطوّل ومفصّل لم يأت بمثله أحد قبله ولا بعده، وقد سمّى شرحه «حديق المقلتين في شرح بيتي الرّقمتين»¹، وقد نقل فيه واحدا وأربعين معنى تتصل بالبيتين.

2- تقي الدّين أحمد بن محمد الشّمني (ت 872هـ) له شرح عليهما حين عقب واستدرك على كلام أو شرح الدّماميني¹ (شرح موجز ومختصر عليهما).

¹ - وقد قمت بتحقيق الكتاب على ثلاث نسخ مخطوطة ونشرته مؤسسة نور للتّشّير بألمانيا الطّبعة الأولى 2019م.

3- القاضي أبو عبد الله المقرئ التلمساني (ت 759هـ)، له عليهما شرح موجز فيما نقله الشاطبي². في عنوان (مسألة في علم البيان).

4- الشيخ عبد الرحمن الديسي الهاملي الجزائري (ت 1339هـ)³ وقد شرحهما شرحا موجزا لا يخلو من فوائد كثيرة، في ثنايا شرحه لبديعته.

5- الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري (ت 1300هـ) في رسالة متوسطة الحجم سماها: «رسالة في الحقائق الغيبية»⁴ وهو شرح البيتين رأَت قمر السماء فأذكرني.

وقد تنوعت هذه الشروح من حيث المستويات والجوانب التي تناولتها في البيتين؛ بين لغوية، ونحوية، وبيانية بلاغية، وصوفية عرفانية.

ثالثا- تحقيق اسم الرسالة وتوثيق نسبتها إلى الأمير عبد القادر الجزائري:

اتفقت جميع المصادر التي أشارت إلى رسالة شرح بيتي الرقمتين للأمير عبد القادر الجزائري على نسبة هذه الرسالة إلى الأمير عبد القادر الجزائري يقينا، وأنه شرح فيهما البيتين المعروفين شرحا صوفيا، كما وردت نسبتها إلى الأمير عبد القادر الجزائري في النسخة المخطوطة التي بين أيدينا وهي موجودة بالمكتبة التيمورية، فبعد ذكر العنوان أعقبه بقوله: (لحضرة الأمير عبد القادر الجزائري).

¹ - بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني، شرح الدماميني على مغني اللبيب المسمى المزج، وعليه تعليقات الإمام تقي الدين أحمد بن محمد الشمني القسنطيني، تحقيق محمد السيد عثمان، الجزء الثاني، ص 677/678.

² - أبو إسحاق الشاطبي، الإفادات والإنشادات، دراسة وتحقيق محمد أبو الأحنان، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1403هـ/1983م، الجزء الأول، ص 138/139.

³ عبد الرحمن الديسي، الفرائد الحسان في شرح تحفة الإخوان، تقديم وتحقيق محمد الحسن خنفر، دار كردادة للتشر والتوزيع، طبعة خاصة الجزائر 2014م، ص 96.

⁴ - وقد قام بنشره الدكتور يوسف زيدان، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421هـ /مايو 2000م، ص 145 إلى ص 168.

وردت الرسالة ضمن مخطوطة محفوظة تحت رقم: 1146، شعر تيمور، كتبها ناسخ مشهور هو صادق فهمي المالح بالمكتبة الظاهرية بدمشق سنة 1344هـ ويقع النص في سبع صفحات، وقد حققها الدكتور يوسف زيدان ونشرها مع رسالة أخرى لشرح نفس البيتين للناقلي¹. وقد جاءت الرسالة في المصادر بعنوان: (رسالة في الحقائق الغيبية) وهي شرح البيتين المشهورين المعروفين ببيني الرقمتين. وتضمنت الورقة الأولى للمخطوطة التي أشرت إليها بالمكتبة التيمورية العنوان التالي بخط الناسخ: (شرح البيتين رأيت قمر السماء فأذكرني على لسان الحقيقة لحضرة الأمير عبد القادر الجزائري).

رابعا- أسلوب الأمير في شرح البيتين وتجلي الألفاظ والمصطلحات الصوفية:

أ- أسلوب الأمير في شرحه للبيتين:

يعتمد الأمير عبد القادر الجزائري في شرحه وتحليله للبيتين الأسلوب والطريقة الصوفية في الكتابة التي قوامها أن كل لفظة تكتسب محمولات جديدة بمجرد توظيفها في التجربة الصوفية، لأنها تخلق عالمها الخاص، بحيث أن اللغة تفرغ من دلالتها المعجمية لتشحن بدلالات جديدة. فهو يحاول التأليف بين عالم الحس وعالم الغيب، عن طريق اللغة التي يسعى من خلالها للتأليف بين العالم المادي، أي عالم الموجودات المحدود والعالم الروحي اللامتناه.

¹ - يوسف زيدان، شرح رأيت قمر السماء للناقلي وعبد القادر الجزائري، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421هـ / مايو 2000م، ص 145 إلى ص 168. (مرجع سابق يُكتفى فيه بذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ورقم الصفحة)

ب- أَلْفَاظٌ وَمِصْطَلِحَاتٌ صُوفِيَّةٌ فِي الرِّسَالَةِ:

على قلة صفحات هذه الرسالة غير أنها حفلت بعدد المصطلحات الصوفية، وربما يمكن اعتبار كل كلمة من كلمات البيتين مصطلحا صوفيا باعتبار المفهوم والمعنى الذي حملتها كل هذه الكلمات، ويُمكن تحديد هذه المصطلحات في التالي:

1-الرُّؤْيُوهُ؛ قوله (رأت): يشرح ذلك فيقول: (يريد به حقيقة الغيبة التي بها هو هو)¹، ويقصد بها وفق الرُّؤْيُوهِ الصُّوفِيَّةِ الحَقِيقَةُ التي بها اللهُ في ذاته، وفي غيبه الأزلي الكامن وراء صفاته وأفعاله وأسمائه، وهو ما يعرف عند الصوفية بغيب الغيب أو كنه الذات الإلهية²، ولهذا وجدناه بعد ذلك يوضح الأمر فيقول: (وإنما أسند الرُّؤْيُوهِ الحَقِيقَةِ الغَيْبِ، دون صورته لشهادته)³.

2-قمر السَّماءِ، قوله (قمر السَّماءِ): يشرح ذلك فيقول: (يعني الحقيقة الكلية المسماة بالقمر، وإنما سميت قمرا، لكونها مظهر شمس الأحدية)⁴ ويقصد بالأحدية؛ الصِّفَةُ الدَّائِيَّةُ للحق تعالى، التي يمتنع تجليها لمخلوق، بينما تتجلى سائر الصِّفَاتِ على الأوليات، ولذلك وصفها الصوفية بأنها (غيب الغيب)⁵. ولهذا يبين ذلك من خلال قوله: (وهي غيب مطلق، ليس لأحد عن

¹ - انظر: يوسف زيدان، شرح رأَت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 164.

² - انظر: يوسف زيدان، شرح رأَت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 164.

³ - انظر: يوسف زيدان، شرح رأَت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 164. (كتابة المرجع نفسه بدل تكرار اسم المؤلف وعنوان الكتاب)

⁴ - انظر: يوسف زيدان، شرح رأَت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 164.

⁵ - يراجع: عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل، الجزء الثاني، (ضرورة إدراج معلومات التّشَرُّحِ كاملةً بالإضافة إلى رقم الصّفحة).

حقيقتها خبر، ولا معلم فيها لأحد، ولا أثر.¹ فهذا القمر مظهر لنورها، كما أنّ القمر المحسوس مظهر لنور الشّمس المحسوسة، فيظهر به نورها عند غيبتها عن الأبصار.

3-التذكّر، قوله (فأذكرتني): يشرح ذلك فيقول: (أذكرتني هذه الرّؤية، ما كنت عليه غافلا، ونبهتني لما كنت عليه ذاهلا، بسبب انغماسي في الكدورات الشّهوانية، واشتغالي بما حصل لي من الإدراكات الجسمانية)² لأنّ هذه رؤية إلى الحقيقة التي تلوح على الجسم آثارها، وتسري في جزئياته أنوارها، فتغرب منه الموارد وتظهر عليه منها شوارد.

4-ليالي الوصل، قوله (ليالي وصلها): يوضح ذلك فيقول: (يريد أوقات وصل حقيقتي الرّائية الجزئية بالحقيقة الكلية القمرية، المرئية بالاعتبار)³ يعني أوقات كان هذا الجزء غير متعين من كله، والفرع غير بائن من أصله حيث لا تميز ولا بين، بأثر ولا عين.

5-الرقمتان، قوله (بالرقمتين)⁴: يشرح ذلك فيقول: (الرقمتان روضتان بناحية الصّمان، كتّي بهما عن الوطنين القديمين لحقائق العالم، أحد الوطنين: التّعين الأول، وهو تعين الإجمال، وتسمى

¹ - انظر: يوسف زيدان، شرح رأّت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 164.

² - انظر: يوسف زيدان، شرح رأّت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 165/164. (المرجع نفسه)

³ - انظر: يوسف زيدان، شرح رأّت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 165.

⁴ - للفظ الرقمتين دالتان:

الدلالة الأولى: دلالة حسية مادية، وهي نظرة عامة لدى الشعراء والأدباء عموما، فهي اسم لموضعين عند العرب تغني بهما الشعراء، وارتبطت لدى بعضهم بقصص خاصة.

جاء في المعاجم: الرقمتان: تثنية رقمة، والرقمتان: روضتان بناحية الصمان، وهما اللتان أرادهما الشاعر زهير بن أبي

سلمى بقوله: (ودار لها بالرقمتين كأنها *** مراجيع وشم في نواشر معصم)

وفيهما قال الشاعر مالك بن الرب: فله درى يوم أترك طائعا *** بني بأعلى الرقمتين وماليا

الحقائق فيه شؤوننا، وثاني المواطنين، التعين الثاني، وتسمى الحقائق فيه أعياننا ثابتة، أي غير متعينة)¹. فالوجود الحق موطن الحقائق في هاتين المرتبتين، وليس لحقائق الممكنات وجود في هاتين المرتبتين، حتى يكون الحق محلاً للمسمى غيراً، أو سوى، تعالى عن ذلك، فليالي الوصل كانت في هاتين الحضرتين... وإلى هذين الوطنين حنين العارفين وعليهما أنين المكاشفين.

فليس للأعين الثابتة وجود مستقل زائد على الذات الإلهية، بأكثر مما لأفكارنا من وجود مستقل زائد على عقولنا... وليس في الوجود سوى الله وأسمائه، أي ليس الوجود سوى الذات

ويقال: هما روضتان؛ إحداهما قريب من البصرة، والأخرى بنجد، وقيل روضتان في بلاد العنبر، وقيل: بنجد بين جريم ومطلع الشمس في ديار الأسد. وقيل جبل بمكة يشرف على سوق الجودرية من الغرب، وعلى سوق المعلاة من الجنوب، ويتصل غرباً بالفلق. وقيل: في أطراف اليمامة.

انظر: الأزهري، تهذيب اللغة، الجزء التاسع، ص 123. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 272. **الدلالة الثانية:** فهي دلالة غير محسوسة لا يدركها إلا الخاصة من أهل الباطل كما يعرف عند الصوفية، فالمقصود من الرقمتين: الوطنين القديمين لحقائق العالم، بهذا أصبحا رمزا عندهم ودليلا على العشق والحب والهيام ثم الفناء والارتقاء في مقامات الصعود، ودليلا على التجلي والحضرة وغيرها من المفاهيم الصوفية.

انظر: يوسف زيدان، شرح رأت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421 هـ / مايو 2000م، (مرجع سابق يُكتفى فيه بذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ورقم الصفحة) ص 164. مراد مزعاش، الفنون البلاغية في بيتي الرقمتين لابن المستوفي الإربلي، مجلة منتدى الأستاذ، المجلد 14، العدد 02، جوان 2018م، ص 98/97.

¹ - الأعيان الثابتة مصطلح صوفي فلسفي أول من استخدمه ابن عربي، للدلالة على الماهيات المستقلة للأشياء بغض النظر عن تحققها في عالم الحس، فهي الهوية المعقولة للشيء قبل تعيينه الحسي في عالم الخلق.

انظر: محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1418هـ/1998م، الجزء الأول، ص 224.

الإلهية وهذه الأعيان الثابتة، أما ما نسميه بالعالم فليس إلا المرآة التي تنعكس عليها الأسماء الإلهية وتحقق فيها الأعيان الثابتة¹.

6- بين نظرتة ونظرتها إلى القمر، قوله (كلانا ناظر قمرًا): يشرح ذلك فيقول: (ضمير التثنية عائد على الحقيقة الرائية والمرئية، لأن الحقيقة الرائية الجزئية، تنظر الحقيقة الكلية المسماة قمرًا)²، وهو ظاهر الحقيقة الكلية تنظر نفسها في مظاهرها وتعيناتها، التي هي بمنزلة المرايا لها، قمرًا كما هي كذلك، لأن كل شيء هو مظهر لهذا القمر يظهر فيه بكماله، من غير تبعيض ولا تجزئة ولا تعديد.

7- النظر بالعين، قوله (نظرت بعينها): يوضح ذلك بقوله: (إن نظره للحقيقة المسماة قمرًا، لا يكون إلا بعينها، من حيث إنه لا بصر له إلا بصرها، ولا سمع له إلا سمعها، وكذا سائر الصفات، فهي لا يبصرها من يبصرها إلا ببصرها، ولا سمع لها إلا بسمعها)³ وهو ما عبر عنه الشاعر الصوفي بقوله⁴:

أَعَارَتْهُ طَرْفًا رَأَاهَا بِهِ *** فَكَانَ الْبَصِيرُ بِهَا طَرْفُهَا

ويعقب الأمير عبد القادر على هذا البيت بقوله: (وإن أخطأ في قوله: «أعارته» فإن الأصالة العارية، فهو المصيب في قوله: «فكان البصر لها طرفها»، وإليه يُشير حديث المتقرب بالنوافل «حتى

¹ - انظر: أبو العلا عفيفي، الأعيان الثابتة في مذهب ابن عربي والمعدومات في مذهب المعتزلة، ضمن كتاب الكتاب التذكري محي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده 1165هـ/1240م، أشرف عليه وقدم له إبراهيم بيومي مذكور، دار الكتاب العربي للطبع والنشر، القاهرة 1389هـ/1969م، ص 209.

² - انظر: يوسف زيدان، شرح رأيت قمر السماء للبابلي وعبد القادر الجزائري، ص 166.

³ - انظر: يوسف زيدان، شرح رأيت قمر السماء للبابلي وعبد القادر الجزائري، ص 166. (المرجع نفسه)

⁴ - عبد السلام المقدسي، ديوان المقدسي، تحقيق: ماهر محمد عبد القادر، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، الطبعة الأولى، دمشق 2001 م، ص 158.

أكون بصره الذي يبصر به»¹2، فالأمير عبد القادر يتجاوز هنا (الفرق) ليصل إلى (الجمع)، ففي حال الفرق تتمايز الحقيقة الإنسانية عن الحقيقة الإلهية، ويتباعد العارف عن المعروف فتجوز الإعادة من الله للعارف به، أما حال الجمع فليس ثمة تمايز أو تباعد، وإنما اتصال لا يسوغ الإعارة بل الأصالة يرى العارف. كما في الحديث القدسي «كنت عينه التي يرى بها»³.

8-رؤية العين، قوله (رأت بعيني): يقول شارحا ذلك: (يعني أن هذه الحقيقة القمرية، ترى نفسها بأعين مظاهرها به، هي الرؤية والرأي والمرئي، لأن العالم صورتها وهويتها، والصورة عين الهوية)⁴. فإن هويتها المطلقة إذا ظهرت بذاتها مقيدة بأحوالها. فإنها باعتبار تقيدها مظهر لنفسها باعتبار إطلاقها، فهذه التقييدات والتعينات يغير بعضها بعضا من حيث خصوصياتها، والكل متحد بالكل، من حيث الحقيقة الوجودية.

خامسا-مصادر شرح الرسالة وأهميته:

أ-مصادر شرح الرسالة:

على الرغم من أن الأمير عبد القادر رحمه الله لم يذكر في ثنايا رسالته مصادر قد يكون رجع إليها أو أخذ منها، ليبسط الكلام في شرحه هذا، غير أنّ القراءة الدّقيقة، والنظرة الفاحصة للرسالة، والتأمل الواعي لمعانيها، تبرز لنا أن الأمير عبد القادر يستمد شرحه وتفسيره للبيتين واستكناه المعاني من خلال مرجعيته الصوفية الجليلة والواضحة في ذلك، خاصة من حيث لغتها الصوفية، ومن حيث

¹- حديث قدسي من أصح ما يستدل به أهل التصوف، أخرجه البخاري عن أبي هريرة رقم: 6502 كتاب الرقائق. وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند، الجزء السادس ص 672/656. ورواه الإمام الترمذي في صحيحه.

²- انظر: يوسف زيدان، شرح رأّت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 166.

³- حديث قدسي رواه البخاري عن أبي هريرة رقم: 6502. ورواه الإمام أحمد بن حنبل، ورواه الإمام الترمذي.

⁴- انظر: يوسف زيدان، شرح رأّت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، ص 167.

ذكر المصطلحات الصوفية، ومن حيث الدلالات والمعاني الصوفية أيضا، ويبدو أيضا أن هذا التأثير الصوفي كان واضحا من خلال شخصية محي الدين بن عربي وفكره ومفاهيمه، والذي نقل عنه كثيرا من المعاني والمفاهيم حين يشرح الحقائق والدقائق الواردة في البيتين الشعريين.

ب- أهمية شرح الأمير عبد القادر:

تكمن أهمية هذه الرسالة في كونها من الشروح الشعرية التي عرفت عبر التاريخ لأكثر الشعراء، وضمن الشروح الشعرية لبيتي الرقمتين، غير أن هذا الشرح للأمير عبد القادر يختلف عنها من حيث كونه يعتمد المرجعية الصوفية في البحث عن المعاني والدلالات والغايات والأهداف التي قد يحملها هذان البيتان، ولم يكن الأمير عبد القادر وحده من شرح هذين البيتين من منظور أهل التصوف، فقد رأينا أيضا من علامة الوقف عبد الغني التّابلسي (ت 1050هـ) في رسالة متوسطة سمّاها: «رسالة في معنى بيتين رأيت قمر السماء وذكرني»¹.

وشرحهما حامد بن علي بن إبراهيم العمادي الدمشقي الحنفي (ت 1171هـ)، شرحا متوسطا في رسالة من سبع ورقات، وسمّى شرحه «اتحاد القمرين في بيتي الرقمتين»². غير أن هذين الشرحين لم يكونا بالعمق والدقة التي رأيناها عند الأمير عبد القادر الجزائري، خاصة وأنه أوماً إلى دلالات ومعاني صوفية لا يعرفها ولا يكتشفها إلا من كان قد جرب التصوف سلوكا وممارسة وليس معرفة وفهما فقط.

¹ - قام بتحقيقه الدكتور يوسف زيدان، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421هـ / مايو 2000م، ص 145 إلى ص 168.

² - مخطوط في 07 ورقات بجامعة برنستون رقم: 509/4209. - ومنه نسخة مصورة بمركز جمعة الماجد بالإمارات العربية المتحدة بدبي رقم: 3596 في 07 ورقات أيضا.

سادسا-منهج الأمير عبد القادر في رسالته شرح بيتي الرقمتين:

بدأ الأمير عبد القادر الجزائري شرح البيتين دون مقدمات أو إشارات تمهيدية لشرحه، ودون أن يذكر الدافع والسبب الذي جعله يقدم على هذا الشرح، غير أن أهل التصوف تناولوها بالشرح والتحليل لمكانة هذين البيتين عندهم، وكثيرا ما وجد البيتان على أغلفة المتون الصوفية المشهورة، وكان النساخ يتركون بهما، فإذا توضح لنا هذا عرفنا اهتمام الأمير عبد القادر بالبيتين والإقدام على شرحهما وبسط الكلام حولهما، وإبراز المعاني والدلالات التي يحملانها.

غير أننا يمكن أن نبين أهم الملامح والعناصر لمنهجيته في شرحه لهذين البيتين، والتي يمكن

توضيحها في العناصر التالية:

أ-توظيف بعض الفنون البلاغية لتوجيه المعاني:

1-المجاز المرسل:

نظر أهل التصوف إلى البيتين على خلاف غيرهم من الأدباء والنقاد والشرّاح، بحيث أعطوا لهما مدلولاً مغايراً، كما فسّروا الألفاظ المكونة لهما على غير ما فسّر به غيرهم ألفاظ البيتين، من هذا المنطلق فسّروا قول الشاعر: «رأت»: لا تكون بالأبصار الشّهادية، وإنما تكون داخلاً باطنا أي بالبصيرة، وبهذا تكون «رأت» مجازاً، قال الأمير عبد القادر الجزائري وهو يشرح البيتين ويوضح معنى «رأت»: (قوله: رأّت: يريد به حقيقة الغيبة التي بها هو هو، وإنما أسند الرّؤية الحقيقية الغيبية دون صورته لشهادته، لأنّ رؤية هذا القمر لا تكون بالأبصار الشّهادية، وإنما هو من باب: رأّت عيني وسمعت أذني، فيكون مجازاً مرسلًا)¹.

¹ - الأمير عبد القادر الجزائري، شرح البيتين: رأّت قمر السّماء فأذكرتني، تحقيق يوسف زيدان، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421 هـ / مايو 2000م، ص 164.

فقد جعلها من باب المجاز المرسل الذي علاقته الآلية، أي أنّ العين ما هي إلا آلة للرؤية فأضيفت إليها، وقد شاع عند العرب جعل الوصف القائم بالإنسان إلى مبدئه وآلته، كقولهم: رأت عيني وسمعت أذني، وجعل رأت من هذا القبيل. فالعين واسطة لنقل الأثر إلى البصيرة.

2- الكناية:

كما نظر أهل التصوف كذلك إلى لفظة « الرّقمّتين » على خلاف غيرهم، فهي هنا على غير حقيقتها المتعارف عليها عند الشعراء والأدباء وإن كانت كذلك، فهي كناية عن الوطنين القديمين لحقائق العالم، فالوطن الأول ما كانت فيه الحقائق شؤوننا أو أمورنا، والوطن الثاني: ما كانت فيه الحقائق أعيانا ثابتة. يقول الأمير عبد القادر الجزائري مبينا هذه الكناية: (وقوله: الرّقمّتين: الرّقمّتان: روضتان بناحية الصّمان، كُتِيّ بهما عن الوَطْنَيْنِ القديمين لحقائق العالم؛ أحد الوطنين: التّعِينِ الأول، وهو تعين الإجمال وتُسمّى الحقائق فيها شؤوننا جمع شأن، أي: أمر. وثاني الوَطْنَيْنِ، التّعِينِ الثاني، وتُسمّى الحقائق فيه أعيانا ثابتة، أي: غير متعينة)¹.

فالرّقمّتان هما الرّوضتان بناحية الصّمان، وهما أيضا الوطنين القديمين لحقائق العالم، وهو الذي يقصد إليه الشاعر، وعليه تكون كناية لأنّ المقصود المتروك وليس المذكور، وهو ما تقوم عليه الكناية، وهو الواضح هنا حسب تأويل وشرح الأمير عبد القادر الجزائري...

3- الالتفات والرجوع:

إذا كان الالتفات هو الانصراف والتّحول من معنى يكون فيه إلى معنى آخر، فإنّ الأمير عبد القادر الجزائري يرى ذلك في هذين البيتين وهو يشرحهما حين قال: (قوله: فأذكرتني: التفات أو رجوع من الفرق إلى الجمع، لأنّه بعد حصول هذه الرّؤية للحقيقة، تلوح على الجسم آثارها، وتسري

¹ - الأمير عبد القادر الجزائري، شرح البيتين: رأت قمر السّماء فأذكرتني، تحقيق يوسف زيدان، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421 هـ / مايو 2000م، ص 165.

في جزئياته أنوارها، فتغرب منه الموارد، وتظهر عليه منها شواهد. يعني: أذكرتني هذه الرؤية ما كنت غافلا عنه، ونبهتني لما كنت عنه ذاهلا بسبب انغماسي في الكدورات الشّهوانية، واشتغالي بما حصل لي من الإدراكيات الجسمانية)¹.

فقد التفت وتحول عن ذكر هذه الرؤية للقمر إلى الرؤى التي ينبغي ألا يغفلها أو يتيه عنها وهي رؤية ما كان عنه غافلا من الحق وما كان غافلا عنه من المحبوب الحقيقي، وما ينبغي إدراكه من مقامات روحانية ودرجات نحو الحضرة الإلهية وذلك الذي ينبغي إدراكه والالتفات إليه.

سابعاً-الجوانب الصوفية في شرح الأمير عبد القادر لبيتي الرقمتين:

ب-إيراد الشواهد من الأحاديث النبوية والآيات الشعرية:

ويكون ذلك لأجل تأييد الآراء والمعاني والدلالات التي يورده في شرحه.

1-الحديث:

فقد استشهد بحديث المتقرب بالنوافل: «حتى أكون بصره الذي يبصر به»، واستشهد أيضا بما ورد في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم سئل: «هل رأيت ربك؟ فقال نور أنى أراه».

2-الشعر:

استشهد بثلاثة أبيات من شعر الحلاج دون ذكره، وقد استشهد بهم عن الوطنين القديمين لحقائق العالم وإليهما حنين العارفين، وعليهما أنين المكاشفين، والآيات هي:

أنا في الغربة أبكي***ما بكت عين غريب

لم أكن يوم خروجي***عن مكاني بمصيب

عجبا لي ولتركي***وطنا فيه حبيب

¹ - الأمير عبد القادر الجزائري، شرح البيتين: رأت قمر السماء فأذكرتني، تحقيق يوسف زيدان، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421 هـ / مايو 2000م، ص 164

كما استشهد بيت شعري واحد لعز الدين بن عبد السلام المقدسي، دون ذكر اسمه، في قوله (نظرت بعينها) فهي لا يبصرها من يبصرها إلا ببصرها، وهو قوله:

أعارته طرفا رآها به***فكان البصير بها طرفها

3-الأقوال:

واستشهد بمقولة واحدة للشيخ محي الدين بن عربي وسماه حين ذكره: الشيخ الأكبر ونقل قوله: (وما يرى الله إلا الله فاعتبروا قولي؛ ليعلم منحاه ومعناه).

الخاتمة:

كان لهذين البيتين شهرة كبيرة حيث حظيا باهتمام بارز من الدارسين والتّقاد والباحثين، خاصة عند أهل التصوف والعرفان، ممّا جعلهما يشكّلان نوعا من الرّمزية في الأدب العربي الصوفي على مر العصور والدّهور، وممّا زاد من شهرتهما ومكانتهما المذاهب الشّتى والتأويلات العديدة التي ذهب إليها شراحهما، ممّا أعطاهما تنوعا في المعاني، وتعددا في الصّور البلاغية التي أضفت عليها طابعها الفنّي والجمالي.

ويمكن اعتبار شرح الأمير من الشروح الصوفية لهذين البيتين، الذي جاء فيه بما لم يسبقه إليه أحد من المعاني والدلالات الصوفية العرفانية، ما يعتبر تفردا وسابقة في تحليل هذين البيتين.

كما أنه استطاع بكل مهارة واقتدار توظيف المصطلحات الصوفية وتحديد مفاهيمها من خلال هذا الشرح والتفسير للبيتين، وقد ساعده في ذلك استيعابه الجيد لهذه المصطلحات ودلالاتها مما تشرّبه من تراث أعلام الصوفية الكبار، خاصة الشيخ محي الدين ابن عربي.

ولعل قراءتنا هذه لشرح الأمير عبد القادر لبيتي الرقمتين ما يفتح الباب لقراءات أخرى ودراسات ثانية لهذا الشرح من خلال مقاربات حديثة ملائمة لمثل هذه النصوص.

ملحق يتضمن نص الرسالة

(شرح البيتين رأت قمر السماء فأذكرتني... على لسان الحقيقة)

لحضرة الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله.

الحمد لله وحده، قال الشاعر:

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي *** لِيَالِي وَصَلِّهَا بِالرَّفَمْتَيْنِ

كِلَانَا نَاطِرٌ قَمَرًا وَلَكِن *** رَأَيْتُ بِعَيْنِهَا وَرَأْتُ بِعَيْنِي

قوله «رأت»: يريد به حقيقة الغيبة، التي بها هو هو، وإمّا أسند الرؤية الحقيقية الغيبة، دون صورته لشهادته، لأنّ رؤية هذا القمر لا تكون بالأبصار الشهادية، وإمّا هو من باب: رأت عيني وسمعت أذني، فيكون مجازاً مرسلًا.

قوله «قمر السماء»: يعني الحقيقة الكلية، المسماة بالقمر. وإمّا سُميت قمرًا، لكونها مظهر شمس الأحدية، وهي غيب مطلق، ليس لأحد عن حقيقتها خبر، ولا معلم فيها لأحد، ولا أثر. فهذا القمر مظهر لنورها، كما أنّ القمر المحسوس مظهر لنور الشمس المحسوسة، فيظهر به نورها عند غيبتها عن الأبصار. لأنّ الحق تعالى ظهر في هذا القمر بذاته، وظهر فيما عداه من المخلوقات بصفاته.

قوله «فأذكرتني»: التفات أو رجوع من الفرق إلى الجمع، لأنّه بعد حصول هذه الرؤية للحقيقة، تلوح على الجسم آثارها، وتسري في جزئياته أنوارها، فتغرب منه الموارد، وتظهر عليه منها شواهد. يعني: أذكرتني هذه الرؤية، ما كنتُ عليه غافلاً، ونهتني لما كنتُ عليه ذاهلاً، بسبب انغماسي في الكدورات الشّهوانية، واشتغالي بما حصل لي من الإدراكات الجسمانية؛ لأنّني لما تعلّقت بالهيكل الأرضي، اتحدت به اتحاد العاشق بمعشوقه، فصرّث لا أتعلّق سواه، ولا أرى نفسي

إلا إياه، وما شعرت أنّي لستُ من هذا العالم، ولا معلمي هذه المعالم، فأنا فيه غريب، مالي من نسيب.

قوله «ليالي وصلها»: يريد أوقات وصل حقيقتي الرّائية الجزئية بالحقيقة الكلية القمرية، المرئية بالاعتبار. يعني: أوقات كان هذا الجزء غير متعين من كله، والفرع غير بائن من أصله، حيث لا تميز ولا بين، بأثر ولا عين.

قوله «بالرّقيمتين»: الرّقيمتان؛ روضتان بناحية الصّمان، كتّى بهما عن الوطنين القديمين لحقائق العالم، أحد الوطنين: التّعين الأول، وهو تعين الإجمال، وتسمّى الحقائق فيه شؤونا، جمع شأن، أي أمر. وثاني الوطنين، التّعين الثاني، وتُسمى الحقائق فيه أعيانا ثابتة، أي غير متعينة.

فوجود الحق، موطن الحقائق في هاتين المرتبتين. وليس لحقائق الممكنات وجود في هاتين المرتبتين، حتى يكون الحق محلا للمسمى غيراً، أو سوى، تعالى عن ذلك، فليالي الوصل كانت في هاتين الحضرتين، حيثما كان له امتياز عن الدّات، ولا تعيّن خارجي وإلى هذين الوطنين حين العارفين وعليهما أنين المكاشفين، يقول قائلهم:

أَنَا فِي الْعُرْبَةِ أَبْكِي*** مَا بَكَتْ عَيْنُ غَرِيبٍ
لَمْ أَكُنْ يَوْمَ خُرُوجِي*** عَنْ مَكَانِي بِمُصِيبٍ
عَجَبٌ لِي وَلِتَرْكِي*** وَطَنًا فِيهِ حَيْبٍ

قوله «كلانا ناظر قمرًا»: ضمير التّثنية عائد على الحقيقة الرّائية والمرئية، لأنّ الحقيقة الرّائية الجزئية، تنظر الحقيقة الكلية المسماة قمرًا. وهو ظاهر الحقيقة الكلية تنظر نفسها في مظاهرها وتعيّناها، التي هي بمنزلة المرايا لها، قمرًا، كما هي كذلك؛ لأنّ كل شيء - وهو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه - هو مظهر لهذا القمر، يظهر فيه بكماله، من غير تبعّض ولا تجزئة ولا تعديد.

قوله «نظرت بعينها»: يعني أن نَظَرُهُ للحقيقة المسماة قمرًا، لا يكون إلا بعينها، من حيث إنّه لا بصر له إلا بصرها، ولا سمع له إلا سمعها. وكذا سائر الصّفات، فهي لا يبصرها من يبصرها إلا يبصرها، ولا سمع لها إلا بسمعها. وكذا سائر الصّفات، فهي لا يبصرها من يبصرها، إلا يبصرها؛ وإليه يشير القائل:

أَعَارَتْهُ طَرْفًا رَأَاهَا بِهِ *** فَكَانَ الْبَصِيرُ بِهَا طَرْفَهَا

وإن أخطأ في قوله: «أعارته» فإنّ الأصلة لا العارية، فهو المصيب في قوله: «فكان البصر لها طرفها»، وإليه يشير حديث المتقرب بالنوافل «حتى أكون بصره الذي يبصر به»، وإليه يشير ما ورد في الخبر، أنّه صلى الله عليه وسلم سُئل: هل رأيت ربك؟ فقال: نور أتى أراه. فإنّه عليه السّلام عرف من حال السائل أنّه لا يعرف من الرّؤية، إلا الرّؤية المعروفة عند العامة، المقيدة بالرّأس، فأجابه أنّه ما رآه، يعني بالعين التي لا يعرف السائل الرّؤية إلا بها، وأخبره أنّ نور هذه العين المعروفة، يقصر عن رؤية الرّب تعالى. وسأله عليه الصّلاة والسّلام آخر: هل رأيت ربك؟ فقال: نعم، رأيته، لأنّه عليه الصّلاة والسّلام علم من أحوال السائل، أنّه لا يريد الرّؤية المعروفة عند العامة، لأنّ السائل كان عارفاً بالله تعالى. وبهذا يحصل الجمع بين الخبرين. يقول الشّيخ الأكبر: وما يرى الله إلا الله، فاعتبروا قولي، ليعلم منحاه ومعناه.

قوله «رأت بعيني»: يعني أنّ هذه الحقيقة القمرية، ترى نفسها بأعين مظاهرها، في مظاهرها به، هي الرّؤية والرّائي والمرئي، لأنّ العالم صورتها وهويتها، والصّورة عين الهوية. فإنّ هويتها المطلقة إذا ظهرت بذاتها مقيدة بأحوالها. فإنّها باعتبار تقيدها مظهر لنفسها باعتبار إطلاقها. فهذه التقيّدات والتّعينات يغاير بعضها بعضاً، من حيث خصوصياتها، والكل متحد بالكل، من حيث الحقيقة الوجودية. والوجود المطلق لا يغاير البعض، لكون كلية الكل وجزئية الجزء نسبا ذاتية له، ولا

تنحصر في الكل، ولا في الجزء؛ مع كونه فيهما عينهما، فسبحان من يرى نفسه في نفسه في أعيان خلقه، ويكلم نفسه بنفسه من أعيان خلقه، ولا إله إلا هو العزيز الحكيم. وإنما قال: «نظرت بعينها ورأت بعيني» ف جاء بالنظر في حقه، وبالرؤية في حقها، لأن حقيقة النظر هو تقليب الحدق نحو الشيء لطلب الرؤية مع تأمل، بخلاف الرؤية فإنها مجرد إدراك فنزها عما تقتضيه لفظة «النظر»، وهذه غاية الأدب، والله أعلم وأحكم.

المصادر والمراجع:

- 1- شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، طراز المجالس، المطبعة الوهبية، دون طبعة، سنة 1284هـ.
- 2- شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة التلمساني، ديوان الصباية، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت لبنان، دون طبعة، 1404هـ/1984م.
- 3- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، طبعة جديدة 1987م،
- 4- بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني، شرح الدماميني على مغني اللبيب المسمى المزج، وعليه تعليقات الإمام تقي الدين أحمد بن محمد الشّمني القسنطيني، تحقيق محمد السيد عثمان.
- 5- داوود بن عمر الأنطاكي الصرير، تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق، المطبعة الأزهرية جمهورية مصر العربية، دون طبعة، سنة 1328هـ.
- 6- محسن أمين العاملي، معادن الجواهر ونزهة الخواطر، دار الزهراء، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1401هـ/1981م.
- 7- يوسف زيدان، شرح رأيت قمر السماء للنابلسي وعبد القادر الجزائري، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة، المجلد الرابع، الجزء الأول، صفر 1421هـ / مايو 2000م.
- 8- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تحقيق عبد الحليم النجار ورمضان عبد التواب، دار المعارف، جمهورية مصر العربية، الطبعة الخامسة 1970م.
- 9- محمد أبو الفضل بدران، أدبيات الكرامة الصوفية. الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة 2013م.

- 10- محمد بن علي دنية الأندلسي الرباطي، كمال العطية بإعراب كلمات العربية، المطبعة الوطنية، الرباط، المملكة المغربية، دون طبعة، دون تاريخ.
- 11- محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2001م.
- 12- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1980م.
- 13- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1418هـ/1998م، الجزء الأول.
- 14- مراد مزعاش الفنون البلاغية في بيتي الرقمتين لابن المستوفي الإربلي، مجلة منتدى الأستاذ، المجلد 14، العدد 02، جوان 2018م، ص 118/94.
- 15- أبو إسحاق الشَّاطبي، الإفادات والإرشادات، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجنان، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1403هـ/1983م، الجزء الأول، ص 139/138.
- 16- عبد الرحمن الدَّيسي، الفرائد الحسان في شرح تحفة الإخوان، تقديم وتحقيق محمد الحسن خنفر، دار كراداة للنشر والتوزيع، طبعة خاصة الجزائر 2014م، ص 96.
- 17- أبو العلا عفيفي، الأعيان الثابتة في مذهب ابن عربي والمعدومات في مذهب المعتزلة، ضمن كتاب الكتاب التذكري محي الدين بن عربي في الذكرى الثمانية لميلاده 1165هـ/1240م، أشرف عليه وقدم له إبراهيم بيومي مذكور، دار الكتاب العربي للطبع والنشر، القاهرة 1389هـ/1969م، ص 209.
- 18- عبد السلام المقدسي، ديوان المقدسي، تحقيق: ماهر محمد عبد القادر، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، الطبعة الأولى، دمشق 2001م، ص 158.

المحور الثالث:
البعد الإنساني في سيرة
الأمير عبد القادر وفكره

جوانب أخلاقية وإنسانية في حياة الأمير عبد القادر

أ.د. كمال لدرع أستاذ التعليم العالي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

مقدمة:

يعد الأمير عبد القادر الجزائري من أبرز الشخصيات التي قاومت المحتل الفرنسي في القرن التاسع عشر، كان عمره خمسة وعشرين سنة عندما انتخب عام 1832م أميراً على الجزائريين ليقود مقاومة باسلة وحرباً تحريرية طويلة دامت خمس عشرة سنة حتى سنة 1847م، تحدى خلالها أكبر جيوش أوروبا في وقته، وهزم أكبر جنرالات ومارشالات فرنسا، وأجبر العدو على توقيع معاهدات واتفاقيات الهدنة، وأرغمه على الاعتراف بسيادته على عدة أقاليم.

أقام الأمير دولته على الدين والشعور الوطني، لذا اعتبره الكثير من الكتاب أنه واضع أسس الوطنية الجزائرية وموقف الضمير الوطني الجزائري الذي عادت له الحياة من جديد¹، وزادته الثورات الشعبية المختلفة والمقاومات المتتالية تدعيماً ورسوخاً وقوة، وبقي هذا الضمير حياً يقاوم ويناضل ويتحدى إلى أن نضج وقام بتفجير أكبر ثورة في القرن العشرين في تاريخ الجزائر بل وفي العالم كله، التي نال بها الشعب الجزائري حريته واسترجع سيادته، وكانت سبباً في تشجيع حركات التحرر في العالم وإلهامها روح المقاومة ضد الأنظمة الاستعمارية المستبدة الظالمة.

وقد وصفه من ترجم له أنه رجل دين وسلوك وجهاد، فمظاهر الالتزام بالدين في دولته تجلّت في جميع مجالاتها: في أخذه بمبدأ الشورى، وفي تنظيم الجيش والتعامل مع الأسرى، وفي التنظيم المالي

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، عالم المعرفة، الجزائر، ط سنة 2011م، ج:1،

والقضائي، والاهتمام بالتعليم، وفي ضرب العملة¹. فدولته كانت دولة عربية إسلامية، ولو كُتبت لدولته الانتصار والتمكين لشكّلت خطراً عظيماً على مخططات المؤامرة العالمية الغربية التي تحالفت فيها الماسونية والمسيحية والصهيونية ضد العالم العربي والإسلامي، ولكانت أول دولة توحد العرب على أساس الدين والجهاد².

فقد أدرك الأعداء الفرنسيون وكبار قادتهم العسكريين خطر دولة الأمير، فعملوا ما بوسعهم للقضاء عليها وإجهاض مشروعها الطموح مستعملين أنذل الوسائل وأقبح الأساليب وأكثرها وحشية: نقضوا العهود، وعزلوا وقتلوا الأهالي من أطفال ونساء وشيوخ بلا شفقة ولا رحمة، واتبعوا سياسة الأرض المحروقة، فأتلفوا الزروع والأشجار المثمرة، ونهبوا الممتلكات، وخرّبوا البيوت، وهدموا المساجد، وتعدوا على الحرمات؛ وتعاونوا مع الكنيسة والماسونية والخونة لكسر شوكة الأمير وإطفاء شعلته، لأنه كان يمثل للجزائريين الأمل الوحيد، وقد ذكر ذلك بعض القادة العسكريين الذين حاربوه في تقاريرهم ومذكراتهم³. واعترف مجرم الحرب وأحد سفاحي فرنسا الجنرال "بيجو" (Bugeaud)⁴ بذلك فقال: (لقد حرقنا كثيراً وخرّبنا كثيراً، ومن الممكن أن أوصّف بالبربرية، ولكن ما دمت مقتنعا بأني قد أدت عملاً مفيداً لوطني، فإني أعتبر نفسي فوق ملامة الصحافة)¹.

¹ -المصدر نفسه، ص:272.

² -المصدر نفسه، ص:268 و269.

³ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:1، ص:274.

⁴ - توماس روبري بيجو (Thomas Robert Bugeaud) المعروف بالدوق دي زلي ولد في 15 أكتوبر 1784م بليموج. رقي إلى رتبة ماريشال فرنسا في 31 يوليو 1843م. مجرم حرب وأشهر سفاحي فرنسا. حارب قبل مجيئه إلى الجزائر في إسبانيا وأشتهر هناك بالعنف. تولى بيجو الحكم في الجزائر في 29 ديسمبر 1840م إلى 29 يونيو 1847م، اتبع خلال سنوات حكمه في الجزائر سياسة القهر والعنف والإبادة والتدمير والخنق بالدخان والحرق والتهجير والنفي في إطار الحرب الشاملة التي مارسها تجاه الجزائريين. واعتبر عهده أكثر الحلقات دموية فيما صار يُطلق عليه المؤرخون بـ "المدخنة" (enfumades). هلك هذا المجرم في باريس بمرض الكوليرا،

رغم محاربة أكبر الجنرالات للأمير عبد القادر واعتبارهم إياه عدوًا لدودًا، إلا أنهم اعترفوا بسمو شخصيته ونبل أخلاقه، وأنه كان أفضل منهم، فيقول عنه الجنرال "فرنسياد فلوروس دوفيفي" (Franciade Fleurus Duvivier)²: (إن القوة الحقيقية للأمير، تلك القوة التي تقاومنا ترجع أصولها إلى فكرة... إن عبد القادر كان أميراً لأن الحرية قد منحتة سلاحها... لقد كان رجل التاريخ، إن الحرية لن تنساه أبداً، إنها ستتردد اسمه دائماً)³. وبعض المؤرخين الأوروبيين نظروا إلى الأمير عبد القادر على أنه زعيم الاستقلال والوطنية والحرية في الجزائر، قال عنه مارسيل إيميري (Marcel Emerit)⁴: (بطل الاستقلال والقومية العربية في الجزائر)⁵، أما الجنرال "دي ميشال" (Desmichels) صاحب المعاهدة المشهورة المعروفة في كتب التاريخ بمعاهدة دي ميشال التي

وتعقنت جسّته لأيام في مزرعته التي كان يعيش فيها وحيدا حتى هجمت الكلاب الضالة على بيته ونهشت جسّته. دفن في باريس في 10 جوان 1849 في مقابر العظماء، وكرّمته الكنيسة وأعطته لقب قديس نظير ما قتل وحرقت واغتصب المسلمين في الجزائر، وصنعوا منه بطالا. <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

<https://dhakira.echaab.dz/2021/06/20/>

¹- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:2، ص:46

²-جنرال فرنسي ولد في 07 جويلية 1794 في روان، وتوفي في 28 جويلية 1848 بباريس، رافق الحملة الفرنسية على الجزائر، تولى عدة مهام عسكرية، شارك في الحملة على قسنطينة وحضر استيلاءها، وفي عملية عسكرية على قلعة. انظر (توفيق دحماني، مقال بعنوان: قسنطينة عشية الاحتلال الفرنسي 1837 من خلال وثائق نادرة، مجلة الدراسات التاريخية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر 2، مجلد 11، العدد:01، سنة 2010م، ص:153)

³- أبو القاسم سعد الله، في كتابه الحركة الوطنية الجزائرية، ج:2، ص:47و48

⁴-مارسيل إيميري (Marcel Emerit) ولد في 03 أوت 1899م ب (Niort) وتوفي في 01 جوان 1985م ب (Lodève)، باحث ومؤرخ فرنسي. له عدة كتب منها

La Révolution de 1848 en Algérie (Larose, 1949) - L'Algérie à l'époque d'Abd El Kader (Larose, 1951. Réédition par les Éditions Bouchène).

https://fr.wikipedia.org/wiki/Marcel_Emerit

5 - المصدر نفسه.

وقعها مع الأمير عبد القادر في 04 جويلية 1834م، فقد اعتبره "مثلا لشرعية جديدة" في الجزائر، ووصفه آخرون بأنه "القائد الروحي" للجزائر، وقال آخرون عن حكومته أنها: "أول حكومة وطنية حقيقية ممثلة للشعب" في الجزائر¹. لكن رغم إشادة هؤلاء بالأمير ودولته وأنه رمز الوطنية الجزائرية، إلا أنهم نسوا أو تناسوا بأن الأمير كان يسوس دولته على أساس تعاليم الإسلام، وكانت مرجعيته في إدارة شؤون دولته وحتى في حربه للعدو، وكان يستشير الفقهاء ويقرهم منه ويستفتيهم في القضايا العسكرية والمدنية حتى لا يخرج عن الإطار الشرعي الذي التزم به عند إعلان بيعته الأولى والثانية. ولقد أعطى الأمير لعدوه وللعالم دروسا في الأخلاق الحربية، وفي المهارة العسكرية والدبلوماسية في التعامل، والحنكة في التفاوض، والسياسة الرشيدة في إدارة دولته، والحكمة في التواصل مع رعيته. فرغم ظروف الجهاد والحرب، وقساوة العدو ووحشيته، كان الأمير ملتزما بأحكام دينه حتى في حربه ضد العدو، وأظهر روحا من التسامح للمخالفين والحوار واحتراما لأصحاب الأديان الأخرى.

إن من كتب عن سيرة الأمير عبد القادر ركّزوا على الجانب العسكري، وعلى بطولاته في حروبه ضد العدو الفرنسي، وعلى الانتصارات والهزائم، وعلى المعاهدات التي وقعها الأمير مع جنرالات فرنسا، لكن لا نكاد نجد من تحدث عن أخلاقه وصفاته الإنسانية إلا في القليل منها، حتى ابنه الأمير محمد لم يتطرق إلى الجانب الإنساني في حياة الأمير عبد القادر في كتابه الذي خصصه للحديث عن سيرة الأمير والذي بعنوان: "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر". إلا أن بعض الكتب الأجنبية أشارت إلى بعض منها دون إسهاب، وفعلوا ذلك مضطرين، لأنهم انبهروا بشخصيته القوية، وبأخلاقه السامية التي ثبت عليها في حروبه، وفي الأسر، وفي منفاه في الشام إلى أن وافاه الأجل رحمه الله تعالى.

¹ - المصدر نفسه.

أولاً: شخصية الأمير عبد القادر الجزائري:

كان للبيئة الطبيعية التي تربى فيها الأمير أثرها في تشكيل شخصيته، فمنطقة "القيطنة"¹ التي وُلد فيها ذات الجمال الطبيعي، من أشجار وجبال واخضرار ووديان، كلها تركت طابعها على شخصيته وانعكست على تصرفاته. بالإضافة إلى نسبه الشريف وارتباطه بالتاريخ العربي الإسلامي، ومكانة أسرته بين الناس والقبائل، جعله فخورا معتزا بأصله وانتمائه، هذه النخوة دفعته للدفاع عن وطنه وأرض أجداده². فقد وُلد يوم الجمعة في 23 رجب 1222 هـ الموافق 06 سبتمبر 1807م³، تلقى الأمير عبد القادر تربيته الأولى على يد والده الشيخ محيي الدين (ولد سنة

¹ -هي موجودة على ضفة وادي الحمام في منطقة أفريس غربي مدينة معسكر في الغرب الجزائري، مشتق من القطن ضد الضعن، لأن أهلها قاطنون على مشارف وادي الحمام، ومؤسس هذه القرية هو الشيخ مصطفى بن المختار جد الأمير. وبنى فيها معهدا لتدريس العلوم، فكانت مركزا علميا قبل الاحتلال الفرنسي. ويكفي أن العالم الجليل المحدث الفقيه المالكي المقرئ عبد القادر بن عبد الله المشرفي المتوفى سنة 1142 هـ كان يدرس في زاوية القيطنة التي كانت تستقطب الطلبة من كل الجهات. التواتي، فقه المقاومة عند الأمير عبد القادر الجزائري،

ص: 39 وما بعدها -فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص: 33

² - أبو القاسم سعد الله، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، ط سنة 2016م، ج: 1، ص: 128

³ - وقد ذكر هذا التاريخ معظم الذين ترجموا حياة الأمير عبد القادر، كالأمير محمد ولده في كتابه تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، مصر، ط سنة 1903م، ج: 2، ص: 304، و شارلز هنري تشرشل (Churchill) في كتابه: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، دار الرائد، الجزائر، ط سنة 2009م، ص: 61، والبيطار في كتابه حلية البشر، والحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف (308)، وزيدان في كتابه تراجم مشاهير الشرق (182/1)، و لويس شيخو اليسوعي في كتابه الآداب العربية في القرن التاسع عشر (90/2)، ومحمد جميل الشطّي في كتابه أعيان دمشق (177)، والبغدادي في كتابه هدية العارفين وأسماء المؤلفين (605/1). وذكر آخرون أن تاريخ ولادته هو عام 1223 هـ / 1808م، منهم بطرس البستاني في دائرة المعارف (616/11)، وأدهم الجندي في أعلام الأدب والفن (219/1)، وألبرت الريحاني في الموسوعة العربية (267).

1190 هـ / 1775 م وتوفي 1239 هـ / 1833 م)، تعهّد أمر تربيته بنفسه، وبذل جهدا كبيرا في تعليمه وتثقيفه، وتلقينه القرآن الكريم والمبادئ الأساسية للعلوم الشرعية، وأحاطه بعنايته وعطفه، فتمكن الولد في بضع سنوات من استيعاب الكثير من العلوم كالفقه وأصوله والحديث، وأظهر تفوقا وذكاء. وبعد أن أنهى المراحل الأولى من التعليم في مدرسة القيطنة، أرسله والده في سنة 1821 م إلى مدرسة وهران التي كان بإشراف أحمد بن الخوجا فبقي فيها سنتين، ثم عاد في سنة 1823 إلى بلدته "القيطنة"¹.

كما أسهمت رحلته رفقة والده إلى البقاع المقدّسة في سنة 1825 م والتي دامت سنتين، حيث أديا فريضة الحج في ذهابهما وإيابهما، وزار الأمير من خلالها عواصم عربية إسلامية مشرقية، كدمشق وبغداد والحجاز ومصر، والتقى بعلمائها وفضلائها². وقد مكنته هذه الرحالة من الاطلاع على أحوال العالم العربي والإسلامي، والتقاؤها ببعض الشخصيات العلمية والسياسية، حيث تم

انظر فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، طبعة سنة 1985 م. ص: 32 و 33

¹ - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص: 306 - فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص: 36 و 37 - محمد السيد محمد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري: ثقافته وأثرها في أدبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط سنة 1986 م، ص: 15 وما بعدها - الأميرة بديدة الحسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1، سنة 2000 م، ص: 41 - 43

² - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص: 307 - فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص: 38-43

استقباله هو ووالده من قبل محمد علي والي مصر وأحسن وفادتهما. إن رحلته إلى المشرق أكسبته المزيد من المعارف والعلوم وسعة الاطلاع¹.

كما اكتسب من التربية والجو العائلي وبيئته العامة أخلاق الفرسان الممزوجة بالإباء والإنسانية والمروءة والشهامة، كما كان العربي الأصيل قديما، برزت فيه منذ صغره صفات القيادة والبطولة والشجاعة، فكان فارسا بارعا شجاعا، فلما اعتذر والده الشيخ محيي الدين عن الإمارة وأشار عليهم بولده عبد القادر لم يترددوا في قبول بيعته لما لاحظوه عليه من تلك الصفات المتميزة، وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، وهو ما جعل والده محيي الدين يقترحه للإمارة والبيعة، وهو الاقتراح الذي باركه الأولياء والأشراف والصالحون وعامة الناس والفلاحون والجنود، وحضروا إلى "سهل اغريس" للبيعة وإعلان الولاء والجهاد².

إن الأمير عبد القادر شريف من آل البيت، عالم من العلماء³، ومتصوف ينتمي إلى الطريقة القادرية⁴، ومجاهد قاتل في سبيل الله بكل ما أوتي من قوة¹، كان يحكم دولته على أساس من الدين

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، عالم المعرفة، الجزائر، ط سنة 2011م، ج:2، ص:40 و41 - محمد شاطو، مقال بعنوان: "هكذا رَسَّخ الأمير عبد القادر الجزائري قيمة التسامح"، متاح على موقع الشعب <http://www.ech-chaab.com/ar/>، اطلع عليه بتاريخ 2024/03/25م - التواتي، فقه المقاومة عند الأمير عبد القادر الجزائري، ص:44

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:12، ص:173 و174

³ - الحفناوي: أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي (ت 1360 هـ/1942م)، تعريف الخلف

برجال السلف، تحقيق خير الدين شترة، دار كردادة، ط 1، سنة 1433 هـ/2012م، ص:306 و307

⁴ - الطريقة القادرية تنسب إلى الشيخ عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجليلي الحسني، وُلد في 11 ربيع الثاني سنة 470 هـ الموافق 1077م، في جيلان شمال إيران حاليا على ضفاف بحر قزوين، وقيل في جيلان العراق وهي قرية تاريخية قرب المدائن 40 كلم جنوب بغداد والمتوفى في بغداد سنة 561 هـ، وهو يعتبر عند الصوفيين سلطان الأولياء وقطب الأقطاب والغوث، وهو عالم وله مؤلفات، منها: "لطائف الأنوار"، ونسبه يرجع إلى فاطمة الزهراء والإمام علي رضي الله عنهما، والزواوية الأم توجد في بغداد ولها فروع في الجزائر. وأول من أسس فرعا

والعدل والأخلاق والوحدة والروح الوطنية، وكان قدوة حسنة لأتباعه، وأسوة صادقة لجنوده، فكان بسيطاً في ملبسه وأكله وشربه، متواضعاً زاهداً، وأحسَّ الناس فيه الإخلاص والتضحية لأجل وطنه، فالتفوا حوله، ونظروا إليه كبطل مغوار ذكَّروهم بسلف هذه الأمة من الفرسان الكبار والقادة العظام أمثال خالد بن الوليد وعقبة بن نافع وموسى بن نصير، فهو محارب مقدام لا تجده إلا في مقدمة الصفوف، لذلك أحبه الجميع، حتى الذين خالفوه انضموا إليه. وقد عرف الناس قدره أكثر لما انتهت مقاومته، وغاب عنهم، وترك فراغاً لم تستطع أية شخصية جزائرية مقاومة أن تملأه، لافتقادها إلى العناصر والصفات التي كان يتمتع بها الأمير عبد القادر².

وقد تأثر الأمير بشخصية والده الشيخ محيي الدين واكتسب منه الزعامة والإقدام، فوالده كان معروفاً بين الزعماء والقبائل، وذا نفوذ بين الناس مقبولاً بينهم، يلجؤون إليه عند الخصومات

للقادريّة في الجزائر الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي سنة 1200م. وهذه الطريقة لها زوايا وأضرحة وقباب ومساجد في الجزائر وتلمسان وقسنطينة وبجاية وغيرها. وكانت الطريقة القادرية وأتباعها أدوا دوراً مهماً في دعم مقاومة الأمير عبد القادر. وكانت الطريقة يدير شؤونها الحاج محيي الدين والد الأمير، وبعد وفاته تولى ابنه محمد السعيد أخو الأمير شؤونها. وقد تعاونت الطرق في عهد الأمير في دعم المقاومة ضد العدو المحتل، من رحمانية ودرقاوية وطيبية وشيخية. وبعد هزيمة الأمير انتشرت الطريقة القادرية في أنحاء القطر الجزائري في شرقه وجنوبه. انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 4، ص: 42 وما بعدها - التواتي، فقه المقاومة عند الأمير عبد القادر الجزائري، ص: 35 وما بعدها

¹ - فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر في دمشق: جوانب من حياته الدينية والعلمية والفكرية (1272-1300هـ / 1856-1883م)، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد: 75، رجب، شعبان 1403هـ/ ماي، جوان 1983م، ص: 263

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج: 1، ص: 273 و 274

والنزاعات. وكان رافضاً للمحتل الفرنسي مناوئاً له، ففي 17 أبريل 1832م شن هجوماً برجاله على دورية استطلاعية فرنسية في ضواحي وهران وألحق بها بعض الخسائر¹.

لقد جمع الأمير بين الشجاعة في المعارك والتخلي بروح المسؤولية في الحرب والسلام، وذكاء حارق في المناورات العسكرية وتنظيم الجيش². شهد له العدو بقوته وعدله وشجاعته واعتزازه بدينه، قال الجنرال "دي ميشيل" (Desmichels): (إننا لسنا أمام قائد وزعيم ثورة، وإنما أمام سلطان عادل وقائد أمة وسياسي بارع... لقد أخطأت فهم الرجل، إننا لم نتعامل مع مثله من قبل ولا بمثل ذكائه ولا بمثل شجاعته واعتزازه بدينه وقومه، وبهذه الحالة يجب علينا إرهابه وكسر كبريائه)³. وذكر المستشرق شارلز هنري تشرشل⁴ (Charles Henry Churchill) في كتابه عن الأمير عبد

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:2، ص:40 و41 - محمد شاطو، مقال بعنوان: "هكذا رسّخ الأمير عبد القادر الجزائري قيمة التسامح"، متاح على موقع الشعب - <http://www.ech-chaab.com/ar/>، اطلع عليه بتاريخ 2024/03/25م - التواقي، فقه المقاومة عند الأمير عبد القادر الجزائري، ص:44

² - محمد العربي الزبيري، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الزائر، ط سنة 1982م، ص:11

³ - الأميرة بديعة الحسني، وما بدلوا تبديلاً: تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري، ص:55.

⁴ - تشارلز تشرشل (Charles Churchill)، ضابط إنجليزي صهيوني من الأوائل الذين دعوا إلى ترحيل اليهود إلى فلسطين. وهو من أسرة تشرشل الإنجليزية الشهيرة التي عملت في خدمة التاج البريطاني فترة طويلة، سواء في الجيش البريطاني أو في شركة الهند الشرقية. وُلد في مدراس بالهند عام 1807، والتحق بالجيش البريطاني منذ شبابه المبكر (1827)، وشارك في عدة حملات عسكرية. أيد تشرشل الدعوة لإرسال اليهود إلى فلسطين. وفي بيروت تزوج سيدة لبنانية واستقر هناك حيث عمل بالتجارة والمضاربات العقارية. وألّف تشرشل كتاباً بعنوان جبل لبنان عام 1852 دعا فيه الحكومة البريطانية لمساعدة اللبنانيين على التخلص من الحكم التركي. وتَدخَّل تشرشل في السياسة الداخلية اللبنانية والصراعات بين الدروز والمارونيين. وتعرّف تشرشل على الأمير عبد القادر الجزائري، وألّف تشرشل كتاباً عن حياة الأمير نُشر عام 1867م. ثم إن الصهاينة المحدثين يعتبرون تشرشل أحد الآباء

القادر أن هناك عددًا لا يحصى من الأعمال الباهرة التي اتصف بها الأمير والتي لا يعرفها إلا الضباط الفرنسيون الكبار الذين اجتمع بهم أو الذين تراسل معهم والتي تشهد كلُّها على سموِّ همته، ثم نقل كلام أحد الضباط الفرنسيين الكبار الذي قال: "لقد كان علينا أن نخفي هذه الأشياء - أي ما تصف به الأمير من صفات باهرة - بقدر ما نستطيع على جنودنا، لأنهم لو اطلعوا عليها لما كان في استطاعتنا أبداً أن نجعلهم يحاربون عبد القادر بنفس الاندفاع والحماسة"¹.

لقد صار الأمير عبد القادر رمزًا للمقاومة ضد الاستعمار في الجزائر ومنطقة المغرب العربي والعالم العربي. واللافت للانتباه أن الأمير رغم أنه قاتل دولة فرنسا بكل ما أوتي من قوة لأنها احتلت أرضه، إلا أن شخصيته وأسطورته انتشرت في الكتابات الأوروبية، ونالت شهرة ومحبة عند النخبة الفرنسية خاصة والأوروبية عامة. فبعد إبرام الأمير لاتفاقية توقيف الحرب ونقله أسيراً إلى فرنسا في شهر ديسمبر 1847م، أتاحت له مدة حبسه التي دامت حتى سنة 1852م فرصة الاحتكاك بالمتقنين الأوروبيين الذين كانوا مسحورين بفروسيته وشهامته²، فقد ذكره الأديب فكتور هوغو (Victor Hugo)³، والمفكر أليكسيس دي توكوفيل¹، كما أرّخ سيرته بعض المستشرقين،

الأوائل للحركة الصهيونية، وبالفعل فتحركاته الدبلوماسية وخطبه وكتاباتاته تضم كل أبعاد الفكر الصهيوني ومشروعه. تُوفي تشرشل عام 1869 في لبنان. <https://alhesn.net/play/10696>

¹- شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، دار الرائد، الجزائر، ط سنة 2009م، ص: 263.

²- جولاي بلالاك (باحثة أمريكية)، عنوان المقال: الأمير عبد القادر: أسطورة أدبية في الغرب، منشور على موقع مجلة الفيصل بتاريخ 03 يناير 2019، وتم الاطلاع عليه بتاريخ 2024/04/29، <https://www.alfaisalmag.com/?p=13900>

³- فيكتور ماري هوغو (Victor Marie Hugo)، ولد سنة 1802م، وتوفي في 1885م، كان أديبا وشاعرا وروائيا فرنسيا، وناشطا اجتماعيا. يُعتبر من أبرز أدباء فرنسا، وتُرجمت أعماله إلى أغلب اللغات العالمية، له

مثل أدولف ولهم (Adolf Wilhelm)²، والكونونيل الفرنسي بول آزان (Paul Jean Louis Azan)³، وتشارلز ونستون تشرشل البريطاني الذي استقر بدمشق، وكذلك كان للأمير حضور كبير في مذكرات ليون روش "Léon Roches"⁴.

وأثناء سجنه في فرنسا أثار الأمير فضول وإعجاب الكثير من الشخصيات الأرستقراطية والعلمية والسياسية والفكرية، فقاموا بزيارته، وأخذ عدد زواره يرتفع إلى درجة أنه طلب تحديد يومين فقط في الأسبوع لاستقبال الزوار حتى يتفرغ في بقية الأيام للقراءة والكتابة والذكر. منهم بعض القادة العسكريين، وبعض الجنود ممن كان أسيراً عند جيش الأمير، ومن زواره أيضاً بعض النساء الأرستقراطيات، ومن بينهن السيدة لاماريشال زوجة الماركيز غراوتشي التي كتبت ملاحظات حول

عدة دواوين شعرية، ومن أبرز أعماله الروائية البؤساء وأحدب نوتردام. كان مؤيداً لنظام الجمهورية، وأعماله تَمَس القضايا الاجتماعية والسياسية في عصره.

¹ - ألكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville)، ولد في 29 يوليو 1805م بباريس، هو مؤرخ ومنظر سياسي فرنسي، اهتم بالسياسة في بعدها التاريخي. تقلد عدة مناصب سياسية. سافر إلى أمريكا وإنجلترا، ثم سافر في عامي 1841 و1846 إلى الجزائر، حيث ألف كتاب السفر إلى الجزائر، الذي انتقد من خلاله النموذج الفرنسي للاستعمار، وذهب إلى حد الدعوة بشكل علني إلى العزل العنصري بين المستعمرين الأوروبيين والعرب من خلال تطبيق نظامين تشريعيين مختلفين. تُوفي توكفيل إثر مرض السل في 16 أبريل عام 1859م،

وُدُن في مقبرة توكفيل في نورماندي، <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

² - أدولف ويلهم (Adolf Wilhelm)، عالم متخصص في النقوش وتتبع الكتابات القديمة المنقوشة على الصخور وغيرها، ولد في 10 سبتمبر 181864 في ديتشين في التشيك، وتوفي في 10 ديسمبر 1950م في

فيينا في النمسا، <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

³ - باول آزان من مواليد يوم 22 يناير 1874م في بيزنسون، ومات في 14 أغسطس 1951م، وكان عسكرياً برتبة فريق أول من فرنسا.

⁴ - جولاي بلالاك (باحثة أمريكية)، عنوان المقال: الأمير عبد القادر: أسطورة أدبية في الغرب، منشور على

موقع مجلة الفيصل بتاريخ 03 يناير 2019، وتم الاطلاع عليه بتاريخ 2024/04/29،

<https://www.alfaisalmag.com/p13900>

ظروف حبس الأمير ورفاقه الصعبة. زاره الأرسقراطي الإنجليزي لورد لوندنديري الذي كان الصديق المقرب لنابليون لووي. ومن أهم زواره أيضا في "بو" (Pau)، الأسقف أنطوان دوبوش (Dupuch) الذي كان أول فرنسي تولى الأسقفية بالجزائر. وجد كل من دوبوش والأمير في الآخر رجلاً مهتمًا بالعلم والدين، ومثلما كان الحال في صداقة الأمير مع الرقيب دوما، فقد نتج عن هذا التعامل الطيب كتابٌ يرسم شخصية الأمير الاستثنائية¹.

إن الأمير عبد القادر من الرجال الكبار، ومن العظماء في العالم، وقد صار شخصية عالمية، نتيجة بطولاته وشجاعته في حربه ضد العدو الفرنسي، التي أظهر فيها التزامه بأخلاق الحرب وحسن معاملته للأسرى، ولمواقفه الإنسانية عند إقامته في تركيا ثم في دمشق التي مكث فيها أكثر من عشرين سنة، في حماية المسيحيين، واحترامه للأديان، ومواساته للفقراء والمحتاجين، ولعلمه الغزير وفكره الوسطي وتسامحه مع المخالفين. فنال احترام الساسة والحكام والملوك والقادة والعلماء والمفكرين. ففي سنة 1286 هـ/1869م دُعي إلى مصر لحضور الاحتفال بافتتاح قناة السويس الذي دُعي إليه ملوك أوروبا وأمراؤها وشخصيات عالمية، فذهب ثم رجع إلى دمشق. كما زار عدة عواصم عربية وأوروبية، فاحتفلوا به وأكرموه، وتلقى أوسمة من الملوك والرؤساء، وكانت له علاقات قوية ومراسلات مع سياسيين ومفكرين وشخصيات عالمية².

ثانيا: تدوين الأمير عبد القادر وتشعبه بالقيم والأخلاق الإسلامية:

تمت مبايعة الأمير البيعة الأولى يوم الاثنين 05 رجب 1248 هـ الموافق 27 نوفمبر 1832م تحت شجرة الدردار بـ "واد فروحة" في سهل غريس في منطقة معسكر من الغرب الجزائري

¹ - المرجع نفسه.

² - الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص: 309

ولم يكن عمره يزيد عن الرابعة والعشرين سنة¹. فمبايعة الحاج عبد القادر بن محيي الدين أميرًا للمؤمنين هي مبايعة رجعت بالأذهان إلى طريقة السلف من الخلفاء الراشدين²، وهي مبايعة صدرت من طريقة صوفية هي القادرية، وهي أكثر الطرق الصوفية في الجزائر ولها فروع أتباع كثيرون، وترى في أحضانها الأمير عبد القادر ونهل من نبعها وتشبع من قيمها. فجاءت هذا المبايعة كحدث تاريخي مهم وَحَدَّ الجزائريين وكرّس مفهوم الجهاد لمقاومة الاحتلال الفرنسي والتصدي لتوسعه في المناطق الجزائرية.

فجاءت بيعة الأمير عبد القادر لتوحيد الجهاد ضد العدو الفرنسي، على أن يكون هذا الجهاد وفق المرجعية الإسلامية، لذلك حاول المبايعون من أهل الحل والعقد آنذاك أن تكون البيعة وفق الكتاب والسنة ووفق ما كان عليه السلف الصالح، بيعة تقوم على الشورى وعلى تطبيق أحكام شريعة الإسلام والالتزام بتعاليمها المأخوذة من نصوصها الثابتة.

ومنذ أن تمت بيعته حرص الأمير على أن يسير وفق أحكام الشريعة الإسلامية، وعلى أن تكون جميع قوانين دولته مستقاة من الكتاب والسنة، وتطبيق أحكام الشريعة حتى في تعامله مع العدو الغاصب للأرض المنتهك للحرمات المزهق للأرواح المتعد على المدنيين. إن هذا الطابع الإسلامي لدولته كان له الأثر القوي في جمع شمل الأمة والتغلب على النزعات القبلية، وفي شحذ عزيمة الجزائريين في مقاومة المحتل. ولشدة رعاية الأمير للعدل وعدم التراخي في تنفيذ الأحكام، وتحقيق المساواة بين الجميع أمام قوانين دولته، ساد الأمن في جميع أنحاء المناطق التي تحت سيادته، بعدما شاع النهب والاعتداء عقب سقوط الإدارة التركية، كما حارب الآفات الاجتماعية والفساد

1 - يحيى بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، دار البصائر، الجزائر، ط سنة 2009م، ص: 37.

2 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 4، ص: 32.

بمختلف أنواعه، منه الغش في الأسواق، والبغاء وشرب الخمر والقمار، كما مَنَعَ التدخين والتبغ واعتبره إسرافًا وهدرًا للمال¹.

يشهد الكل للأمير صلابته في التزامه بأحكام دين، وسموّ روح، وعلوّ أخلاق، في تواضعه في ملبسه وأكله وشرابه وتعامله مع جنده ورعيته وحتى مع أعدائه، فقد وصفه كذلك "توستان دي مانوار-Toustaïn du Manoïr" بكل دقة مركزا على الجانب الإنساني في الأمير عن لقائه به لأول مرة، ومما جاء فيه: "يتكوّن لباسه البسيط من أردية وبرنوس، وتحفته الوحيدة هي سبحة غليظة، وقد حدثنا بأدب كبير. وكانت حركاته لطيفة كما كان متواضعا رغم مكانته التي كانت تسمح له بالتعالي والسمو. إننا لم نجد في حديثه فعلا أي أثر للتصنع"²، ولم يكن له حراس، حتى عائلته كانت تعيش عيشة شظف، وإنه باع في أسواق مدينة معسكر مصوغ نساء أسرته ليدفع حصيلته لبيت المال حتى يعلم الشعب أنه يبذل كل ما يكسب في سبيل الجهاد³.

فلم تؤثر في الأمير شدة الحرب وقساوة القتال أن يخرج عن سمته وسماحته، أو أن يتخلى عن أخلاقه الإسلامية، فلم يسجّل عنه التاريخ أنه قتل المدنيين، أو مثل بجثامين قتلى العدو، أو عذّب أسرى الحرب، على خلاف ما اتصف به العدو الفرنسي الغازي من خيانة للعهود، وتقض للمعاهدات، وتعدي على أسرى الحرب، والاعتداء على ممتلكات الشعب، وقتل المدنيين الأبرياء⁴.

¹ - محمد العربي الزبيري، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، ص: 130 - إسماعيل العربي، حكومة الأمير عبد القادر: إدارتها ومهامها، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد: 75، رجب، شعبان 1403هـ/ ماي، جوان 1983م، ص: 225 و 226.

² - محود بوعباد، عبد القادر الإنسان، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد: 75، رجب، شعبان 1403هـ/ ماي، جوان 1983م، ص: 281.

³ - المصدر نفسه، ص: 279 و 280.

⁴ - كمال لدرع، مبايعة الأمير عبد القادر قراءة شرعية تأصيلية، مداخلة في ندوة علمية حول مبايعة الأمير عبد القادر منعقدة بتاريخ 29 نوفمبر 2003م بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، من تنظيم فرقة

فالأمير عبد القادر رجل مسلم قوي الإيمان، معتز بدينه وعقيدته، تلقى تربية إسلامية متينة. هو رجل جمع بين العلم والسلوك، بين السيف والقلم، بين الفقه والسياسة، فهو من العظماء الكبار، ممن تركوا بصمات في تاريخ الإنسانية، التي أسهمت في ترسيخ قيم ومبادئ إنسانية سامية. فالتدين والورع من الميزات البارزة في الأمير، اتسمت بالمسحة الصوفية، ولم تكن هذه الصفة قد ظهرت فيه بعد استسلامه وسجنه وسكنى الشام، أو في أخريات أيامه عند كبره في السن، بل كانت تلك الصفة أصيلة فيه تجلّت في كل تصرفاته حتى عندما كان في أوج قوته وهو على رأس دولة، فقد كان وقافا عند نصوص الشرع، سنيّا، ملتزما بأحكام دينه حتى في محاربتة للعدو، بعيدا عن مظاهر الشعوذة والخرافات¹.

فالكاتب ليون روش "Léon Roches" وهو من الفرنسيين الذين عاشوا الأمير وعرفوه عن قرب، وكان ينقل أخباره سرّا إلى إدارة فرنسا، ففي كتابه "اثنان وثلاثون سنة عبر الإسلام" رغم ما فيه من بعض التلفيقات والمعلومات غير الدقيقة، يصف فيه الأمير بقوله: "يحمل بيده اليمنى دائما سبحة سوداء، يسبح بها بسرعة، ولا يتوقف عن التسييح عندما يخاطبه مخاطب. وإن بحث فنان على صورة لعابد من عباد القرون الوسطى يضعها على لوحته، فإنه لن يجد حسب رأيي نموذجا أفضل من الأمير، إن مزجنا من مضاء العزيمة على الجهاد ومن الزهد، يضيء محياه بفتنة رائعة"².

البحث: آثار السياسة الاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830 - 1960م)، مطبوعة ضمن سلسلة كراسات البحث، يصدرها المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، ص: 90 وما بعدها

¹ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، ط سنة 2016م، ج: 1، ص: 129

² - محمود بوعياض، عبد القادر الإنسان، ص: 277

والأمير رغم ظروف الحرب ومجاهمة العدو في المعارك لم يتخل عن أداء شعائر دينه وبخاصة الصلاة، وتضرعه لربه سبحانه وتعالى ومحافظته على قيام الليل، وكثرة التسبيح والذكر لله عزو وجل، ويروي ليون روش ما رآه من مظاهر الإيمان في فترة عمله ككاتب للأمير، فكان يتناول معه الطعام، وينام معه من حين لآخر، فيروي روش أنه كان في ليلة من ليالي الشتاء أثناء حصار "عين ماضي" نائما في خيمة الأمير، عاد الأمير منهوكا من عمليات الحصار، وظن الأمير أن كاتبه نائم، فأدى صلاة الفريضة، ثم رآه "روش" بعد أن أنهى صلاته يتضرع إلى الله تعالى ويتبتّل، ينظر إلى السماء، وبلغ حالة من الدهول والتشوف إلى الله توحى لمن ينظر إليه بأنه فارق العالم الدنيوي وتسامى إلى العالم العلوي¹.

وقد أظهر الأمير في فترة سجنه بفرنسا صبورا وقوة إيمانية، وبرزت في هذه المرحلة شخصية الأمير المتصوف، في تحويل المحنة إلى منحة، والصبر والشوق إلى فرج للتخفيف من ألم الأسر؛ فقد رأى أن الابتلاء امتحان قابل لأن يكون منّة إلهية إذا استغل بصبر جميل. ويذكر الأمير أنه لما سُجن أثر ذلك كثيرا في نفسه، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، وأنه وجد متنفسه في شعيرة الصلاة والتعبد لله تعالى، وجعل من الخلوة فرصة للتأمل والتفكير الهادئ العميق، فكان يقضي أوقاته في الذكر والصلاة والدعاء. وتعتبر هذه المرحلة أهم تجربة يقطعها الأمير عبد القادر في مشواره الصوفي والحياتي؛ كما أن هذه المرحلة عرفت إنتاجا فكريا غزيرا، وأيضا كانت له فرصة لاكتشاف الآخر الأوروبي ومحاورته ومعرفته عن قرب، والمتمثل في الفرنسيين والأوروبيين المسيحيين بمختلف فئاتهم².

¹ - المرجع نفسه، ص: 281.

² - عبد الوهاب بلغراس، عنوان المقال: الأمير عبد القادر محطات متميزة في رؤية الآخر، متاح على موقع الإنسانيات، اطلع عليه بتاريخ 2024/03/25م، <https://doi.org/10.4000/insaniyat.18050>

ورغم شدة تدين الأمير وتمسكه بدينه، واعتزازه بقيمه الإسلامية، لم يكن متعصبا، أو حاملا
 حقدا للمخالفين له في الدين، بل كان متسامحا¹، معتقدا أن الأخوة الإنسانية التي أعلن عنا القرآن
 الكريم تجمع الناس جميعا على اختلاف ألوانهم وألستهم، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
 مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)
 المحجرات:13.

إن تدينه والتزامه بدينه الحنيف، تجلّت مظاهره في مراحل حياته كلّها، قبل البيعة، أي في
 شبابه، وبعد البيعة لما صار أميراً، وفي علاقته بوالده، فكان مطيعاً له باراً به، فقد أطاعه لما أمره
 بالتوجه إلى الحج، وعندما أمره بالجهاد ضد العدو، ويقبول مبيعة الناس له. هذا التدين الذي برز
 في تأثره بجهاد الصحابة رضي الله عنهم، وفي حبه للفروسية والجهاد في سبيل الله؛ فهو بقية من
 السلف الصالح في التزامه وسلوكه وجهاده وثباته². ثم إن تدينه وحبّه لأمته العربية وتطلّعه للوحدة
 الإسلامية لم يبلغ فيه شعوره الوطني، بل تطور مفهوم الوطنية من خلال سلوكه وعمله في بناء دولته،
 فقد بذل الأمير جهودا كبيرة في توحيد القبائل المتناثرة، ودعا زعماء البلاد إلى الوحدة الوطنية،
 واستطاع أن يكوّن منهم دولة حديثة قائمة على تعاليم الإسلام³.

¹ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، ج:1، ص:132

² - المصدر نفسه، ص:129

³ - يذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله أن الأمير عبد القادر حاول توحيد صفوف الجزائريين في صف واحد ضد
 العدو الفرنسي، فراسل الأمير علماء الجزائر وزعماء القبائل ورجال الطرق الصوفية يطلب منهم الانضمام ودعوة
 الناس للجهاد وإجابة دواعي الشرع، واستخدام نفوذهم الروحي من أجل مصلحة الدين والوطن، واستجاب منهم
 الكثير، وعيّن منهم في وظائف دولته، وقد صدق معه بعضهم إلى آخر رمق، ولكن بعضهم تأمروا عليه وحرابوه،
 أو لم يفهموا مهمته، أو تغلّبت عليهم الأنانية وحب المصالح الدنيوية، بل إن بعضهم قد خان الله ورسوله في ربطه
 علاقات ودية مع العدو وشاركه في كبح حركة الجهاد الشعبية، وهذه الخيانات كان لها أثر سيء على مقاومته.
 (سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:1، ص:271 - الأميرة بديعة الحسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا:

كما كان يتميز بروحه التقدمية وانفتاحه على عصره، وإعجابه بالتقدم الإنساني، وسعيه للأخذ بأسباب الحضارة الحديثة لأجل تطوير وطنه مستفيدا من التطور الحاصل في العالم؛ وكوّن جيشا حديثا مسلّحا بأحدث الأسلحة، ووضع على رأسه مدرّبين ماهرين، منهم أجناب، ووضع تنظيمًا إداريًا، مع اهتمامه بالتعليم والقضاء والتموين والمواصلات والتسليح والمخابرات وغيرها.¹

ثالثا: النزعة الإنسانية عند الأمير عبد القادر:

إن الأمير عبد القادر حاكم وقائد عسكري، وقبل ذلك فهو رجل تجلّت فيه معاني الإنسانية والرحمة والشفقة، سواء في علاقته مع رعيته، وحسن معاملته لجنوده، وتوفير ما يحتاجونه من ملبس وطعام ورعاية صحية²، أو في علاقته مع عدوه، أو في علاقاته الأسرية. ومن مواقفه أنه لما سمع بمرض والدته "لا لا فاطمة الزهراء"، لم يصبر، وصمّم السفر لزيارة أمّه التي كان يحبّها كثيرا، كما يروي ذلك كاتبه "ليون روش"، وقال للناس إنني لا أرغم أحدا على المسير معي، غير أن الحاشية استعدت كلّها لمرافقته، وانطلق الموكب في الساعة الثالثة مساء بعد الظهر، وكان الثلج لا يزال يتساقط، وكان البرد قارسا، وكان "الأدهم" وهو فرس الأمير يسبق دائما باقي الموكب المؤلف من ستين فارسا، وقد صعب عليهم مسايرة الأمير، وكان "روش" يسمعه يقول من حين إلى آخر: "يا إلهي مكني من رؤية أمّتك قبل وفاتها فأتلقي دعاءها"، وفي طريقه رأى الأمير بعض الأهالي الفقراء الذين كادوا يموتون من شدة البرد، فنزع الأمير أحد برانيسه وقدمه لأحد أولئك الفقراء. حتى وصل الأمير الزمالة عاصمة الأمير المتنقلة في الساعة الثامنة صباحا، ووجد والدته قد خف عنها المرض،

تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري، دار دلس، طبع في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية، وزارة الثقافة، سنة 1415 هـ / 2015م، ص: 112-114)

¹ - المصدر نفسه، ص: 130 و 131

² - حرشوش كريمة، أخلاقيات وإنسانية الأمير عبد القادر في الحرب: تعامله مع أسرى الحرب من الفرنسيين أنموذجا، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد 12، العدد 2، ماي 2021م، ص: 27

لقد قطع الموكب مسافة مائة وخمسين كيلوا متر في مدة خمس عشرة ساعة فقط، ولم يصل من الستين فارسا الذين غادروا "تاقدمت"¹ مع الأمير إلا أحد عشر فارسا².

كما تجلّت إنسانية الأمير طوال فترة جهاده التي دامت خمسة عشرة سنة ضد الغزاة المحتلين، رغم شراسة العدو ووحشيته بمواقف إنسانية نبيلة، فلم تخل من مواقف الحوار والتسامح والإنسانية مع عدو ماكر مخادع استعمل كل أساليب الفتك والتقتيل والتخريب. وحسن تعامله مع الأسرى، وكذا تسامحه مع المسيحيين الذين رافقوا الجيوش الفرنسية التي غزت الجزائر. إن تعامله مع الأسرى الذين غالبا ما تنتهك حقوقهم وحرمتهم في الحروب، واحترامه لآدمية الإنسان ولو كان أسير حرب كانت مثار إعجاب أعدائه، ويثني الكاتب والرحالة الألماني "فاغنز"³ على تفتح الأمير بقوله: "برهن الأمير أكثر من مرة على أنه يريد مساملة غير المسلمين، فاستضاف من زاره من الرسل الفرنسيين والرحالين، وأكرمهم وعاملهم بلطف، ولم يكن يرى ما يحول بينه وبين التحدث معهم في كل شيء، حتى في المواضيع الدينية. وكان يتكلّم بحبوية، ولكنه لم يكن يحتد أبداً، وحديثه أحيانا في منتهى الروعة، حيث كانت الكلمات الجميلة والأفكار البديعة تنبعث من فمه أخاذاً"⁴.

¹ - "تاقدمت" إحدى بلديات دائرة مشرع الصفاء التابعة لولاية تيارت الجزائرية، تُعرف بموقعها الاستراتيجي الهام، وتتابع عليها الكثير من الحضارات القديمة. تعد المنطقة عاصمة الدولة الرسمية، كما كانت العاصمة الثانية للأمير عبد القادر. وقد اختارها الأمير نظرا للمقومات الجغرافية التي تتميز بها، فهي تشكل موقعا محوريا في مجال التنقل والتجارة بين مختلف مناطق شرق وغرب الوطن إلى جانب كونها بوابة للصحراء.

² - محود بوعيايد، عبد القادر الإنسان، المرجع السابق، ص: 280 و281.

³ - موريتز فاغنز بالألمانية (Moritz Wagner)، ولد في بايروت سنة 1813، وتوفي في ميونخ سنة 1887م عن عمر ناهز 74 عاما. هو مستكشف وكاتب وعالم نبات، وأستاذ جامعي، من مملكة بافاريا، وقد

تولى إدارة جامعة لودفيش ماكسيميليان في ميونخ. <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

⁴ - محمد شاطو، مقال بعنوان: "هكذا رسّخ الأمير عبد القادر الجزائري قيمة التسامح"، متاح على موقع الشعب <http://www.ech-chaab.com/ar/>، اطلع عليه بتاريخ 2024/03/25م.

فالأمير عبد القادر، الجزائري العربي، كان يتطلع لأخلقة الحروب وتغليب روح الأخوة الإنسانية على فكرة الإبادة زمن الحرب بخلاف ما كان سائدا في كل الحروب العالم، ولقد كرس حياته في سبيل رسالة سامية في خلق همزة وصل بين الحضارتين الغربية والشرقية، وجسر للتكامل بين الدينين الإسلامي والمسيحي لإعلاء قيم الإنسانية والحفاظ على كرامة الإنسان في أحلك ظروف القتال والمعارك القاسية¹.

فرغم الحروب التي خاضها الأمير ضد عدو شرس حقوق دفاعاً عن أرضه وهوية شعبه لم تخرجه عن إنسانيته، ولم تبعده عن أخلاقه الإسلامية، ولم تضعف فيه جذوة الإيمان، ولم تفقد فيه روح العفو والتسامح، فالأمير في السلم هو نفسه الأمير في الحرب، وهو نفسه في أرض المعركة كما هو في خلواته في محراب العبودية لله تعالى.

ورغم تحايل العدو الفرنسي في خرق المعاهدات، ووحشيته في معاملة الأهالي، كان الأمير رحمه الله أمام سلوكيات العدو الدنيئة شهماً شجاعاً صريحاً كريماً عفيفاً، يسير على مبادئ واضحة، فلم يغتر بما اكتسب من انتصارات كبيرة على عدوه في معارك كثيرة وما ألحقه به من خسائر. واعترف له أعداؤه بأنه كان السبب في ترفيتهم إلى رتب عليا في الجيش، لأنهم كانوا يحاربون فارسا مغوارا شجاعاً²، قال الجنرال لاموريسيير (Lamouricière)³ مخاطباً أحدهم: (فلولا الحرب التي

¹ - مرايمي محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب...إسهام الأمير عبد القادر الجزائري في تطوير القانون الدولي الإنساني، نُشر هذا الموضوع في العدد 66 من مجلة «الإنساني»، الصادر في خريف/ شتاء 2019. متاح على موقع مجلة الإنساني، <https://blogs.icrc.org/alinsani/2020/04/30/3718/>، تاريخ الاطلاع عليه 2024/03/25

² - أبو القاسم سعد الله، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، ج:1، ص:131

³ - ولد لويس جوشاو دي لا موريسيير (Louis Juchault de Lamouricière) في 05 فبراير 1806 بمدينة نانت، وتوفي في 11 سبتمبر 1865 في بوزل. شارك في عام 1830 في الحملة على الجزائر.

خضناها ضد هذا البطل لما رأيت هذه الأوسمة على صدري، ولما وصلت إلى هذه الرتبة العالية، جئت هذه البلاد وأنا ضابط صغير فانظر إليّ الآن)¹.

فقد صارت شخصية الأمير هدية من الجزائر إلى العالم، في نشر قيم الخير والتسامح والإخاء من خلال عظمة شخصيته وسمو نفسه ونبل أخلاقه وجميل فروسيته وكمال إنسانيته وعبقريته قيادته بشكل أثار إعجاب العدو قبل الصديق، وثناء البعيد قبل القريب، وتأثر بعض أحرار العالم بشخصه، فكانت تلك القيم أرضية لنشأة ووضع قواعد القانون الدولي الإنساني الحديث². فالقواعد التي تحاكم إليها الأمير في تعامله مع عدوه أثناء القتال ومع أسرى الحرب نجد مضامينها كُرسّت في القوانين الدولية الحديثة³.

رابعاً: ثبات أخلاق الأمير وقيم إنسانيته أينما حلّ أو ارتحل:

1- الثبات على القيم والمبادئ في سجون فرنسا:

بعد انتهاء فترة جهاد الأمير ضد العدو الفرنسي المحتل في 23 ديسمبر 1847م، لم يف الفرنسيون بشرط الأمير أن يكون هو وأتباعه أحراراً في اختيار منافعهم، وأخلفوا وعدهم⁴ كعادتهم

تعلم اللغة العربية. تولى تسيير مكتب الشؤون العربية، كجهاز استعلامات ومراقبة للسكان الجزائريين، شارك في حملات عسكرية على بجاية وقسنطينة، انظر توفيق دحماني، مقال بعنوان: قسنطينة عشية الاحتلال الفرنسي 1837 من خلال وثائق نادرة، ص: 154

¹ - الأميرة بديعة الحسيني الجزائري، وما بدلوا تبديلاً: تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري، ص: 181.

² - مرابطي محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب، المرجع السابق.

³ - المرجع نفسه.

⁴ - جولاى بلالاك (باحثة أمريكية)، عنوان المقال: الأمير عبد القادر: أسطورة أدبية في الغرب، منشور على

موقع مجلة الفيصل بتاريخ 03 يناير 2019، وتم الاطلاع عليه بتاريخ 2024/04/29،

<https://www.alfaisalmag.com/?p=13900>

في نقض العهود والمواثيق، ففضى في سجون فرنسا مدة خمس سنوات، فأظهر الأمير شجاعةً وصمودًا أمام عائلته ومرافقيه لكي يعطيهم الأمل والمعنويات الضرورية لتخطي تحديات السجن¹. ورغم ظروف السجن بقي يحمل تلك المبادئ الإسلامية والإنسانية العالية، مدافعاً عن القيم الإنسانية والقضايا العادلة، داعياً إلى الحوار والتسامح والأخوة الإنسانية، إلى غاية إطلاق سراحه في 02 ديسمبر 1852م، حيث ذهب إليه نابليون شخصياً وأهدى له سيفاً، على أن يعده وعداً شريفاً بأنه لن يرفع السلاح ضد فرنسا ثانية، ثم أبحر الأمير مع كل من كان معه إلى الشرق الأدنى، إلى تركيا ثم بعدها إلى دمشق فاستقر بها، وقضى بقية حياته كاتباً معلماً متعبداً إلى غاية وفاته بها في منتصف ليلة 19 رجب 1300 هـ الموافق 24 مايو سنة 1883م²، وقد بلغ من العمر 76 عاماً، ودفن في حي الصالحية بجوار الشيخ محيي الدين بن عربي، ثم نقل جثمانه إلى الجزائر عام 1966م في عهد الرئيس هواري بومدين، ودفن في مربع الشهداء بمقبرة العالية.

فمواقف الأمير رغم الظروف الصعبة التي مرّ بها تعبر عن نبل أخلاقه وقوة شخصيته، ففي سجون فرنسا، وما عاناه من ألم الانتقال بينها، حيث قضى مدة قصيرة أسيراً في طولون حيث نُقل الأميرُ ونصفُ تابعيه إلى قصر لامالغو والنصف الآخر إلى قصر ملبروسكيت، ثم قررت الحكومة الفرنسية نقله وعائلته ومرافقيه إلى سفوح تلال مدينة بو (Pau)³ للإقامة في قصر هنري الرابع القديم، وفي الطريق بين طولون و بو وقفت سفينة الأمير عند ميناء سانت إتيان حيث كان السكان قد احتشدوا متطلّعين إلى رؤية الفارس الجزائري. نقل الأمير وعائلته للمرة الثالثة إلى قصر أمبواز (Amboise)، المكان الأكثر انعزاًلاً من بو، الذي كان مسكناً قديماً لملوك فرنسا، وعلى رغم

¹ - المرجع نفسه.

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:2، ص:46 و47.

³ - بو (Pau)، هي بلدية فرنسية تقع جنوب غرب فرنسا، محافظة إقليم البرانيس الأطلسية.

الظروف القاسية في قلعة امبواز، أخذ صيت الأمير في الذيوع أكثر فأكثر¹. ورغم ظروف السجن ورغم إلحاح فرنسا عليه بتغيير موقفه من الاحتلال الفرنسي ثبت الأمير على مبادئه ولم يتزحزح عنها، وفي ذات الوقف لم يكن يحمل في نفسه حقدا تجاه أحد، بل ظل كما قال الأستاذ أبو القاسم سعد الله متساميا كريما سمحا نحو أعدائه الذين حاربوه، وظل أيضا ثابتا محافظا على تقاليد أسرته وأعراف وطنه، ورغم ظروف السجن وتقييد حريته بقي ملتزما بمبادئ دينه يقوم الليل ويحافظ على شعائره، ويتعهد أبناءه بالتربية والتعليم وترسيخ قيم وطنه فيهم، كما كان كثير المطالعة والدراسة لقضايا العلم والفكر.

لقد حوّل الأمير قلعة "امبواز" إلى خلية للدراسة والمطالعة والمذاكرة مع من كانوا معه في الأسر، فقرأ عليهم السنوسية في التوحيد وأكثر مدونات الفقه المالكي وصحيح البخاري والشفاء للقاضي عياض وغيرها. وفي الأسر أّلف كتابه: "المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد"². وكان من الذين انتدبوا ليكونوا مع الأمير في معتقله لمؤانسته الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني الفقيه المالكي³.

¹ - جولاي بلالاك، عنوان المقال: الأمير عبد القادر: أسطورة أدبية في الغرب، المرجع السابق

² - محمد السيد محمد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري: ثقافته وأثرها في أدبه، ص: 50

³ - هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد، المعروف بمحمد الشاذلي القسنطيني ولد سنة 1222 هـ / 1807م، فقيه مالكي، وأديب، شاعر، قاض، مشارك في بعض العلوم. ولد ونشأ وتعلم بقسنطينة، ولما احتلها الفرنسيون سنة 1837م غادرها الى نواحي سطيف، ثم عاد إليها. واتصل بالفرنسيين، فكانت له صلوات متينة مع كبارهم من مدنيين وعسكريين. وتولى بموافقتهم قضاء المالكية حوالي عشرين سنة. كما تولى إدارة مدرسة سيدي الكتاني والتدريس بها منذ تأسيسها سنة 1850م إلى حين وفاته. قام بثلاث رحلات الى أوروبا، كما انتدب لمؤانسة الأمير عبد القادر في معتقله في أمبواز بفرنسا. مات بطولقة سنة 1294 هـ / 1877م. له "ديوان شعر". أّلف المؤرخ الجزائري الدكتور أبو القاسم سعد الله كتابا حوله بعنوان: "محمد الشاذلي القسنطيني من خلال رسائله وشعره". طبع بالجزائر سنة 1974م. انظر ترجمته (عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى

وقد أعجب كل من زاره من الساسة والمفكرين في سجنه، وانبهروا بشخصيته وتسامحه وسماحته. وعندما أطلق سراحه حظي بما يحظى به الملوك والأمراء من التبجيل والتعظيم، فخرج من السجن تحت استعراضات ضخمة واحتفالات رائعة وألعاب فروسية تقديراً لشخصه واعترافاً بمواقفه التي كان دائماً يقول عنها أنها كانت في خدمة دينه ووطنه¹.

2- تسخير حياته لخدمة الإنسانية:

ومن مواقفه الإنسانية الخالدة موقفه الجليل في إخماد نار الفتنة التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين في دمشق، فقد علم الأمير أنّ الفتنة توشك أن تلحق الدمار بالديار الشامية، فأسرع إلى حاكم دمشق يستنهضه ويحثه على ضرورة حماية المسيحيين من الهلاك المحتّم على أيدي المسلمين، ولما لم تجد محاولاته المتكرّرة التجاوب المرجو، أسرع إلى جمع العلماء، والوجهاء، والأعيان من أهالي دمشق وخاطبهم قائلاً: "إنّ الأديان، وفي مقدّمها الدين الإسلامي، أجلّ وأقدس من أن يكون خنجر جهالة، أو معول طيش، أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم.. أحذركم أن تجعلوا لشیطان الجهل فيكم نصيباً، أو يكون له على نفوسكم سبيلاً"². رغم تلك التحذيرات من الأمير اشتعلت الفتنة بدمشق يوم الاثنين 09 جويلية 1860م، وبقيت سبعة أيام متوالية، فصمّم الأمير حينها على اتخاذ كلّ ما في طاقته من تدابير لحماية المسيحيين؛ فجمع كلّ رجاله وأتباعه من المهاجرين الجزائريين ومحبّيه وخرجوا ليلاً يحملون المشاعل يطرقون أبواب المسيحيين ويؤمّنونهم على أنفسهم، وطلب منهم الأمير أن يخرجوا معه إلى حيث يقيم، وأحاطهم برجاله المسلّحين يجرسونهم طيلة أيام الفتنة. فلمّا علم بمقدم جموع المسلمين العازمين على الفتك بهم، خرج

العصر الحاضر، دار الوعي، الجزائر، ط سنة 1438 هـ/ 2017م، ص: 244 - الحفناوي، تعريف الخلف، ج: 2، ص: 386 - تحفة الزائر، ص: 531 وما بعدها

¹ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، ج: 1، ص: 132.

² - فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر في دمشق، ص: 266.

في طريقهم ومن معه صارخاً في وجوههم: "مؤسف جداً، أهذه هي الصورة التي تشرفون بها رسولكم صلى الله عليه وسلم؟ إِنَّ غَضَبَهُ سيكون عليكم لن أمكنكم من أيّ مسيحي، تراجعوا تراجعوا وإلا أعطيت لرجالي الأمر بإطلاق النار". فتفرقت الجموع بعد أخذ وردّ إثر فشلها في إيجاد منفذ للوصول إلى تحقيق ما كانت تعتزم الإقدام عليه. وظلّ الأمير مع نحو ألف رجل من أتباعه يجرسون قرابة خمسة عشر ألف مسيحي أياماً وليالاً¹. فرغم تحذيرات الأمير انطلقت شرارة الفتنة بدمشق يوم الاثنين 20 ذي الحجة 1276هـ/09 تموز 1860م، وبقيت سبعة أيام متوالية لم يفتقر فيها الأمير لحظة عن نصرة المظلومين وإنقاذهم من القتل ومداواة الجرحى وتعزية الشكالي والأرامل واليتامى، وكان يقضي أكثر الليالي ساهراً وبنديته في يده يجرس المسيحيين².

فقد جازف الأمير عبد القادر بحياته وحياة عائلته وذويه ورجاله في الدفاع عن آلاف المسيحيين بدمشق، عندما كانوا يتعرّضون لخطر الإبادة الجماعية في الأحداث الدامية والفتنة الطائفية، قائلاً مقولته الشهيرة: «لن تنالوا مسيحياً واحداً ما بقي جندي من جنودي حياً، إنّ المسيحيين ضيوفي يا قتلة النساء والأطفال، هيّا حاولوا أخذهم وسترون كيف يحسن جنود عبد القادر القتال، أقسم بالله بأننا سنجاهد من أجل قضية مقدّسة قداسة القضية التي جاهدنا في سبيلها من قبل»³.

وبلغ عدد الذين أنقذهم الأمير من الموت ممن التجأوا إلى داره وحماه نحو خمسة عشر ألف شخص، ولهذا فإن كافة نصارى دمشق مدينون له بهذا الموقف الإنساني الكبير. إن ما قام به الأمير من إنقاذ أرواح المسيحيين في تلك الأحداث، كان محل تقدير من كل رؤساء وملوك العالم

¹ - محمد شاطو، مقال بعنوان: "هكذا رسّخ الأمير عبد القادر الجزائري قيمة التسامح"، المرجع السابق

² - محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج:2، ص:92 وما بعدها - جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ج:1، ص:192 - فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر في دمشق، ص:267

³ - مرايبي محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب، المرجع السابق

والشخصيات، كملك بروسيا وقيصر روسيا وملك إيطاليا وملك اليونان، وكذا من قبل الجمعيات والمؤسسات ورجال الدين وغيرهم¹، ومدحه الشعراء بقصائد تقديراً لموقفه الشريف². وجاءته رسائل من كل أنحاء العالم، وقلّده أوسمة³. فقدّر نابليون الثالث هذه المبادرة، وقلّده وسام الشرف الفرنسي في سنة 1860م، عرفاناً له بجهوده وفضله، وحمل هذا الوسام الكلمات الآتية: (إلى أمير شمال إفريقيا، والمدافع عن القومية العربية، وحامي المسيحيين المضطهدين)⁴. كما جاءته رسائل تقدير واحترام من المحافل الماسونية بمناسبة إنقاذه خمسة عشر ألف مسيحي في دمشق، والقضاء على الفتنة الطائفية دون أن ينتسب إلى الماسونية كما يشيع البعض⁵، وفي عام 1860م أرسلت الجمعية الفرنسية المعروفة باسم "جمعية عمل الخير وإعانة المصابين في البر والبحر" في سنة 1862 كتاباً بمناسبة دفاعه عن المسيحيين بالشام جاء فيها: "إن جمعية المصابين المؤلفة من أعيان الأمصار ووجوه المدن الشهيرة في فرنسا اتفقت كلمتها على أن يكون الأمير عبد القادر رئيس شرف لها اعترافاً بما أبداه من أعمال الخير الجسيمة في سورية عام 1860م". وفعلت مثل ذلك الجمعية الأمريكية الشرقية، فقرر مجلس إدارتها اعتبار الأمير عبد القادر عضواً شرفياً فيها سنة 1860م، وكذلك جمعية

¹ - محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر، ج:2، ص:98 وما بعدها-الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص:309- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر في دمشق، ص:267

² - منهم الشاعر أمين الجندي، والشاعر سليمان الصولة، والشاعر إبراهيم الأحذب. وقد ذكر ذلك محمد بن الأمير عبد القادر في كتابه تحفة الزائر، ج:2، ص:101 وما بعدها. انظر (فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر في دمشق، ص:267 و268)

³ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج:1، ص:133

⁴ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج:2، ص:48

⁵ -علي محمد الصلابي، مقال بعنوان: "عبد القادر الجزائري، كيف شوّهت الاستخبارات رموز النضال الشعبي، متاح على موقع <https://www.aljazeera.net/blogs/2018/2/4/>، اطّلع عليه

حماية المدن في فرنسا. وفي تلك المناسبة ذاتها وصلت الأمير مئات من رسائل التقدير والأوسمة الرفيعة من حكام العالم وزعمائه ومفكره وغيرهم¹.

ويؤكد الأمير أن ما فعله تجاه إخوانه المسيحيين هو ما تمليه تعاليم دينه الحنيف وأخلاقه السامية وتشبعه بالقيم الإنسانية. فقد كاتب ملكة بريطانيا ردّاً على الهدية التي أرسلتها إليه بتاريخ 20 محرم 1278هـ بمناسبة موقفه الشريف: "إني لم أفعل إلا ما توجبه عليّ فرائض الإيمان، ولوازم الإنسانية"²، ورد على رسالة صديقه الإمام شميل قائد ثورة القوقاز ضد الروس في سنة 1860م التي شكر له فيها حسن صنيعه في هذه الحادثة، فقال له: "فإنّه وصلي الأعزّ كتابكم، وسرّني الألدّ خطابكم، والذي بلغكم عنا، ورضيتم به منا من حماية أهل الذمة والعهد والذب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد، هو كما في كريم علمكم مقتضى أوامر الشريعة السنية والمروءة الإنسانية". وعندما كاتبه أسقف الجزائر "باي" (Pavy) شاكرًا له موقفه هذا تجاه المسيحيين، أجابه بما يلي: "ما فعلناه من خير للمسيحيين، ما هو إلا تطبيق لشرع الإسلام، لأنّ كلّ الخلق عيال الله وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله، وكلّ الأديان من آدم إلى محمد عليهما السلام تعتمد على مبدأين هما -تعظيم الله جلّ جلاله والرحمة بمخلوقاته، وما عدا هذا ففرعيات ليست بذات أهمية كبيرة والشريعة المحمدية هي من بين الشرائع التي تعطي أكبر أهمية للاحترام والرحمة والرأفة وكلّ ما يعزّز التآلف ونبذ التخالف". كيف لا تكون هذه مواقفه وهو القائل: "لو أصغى إليّ المسلمون والنصارى، لرفعت الخلاف بينهم. ولصاروا إخواناً، ظاهراً وباطناً. ولكن لا يصغون إليّ"³.

1 - علي محمد الصلابي، المرجع نفسه.

2- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر في دمشق، ص: 267

3- محمد شاطو، مقال بعنوان: "هكذا رسّخ الأمير عبد القادر الجزائري قيمة التسامح"، المرجع السابق

لقد تجسّدت في شخص الأمير مواصفات قلّما نجدُها في غيره؛ تجمع بين الإنسان المتسامح الرحيم، والمتثقف المتأمل، والزاهد العابد، والفارس المجاهد، والدبلوماسي البارِع، والأمير الباحث عن الحرية والعدالة من خلال القيم والمبادئ النبيلة التي تروى عليها منذ الصغر¹.

خامسا: إحياء هدي النبوة في أخلاقيات الحرب:

إن حروب الأمير عبد القادر ضد العدو الفرنسي وكذا مواقفه في حماية المسيحيين في دمشق أسّست لمنظومة أخلاقية وسلوكية تحكم الحروب والقتال، تتجلى مظاهرها في طريقة قتاله، وفي الأساليب النبيلة في التعامل مع أسرى الحروب التي خاضها، واتسم بها أيضا جيشه، وطرق تواصله مع خصومه وأعدائه، فهو بقدر ما واجههم بقوة وبسالة وشجاعة وشهامة الفرسان، فإنّه أيضا نازلهم بسموّ الأخلاق وقوّة الخطاب الإنساني، دون أن يعتدي على إنسانية العدو ولا أن يمس بعقيدته ولا أن يهين مقدساته².

لقد كان الأمير عبد القادر محكوما بأحكام شريعة الإسلام، وبهدي النبي صلى الله عليه وسلم، وبالآداب والسلوك الذي تلقاه عن مشايخه المرين، فكان يتصرف في الحرب يتصرف المسلم الملتزم الذي لا تزعزعه ويلات الحرب عن دينه وخلقه وسمو عقيدته.

لقد تأثر الأمير بالنبي صلى الله عليه وسلم في حروبه وغزواته بسنة وسيرته صلى الله عليه وسلم، لقد تعلّم من النبي صلى الله عليه وسلم أن الحرب ضرورة وليست غاية؛ وأنها ليست من باب التسلط والاعتداء، وإنما من أجل المحافظة على الدين والوطن والأرواح، وكضرورة لتأمين سُبل الدعوة إلى تعاليمه السمحة حتى تُبلّغ للناس كافة، والدفاع عن حرية العقيدة والذود عن بلاد

¹ - المرجع نفسه.

² - مرايمى محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب، المرجع السابق.

المسلمين وحرماهم وأعراضهم¹، قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) البقرة:190.

فالنظر في حروب الرسول صلى الله عليه وسلم ضد أعدائه من المشركين واليهود والنصارى، يجد فيها نبل أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء الأعداء الذين حاربوه بكل بغض وحقده، وآذوه إيذاء شديداً، إلا أنه كان يعاملهم بتعاليم الإسلام السمحة، وهو الذي أرسله ربه جلّ وعلا رحمة للعالمين، فكان صلى الله عليه وسلم يوصي بعدم الغدر وعدم قتل من ليس له علاقة بالقتال، وعدم التمثيل بالجثث²، فعندما أرسل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في شعبان سنة (6هـ) إلى قبيلة كلب النصرانية الواقعة بدومة الجندل؛ قال له ولجنده: (اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرته نبيه فيكم)³.

فكان صلى الله عليه وسلم حتى في الحرب التي لا مجال فيها للعطف والشفقة يتصف بالرحمة تجاه الضعفاء والعجزة، وينهى عن قتل النساء والولدان⁴، وأوصى الجيش المتجه إلى غزوة مؤتة⁵؛

¹ راغب السرجاني، مقال بعنوان: "أخلاق رسول الله في الحروب وبعدها"، نشر بتاريخ 28/04/2010 بموقع <https://www.islamstory.com/ar/artical/278/>، تم الاطلاع عليه في 2024/04/03م.

² - المرجع نفسه.

³ - رواه الحاكم في المستدرک، رقم: 8623، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: صحيح. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج: 5، ص: 144.

⁴ - ابن القيم: شمس الدين أبو عبد الله (ت751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط6، سنة 1404هـ/1984م، ج: 3، ص: 99.

⁵ - غزوة مؤتة أول غزوة يخوضها المسلمون خارج حدود الجزيرة العربية. وقد وقعت هذه الغزوة في شهر جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة، الموافق لشهر أغسطس من العام ستمائة وتسعة وعشرين من الميلاد ضد الروم. وضع الرسول الكريم على رأس الجيش زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فبعد الله بن رواحة، وإن قتل عبد الله اختار المسلمون قائداً عليهم. صمد فيها ثلاثة آلاف مقاتل مسلم أمام مائتي ألف من الروم

قائلا لهم: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، أو امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا مُنْعَزِلًا بِصَوْمَعَةٍ¹، وقال بريدة رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرًا على جيشٍ أو سريةٍ أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، وكان مما يقوله: "...ولا تقتلوا وليدًا..."². وكان يغضب غضبًا شديدًا إذا وجد طفلًا مقتولًا أو امرأة، فقد روى الأسود بن سريع رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سريةً يوم حنين فقاتلوا المشركين، فأفضى بهم القتل إلى الدرّية فلما جاءوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما حملكم على قتل الدرّية؟" قالوا: يا رسول الله، إنّما كانوا أولاد المشركين. قال: "أوهل حياركم إلا أولاد المشركين؟! والذي نفس محمد بيده ما من نسمةٍ تولد إلا على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها"³، وعن رباح بن ربيع قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوةٍ، فرأى الناس مجتمعين على شيءٍ؛ فبعث رجلاً فقال: "انظر: علام اجتمع هؤلاء؟" فجاء؛

والقبائل العربية الخليفة لهم لمدة ستة أيام كاملة، قُتل فيها القادة الثلاثة الذين عيّنهم النبي صلى الله عليه وسلم. انتهت المعركة في اليوم السابع بعد استلام خالد بن الوليد قيادة الجيش، وقام بانسحاب تكتيكي ناجح وأقل

الخسائر. ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج:3، ص:381 وما بعدها

¹ - أخرج الحديث بدون ذكر قصة أهل مؤتة الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير: باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها، رقم:1731.

² - مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بأداب الغزو وغيرها، رقم:1731.

³ - أحمد في المسند، رقم:15626، والحاكم في المستدرک، رقم:2566، وعبد الرزاق في المصنف، رقم:20091، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم:18114، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (402).

فقال: على امرأةٍ قتيلٍ. فقال: "ما كانت هذه لثُقَاتِلٍ". قال: وعلى المقدّمة خالد بن الوليد؛ فبعث رجلاً فقال: "قُلْ لِحَالِدٍ: لا يفتلنّ امرأةً ولا عسيماً"¹.

وكان صلى الله عليه وسلم يميل إلى العفو والصلح ويجنح إليه، وكان يعرض الإسلام أو الجزية أولاً، إلا أن يصرّ العدو على القتال، فيقاتله صلى الله عليه وسلم، فإن رغب العدو في الصلح حتى وإن كان المسلمون في مركز قوة قبل الصلح، ففي غزوة خيبر لما أيقن اليهود بالهلكة، وقد حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر يوماً نزل إليه ابن أبي الحقيق؛ فصالحه على حقن دمائهم ويُسيّرهم، ويُخلّون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة وعلى البرّ، إلا ما كان على ظهر إنسان أي لباسهم³.

لم يكن من أخلاقه صلى الله عليه وسلم الانتقام وسفك الدماء وانتهاك الأعراض ونهب الأموال، بل شيمته العفو والصفح⁴، فلما تمكّن من قريش التي حاربتة قريش وقتلت ما قتلت من أصحابه، وعذبت المسلمين، عفا عنهم جميعاً، حيث قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا

¹ - العسيف: الأجير. انظر: العظيم آبادي: عون المعبود 236/7.

² - أخرجه أصحاب السنن، منهم: أبو داود: كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، رقم: 2669 - وابن ماجه، كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابُ الْغَازَةِ، وَالْبَيَاتِ، وَقَتْلِ النِّسَاءِ، وَالصَّبِيَّانِ، رقم: 2842، وأخرجه الحاكم في المستدرک، رقم: 2565، وقال عنه: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح. انظر السلسلة الصحيحة (701).

³ - ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل (774 هـ)، السيرة النبوية (مُستلّاً من كتابه: البداية والنهاية)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط. عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة 1395 هـ / 1976م، وصوّرتّها: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ج: 3، ص: 376.

⁴ - راغب السرجاني، مقال بعنوان: "أخلاق رسول الله في الحروب وبعدها"، المرجع السابق.

معشر قُرَيْشٍ، ما تُرُونَ أَيَّ فَاعِلٍ فِيكُمْ؟" قالوا: خيرًا، أخُ كَرِيمٌ وابنُ أخٍ كَرِيمٍ. قال: (اذهبوا فانتمُمُ
الطَّلَقاء)¹.

على أساس هذه الأخلاق النبوية العالية وتعاليم الإسلام الوسطية السمحة بنى الأمير عبدُ
القادر جيشَه ورَبَّى جنودَه عليها، فكان يوصي مقاتليه بامتثال أخلاق الإسلام، وبضوابط الجهاد
الذي يجب أن يكون في سبيل الله، والذي شُرِع للدفاع عن الأرض والعرض والعقيدة مع احترام
الجوانب الإنسانية سواء عند الانتصار أو الهزيمة، والقرآن الكريم كان واضحًا في بيان مبررات القتال،
قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) الحج: 39 و40.

ومما يُلاحظ على أخلاق الأمير أنها لم تتغير زمن الحرب، فهي كما هي في السلم، وهي أيضا
عند الانتصار أو الهزيمة، حتى عند تلقيه الهزائم والمآسي والنكبات لم يرتكب هو ولا قاداته ولا جيشه
ما يسيء إلى أخلاقهم في الحرب أو يُشوّه رمزية قضية الشعب الجزائري العادلة ضد عدو ظالم معتد
ماكر مستعمر غاشم استعمل كل وسائل القوة والوحشية والتخريب والتقتيل لأجل فرض سيطرته
وهيمنتته بقوة الحديد والنار.

ولقد سجّل التاريخ صفحات مشرقة عن قتال الأمير ضد عدوه، فلم يتصف بما يتصف به
عادة القادة والأمراء من غطرسة وكبرياء وظلم وتعال على الرعية والجند، كما عند ملوك فارس
والروم؛ فقد عامل عدوه معاملة إنسانية، فهو لم يقاتل إلا من يقاتله، ولم يقم بما قام به غيره من
القادة في معاملة الجنود المأسورين بقسوة ووحشية، أو تعذيبهم، أو قتلهم، أو التمثيل ببحث القتلى،
ولقد أصدر بهذا الخصوص مرسومًا من جانب واحد يلزم فيه قاداته وجنودَه بالالتزام بمبادئ وأخلاق

¹ - ابن كثير: السيرة النبوية، ج: 3، ص: 570 - ابن القيم: زاد المعاد، ج: 3، ص: 356

الحرب واحترام الكرامة الإنسانية للمقاتلين الأعداء بغض النظر عن مدى التزام العدو بذلك أو لم يلتزم، وهو ما جعل الأمير محل احترام كبار ضباط فرنسا¹.

سادسا: سمو أخلاق الأمير في معاملته لأسرى الحرب:

مواقف الأمير عبد القادر الإسلامية منها والإنسانية الراقية في معاملة أسرى الحرب أسست لمنظومة سامية في ترسيخ أخلاق عالمية للحرب، كما كان لها التأثير المهم في الفكر القانوني الحديث في اتجاه العالم نحو وضع قوانين ومواثيق لأخلاق الحروب وحماية حقوق الإنسان أثناء النزاعات المسلحة وحماية المدنيين.

فقد اشتهر الأمير بالمعاملة الإنسانية لأسرى الحرب الذين كانوا يقيمون في قبضته، فكان يلطف بهم ويؤانسهم، ويعاملهم بالرحمة والرفق، وكثير منهم فروا إليه بعد إطلاق سراحهم²، إلى درجة أن الأمير أمر بأن يزور قسيس السجناء ليلتبي احتياجاتهم الروحانية كما سبقت الإشارة إليه. بل كانت والدة الأمير لا لا فاطمة الزهرة تلك المرأة الوديدة المهذبة كما وصفها الكاتب تشرشل التي قامت بحماية كل النساء السجينات، وكانت تشرف بنفسها على معاملة الأسيرات اللواتي كان يُؤتى بهن مع الرجال إما زوجات أو بنات لهم، وكانت تأمر بوضع خيامهن ملاصقة لخيمتها في الزمالة، وعيّنت على حراستهن عددا من الجنود. وكانت في كل صباح تناول السجينات بنفسها

¹ - مرايمي محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب، المرجع السابق

² - أبو القاسم سعد الله، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، ج:1، ص:132 - حرشوش كريمة، أخلاقيات وإنسانية الأمير عبد القادر في الحرب: تعامله مع أسرى الحرب من الفرنسيين أنموذجا، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد 12، العدد:2، ماي 2021م، ص:30

هدايا من الزيت والزبدة واللحم وغيرها، وإذا أصاب إحداهن مرض فإنها تحضر لها بحنان الأمومة الشاي والسكر والقهوة، وكل شيء تظن أنه قد يخفف عنها الألم ويوفر لها الراحة¹.

وكان الأمير يشفق على المرأة الأسيرة، ويفرق في المعاملة بين المرأة الأسيرة والرجل الأسير، فالذي يجيء بالمرأة له مكافأة تفوق بالذي جيء بالرجل، لا لشيء سوى رحمته بالمرأة عموما وشفقته على المرأة الأسيرة بوجه خاص حتى لا يصيبها أذى، وقد ذكر الكاتب تشرشل في كتابه عن حياة الأمير ما نصه: "كان منظر النساء السجينات يزعج الأمير عبد القادر، حتى أن مجرد التفكير في أن تصبح المرأة ضحية للحرب كان في حد ذاته مصدر قلق دائم له"². وقال أيضا عنه: (ويبدو أن مجرد منظر السجين كان يثير في صدر عبد القادر أسى العواطف وأنبال المشاعر العزيزة على الطبيعة الإنسانية. فقلبه الذي عُرف بالقسوة والجساسة ساعة الخطر، كان يتسع ويلين ليصبح في نعومة قلب امرأة أما مصير الأسير المظلم المخيف)³.

فقد عمل الأمير على وضع تقاليد وممارسات حربية وضوابط قتالية في التعامل مع العدو أثناء القتال من جهة ومن جهة أخرى التعامل مع الأسرى الفرنسيين من جهة أخرى، مع حسن التكفل بهم ماديا ومعنويا، ولا أدلّ على ذلك من سنّ قواعد قانونية تجسد تلك المعاني في "مرسوم سنة 1843"، تلك المعاني والممارسات نجدها فيما بعد في العصر الحديث كرسّت بصفة عامة فيما

¹ - شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، دار الرائد، الجزائر، ط سنة 2009م، ص: 264 و 265 - الأميرة بديعة الحسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا: تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري، ص: 178.

² - شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص: 263

³ - المصدر نفسه، ص: 262

يسمى بالقانون الدولي الإنساني، وبصفة خاصة في اتفاقيات جنيف لعام 1949، وبالتحديد في الاتفاقية الثالثة¹.

ومما يثير الإعجاب أن السجناء في أي حرب عندما يُطلق سراحهم يحملون ذكريات سيئة، ويودّون لو ينتقمون ممن سجنهم لما لاقوه من قساوة ظروف الأسر وسوء المعاملة. لكن الأمير عبد القادر في فترة حبسه في سجون فرنسا زار عدد من الجنود الذين كانوا أسرى عند جيشه، وأعربوا عن امتنانهم لما لاقوه من حسن المعاملة والإكرام. ففي خلال إقامة الأمير في طولون (Toulon) زاره أحد سجنائه السابقين وهو الرقيب الذي صار جنرالاً فيما بعد "أوجان دوما" (Eugène Daumas) (1803-1871)² لكي يعبر عن تقديره للأمير الذي كان قد أمر جيشه آنذاك بمعاملة السجناء باحترام وإنسانية. ورغم أن هذا الرقيب مكلف بصفة رسمية من دولته لمتابعة الأمير ونقل أخباره ورعايته ومرافقيه خلال الحبس في "طولون"، ورغم أن مهمته أيضاً هو محاولة إقناع الأمير للإقامة في فرنسا بدل المشرق العربي، إلا أنه اتسمت العلاقة بينه وبين الأمير بنوع من التقرب والصدقة. وهكذا أصبح الرقيب "دوماً" الشخص الوحيد الذي كان الأمير يعبر أمامه عن قلقه وانزعاجه من الحبس في سجون فرنسا. علماً أن هذا الرقيب في كتابه «عبد القادر في قصر أمبواز» دَوّنَ شهادته عن صفات الأمير ونبل أخلاقه، وكيف كان يستقبل الزوار ويجاورهم بلباقة وظرف وتواضع كأنه ليس أمير المؤمنين بل خادم الإنسانية. ويذكر أيضاً كيف أن الأمير أحس بتأنيب الضمير لعدم استطاعته معاونة الفقراء في مدينة بوردو (Bordeaux) بعد استضافة المدينة له³.

¹ -مرايبي محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب، المرجع السابق.

² -هو صاحب كتاب " الخيل الصحراوي وعادات الصحراء" الذي نشره عام 1851، كما أنه نشر كتاب "المرأة العربية" الذي تضمّن عشرين سؤالاً وجهها إلى "الأمير عبد القادر". وقد نشرت "المجلة الإفريقية" تلك الأسئلة سنة 1912، كما تضمّنتها كتاب "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر"

³ - جولاي بلالاك، عنوان المقال: الأمير عبد القادر: أسطورة أدبية في الغرب، المرجع السابق.

وهناك أيضا عددٌ من السجناء السابقين الذين كتبوا إلى الأمير عبّروا عن امتنانهم له نظيرَ معاملته الشريفة والإنسانية لسجناء الحرب. وحدث في يوم من الأيام أن سمع حارس من "قصر التويلري الملكي" (Palais des Tuileries) بباريس¹ بوجود عبد القادر الجزائري في "قصر بو" فطلب من الدولة بعثه إليه لكي يحرس الأمير. اكتُشف لاحقًا أن هذا الحارس كان أيضًا سجينًا سابقًا عند جيش الأمير².

وتجلّت تلك المعاملة في ثلاثة جوانب أساسية، هي:

1 - الجانب المادي:

حيث عامل أسراه كما عامل جنوده من حيث إطعامهم والتكفل بهم صحيا وعدم تعذيبهم، ففي عام 1842م والأمير لا يزال في حربه مع العدو الفرنسي، أمر بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين بدل قتلهم، بعدما لم يجد من الطعام ما يطعمهم به. وهو ما أثار إعجاب القادة العسكريين الفرنسيين، منهم السفاح المجرم "المارشال سانت أرنو (Armand-Jacques Leroy de Saint-Arnaud)"³ الذي مارس التنكيل والتعذيب والقتل الوحشي للجزائريين اعترف بأن الأمير عبد القادر أعاد له كل الأسرى الذين كانوا بحوزته من دون شرط وبدون تبادل، على الرُّغم

¹ - تم تدميره وإحرقه في شهر مايو 1871م من قبل الثوار الفرنسيين الذين ثاروا ضد الحكم الملكي

² - المرجع نفسه.

³ - سانت أرنو، قائد عسكري فرنسي برتبة مارشال، ولد في 17 سبتمبر 1804م في مدينة لاروشيل إحدى المدن الفرنسية، رحل مع أبيه إلى الجزائر في فترة حكم المارشال بيجو، تولى بعض الوظائف في الجزائر كمترحم قضائي ثم كقائد عسكري، ومنها مشاركته في إخماد ثورة المقراني رحمه الله تعالى، وتولى رئاسة بلدية قسنطينة، وتوفي بقسنطينة في 16 ماي 1907م. (نور الهدى خير والنخلة بوميديونة، مذكرات المارشال سانت أرنو ومساهماتها في التاريخ للجزائر فترة المقاومة، إشراف د. رزيقة محمدي، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة يحيى فارس، المدينة، سنة 1442 - 1443 هـ / 2021 - 2022م، ص:16 و17).

من أنه كان قادرًا على قتلهم والتخلص منهم¹، ذلك أن أمثال سانت أرنو وغيره من القادة العسكريين الفرنسيين لم يألفوا مثل هذه الأخلاق الحربية، فتاريخ فرنسا خصوصا وأوروبا عموما مليء بالمجازر الوحشية والتعذيب، وهي نفس الوحشية التي قابلت بها فرنسا المدنيين والسجناء الجزائريين، وقابلوا بها الشعب الجزائري بعد انطلاق ثورته المجيدة، وإبادتهم لقرى بأكملها، وقتلهم للمدنيين من نساء وأطفال وشيوخ وفلاحين، وتعذيبهم للجزائريين بأشد أساليب التعذيب، وهي نفس الوحشية التي ارتكبتها الأوروبيون في حروبهم في أمريكا وآسيا وإفريقيا، وهي نفس الوحشية التي يتعرض لها الفلسطينيون منذ سنة 1948م، والمجازر التي ارتكبتها الصهاينة المغتصبون في "دير ياسين" (1948م)، و"كفر قاسم" (1956م)، و"صبرا وشيتلا" (1982م)، ومذبحة المسجد الأقصى (1990م)، ومذبحة "نجيم جنين" (2002م) وغيرها، وما الحرب الأخيرة على قطاع غزة منذ 07 أكتوبر 2024 ووحشية المحتل الصهيوني في استهداف المدنيين والقصف العشوائي وهدم المستشفيات والبيوت والمساجد فاقت كل الوحشيات التي عاشتها البشرية عبر تاريخها الطويل.

2 - الجانب الديني:

إن الأمير عبد القادر رجل دين، تلقى التربية الدينية منذ صغره في الزاوية، وهو متبع لطريقة صوفية معروفة، ومنتشع بالقيم القرآن الكريم يدعو إلى احترام الأديان وأهلها، واحترام حرية الدين والعقيدة، فقد كفل الحرية الدينية لغير المسلمين دون إكراه أو تضيق أو منع، قال تعالى مخاطبا غير المسلمين: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) الكافرون: 1-6، فالإسلام من خلال كتابه المقدس دعا إلى احترام الأديان، وعدم إكراه أحد على الدخول في الإسلام، وحرية العقيدة مكفولة للجميع، (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) البقرة: 256. ولم يسجل التاريخ عن

¹ - مرايمى محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب، المرجع السابق.

المسلمين أنهم اتخذوا من الاختلاف في الدين مبررا للتسلط والاستعلاء وقهر الآراء، أو وسيلة للاعتداء والتعدي ونهب الأموال وسبي النساء وهضم الحقوق¹، لقد تشبّع الأمير بهذه القيم القرآنية وانعكست على أخلاقه الحربية، فهو يعلم أن التدين قائم على الاقتناع والرغبة وليس على الإكراه والرهبنة، والعبادة والتبتل إنما تأتي من قلب مقبل خاشع، وليس من نفس مكرهة. كما تأثر الأمير بأسلافه من قادة المسلمين الفاتحين، حيث لم يلزموا أحدا في تلك البلدان التي فتحوها بالدخول في الإسلام، بل كانوا يدعونهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فلم يلزموا أقباط مصر ولا نصارى الشام على ترك دينهم المسيحي، وذكر بعض المؤرخين أن عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس أقرّ النَّصارى على دينهم ورفض أن يصلي في كنيسة القيامة لما حان وقت الصلاة مخافة أن يتخذها المسلمون من بعده مسجدا². فلم يرغم المسلمون أحدا على الدخول في دينهم، أو ترك معتقداتهم. ولقد سجّل التاريخ صفحات مشرقة من التسامح في معاملة المسلمين الفاتحين لأهل البلاد المفتوحة³، وكثير من شعوب آسيا دخلوا في الإسلام متأثرين بحسن أخلاق التجار المسلمين. ولا شك أن هذا المبدأ القرآني وهو الحرية الدينية واحترام شعائر المخالفين يشكل عاملا مهما في تقوية الروابط بين الناس وتحقيق التقارب والتكامل الإنساني.

فقد أعطى الأمير عبد القادر تعليماته لجنده في حسن معاملة الأسرى وعدم إيذائهم، إتباعا لتعاليم القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا

¹ - عادل عبد الله صبري هندي، **التعايش السلمي ومقاصده**: مجتمع المدينة المنورة نموذجا، حولية كلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد: 36، المجلد: 2، 2023/2022م، ص: 100

² - ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج: 2، ص: 225

³ - عبد ربه عبد القادر حسن العنزي، **التعايش السلمي من منظور إسلامي**، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، مجلد 1، عدد: 41، جمادى الأولى 1438هـ/ كانون الثاني 2017م، ص: 188.

نُطْعِمُكُمْ لَوْجِهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) الإنسان: 8 و9، وهذا باعتراف الكتاب الغربيين، وقد أفرد الكاتب شارلز هنري تشرشل في كتابه حول حياة الأمير الفصل السادس عشر للحديث عن حسن معاملة الأمير للأسرى ورحمته بهم وشفقته عليهم، وكان يُعاملون كضيوف لا كأسرى حرب¹، يقول تشرشل: "إن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداها عبد القادر نحو الأسرى ليس لها مثيل في تاريخ الحروب، فكبار الضباط المسيحيين عليهم أن يجلسوا عند قدميه وأن يتمسحوا بهما لانخطاطهم في المعاملة"². وكان الأمير كما قال لويس فالليوت (Valiot) كاتب أسرار الماريشال بيجو في تاريخه المسمى "الفرنسيون في الجزائر": (عدو كريم الأخلاق، فإن كل من كان أسيرا عنده قد أثنى عليه)³.

وأیضا ترك الأمير الأسرى يمارسون شعائهم بكل حرية، فلم يذكر أحد من المؤرخين أن الأمير أرغم أسراه أو بعضهم على تغيير دينه، ولم يكن هو نفسه يقبل من أحد من الأسرى أن يغير دينه تحت وطأة الخوف والإكراه التهديد، وذات يوم أحضر أمام الأمير عبد القادر سجينان فرنسيان فقالا له: "أيها السلطان إننا نرغب أن نصبح مسلمين وإننا مستعدان أن نعتنق دينك"، فأجابهما: "إذا كنتم تفعلان ذلك عن طيب خاطر فأهلا وسهلا بكما، ولكن إذا كنتم تفعلان ذلك شعورا منكما بالخطر أثناء الحالة التي أنتم عليها فإنكما مخطئان، فلو ظللتما مسيحين كما أنتم الآن فلن يحدث لكما أي إزعاج ولن تمس شعرة من رأسيكما، فكّرنا فيما سيحدث لكما لو عدتما إلى أهلكما بعد أن تخليتما عن دينكما، ألن يعاملوكما كما يعامل الكفار المجرمون؟ وكيف تأملان أن

¹ - شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص: 259-271

² - تشرشل، المصدر نفسه، ص: 261

³ - محمد أسامة عليه، مقال بعنوان: "من مآثر الأمير عبد القادر"، مجلة الرسالة المصرية، القاهرة، 1367 هـ / 1948م، مج 16، العدد 784، ص: 778، نقلا عن فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، ص: 56

تستفيدا من المناسبة إذا ما حدث تبادل للأسرى؟"¹، بينما صاح سجين فرنسي بكل غضب قائلاً:
"أما بالنسبة لي فلن أتخلي عن ديني، قد تقطعون رأسي، ولكن لن تقدرُوا علي جعلي أرتد عن
ديني"، فرد عليه الأمير عبد القادر: "هون عليك فإن حياتك محرمة علي، إنني أحب سماع هذه
اللهجة، إنك رجل شجاع ومخلص وتستحق تقديري، فأنا احترم الشجاعة في الدين أكثر من
الشجاعة في الحرب"².

وقد سمح للقس أن يزور الأسرى ويتفقد أحوالهم، ويمارس معهم صلواتهم المسيحية، والتواصل
معهم، وطمأنة ذويهم وعائلاتهم والحصول على كل ما قد يخفف من وطأة أسرهم من مال وملابس
وكتب وغيرها. فكان ذلك السلوك من الأمير سنة من بعده، فرسالته الشهيرة التي بعث بها الأمير
عبد القادر إلى الأسقف ديبيش (Antoine-Adolphe Dupuch)³ سنة 1841م بهذا

¹ - شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص:262

² - المصدر نفسه.

- وُلد بمدينة بوردو في 20 ماي 1800م، وتوفي في 11 جويلية 1856، ونقل جثمانه إلى الجزائر ودفن في³
كاتدرالية الجزائر العاصمة. بعد احتلال فرنسا للجزائر مباشرة بدأ النشاط التنصيري من قبل القساوسة الفرنسيين،
وفي تلك الفترة بدأ الفرنسيون يتفاوضون مع الفاتيكانيين من أجل فتح أسقفية في الجزائر، وتم تعيين أنطوان ديبيش
(Antoine dupuch) في الجزائر من سنة 1838 إلى سنة 1846. évêque d'Alger كأول أسقف (Antoine dupuch)
وهذا الأسقف هو صاحب كتاب الجزائر المسيحية الرومانية الفرنسية، ولم يكن قبل ديبيش إلا سبعة قساوسة منهم
أربعة في العاصمة واثان في عنابة وواحد في وهران. وخلال ثماني سنوات التي قضاها ديبيش في الجزائر ترك بعد
مغادرته لمنصبه 60 كنيسة ومعبد و91 قسيسا و140 إطارا من النساء والرجال في الشئون الدينية وملجأ
للأيتام. أما كبير منصري الجزائر شارل لافيحري فقد بلغ عدد الكنائس التي أسسها إلى غاية سنة 1892م أكثر
وكانت للأسقف ديبيش علاقة مع .من (121) كنيسة وبلغت مراكز التنصير 133 مركزا إلى غاية سنة 1930م
الأمير عبد القادر، ووقع بينهما تبادل الأسرى. وقد زار الأمير أثناء سجنه في فرنسا. عن موقع أخبار اليوم.

<https://www.akhbarelyoum.dz/ar/200243/200292/310878-2021-12-21-19-18-21>
https://www.persee.fr/doc/r1848_1155- وموقع

8806_1929_num_26_130_1156

الخصوص سبقت اتفاقيات جنيف بقرن كامل من الزمن في التأكيد على حقوق الأسرى في الزيارة وحرية ممارسة الشعائر الدينية والتواصل مع الأهل وغيرها، ولا سيما المواد 34، 38، 71 من اتفاقية جنيف الثالثة لعام 1949م¹.

وهذه الأخلاق الأميرية الإسلامية لم نجد لها في الجهة الأخرى عند الفرنسيين في تعاملهم مع الجزائريين المحتجزين عندهم، ولا في تعاملهم مع أهل المدن الجزائرية التي احتلّوها وبسطوا عليها سيطرتهم، ولا عجب في ذلك فهي لم تكن لدى أسلافهم من قبل، سواء في زمن الحروب الصليبية، ولا من قبل المسيحيين في تعاملهم مع المسلمين عند سقوط غرناطة، وكيف نصبوا محاكم التفتيش التي تولّوها وأشرف عليها رجال الدين أنفسهم، وكيف عاملوهم بكل وحشية، وتفنّنوا في تعذيبهم أشد أنواع التعذيب التي لم يعهدها الناس من قبل.

3 - إطلاق سراحهم:

لقد كان الأمير عبد القادر يحرّر الأسرى احتراماً لإنسانيتهم وصوناً لحقوقهم كبشر، لا باعتبارهم سلعة قابلة لأبشع صور الاستغلال والمساومة، وهو ما تجلّى في موقفين للأمير أثارا إعجاب أعدائه قبل أصدقائه، وسجّلهما بذلك التاريخ بأحرف من ذهب: أولهما في 21 ماي 1841م بسيدي خليفة، عندما أمر الأمير عبد القادر بكل شهامة ومروءة بالاستمرار في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذين كانوا بحوزته تنفيذاً لاتفاق مبادلة أسرى مع جيش الاحتلال الفرنسي بناء على مراسلة وطلب من أسقف الجزائر فاستجاب الأمير لذلك، على الرُغم من أنّ هذا الأخير أحلّ بتعهداته وتملّص من الاتفاق برفضه إطلاق سراح الأسرى الجزائريين². وثانيهما عام 1842م، حين أمر الأمير عبد القادر بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين بدل قتلهم، بعدما لم يجد من الطعام

¹ - مرايم محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب، المرجع السابق

² - تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص: 260.

ما يطعمهم به، وكان عددهم أربعاً وتسعين أسيراً فرنسياً، فأطلق سراحهم بدون فدية أو مقابل، بل أمر بمرافقتهم إلى المراكز الأمامية حيث سلموا إلى رفاقهم وهم مندهشون من هذا التصرف الكريم¹. ومن مواقفه في إطلاق أسرى الحرب ما وقع في سنة 1848م، عندما علم الفرنسيون أن لدى الأمير عدداً من الأسرى يحتجزهم، حيث أرسل الفرنسيون القس "سوشيه" نائب أسقف الجزائر العاصمة إلى الأمير لأجل إطلاق سراح أسراهم، ودار بينه وبين الأمير حوار حول إطلاق هؤلاء الأسرى مقابل إطلاقهم الأسرى الجزائريين. ويروي الأب "سوشيه" كيف كان الاحترام والاستقبال الرسمي الحافل من المجاهدين الجزائريين تقديراً لهذا القس بعدما قام بإطلاق عدداً من شخصيات القبائل كانوا أسرى عندهم، وأعجبه هذا القس ما كان من الأطفال الجزائريين الذين كانوا يحيطون به في كل مكان حلّ به يسألونه عن زيّته المسيحي الذي يرتديه، وعن مهمّته وديانته أثناء اجتيازه مناطق قبائل بني عطاف وبني سنخير وأولاد عباس؛ إلى أن وصل إلى الأمير والتقى به في مقر قيادته، فوجده يجلس على الأرض بلا فراش في ملابس بسيطة كأبي واحد من رعيته الجزائريين، مع برنوس أبيض اللون، ولم يكن يحمل سلاحاً في هذا المقابلة. وأخبره الأمير بأنه أوّل مرّة يرى قسيساً كاثوليكياً، وأعرب له الأمير عن إعجابه بما فعله القس من إطلاق سراح بعض الجزائريين. وطلب "سوشيه" من الأمير إطلاق سراح خمسة وستين أسيراً فرنسياً، ورد عليه الأمير أنه لا يمكنه إجابة طلب الأسقف حيث إن الفرنسيين لم يعيدوا جميع العرب الأسرى لديهم بلا استثناء. لكن القس "سوشيه" أبلغ الأمير بأن شروط تبادل هؤلاء الأسرى الذين جاء من أجلهم لم تتضمن الإفراج عن كل الأسرى العرب، وأنه سلّم الثمانية الكبار إلى قبائلهم. وأبدى الأمير تسامحاً

¹ - المصدر نفسه، ص: 263

مع كلامه وطلبه، وهو يظهر أخلاق الرجل العظيمة، ثم قال على الفور: (إن أسراك سيطلق سراحهم على الفور اليوم، وسنحضرهم من وهران حيث احتجزناهم)، ثم دار بينهما حوار ديني¹.

سابعا: أخلاق الأمير في تعامله مع عدو مجرم حرب:

قبل ذكر أخلاق الأمير السامية في مجابهة ومحاوره المستدمر الفرنسي، كان ولا بد أن أسلط الضوء على بشاعة هذا العدو وفضاعة جرائمه، بغية تعرية مزاعمه وادعاءاته الزائفة التي يرفعها ويتغنى بها، كذبا وبهتاناً، حول حقوق الانسان والحريات والحضارة والمدنية، وهي وحشية يعجز القلم في بعض الأحيان عن وصفها لقساوة ما تعرض له الجزائريون العزل.

1- شراسة العدو الفرنسي الصليبي وقساوته وبشاعة جرائمه:

منذ احتلال فرنسا لمدينة الجزائر عام 1830م وسقوط حكم الداوي حسين وتوقيع معاهدة الاستسلام، ورغم أنها التزمت بموجبها احترام حقوق الجزائريين وحماية ممتلكاتهم العامة والخاصة وأوقافهم وشعائرهم الدينية وحرماهم، إلا أنها لم تف بأي بند من بنودها، ورسم الاحتلال الفرنسي خطة للقضاء على أي مقاومة، وإذلال الشعب الجزائري، وتفقيده وتجويعه وتجهيله، وارتكب أبشع الجرائم في حق الشعب الجزائري، من قتل عشوائى وتشريد وحرق وإبادة جماعية، منتهكة بوحشيتها كل ما نصت عليه اتفاقيات القانون الدولي والقانون الدولي الإنساني وأعراف الحرب من مبادئ.

وقد نفذت السلطات الاستعمارية الفرنسية المدنية والعسكرية مخططا إجراميا لإبادة الجزائريين، وعمدت إلى استخدام كل التدابير الإدارية والقانونية المحضفة، وكل الأساليب القمعية والعقابية، دون تمييز، وقد طال ذلك القمع الوحشي المدنيين العزل من أطفال ونساء وشيوخ،

¹-علي عيسى، الأخلاقيات القتالية عند الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد:75، رجب، شعبان 1403هـ/ ماي، جوان 1983م،

واستخدمت الرهائن والمدنيين دروعا بشرية. وارتكبت مئات المجازر، وأبادت قرى عن آخرها، وانقرضت أسر وعائلات من الوجود، إضافة إلى حالات التقتيل الفردي العشوائي، ففي سنة 1845م تم تسجيل 6616 قتيل في صفوف الأهالي الجزائريين¹. وغايتها هو تحقيق النصر والهيمنة والسيطرة بأية وسيلة ولو كانت غير إنسانية؛ وراح جنرالها وقادتها العسكريون يفتخرون بما ارتكبه من مجازر في حق المدنيين العزل²، ودوّنوا ذلك في مذكراتهم وفي رسائلهم إلى أصدقائهم وزوجاتهم، يقول كوزيل: «يلزم أن نصنع أمريكا جديدة هنا بالجزائر، بإبادة سكانها الأصليين، كالهنود الحمر في العالم الجديد حتى يسود الجنس الأوروبي عددًا ويصبح الاستعمار استيطانًا دائمًا».

من ذلك المجزرة التي ارتكبتها الدوق دي روفيجو (Le Duc De Rovigo) في حق قبيلة العوفية في سهل المتيجة بالقرب من وادي الحراش شهر أبريل عام 1832م، حيث أعطى أوامره بتصفية كل أفرادها والتمثيل بجث القتلى وحز رؤوسهم ووضع بعضها على رؤوس أسلحتهم³. وصرّح السفاح سانت أرنو (Saint Arnaud) يوم 07 أبريل 1842 بما يلي: (لقد أحرقنا الدواوير والقرى والخيم، أحرقنا كل شيء، آه الحرب، الخرب، كثير من النساء والأطفال لجأوا إلى ثلوج الأطلس، ماتوا من البرد والجوع)⁴.

¹-عبود علي، جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر من 1830 إلى 1900: نماذج من الجرائم العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، مجلة المرأة للدراسات المغاربية، جامعة أحمد بن بلة، وهران1، العدد 04، ديسمبر 2015م، ص:88

²-العياشي رواجي، من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19م: تصفية رواد المقاومة الوطنية وقطع رؤوسهم، مجلة حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 12، العدد 01، سنة 2018م.

³-عبود علي، جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر من 1830 إلى 1900، ص:89 -العياشي رواجي، من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19، ص:4و5

⁴ - المرجع نفسه.

ومما ارتكبه أحد أكبر سفاحي فرنسا الجنرال توماس روبير بيجو (Thomas Robert Bugeaud) خلال حكمه في الجزائر في 29 ديسمبر 1840م إلى 29 يونيو 1847م، سياسة القهر والعنف والإبادة الجماعية والتدمير والخنق بالدخان والتهجير والنفي في إطار الحرب الشاملة التي مارسها تجاه الجزائريين. واعتبر المؤرخون عهده أكثر دموية فيما سوف يطلق عليه بـ "المدخنة" (enfumades). ومن جرائمه الفظيعة إبادة قبيلة أولاد رياح عن آخرها، وتم اكتشافها في مايو من سنة 2011م أي بعد 166 عام بعد المدخنة، من قبل باحثين جزائريين حيث عثروا على بقايا عظام بشرية وحيوانية وأقمشة نسائية في المغارة المعروفة باسم "مغارة الفراشيش" ببلدية نقمارية دائرة عشعاشة، 80 كلم شرقي عاصمة ولاية مستغانم، وارتكبت المجزرة في 18 جوان 1845م، أمر السفاح بيجو العقيد المجرم «بيليسيه» (Pélissier)، بتنفيذ أمر الحرق داخل المغارة التي لجأ إليها أهالي أولاد رياح هروبا من جحيم القوات العسكرية، وحسب بعض الروايات التاريخية، فإن عدد الشهداء بها تعدى 1200 شهيد من الرجال والنساء و الأطفال والشيخوخ، ولم تسلم حتى الحيوانات من الحرق وهي أحد الطرق البشعة المستعملة في ما سمي بالتهديئة في الجزائر "La pacification d'Algérie"¹

ومحرقة الأعواط التي ارتكبتها الاستعمار الفرنسي التي وُصفت بـ"الهولوكوست"، بقيادة الجنرال بيليسيه (Pélissier)² والجنرال يوسف¹ والعقيد لادميرو (Ladmirault) تحت إشراف الحاكم

¹عبود علي، جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر من 1830 إلى 1900، ص: 89

<https://ar.wikipedia.org/wiki/-https://dhakira.echaab.dz/2021/06/20/>

² - إمالبل جون جاك بليسي (1794-1864) عسكري فرنسي برتبة مارشال ولد في 06 نوفمبر 1794 بـ ماروم في مقاطعة السين، استولى على سيفاستوبول عام 1855 أثناء حرب القرم، وأصبح سفيرا لفرنسا في لندن سنة 1858، وتم تعيينه سنة 1860 حاكما عاما للجزائر. شارك في حملة الجزائر عام 1830. أظهر بيليسيه سلوكا غير إنساني وارتكب عدة جرائم، منها عاصفة الظهر النارية في يونيو 1845م، والتي قتل خلالها ألف من المقاتلين والمدنيين (بما في ذلك النساء والأطفال والمسنين)، دون تمييز. ثم محرقة الأعواط في 4 ديسمبر 1852،

العام راندون (Randon) التي بدأت يوم 03 نوفمبر 1852 باستعمال الغاز الكيميائي الكلوروفورم المحظور دولياً، وهو أول استعمال للسلاح الكيميائي على المستوى الدولي ضد المدنيين العزل، وهي جريمة ضد الإنسانية، حيث أبادوا فيها ثلثي سكان الأغواط أي حوالي 2500 قتيل باستعمال هذا الغاز القادر على تدمير الأعضاء الداخلية للإنسان وشله إلى غاية الموت².

ومن جرائم فرنسا الفظيعة الشنيعة جريمة قطع رؤوس المقاومين والسكان لترويع الجزائريين، ولأجل الترقية في الوظيفة والتقرب من المسؤولين أو للحصول على مكافأة مادية، ومن أكبر منظري هذه السياسة البشعة العقيد مونتانيك (De Montagnac) الذي اشتهر باسم قاطع الرؤوس (Coupeur de têtes)، واعترف بذلك في كتابه "رسائل جندي" عام 1843م³. وذكر الجنرال دي سانت أرنو (De Saint Arnaud) في إحدى مراسلاته أن الإدارة العسكرية الفرنسية لبلاده كانت تقدم مكافأة مالية لكل عسكري فرنسي يقوم بقطع رأس أحد السكان ويقدمها أمام مسؤوليه المباشرين، ولما كان حمل هذه الرؤوس وعرضها أمام القيادة العسكرية أمراً يكلف جهداً وثقلاً،

التي راح ضحيتها 2500 إلى 3000 من إجمالي 4500 نسمة بما في ذلك النساء والأطفال، لتتم مذبحتهم وهذا برفقة الجنرال يوسف.

¹ - كان الجنرال يوسف مملوكاً وخداماً لدى باي تونس الذي استقدمه من جزيرة ألبا التي سقط فيها أسيراً، وعندما احتل الفرنسيون الجزائر عام 1830 اتصل هذا العبد المملوك بالسلطات الفرنسية طالباً الانخراط في الجيش الفرنسي فلبت طلبه، ثم تقلد عدة مسؤوليات داخل الجيش إلى أن وصل إلى رتبة جنرال نظير جرائمه وبطشه. وكان من الذين لعبوا دوراً كبيراً في قمع وترويع وقتل الجزائريين والتمكين للفرنسيين. انظر: العياشي رواجي، من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19: تصفية رواد المقاومة الوطنية وقطع الرؤوس، حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مجلد 12، العدد 01، سنة 2018م، ص: 21

² - عبود علي، جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر من 1830 إلى 1900، ص: 89

³ - العياشي رواجي، من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19، ص: 3 و4

اهتدت القيادة العسكرية إلى طريقة أخرى لا تكلف الجندي قاطع الرأس أي جهد وفي الوقت نفسه تضمن حقه في الحصول على المكافأة تتمثل في تقديم زوجين من الأذنين المقطوعتين فقط.¹

وسجّل التاريخ اعترافات أدلى بها كثير من جنرالات فرنسا تؤكد فظاعة تلك الجرائم، مثل تصريح الجنرال شانقارني (Général Changarnier) في جرائم الإبادة المرتكبة ضد سكان «مُتَّيجة» عام 1830م، الذي قال: «ظهرت وحشية الغزو الفرنسي على الجزائر منذ 1830، لا نترك أحدًا، إنه الغزو الذي يمارسه الجيش على أوسع نطاق، مصحوبًا بالنهب والمجازر، فتحول الجنود إلى ذباحين لسكان معزولي السلاح، وكانت الفرق التي تقوم بالتدمير تتسلى خاصة في فصل الشتاء»، واعترف "ألكسيس دو طوكوفيل" (Alexis de Tocqueville) : «إننا نقوم بحرب أكثر بربرية من العرب أنفسهم... لم يستطع الفرنسيون هزم العرب حربيًا فهزموهم بالتدمير والجوع»، وصرح وزير الحرب جيرار Étienne Maurice Gérard أنه: «لا بد من إبادة جميع السكان العرب، إن المجازر والحرائق وتخريب الفلاحة هي في تقديري الوسائل الوحيدة لتركيز هيمنتنا».

ومما يؤسف له أن فرنسا التي تدعي أنها جاءت لنشر الحضارة في أرض الجزائر فإن قادتها وساستها كانوا يعدون تلك الجرائم الفظيعة أمجادًا عسكرية يرتقون بها درجات السلم الاجتماعي، وجاء على لسان شال أندري جوليان Charles-André Julien: «جنرالات جيش أفريقيا لا يحرقون البلاد خفية، إنهم يستعملون ذلك ويعتبرونه مجدًا لهم سواء أكانوا ملكيين أم جمهوريين أو بونابرتيين».

كان الفرنسيون يعتبرون الجزائريين جنسًا ثانيًا، لا حقوق له، ولذلك فإن إبادة الجزائريين لم تكن عندهم جريمة يعاقب عليها القانون، سواء كان القتل بصورة فردية أو بصورة جماعية. إن إبادة الجزائريين كانت في حقيقتها سياسة دولة، يقول ألكسي دو طوكوفيل عام 1841م: «لقد سمعت

¹ - المرجع نفسه، ص: 05

أحياناً في فرنسا أناساً أحترمهم يقولون إنه من السيئ أن تُحرق المحاصيل، وأن تُفرغ مطامير القمح وأن يُلقى القبض على الرجال غير المسلحين، وأيضاً على النساء والأطفال، وأنا لا أوافق هؤلاء السادة على مثل هذا الكلام، وأرى أن مثل هذه الأعمال المؤسفة لضرورية لشعب يرغب في شنّ حرب ضد العرب بهدف جبرهم على الرضوخ له»¹.

وقد مارست فرنسا هذه السياسة بنفس الوتيرة من الوحشية منذ احتلال فرنسا للجزائر في 5 يوليو/تموز 1830 إلى غاية نيل السيادة والاستقلال سنة 1962م، فعملت على طمس مقومات هوية الشعب الجزائري، وباشرت حرباً شرسة على المدارس القرآنية ومحاصرة التعليم في الزوايا والمساجد، وشيّدت مدارس للتبشير. وفي الأشهر الأولى للاحتلال قام المحتل الفرنسي بنهب خزينة الدولة الجزائرية، وسرقة الأموال والكنوز، ونقلها على متن خمس سفن فرنسية كاملة الحمولة، ومصادرة الأوقاف، والاستيلاء على ممتلكات الجزائريين.

وحتى بعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر واصلت فرنسا في ارتكاب جرائمها ضد الجزائريين بكل وحشية ودموية، فقد أبادت قرى عن آخرها، واستولت على الأراضي وممتلكات الجزائريين، وأحرقت الغابات وهدمت البيوت ولم تسلم المساجد من ذلك، وكانت أعنف تلك الجرائم مجازر 08 ماي 1945م التي راح ضحيتها 45 ألف من المدنيين الجزائريين الذين استعمل ضدهم كل أنواع وأساليب التقتيل والتنكيل بأفتك الأسلحة وأبشع الوسائل. إضافة إلى مراكز التعذيب والتفنين الوحشي في استنطاق الجزائريين وانتزاع الاعترافات منهم والكثير منهم لاقى حتفه، ومن نجى منهم عاش بقية حياته بتشويه وإعاقة دائمة. وبعد اندلاع ثورة نوفمبر المجيدة الخالدة في الفاتح من نوفمبر

¹ - نقلا عن فضيلة ملهاق، بين الجزائر وفرنسا لا سهل قلب الصّفحة ولا تصفّحها كماض: عندما تضع الحرب أوزارها تُعلن الذاكرة نضالها، مجلة الإنساني، تصدر عن المركز الإقليمي للإعلام، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، نشر بالموقع بتاريخ نيسان/أفريل 2022، العدد 69، وتم الاطلاع عليه بتاريخ 21 أفريل 2024م،

1954م، ازدادت شراسة ووحشية الاستعمار الفرنسي، وتفنت قاداته وجنوده العسكريون في التقتيل والتعذيب والتعدي على الحرمات؛ إلا أن إيمان الجزائريين كان أقوى، وعزيمتهم كانت أشد، وإرادتهم كانت أصلب، وتضحياتهم كانت أغلى، وانتصر الحق على الباطل، وعلا العدل على الجور والظلم، وانتزع الجزائريون سيادتهم ونالوا حريتهم بتضحيات جسام بكل بطولة وفخر واعتزاز.

2- أخلاق الأمير في حوارهِ مع العدو:

أمام وحشية المحتل الفرنسي وهمجيته، وهمجية ووحشية قاداته العسكريين الذين تجردوا من إنسانيتهم وأصبحوا وحوشاً بشرية بل هم أضلوا سبيلاً، وُصفوا في كتب التاريخ بمجرمي الحرب، يرتقي الأمير عبد القادر الجزائري شامخاً، الذي أحسن تمثيل أخلاق الرجل الجزائري المسلم في السلم والحرب، فلم يتجرد الأمير عبد القادر من إنسانيته ولا من أخلاقه الإسلامية، فقد كان أنبل من جنرالات فرنسا، وأعلى شأنًا منهم، تحلى بالأخلاق وبالروح الإنسانية، أحسن التعامل مع الأسرى، ولم يقطع الرؤوس، ولم يحرق ويحرب، ولم يمثّل بجثث القتلى، ولم يجهز على جريح، ولم يقتل نساء العدو وأطفاله، ولم يعتد على سجين، وإنما قاتل من قاتله. ولم يستطع أحد من المؤرخين الفرنسيين أو الأوروبيين أن يسجّل في حق الأمير تجاوزاته في القتال، أو ارتكابه لجرمة مخالفة لأعراف الحرب، أو انتهاك حرمة جثامين القتلى، أو تعدى على المدنيين، أو قتل أسيراً، بل أجمعوا كلهم على علو أخلاقه وشهامته وسموّ إنسانيته.

ورغم بشاعة جرائم العدو الحاقد لم يقطع الأمير سبيل الحوار مع قادة العدو العسكريين أو ممثليهم من رجال الدين المسيحي. وقد رأينا استقبال الأمير للقس "سوشيه"، ودار بينهما حوار، ويروي الأب "سوشيه" نفسه حواراً ممتعاً بينه وبين الأمير، ومما جاء فيه، أن قال له الأمير: "إذا كان دينكم (الكاثوليكي المسيحي) على هذه الدرجة من الجمال والعطف والإحسان (قال له هذا الكلام لما قام بإطلاق سراح بعض الجزائريين) فلماذا لا يرعى كل الفرنسيين دينهم"، وأجاب سوشيه

بأن الأمر لا يختلف في كل الديانات، وأنه ربما كان بين المسلمين أصحاب الدين الإسلامي الرائع من لا يتبعون قواعد دينهم"، فافتتح الأمير بهذا الجواب بلا أدنى تعصب. وقد طلب سوشيه إذن الأمير بأن يرسل الأسقف أحد القساوسة لأي مجموعة فرنسية تقع في الأسر عند الأمير لكي يرعاهم وسمح الأمير بذلك. ثم حمل سوشيه ردا مكتوبا من الأمير إلى الأسقف انطوان في العاصمة بتاريخ يوم الجمعة 29 ربيع الثاني 1257هـ يفيض أخلاقا عالية واحتراما لكل عمل إنساني، ويمنح فيه احترامه لهذا الأسقف¹.

فهذا الخطاب من الأمير وتحاوره مع رجال الدين المسيحي رغم الحرب، لم تمنعه من التمسك بأخلاقه كمسلم، وبأخلاق الجهاد والقتال، التي كانت نموذجا رائعا لم يُرى لها مثيل عند الأمم التي شهدت حروبا اتسمت بالوحشية واللاإنسانية خاصة في القرن 20، وفي هذا القرن الذي نحن فيه. كما أنه أخذ بمبدأ الحوار مع الخصم وهو مبدأ قرآني، وكلما دعي إلى الصلح أو الهدنة استجاب لذلك اتباعا لتعاليم دينه الحنيف (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الأنفال: 61، فوَّعَّ معه عدة هُدُن ومعهاهدات، رغم أن العدو الفرنسي في كل مرة ينقض التزامه ويعتدي على المدنيين ويستولي على أراضي أصحابها، كمنقضه لـ "معاهدة ذي ميشيل" التي أبرمت في 24 فبراير 1834م²، و"معاهدة تافنة"¹ التي وقَّعت في 30 ماي 1837م².

¹ -علي عيسى، الأخلاقيات القتالية عند الأمير عبد القادر، ص: 288

² -على إثر الانتصارات التي أحرزها الأمير عبد القادر وجيشه على الفرنسيين عام 1834م، اضطر الحاكم الفرنسي لمدينة وهران "دي ميشيل" إلى أن يبرم معاهدة مع الأمير تُعرف عند المؤرخين الغربيين بـ "معاهدة دي ميشيل"، فاعترف الفرنسيون للأمير بالسيادة على جميع الإقليم الغربي للبلاد ما عدا وهران و أرزيو ومستغاثم التي بقيت اخا سيطرتهم، ولم تمض سنة على المعاهدة حتى تقضها الفرنسيون، فاستأنف الأمير الجهاد ضدهم، ولجى الشعب نداء الجهاد، وانتصر عليهم في معركة "المقطع" بقيادة الجنرال "تريزيل" سنة 1835م. بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، ص: 37 وما بعدها - محمود بوعبيد، أهم الأحداث في حياة الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد: 75، رجب، شعبان 1403هـ/ماي، جوان 1983م، ص: 230.

كما أبدى الأمير استعداداه من خلال الحوار الذي أجراه مع القس سوشييه¹ للتفاهم والتعايش مع عقلاء رجال الدين المسيحي لو كانوا من نوع الأسقف الجزائري³.

الخاتمة:

في كل مرة تعود بنا الذكرى إلى شخصية فذة من الشخصيات الجزائرية التي كان لها الأثر في صناعة التاريخ الحديث للجزائر، وبناء شخصيته الوطنية الإسلامية، وتشكيل معالم الدولة الجزائرية الحديثة، ونستحضر في كل مرة وبكل فخر واعتزاز مواقف راقية من شخصية الأمير عبد القادر الجزائري الصوفي العالم المجاهد القائد الناسك، تلك الشخصية العظيمة التي شرفَتْ بأخلاقها الرفيعة وقيمها الإنسانية النبيلة دينها فكانت فيه الأسوة الحسنة، ومثلت وطنها وأمّتها فكانت خير سفير لهما، وأبرزت القيم الإنسانية فمثلتها أحسن تمثيل، فكان الأمير مفخرة للجزائر خاصة وللعرب والمسلمين عامة.

¹-سميت المعاهدة باسم تافنة نسبة إلى الوادي الذي وُقعت فيه، ووادي تافنة هو أحد أثمار الجزائر، يوجد في شمال غرب الجزائر بوهران وتلمسان، يعتبر أحد أكبر الأودية على المستوى الوطني، إذ يمتد على مسافة 170 كلم، منها 150 كلم بتراب ولاية تلمسان، له عدة روافد من الأودية، كوادي دحمان الذي يصب في واد تافنة وينبع من جبال تاجرة وبني وارسوس الحجرية.

²-الانتصارات المتكررة للأمير عبد القادر على العدو، وانتصار جيش الباي الحاج أحمد على الفرنسيين ورد هجومهم على مدينة قسنطينة سنة 1836م، اضطر الجنرال "بيجو" إلى إبرام "معاهدة تافنة" سنة 1837م مع الأمير، واعترفت فرنسا بمقتضى المعاهدة بسيادة الأمير على ثلثي القطر الجزائري، وعلى جلاء قوات الاحتلال عن تلمسان. ثم نقضها الفرنسيون سنة 1839م كعادتهم في الخيانة ونقض العهود، وأعلن الأمير الجهاد عليهم استجابة لقوله تعالى: (وَإِنْ تَكْفُرُوا أَتْمَانُهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) التوبة:12. انظر: بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، ص:42 ما بعدها-محمود بوعياد، أهم الأحداث في حياة الأمير عبد القادر، ص:230 و231.

³- علي عيسى، الأخلاقيات القتالية عند الأمير عبد القادر، ص:289

نستعرض تاريخ الرجل الذي كان أميراً في تحمّله لمسؤولية وطنه والدفاع عنه، لكنه كان إنساناً في تواضعه مع رعيته وفي تعامله مع عدوه، فكان وهو يسعى لإنقاذ بلده وشعبه من براثن الاستعمار المقيت بعيداً عن كلّ عنف ووحشية لا مبرّر لها، داعياً من خلال مواقفه إلى ضرورة وضع أعراف إنسانية في الحرب وإلى أخلاق القتال. وهو في أشدّ ظروف القتال قساوة مع عدو بغيبض ماكر دعا الأمير إلى تغليب روح الأخوة الإنسانية كما تدعوه إلى ذلك تعاليم الإسلام السمحة.

لقد سجّل التاريخ بكل فخر واعتزاز أن الأمير عبد القادر كان أشجع من جنرالات فرنسا، وأرفع خلقاً وشهامة منهم، لقد اتصفوا بالوحشية والهمجية في البحث عن الانتصار بأي وسيلة، ولو يقتل النساء والأطفال والشيخوخ، وإفساد المحاصيل الزراعية وقطع الأشجار المثمرة وحرق الغابات وهدم البيوت والمساجد لإجبار الأمير وجنوده على الاستسلام، أما الأمير فكان يخوض حرباً نظيفةً تحكمها الضوابط الشرعية والتعاليم الإسلامية والأخلاق الإنسانية، فلم يخن ولم يغدر، ولم يقتل الأسرى بل أحسن معاملتهم، وكان يجنح إلى الصلح إذا طُلب منه ذلك، فلم تهزم الأمير الحرب، وإنما هزمته وأرهقته الدسائس والخيانات من عدوّه ونقضه للمعاهدات، وخيانات بعض من بني جلدته من زعماء القبائل وبعض شيوخ الزوايا، وعدم وقوف سلطان المغرب بجانبه بل تعاون هذا السلطان مع الفرنسيين ضد الأمير¹؛ كلّها شكّلت ضغطاً عليه أجبرته على إنهاء المقاومة حفاظاً على ما تبقى من جنده وشعبه بعد خمس عشرة سنة من الجهاد أظهر فيها شجاعة وصبراً وتحمّلاً وذكاء وحنكة عسكرية.

¹ - الأميرة بديعة الحسني الجزائري، وما بدلوا تبديلاً: تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري، ص: 167 و168.

ومهما قيل وكتب حول الأمير فهو بحاجة إلى دراسات وأبحاث جديدة، وإلى تجلية جوانب أخرى من شخصيته الإنسانية التي كان لها التأثير في القانون الدولي الإنساني، وفي حوار الحضارات وتعايش الثقافات.

إن شخصية الأمير شخصية مليئة بالتجارب، تنوعت بين النشأة الدينية والتكوين العلمي والقيادة العسكرية والخدمة الإنسانية، ولعلّ تجربته ومقاومته الباسلة في مواجهة الاحتلال الفرنسي الغاشم الظالم على الجزائر تبين عن شخصية قيادية فذة، فسيرته يمكن أن توضح الكثير من القيم والمبادئ التي تكون بمثابة مرجعا للأمم، فالأمير كانت له شخصية متميزة جمعت بين عدة مواصفات: الدينية والسلوكية والسياسية والعسكرية، هذه الشخصية المتكاملة كان لها الأثر في تعزيز روح الانفتاح والانتماء الحضاري، والحوار والتعايش مع الآخر¹.

المصادر والمراجع

- إسماعيل العربي، حكومة الأمير عبد القادر: إدارتها ومهامها، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد:75، رجب، شعبان 1403هـ/ماي، جوان 1983م
- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا: تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري، دار دلس، طبع في إطار قسنطينة، عاصمة الثقافة العربية، وزارة الثقافة، سنة 1415 هـ/ 2015م
- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائر حقائق ووثائق، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، سنة 2000م
- توفيق دحماني، مقال بعنوان: قسنطينة عشية الاحتلال الفرنسي 1837 من خلال وثائق نادرة، مجلة الدراسات التاريخية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر 2، مجلد 11، العدد:01، سنة 2010م

¹ - المرجع نفسه، ص:35.

- جولاي بلالاك (باحثة أمريكية)، عنوان المقال: الأمير عبد القادر: أسطورة أدبية في الغرب، منشور على موقع مجلة الفيصل بتاريخ 03 يناير 2019، وتم الاطلاع عليه بتاريخ 2024/04/29،
<https://www.alfaisalmag.com/?p=13900>
- الحفناوي: أبو القاسم محمد بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي (ت 1360 هـ/1942م)، تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق خير الدين شترة، دار كردادة، ط 1، سنة 1433 هـ/ 2012م
- شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، دار الرائد، الجزائر، ط سنة 2009م
- عبد الوهاب بلغراس، عنوان المقال: الأمير عبد القادر محطات متميزة في رؤية الآخر، متاح على موقع الإنسانيات، اطلع عليه بتاريخ 2024/03/25م،
<https://doi.org/10.4000/insaniyat.18050>
- حرشوش كريمة، أخلاقيات وإنسانية الأمير عبد القادر في الحرب: تعامله مع أسرى الحرب من الفرنسيين أنموذجا، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد 12، العدد: 2، ماي 2021م
- راغب السرجاني، مقال بعنوان: "أخلاق رسول الله في الحروب وبعدها"، نشر بتاريخ 28/04/2010 بموقع <https://www.islamstory.com/ar/artical/278/>، تم الاطلاع عليه في 2024/04/03م.
- عبود علي، جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر من 1830 إلى 1900: نماذج من الجرائم العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، مجلة المرأة للدراسات المغاربية، جامعة أحمد بن بلة، وهران 1، العدد 04، ديسمبر 2015م
- عادل عبد الله صبري هندي، التعايش السلمي ومقاصده: مجتمع المدينة المنورة نموذجا، حولية كلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد: 36، المجلد: 2، 2023/2022م
- عبد ربه عبد القادر حسن العنزى، التعايش السلمي من منظور إسلامي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، مجلد 1، عدد: 41، جمادى الأولى 1438 هـ/ كانون الثاني 2017م
- عبد المجيد مزيان، عبقرية متكاملة، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد: 75، رجب، شعبان 1403 هـ/ ماي، جوان 1983م

- العياشي رواجي، من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19: تصفية رواد المقاومة الوطنية وقطع الرؤوس، حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مجلد12، عدد 1، سنة 2018م
- علي عيسى، الأخلاقيات القتالية عند الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد:75، رجب، شعبان 1403هـ/ ماي، جوان 1983م
- العياشي رواجي، من جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال القرن 19م: تصفية رواد المقاومة الوطنية وقطع رؤوسهم، مجلة حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 12، العدد 01، سنة 2018م
- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، دار الوعي، الجزائر، ط سنة 1438 هـ/ 2017م
- علي محمد الصلابي، مقال بعنوان: "عبد القادر الجزائري، كيف شوهدت الاستخبارات رموز النضال الشعبي، متاح على موقع <https://www.aljazeera.net/blogs/2018/2/4/>، اطلع عليه 2024/03/25م
- فضيلة ملهاق، بين الجزائر وفرنسا لا يسهل قلب الصّفحة ولا تصفّحها كماض: عندما تضع الحرب أوزارها تُعلن الذاكرة نضالها، مجلة الإنساني، تصدر عن المركز الإقليمي للإعلام، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، نشر بالموقع بتاريخ نيسان/أفريل 2022، العدد 69، وتم الاطلاع عليه بتاريخ 21 أفريل 2024م، متاح على موقع <https://blogs.icrc.org/alinsani/2022/04/11/6362/>
- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر في دمشق: جوانب من حياته الدينية والعلمية والفكرية (1272 - 1300 هـ/ 1856 - 1883م)، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد:75، رجب، شعبان 1403هـ/ ماي، جوان 1983م
- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، طبعة سنة 1985م
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، ط سنة 2016م
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، عالم المعرفة، الجزائر، ط سنة 2011م

- ابن القيم: شمس الدين أبو عبد الله (ت751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط6، سنة 1404هـ/1984م.
- ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل (774 هـ)، السيرة النبوية (مُستأثراً من كتابه: البداية والنهاية)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط. عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة 1395 هـ / 1976م، وصوّرتُها: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان.
- كمال لدرع، مبايعة الأمير عبد القادر قراءة شرعية تأصيلية، مداخلة في ندوة علمية حول مبايعة الأمير عبد القادر منعقدة بتاريخ 29 نوفمبر 2003م بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، من تنظيم فرقة البحث: آثار السياسة الاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830 - 1960م)، مطبوعة ضمن سلسلة كراسات البحث، يصدرها المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م
- محمود بوعياض، أهم الأحداث في حياة الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد: 75، رجب، شعبان 1403هـ/ ماي، جوان 1983م
- محمد أسامة عليه، مقال بعنوان: "من مآثر الأمير عبد القادر"، مجلة الرسالة المصرية، القاهرة، 1367 هـ / 1948م، مج 16، العدد 784
- مرابطي محمد، الإسلام كمرجعية لحماية أسرى الحرب... إسهام الأمير عبد القادر الجزائري في تطوير القانون الدولي الإنساني، نُشر هذا الموضوع في العدد 66 من مجلة «الإنساني»، الصادر في خريف/ شتاء 2019. متاح على موقع مجلة الإنساني، <https://blogs.icrc.org/alinsani/2020/04/30/3718>، تاريخ الاطلاع عليه 2024/03/25
- محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، مصر، ط سنة 1903م
- محمد السيد محمد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري: ثقافته وأثرها في أدبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط سنة 1986م
- محمد شاطو، مقال بعنوان: "هكذا رسّخ الأمير عبد القادر الجزائري قيمة التسامح"، متاح على موقع الشعب <http://www.ech-chaab.com/ar/>، اطلع عليه بتاريخ 2024/03/25م.

- محمد العربي الزبيرى، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ط سنة 1982م
- محود بوعبياد، عبد القادر الإنسان، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد:75، رجب، شعبان 1403هـ/ماي، جوان 1983م
- نور الهدى خير والنخلة بوميديونة، مذكرات المارشال سانت أرنو ومساهماتها في التاريخ للجزائر فترة المقاومة، إشراف د. رزيقة محمدي، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة يحيى فارس، المدينة، سنة 1442 - 1443 هـ / 2021 - 2022م
- يحيى بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، دار البصائر، الجزائر، ط سنة 2009م

دولة الأمير عبد القادر على ضوء نظريتي "ابن خلدون" و "هوبز" -دراسة مقارنة-

الدكتورة نجاة عبو، أستاذة محاضر قسم أ
جامعة محمد الشريف مساعديّة، سوق اهراس

مقدمة

لا مناص في أن دولة الأمير عبد القادر تُعد نموذجاً فريداً من نوعه في تاريخ الجزائر المستعمرة، لأن الأمير أول من أسس دولة تقوم على السلطة المحلية، وهو ما لم تعرفه الجزائر من قبل، إذ كانت تحت سلطة الأتراك لأكثر من ثلاثة قرون، وبتوقيع الداي "حسين" معاهدة الاستسلام في 05 جويلية 1830م، أعلن رسمياً عن اختيار الدولة الجزائرية الحديثة ودخولها تحت سلطة الاحتلال الفرنسي، وإلحاق كل شؤونها بالحكومة الفرنسية، إلا أنه وبعد تولي "الأمير عبد القادر" لواء المقاومة أعلن عن تأسيسه للدولة الجزائرية، تمكن من خلالها قيادة الحرب، وفي الوقت نفسه استطاع تنظيم شروط الحياة، وتنظيم المجتمع والانتقال من حالة اللادولة إلى حالة الدولة.

وتكمن أهمية بحثنا في كونه يتناول قضية من أهم القضايا المتعلقة بدولة "الأمير"، نحاول من خلاله تقديم الأطر النظرية التي تم اعتمادها في بناء الدولة، والأسس التي طبقها في تسيير شؤونها، وخاصة أن الظروف المحيطة بالدولة لم تكن مهيئة ولا مناسبة، إلا أنه استطاع فرض سلطته، وهذا راجع لاعتماده على فكر سياسي حديث ومعاصر توافق مع الأطر النظرية التي حددها بعض المفكرين والفلاسفة المسلمين أو الغربيين، وعليه نطرح الإشكالية التالية:

ما الأسس التي قامت عليها دولة الأمير؟ وما النموذج النظري والفكري المعتمد في تسيير

الدولة؟ وهل دولته كانت تملك فعلاً الشرعية القانونية والسياسية أم لا؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات نحاول إجراء مقارنة لدولة الأمير حسب منظور أهم فلاسفة ومفكري العالم الإسلامي، وهو العلامة "عبد الرحمن بن خلدون"، والذي حدد الأسس التي تقوم عليها الدولة، وطبيعة الحكم فيها وسلطاتها، وفي المقابل أيضا اخترنا أكبر فلاسفة العالم الغربي الذين تناولوا موضوع نشأة الدولة، الفيلسوف الإنجليزي "توماس هوبز"، والذي اهتم بمبادئ الفلسفة السياسية، ومبادئ القانون، ووضع نظريته الهوبسية التي كانت مرجعا للمفكرين بعده، وهنا يواجهنا سؤالان:

هل طبق "الأمير" أصول الفكر السياسي والفلسفي في بناء دولته؟ وما هي نقاط التوافق أو الاختلاف بين دولة "الأمير" والنظرية الخلدونية والهوبسية؟

1- الظروف العامة لقيام دولة الأمير عبد القادر:

لقد شهد الغرب الوهراني اضطرابا سياسيا وفوضى عارمة بعد استسلام الباي "حسين" للفرنسيين أواخر 1830م، فانطلقت بعض المقاومات الشعبية التلقائية باسم الجهاد، وكان علماء الدين هم الذين تولوا القيادة وإثارة الحماس الشعبي، ومن أبرز قادة المقاومة الحاج "محي الدين بن مصطفى" شيخ الطريقة القادرية، ووالد "الأمير عبد القادر"، ونتيجة للفرغ السياسي الذي عرفته المنطقة فأرسل أعيانها وفدا إلى المغرب الأقصى لطلب مساعدة الملك المغربي، والدخول في حمايته، وبتهديد من الفرنسيين سحب السلطان "عبد الرحمان بن هشام" خليفته من وهران¹.

وبعد بقاء الإقليم الغربي دون زعامة وحاكم لمدة سنتين (1830 - 1832 م) أجمع أعيان المنطقة على مبايعة الحاج "محي الدين" ولكنه اعتذر، وفضل القيادة العسكرية فألف جيشا كبيرا من فرسان القبائل، وقاد عدة معارك ضد الفرنسيين، فكانت معركة (خنق النطاح) في 14 ماي

¹ - أبو القاسم سعد الله: خلاصة تاريخ الجزائر - المقاومة والتحرير 1830 - 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007م ص ص 26 - 27.

1832م، ومعركة (حنق النطاح) الثانية يوم 04 جوان 1832م، ومعركة (برج راس العين) بالجهة الغربية من وهران، ومناوشات 19 سبتمبر و03 أكتوبر أثبت فيها "الأمير عبد القادر شجاعته، ومهاراته الحربية رغم صغر سنه¹.

ونتيجة لاستمرار تدهور الأوضاع الأمنية والسياسية والعسكرية ألح أعيان الغرب الجزائري على الحاج "محي الدين" أن يتولى الإمارة بالمنطقة، ولكنه اعتذر لكبر سنه، واقترح عليهم أن تتم مبايعة ابنه "الأمير عبد القادر"² فتمت البيعة الأولى في 28 نوفمبر 1832م، بوادي فروحة من غريس، ثم البيعة الثانية (البيعة العامة) بمعسكر يوم 04 فيفري 1833م، وهكذا انتقلت السلطة في الغرب الجزائري لـ "الأمير" الذي بدأ في تنظيم المقاومة³، والتي مرت بمرحلتين:

أ - مرحلة القوة والتوسع (1832 - 1840) م:

بعد مبايعة "الأمير" بدأ في تنظيم الجيش، ووضع الأسس الأولى لتأسيس الدولة الحديثة عاصمتها معسكر، وكما سعى لكسب زعماء القبائل، ومراسلتهم للانضمام لراية الجهاد، وانتزع الكثير من القبائل التي كانت متحالفة مع الفرنسيين، وشن هجماته على مدينة تلمسان فاستطاع أن يفتكها من الفرنسيين، وشدّد الحصار على مدينة مستغانم، وكما أمر بمقاطعة الفرنسيين

¹ - بشير بلاح: تاريخ الجزائر المعاصر 1830 إلى 1989م، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 75.

² - الأمير عبد القادر: ولد سنة 1807م بالقطننة بنواحي معسكر تلقى العلوم الدينية الفلسفة، الرياضيات، أدى فريضة الحج مع والده، سافر إلى بغداد ثم دمشق ليعود إلى الجزائر تولى المقاومة في الغرب في 27 نوفمبر 1832م ثم البيعة الثانية 04 فيفري 1838م، حقق عدة انتصارات على الجيش الفرنسي غير أنه استسلم في 23 ديسمبر 1847م، فنقل إلى سجون فرنسا ثم نفى إلى دمشق إلى أن توفي بها يوم 26 ماي 1883م تاركا أثارا منها: الذكر العاقل، ... للمزيد ينظر

Mohamed Chérif Ould El Hocine : De la résistance A l Guerre D'indépendance 1830 - 1962, Casbah Editions. Alger, 2010, p.p 9, 10,11,

³ - يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ط3، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983، ص ص 45.46.48

ومحاصرته اقتصاديًا، وأندر كل من يتعاون معهم بالويل، واستصدر فتوى من كبار العلماء تعتبر كل من يتعاون مع الأعداء أو يقدم لهم المساعدة مرتدا عن دينه، ونتيجة لسياسة المقاطعة وتأثيرها أجب حاكم وهران "دي ميشال" أن يسلك الطريق اللين مع "الأمير"¹.

وبدأت المفاوضات بين الطرفين، والتي توجت بتوقيع معاهدة "دي ميشال"² في أبريل 1834م لتوقيف القتال بين الطرفين وإقرار مرحلة الهدنة، وبعد توقيع المعاهدة تفرغ "الأمير" لتنظيم دولته بحكوماتها، وإدارتها وجيشها، وأجهزتها على أسس إسلامية حديثة، وذات طابع جزائري خاص على قاعدة شعبية، واعتمد على اقتصاد حديث، وكانت دولته عبارة عن فدرالية تضم ثمانية خلفاء، تعمل على تحديد الهيكل الاجتماعي وفق نظام قضائي دقيق، واهتم بمفهوم المواطنة لدولته القائمة على أساس المساواة بين الجميع³.

¹ - يحي بوعزيز: ثورات القرن التاسع عشر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص ص 37 - 38.

² - نصت المعاهدة على: - تتوقف النزاعات بين الفرنسيين والعرب بدءًا من هذا اليوم، ولن يدّخر الجنرال قائد الجيوش الفرنسية، والأمير عبد القادر وسعا في المحافظة على هذا الاتحاد والصداقة الواجب قيامهما بين الشعبين، ومن أجل ذلك يرسل الأمير وكلاء عنه إلى وهران، ومستغانم وأرزويو، وكما يرسل ضباط فرنسيين ووكلاء إلى معسكر. - يتم احترام ديانة العرب وعاداتهم. - يلتزم برد الأسرى من الفريقين.

- تعطى الحرية الكاملة للتجارة. - يلتزم العرب بإرجاع كل من يفر إليهم من العساكر الفرنسية، ويلتزم الفرنسيون بتسليم كل من يفر إليهم من مرتكبي الجرائم المهارين من القصاص، إلى وكيل الأمير في المدن البحرية الثلاث المحتلة من قبل الفرنسيين. - من أراد من الأوروبيين أن يسافر داخل البلاد يُجهز جواز سفر موقع من وكلاء الأمير ومصادق من الجنرال القائد الفرنسي، وذلك من أجل أن يلقي الحماية والمساعدة داخل الإقليم بكامله. ينظر - برونو إيتين: الأمير عبد القادر، ترجمة: ميشيل خوري، ط1، دار عطية للنشر، بيروت، 1997م، ص 177، 463.

³ - علي محمد الصلاحي: سيرة الأمير عبد القادر، قائد رباني ومجاهد، دار المعرفة، بيروت، ص 127. 128. 130.

وبعد استئناف الحرب بين الطرفين وانتصار قوات "الأمير" في معركة (وادي المقطع) في 18 جوان 1835م ومعارك تلمسان 1836م¹، أرسل له الجنرال "بيجو" رسالة يدعوه فيها إلى الصلح من جديد، وتم توقيع معاهدة "تافنة"² في ماي 1837م³، وقد رحبت فرنسا بالمعاهدة من جانبها السياسي للتفرغ والتركيز على مقاومة "أحمد باي" بقسنطينة⁴، وأما "الأمير" فحاول أن يستغل معاهدة تافنة في إعادة تنظيم قواته فأنشأ مخازن كبيرة في تلمسان ومليانة، والمدية، وتقدمت، وأعاد تنظيم جيشه بعناية، وأرسل مبعوثين إلى الجزائر لجلب الأوروبيين من عمال وجنود للانضمام لجيشه، وأقام علاقات طيبة مع العرب في المناطق الفرنسية، ونجح في استمالة أعدائه من الدوائر فانظم إليه سكان أكثر من عشرين خيمة بعد فترة قصيرة من توقيع المعاهدة⁵.

¹ - ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة خاتمة عبد العزيز سعود الباطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000، ص 158.

² - نصت المعاهدة على: -اعتراف الأمير بالسلطة الفرنسية على مدينة الجزائر وسهل متيجة، وعلى مدن وهران ومستغانم وأرزويو. - اعتراف فرنسا بسيادة الأمير على إقليمي وهران والтитيري، وكذا على القسم الذي لم يدخل تحت نفوذ فرنسا بإقليم الجزائر من الناحية الشرقية. - يمون الأمير الفرنسيين بوهران بمقادير محددة من الجيوب ورؤوس الأبقار. - يمكن للأمير شراء البارود والكبريت والأسلحة من فرنسا. - تتخلى فرنسا للأمير عن مدينة تلمسان ومرسى رشغون. - تطبيق مبدأ حرية التجارة بين الطرفين. - يعين الطرفان ممثلين في مدن الطرف الآخر لرعاية مصالحهما. ينظر - الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903م، ص ص 170 - 171.

³ - برونو إيتين: المصدر السابق، ص 192.

⁴ - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م، ص 125.

⁵ - يوهان كارل بيرنت: الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو العيد دود، ط2، دار هومة، الجزائر، 1997، ص 134.

ب - مرحلة الضعف والانحسار والاستسلام (1841 1847) م:

وبعد احتلال قسنطينة تفرغ الفرنسيون لمقاومة "الأمير"، وبدأت محاولتهم لنقض معاهدة تافنة بادعاء الأكاذيب والأباطيل، التي لم تنطل على "الأمير" فأعلن بدوره في 16 أكتوبر 1839م انتهاء معاهدة الصلح، والرجوع إلى حالة الحرب الأولى، فهاجم جيش العدو بشدة، وتجددت المعارك بين الطرفين¹، فنتج عنها سقوط عاصمة دولة "الأمير" (تاقدمت) فأنشأ عاصمته (الزمالة) المتنقلة، وبعد تولي الجنرال "بيجو" حكم الجزائر في أبريل 1841م وانتهاجه سياسية الإبادة الجماعية والحرب الشاملة تمكنت القوات الفرنسية من احتلال كل المدن التي كانت تابعة لسلطة "الأمير"، فبدأت القبائل تتراجع وتتخلى عنه إثر عمليات الحرق والتعذيب ومعاناتها من المجاعة خاصة مع حلول شتاء سنة 1842م².

وقد ظل "الأمير" متنقلاً بالزّمالة إلى غاية وقوعها في يد المحتل في ماي 1843م بقيادة الدوق "دومال"³، مما أجبره على اللجوء إلى سلطان المغرب في نوفمبر 1843م، لطلب الحماية منه⁴، إلا أن السلطات الفرنسيّة وبعد انتصارها على القوات المغربية في معركة "إيسلي"، واضطرار السلطان المغربي "عبد الرحمان" التوقيع على بنود معاهدة "لالا مغنية" في جوان 1844م، طلب من "الأمير" مغادرة المغرب⁵، فوجد نفسه في مواجهة إخوانه المغاربة فاضطر للإغارة على قبيلة (الكلعبة) انتقاماً من غدرها، وعندما توجهت القوات المغربية لمحاصرته بنواحي الملوية دخل معها في اشتباكات (داميت) بنواحي قلعة (السلوان) في ديسمبر 1849م، قتل فيها بعض من رجاله ومئات

1 - يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 62 - 63.

2 - برونو إيتين: المصدر نفسه، ص 212 . 213.

3 - شارل هنري تشرشل: المصدر نفسه، ص 213.

4 - برونو إيتين: المصدر نفسه، ص 229

5 - شارل هنري تشرشل: المصدر نفسه، ص 223.

القتلى من المغاربة لقلّة خبرتهم¹، فعاد "الأمير" إلى الجزائر من أجل الاستمرار في مقاومة العدو، إلا أن هذا الأمر كان مستحيلاً، فقرر الاستسلام في ديسمبر 1847م²، وبعد توقيع معاهدة الاستسلام نُقل إلى فرنسا ثم نفي إلى دمشق سنة 1864م وبقي فيها إلى غاية وفاته³.

2- سلطات دولة الأمير وأهم وظائفها:

لقد سعى "الأمير" بعد توليه الإمارة العمل على توحيد المسلمين، ومنع الفرقة بينهم، وتوفير الأمن العام لكل أهالي البلاد، والقضاء على الفوضى وكل الأعمال غير القانونيّة، والجهاد لرد العدو المستعمر، ومحاربة الخونة، ولكنه اشترط في قبوله المسؤولية خضوع القبائل التي بايعته في كل أعمالهم لنصوص القرآنيّة والسنة النبوية، والحكم بالعدل وتطبيقه على الجميع دون تمييز طبقي، ولتطبيق هذه الشروط على أرض الواقع دعا أعيان القبائل لتوقيع عقد بينه وبينهم لاحترام وتطبيق شروطه، والتي أملاها على كتابه بعد اليوم الثاني من مبايعته في معسكر يوم 22 نوفمبر 1842م⁴، وبالتالي فإن خطته النضاليّة ضد الاستعمار كانت تقوم على تأسيس وحدة وسلطة وطنية تشمل كل الجوانب السياسيّة والاجتماعية والعسكرية، فكانت دولته تجسيدا للواقع ولتحقيق مبدأ العدل، وفق ما تأمله العناصر الشعبيّة، فكان مبدأه (حكم شعبي بإرادة الشعب)، وبعد اتخاذه مدينة معسكر عاصمة لدولته ومقرّاً لحكمه بدأ في تأسيس هيكل ومؤسسات دولته وفق مناهج عصرية وحديثة، فكان:

1 - ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير، المرجع السابق، ص 168.

2 - برونو إيتيين: المصدر نفسه، ص 237.

3 - شارل هنري تشرشل: المصدر نفسه، ص 294.

4 - شارل تشرشل: المرجع السابق، ص ص 59 - 60.

- **مجلس الشورى:** وهو بمثابة البرلمان أو السلطة التشريعية، ويتركب المجلس من إحدى عشر عضواً (علماء وأعيان)، ويتأخر المجلس قاضي قضاء نيابةً عن الأمير، وللمجلس سجل خاص تسجل فيه القضايا، وأثناء حضوره يرأس الجلسة، وتصدر الأحكام باتفاق كل الأفراد على نوع الحكم. وأنشئ ديوان الإنشاء الذي أنيطت له مهام الضبط والتسجيل.

- **المناصب الوزارية:** ويعبر عنها بالنظارات، وتمثل وزارة الداخلية، والخارجية، المالية، الأوقاف، وزارة الأعشار والزكاة، الحربية، وزارة الخزينة الخاصة، بالإضافة إلى بقية الوظائف كتابة الديوان الأميري، القضاء بنوعيه الحنفي والمالكي، الإفتاء، العدل، إدارة الموسيقى، السقاية...¹.

- **السلطة القضائية:** كانت متفصلة عن السلطة التنفيذية، وكان من يمارسها منفذاً للقانون وليس ممثلاً للأمير، وقد كانت للقاضي صلاحيات واسعة إذ يتولى قضايا الميراث، الشؤون العقارية، الأحوال الشخصية، القضايا الجنائية...².

- **التنظيم الإداري:** أنشأ "الأمير" تنظيمًا إداريًا محكمًا يقوم على نظام المقاطعات (وصلت لثمانى مقاطعات بعد توسع نفوذ دولته)، ويعين في كل مقاطعة خليفة عنه، وتكون تحت تصرفه مجموعة من الآغاوات، وكل أعا بدوره يتصرف في عدة قياد، ولكل قائد مساعدون يعتبرون نوابهن ويكلف كل واحد منهم فرقة على بعض الدواوير، ويكون على كل دوار شيخ على أن يكون لهؤلاء الموظفين على اختلاف درجاتهم صلاحيات إدارية وقت السلم، وواجبات عسكرية وقتالية وقت الحرب.³

1 - يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص ص 82 - 83 - 84.

2 - علي محمد محمد الصلاحي: المرجع السابق، ص 133.

3 - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 213.

- **عسكريا:** أنشأ جيشا نظاميا، وتدريبه على أحدث الفنون القتالية والحربية، وزوده بالأسلحة المتقدمة، وعمل على تجنيد العساكر وتنظيمها فبلغ عدد أفراد جيشه النظامي 63 ألف مقاتل، مقسمين على ثلاث فرق (المشاة، الخيالة، فرقة المدفعية)، ليتمكن بهذا الجيش من تحقيق انتصارات عديدة على جيش العدو الفرنسي¹، كما أنشأ مصانع للأسلحة الخفيفة، والمطاحن والبارود².

- اعتماد راية وطنية وشعار رسمي للدولة وعملة وطنية من الفضة والنحاس على ثلاثة أصناف (الفرنكان -الفرنك -نصف الفرن)³.

- تقييم إنجازات حكومة الأمير:

لقد عمل "الأمير" على تقوية الجهاز المركزي على أسس تتجاوز مفهوم البنية القبلية إلى فكرة بناء دولة⁴ تقوم على مؤسسات كفيلة بإدماج السكان والمحافظة على مصالحهم، ورعاية شؤونهم،

1 - علي محمد محمد الصلابي: المرجع السابق، ص 220 - 221.

2 - شارل هنري تشرشل: المصدر السابق، ص 86.

3 - يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 93.

4 - يعود مصطلح الدولة إلى الكلمة اللاتينية (status)، التي تعني "موقف" أو "وضع"، وبحسب المؤرخين فإن هذه الكلمة مازالت تحمل هذا المعنى في عبارات مثل (حالة حصار)، أو حالة ذهنية (state). وفي العاميات قد تشير "الدولة" أو "الحالة" (state) إلى وضعٍ يمتاز أنه مزعجٌ وغير اعتيادي، وقد تابع "كوينتن سكر" انبثاق الاستعمال السياسي الأكثر تحديداً لمعنى الدولة خلال بواكير الحقبة الحديثة، وأظهرت كيف انتقل المصطلح بالتدرج من "الوضع" أو "منزلة شيء ما آخر"، إلى الجهاز الجمهوري للحكومة المنفصل بوضوح عن شخص الحاكم، وهكذا توافق مظهر هذا المفهوم الجديد مع انبثاق ميدان جديد للحكم.

ولم يتخذ مصطلح "دولة" في اللغة العربية المفهوم المتعارف عليه في زمننا الحاضر بمعنى: ((الكيان السياسي والإطار التنظيمي (= المؤسسي) الواسع لوحدة المجتمع والناظم لحياته الجماعية، وموضع السيادة فيه)) بإقليمه المحدد الثابت والقائم بذاته في المجال الدولي، إلا في فترة غير بعيدة من فترات عصر النهضة العربية الحديثة، فالمصطلح العربي الأصلي للدولة لم يتضمن أي مفهوم للدولة من حيث هي كيان سياسي عام يشمل الأرض والسكان والحكم معاً، بالمفهوم التاريخي الكلاسيكي للدولة كما تجسدت في الدولة الصينية أو الفارسية أو

وهو النموذج المطبق في أوروبا آنذاك، فاتبع خطة لصهر العشائر ودمج القبائل، والحد من النعرات والإحساس الجهوي والعشائري، فأبطل أعمال السخرة وإجراءات مصادرة الأراضي والتغريم المطبقة على سكان المدن والأرياف في عهد البايليك، وعمم الجباية والضرائب على جماعة المخزن والكراغلة للمساهمة في المجهود الحربي¹، لقد بني مشروع "الأمير" على تقاليد عريقة للدولة ومؤسساتها المركزية في أقل من سنتين بعد الاحتلال، ولم تكن الاتفاقية التي وقعها مع "ديميشال" إلا إقراراً بالأمر الواقع أي اعترافاً بعدم انقطاع السيادة الجزائرية على التراب الوطني بعد سنة 1830م، وهو ما أكدته معاهدة تافنة عام 1937م التي نصّت صراحة على وجود دولة جزائرية في حدود عسكرية شكلت كل غرب ووسط الجزائر².

وكما اهتم بالجانب الاقتصادي بتوفير المواد التجارية، وأنواع الحرف العامة، وأنشأ الأسواق للتجارة، ليوفر للأهالي وسائل الراحة والسعادة، اهتم بالجانب الحضاري والثقافي لدولته فأنشأ الحصون والقلاع، وبنى المدارس والقرى³، وقد كان "الأمير" أميناً لتقاليد الطب الأندلسي فشكل

الرومانية، أي الدولة بمعناها التجريدي وليس السلطوي المشخصّ، ويرتبط المعنى اللغوي لـ ((الدولة)) في اللغة العربية بفكرة تداول الغلبة والسيطرة بين قوم وقوم آخرين ينازعونهم في الحرب أو المال، وهما أهمّ وظيفتين لسلطة الحكم في المجتمعات القديمة بخاصة، فالدولة ((في الحرب إن تدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال: كانت لنا عليهم الدولة... و... في المال يقال: صار الفيء دولة بينهم يتداولونه مرة لهذا، ومرة لهذا... فيكون لقوم دون قوم)). ينظر -محمود حيدر: الدولة فلسفتها وتاريخها من الإغريق إلى ما بعد الحداثة، ط1، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 2018، ص 16.

وأيضاً -محمد جابر الأنصاري: التأزم السياسي عند العرب وموقف الإسلام - مكونات الحالة المزمّنة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995، ص ص 21، 23.

¹ - ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 215.

² -محمد العربي ولد خليفة: الثورة الجزائرية معطيات وتحديات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991م.ص 49.

³ - يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 95.

فرقاً طيبة ومستوصفات تطيب في كل مكان¹، وكان له اهتمام كبير بنشر العلوم وتنمية المعارف، إذ عمل على وضع مكافآت مالية أو عينية للمعلمين وفق درجات استحقاقهم، ولتسهيل مهمة المعلمين حرص على حفظ تراث الماضي من التلف خاصة الكتب والمخطوطات².

وبمقارنة إنجازاته مع وظائف الدولة المعاصرة³ يمكننا القول إن دولة "الأمير" كانت تقوم بوظائف سياسية من خلال حفظ الأمن والدفاع عن الأرواح، بتأسيس جيش نظامي مهمته التصدي للعدو الفرنسي الذي كان يهدد إقليمه، وكما قامت دولته بوظائف قانونية وفرعية من خلال تأسيسه مجلس الشورى (البرلمان حالياً)، ومؤسسات حكومية تتولى تنفيذ القرارات، وبالنسبة

1 - برونو إيتين: المصدر السابق، ص 145.

2 - المصدر نفسه، ص 167.

3 - إن الدولة كظاهرة سوسيو - سياسية قامت من أجل إدارة شؤون المجتمع وخدمة المصلحة العامة، ولن يكون ذلك إلا من خلال ممارسة سلطتها وسيادتها على كامل أقاليمها، ومهام الدولة ووظائفها تتزايد وتتكاثف حسب العصر، ورغم اختلاف الظروف الذاتية والموضوعية من دولة إلى أخرى، فقد اتفق العلماء المختصين على هذه الوظائف إلى: وظائف سياسية (أساسية وأصلية): وتمثل في حفظ الأمن داخل حدودها بحماية الأرواح والممتلكات، وبث الطمأنينة والسلام، واحترام حقوق المواطنين والرعايا، وتكريس المساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع، وللدولة حق تطبيق القوة المشروعة لضمان ذلك، بإنشاء مؤسسات قانونية تتولى هذا الأمر، والدفاع عن نفسها والتصدي لأي عدوان خارجي يهدد إقليمها، بتكوين جيش مسلح لحماية حدودها واستقلالها وسيادتها، وتحقيق العدالة بين المواطنين وذلك بصون مصالحهم، والفصل فيما بينهم من منازعات، عن طريق جهاز قضائي، يفصل بينهم بناءً على التشريع.

- وظائف قانونية (فرعية ثانوية): تتمثل في تشريع القوانين بواسطة البرلمان (القانون المعنى الدقيق للكلمة)، والحكومة (القرار التنظيمي المستقل)، المحاكم العليا (قرارات مبدئية)، والتنفيذ بواسطة الجهاز الحكومي (نصوص تطبيقية، تدابير فردية). والإدارة (نصوص تطبيقية، تدابير فردية، عمليات مادية)، والبرلمان (تدابير فردية واستثنائية). ينظر -نورة رز الدين: "مفهوم الدولة لدى الشباب الجزائري"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص علم الاجتماع السياسي، إشراف: أنور مقراني، جامعة محمد لمين دباغين 2، السنة الجامعية 2016/2015م، ص 125-126.

للجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقد عمل على الاهتمام بالصحة، والتعليم، وتنشيط الحياة الاقتصادية.

وفي الأخير يمكننا القول أنّ تكوين "الأمير" الديني والفكري والفلسفي واطلاعه على مختلف المؤلفات التاريخية والدينية مكنه من وضع برنامج نظري لتأسيس الدولة الجزائرية، ثم جسده على أرض الواقع بإرساء معالم الدولة، ودعمها بسلطات ومؤسسات تنفذ برامجها وأهدافها، فخلف لنا "الأمير" إرثاً تاريخياً يتعلق بمفهوم الدولة وأطرها التنظيمية اعتمد عليه الوطنيون في تأسيس الدولة الجزائرية بعد الاستقلال، وهو ما سنتطرق إليه لاحقاً.

3- معالم النظرية الخلدونية في دولة الأمير:

إنّ بناء الدولة رهين بما يسميه "ابن خلدون" ((العصبية¹))، وهي النزعة إلى الالتحام، لأنه من المستحيل بناء مركز سياسي على أرضية منقسمة اجتماعياً، ومتغايرة ثقافياً، على عكس النزعة

¹ - العصبية حسب "ابن خلدون" هي أساس قيام الدولة، ومفهومها في اللغة يعني: (العصبية) هي الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه، ويتعصب بهم، أي أنهم يحيطون به ويشتد بهم، و(العصبية) تعني المحاماة، والمدافعة، وتعصبنا له ومعها تعني نصرناه،....، والتعصب يعني التجمع، وهو لا يعني التجمع الحسي بل التجمع المعنوي، وبالتالي فهو شعور الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من العصبية التي ينتمي إليها، بل هو استعداد دائم في نفس الوقت يدفعه إلى تجسيم هذا الانتماء إلى العصبية بفنائها فيها كليا، وإن الفرد في هذه الحالة يفقد شخصيته بل فرديته، ويتقمص شخصية العصبية.

وأما اصطلاحاً، فالعصبية تعني الرابطة التي تجمع بين أفراد الجماعة الواحدة ذات الصلة الدموية، أو صلات جوارية، وتجمعهم تلك الرابطة وقت الشدة، وهو ما أكده "ابن خلدون" في قوله: "العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه... والآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد، أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية وإلا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك...". وأما "الجابري" فقد عرف العصبية على أنها: رابطة اجتماعية - سيكولوجية، شعورية، ولا شعورية معاً، تربط أفراد جماعة ما - قائمة على القرابة - ربطاً مستمرا يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد:

إلى الانقسام التي تؤدي إلى عرقلة الدولة ووحدها، وزوال الدول القائمة¹، وهو أول شرط توفر في دولة "الأمير" إذ اجتمعت كلمة أعيان قبائل الغرب الجزائري على إعلان الجهاد ضد الغزو الفرنسي².

وحسب "ابن خلدون"³ فإنّ توفر الالتحام القبلي ليس كافيا لبناء الدولة ووحدها، فيشترط أيضًا ظهور "زعامة" تقوم بمهام القيادة، ويعتبر النخبة المسيطرة والعصبية الغالبة عنصرين لازمين إلى

كأفراد أو جماعة، ولعل من ميزات هذه العصبية الرابطة العصبية هي أنها ليست فقط بين فرد وآخر داخل العصبية، بل هي في الدرجة الأولى رابطة بين الفرد والجموعة، فالفرد يذوب في العصبية عندما تتعرض للخطر، والعكس أيضًا. ينظر - زينب بومهدي: مفهوم العصبية ونشأة الدولة في الفكر الخلدوني، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 08، العدد 1، 2020، ص 3-4، وأيضاً - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 58. أيضاً - محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة - معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994م، ص 168.

1 - محمد عبد الباقي المرماسي: المجتمع والدولة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، أكتوبر 1999م، ص 16.

2 - برونو إتيين: المرجع السابق، ص 144.

3 - عبد الرحمن بن خلدون: هو سلسلة لأسرة يمنية في حضر موت، ولد بتونس 1332م/732هـ، تعلم على يد كبار علماء وفقهاء جامع الزيتونة، شغل بعض الوظائف الإدارية، توجه عام 753هـ إلى فاس واعتقل لمدة عامين، ثم ولي كتابة سر لـ "أبي سالم أخي أبي عنان"، ثم تولى النظر في المظالم، وبعدها انتقل إلى الأندلس سنة 764هـ، كلفه السلطان بني الأحمر بعدة مهام، ثم عاد إلى الجزائر وتنقل بين مختلف مناطقها، ليعود إلى تونس سنة 780هـ، ليرحل إلى المشرق فدرس بالجامع الأزهر، ثم ولاه السلطان الظاهر بقوق قضاء المالكية، وبسبب الدسائس فصل من منصبه عدة مرات، وبعد غزو "تيمور لنك" بلاد الشام سافر معه، ولكنه عاد للقاهرة مرة أخرى وبقي فيها إلى أن توفي سنة 1406/808م، تاركا مؤلفات كبيرة علمية، وأدبية وتاريخية. - ينظر-عبد الرحمن ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أتم العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المقدمة، ج2، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان، ص 8 - 9.

درجة أنه في غيابهما يكون من المستحيل أن يُبنى مُلك أو يستقر إلا بواسطة القهر¹، وكل الكتابات تؤكد توفر الشرط الثاني في دولة الأمير، وهو إجماع أعيان القبائل على الشيخ "محي الدين" لتولي قيادتهم، وقد دارت بين الأهالي والحامية الفرنسية عدة معارك شارك فيها "الأمير" إلى جانب والده، أظهر فيها قدرته وأصاله رأيه فجمع محبة الأهالي، وهكذا ظهرت شخصية "الزعيم" الذي بإمكانه إدارة شؤون القبائل وتولي مهام حمايتها، لتتم مبايعة "الأمير عبد القادر"² رسميًا من طرف مجلس أعيان مدينة معسكر في 21 نوفمبر 1832م، ثم بايعه الناس عامة في 04 فيفري 1883م، وكان ممن بايعه القبائل الشرقية والغربية، ولقبه والده بأمير المؤمنين "ناصر الدين" وقيل أنه ببيع بالسلطنة

¹ - محمد عبد الباقي الهرماسي: المرجع السابق، ص 17.

² - إن إجماع القبائل على مبايعة "الأمير" هو راجع لتأكدهم من توفر شروط الحاكم في شخصيته، وهي شروط بينها لنا "أبو حامد الغزالي"، فمن شروط الحاكم التزامه بمبدأ الشورى، وهو ما توفر في "الأمير"، إذ كان له مجلس شورى كما ذكرنا آنفا، واشترط أيضا سعة الصدر وقبول المحاسبة، وهي من صفات "الأمير"، وأيضا إدراكه لمسؤولية الحكم، فالحاكم مسؤول عن كل الأمور في البلد التي يحكمها، وأيضا اكتمال النصاب النفسي والعقلي، أي تتوفر فيه القدرة على التحمل فتكوين الدولة يتطلب النفس الطويل، وقدرته على الإدارة وحسن التسيير بتطبيق العدالة، وحراسة الحق، وتحقيق المثل العليا، وتطبيقه أيضا للقرآن والسنة، وإحاطته بالعلاقات الدولية حتى يقي بلاده من شر المؤامرات الخارجية، ومن شروط الحاكم أيضا تطبيقه للشرائع الدينية. ومما تناولنا يمكننا القول إن هذه الشروط قد توفرت في "الأمير"، وكما توفر فيه شرط القوة والأمانة إذ حقق عدة انتصارات على العدو الفرنسي، واشترط "ابن خلدون" أربعة شروط في الإمامة والحكم، وهي العلم (الأمير كان على قدر واسع من العلم والمعرفة)، العدالة، والكفاية، وتعني قدرته على تحقيق الحدود للدولة، وحوض الحروب، وسلامة الحواس والعقل. ينظر - عبد الرحيم بو عيسى: التجديد ونظام الحكم في فكر الشيخ محمد الغزالي، مجلة المعيار، المجلد 24، العدد 50، جامعة الأمير عبد القادر، 2020، ص ص 216 - 217 - 218. وأيضا - عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ص ص 99 - 100.

لكنه لم يرض باللقب مراعاةً لسلطان فاس، واكتفى بلقب الإمارة، ثم أجمعت الجهات الغربية والجنوبية على مبايعته على الإمارة¹.

وكما أكد "ابن خلدون" على أهمية الدين أو الدعوات الدينية إذ تمثل عاملاً إضافياً في تركيز الملك السياسي واستمراره. وكان الإسلام التقليدي عاملاً على توحيد القبائل في إطار شامل، وهو ((الأمة))²، وهو شرط ثالث توفر في دولة "الأمير"، إذ كان عامل الدين من الأهم العوامل التي أجمعت ووحدت سكان القبائل الغربية، وكل الشعب الجزائري للتصدي للغزو الأجنبي المسيحي، وهو هدف أجمعت عليه مختلف المقاومات والثورات التي شهدتها الجزائر ما بين سنتي (1830-1900) م، إذ كان دافع الجهاد ورفع راية الإسلام من أهم أسباب تلك المقاومات، وكانت كل الكتابات تؤكد أن كل زعماء الثورات كانوا شيوخ زوايا، وينتمون لبعض الطرق الصوفية، وتميز "الأمير" أيضاً بشخصيته الدينية، وهذا راجع لتكوينه الشرعي، ومرده لعائلته التي أخذ منها كل ما يتعلق بالثقافة الإسلامية، إضافة إلى رحلته لأداء الحج وتعرفه على شخصيات دينية وسياسية مرموقة، كما أنه وسع معارفه العلمية في الدين باطلاعه على كل ما ورد في القرآن والسنة، فكان مجاهدًا وزعيمًا ومصلحًا وعالمًا³.

كما توفر في دولة "الأمير" شرط آخر من شروط تكوين الدولة، وهو الشعب الذي يعتبر أساس وجود الدولة، فالجماعة الإنسانية كثيرة العدد تشكل قوة وغلبة ضرورية لنشأة الدولة، ولكن وجودها لا يكفي لوجود الدولة، وعلى قدر الانسجام والتآلف الضروري بين الجماعة الإنسانية يكون دوام استقرار الدولة، ولا بد أن يكون بين الأفراد شعور بالانتماء لنفس المصير (العدو

1 - نزار أبابضة: الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1994م، ص 10.

2 - محمد عبد الباقي الهرماسي: المرجع السابق، ص 17.

3 - احمد بوشريط: "الجانب الديني في فكر الأمير عبد القادر من خلال كتابه المقرض الحاد"، مجلة عصور الجديدة، المجلد 1، العدد 1، جامعة وهران 1، 2011م، ص 207.

الفرنسي)، وهذا ما أدى لظهور مفهوم الأمة كأساس لنشأة الدولة، وقد تطور هذا المفهوم في أوروبا، وأدى لظهور عدة نظريات تحدد مفهوم الأمة ومميزاتها¹.

وعليه يمكننا القول أنّ دولة "الأمير" توفرت فيها كل الشروط التي ذكرها "ابن خلدون" المؤرخ وعالم الاجتماع، وهو راجع لاطلاع "الأمير" على فلسفة المؤرخ ونظرته لنشأة الدولة، وطرق استمراريتها، وهذا ما لمسناه من خلال وصية والده له بعد مبايعته، إذ قال له: "تذكر درس مؤرخنا الكبير: أنت لست رئيس قبيلة، وأمة الحرب البدوية هي التوفيق بين العشائر وشدّ الأواصر بشعور عضويّ موحدّ يسمى: العصبية لكن التحالفات تبقى هشّة وحرّة، فلا تنس الدرس يا بنيّ. وستكون مهمتك صعبة في ضبط رؤساء القبائل"².

4- الأسس النظرية لفكرة العقد الاجتماعي وشرعية دولة الأمير حسب "هوبز":

إنّ فكرة العقد³ الاجتماعي كما هي عليه الآن ظهرت بشكل واضح عند فلاسفة الفكر الغربي في القرنين (17-18)م، وترجع تاريخياً إلى السفسطائيين¹ الذين رأوا أن الإنسان يضع القيم

¹ - ظهرت عدة نظريات تحدد مفهوم الأمة منها: -النظرية الموضوعية: التي تعرف الأمة بناءً على عناصر موضوعية كاللغة والدين والجنس والعرق، أي أن الأمة هي مجموعة من الأفراد المنتمين لنفس العرق، وترتبطهم نفس الروابط الدينية واللغوية والتاريخية، وقد عرف هذا المفهوم للأمة أوجه مع التيار النازي الذي نادى بنظرية المحافظة على صفاء العرق الآري في ألمانيا، وأدى لظهور ظاهرة التطهير العرقي والميز العنصري.

- النظرية الشخصية: تطورت هذه النظرية في فرنسا، وهي لا تركز على عنصر العرق بل تكتفي بالاعتماد على عناصر أخرى مثل الثقافة المشتركة، والظروف التاريخية والاقتصادية الرابطة بين أفراد الجماعة، حيث تميز الأمة بالشعور المشترك لدى لأفراد مما يعزز روح التضامن، والرغبة في العيش المشترك تحت نظام موحد، فيقول "جورج بوردو" ((الأمة هي حلم بمستقبل مشترك)) ينظر -من الإنترنت: "مفهوم الدولة" الموقع:

² - برونو إيتين: المصدر السابق، ص 145.

³ - العقد في اللغة يعني المعاهدة، وجمعها عقود، والمعاهدة: أي المعاهدة، والميثاق، وتعاهد القوم أي تعاهدوا، قال تعالى: (يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) -آية 1 من سورة المائدة-، والعقود هي العهود، وهي الفرائض التي

بإرادته، وبذلك يعتبر السفسطائيون أو من أثار فكرة الاتفاق أو التعاقد باعتباره أساساً لنشأة المجتمع السياسي الذي يُكوّن الدولة، فالدولة نشأت من نظلم سياسي غير طبيعي قام على أساس الاتفاق أو التعاقد بين الأفراد لتحقيق حمايتهم، وقد تطورت فكرة العقد الاجتماعي مع الوقت، ومثلها في القرنين (17 - 18)م ثلاثة فلاسفة ومفكرين (توماس هوبز، جون لوك، وجان جاك

أزموها. والعقيد هو الحليف، وأما في القاموس المحيط فكلمة (عقد تعني الضمان والعهد)، وكلمة العقد وإن تعددت أشكالها في اللغة العربية مثل: عقد، عهد، ميثاق، فهي في النهاية تصل إلى بناء معنى واحد وهو الاتفاق الذي يضمن لكل الأطراف المشتركة فيه حقوقها ومصالحها.

وأما العقد الاجتماعي اصطلاحاً فيعرف في الفكر السياسي عند "غورتياس" على أنه تجمع رجال أحرار ارتضوا بكامل حريتهم وإرادتهم دون أي ضغوط على التعاقد فيما بينهم لتكوين المجتمع أو الدولة والانصياع لسلطتها. وعليه فإن العقد الاجتماعي يعرف على أنه معاهدة يتخلى فيها الأفراد عن كل أو بعض حريتهم وحقوقهم التي كانوا يتمتعون بها في الحياة البدائية القائمة على الصراعات والحروب لسلطة عليا في الدولة، وتُمثّل هذه السلطة في مجموعة من الأفراد أو فرد قادر واحد قادر على توجيه حياتهم الاجتماعية توجيهها بخدم مصالحهم، ومتطلبات حياتهم، وكذلك تضمن هذه السلطة الأمن والاستقرار، أي الانتقال بهذا الاتفاق من الحالة الطبيعية الفطرية إلى الحالة المدنية، وعليه فنظرية العقد الاجتماعي تمكنت من التوفيق بين مصالح الأفراد التي تبدو متضاربة ومتعارضة، تدخلهم في الحروب، وانتقلت بهم إلى مجتمع منظم يلتزم فيه كل فرد بواجباته دون الاعتداء على غيره، وهو ما يضمن الاستمرار والبقاء. ينظر - شريفة ساسي محمد الرويمي: نظرية العقد الاجتماعي الليبية، 2009 - 2010، ص 14 وما بعدها. وينظر أيضاً - مهدي محفوظ: اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، ط 1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1990، ص 73.

¹ -السفسطائيون: كان السفسطائيون طائفة من المعلمين أكسبتهم أسفارهم الطويلة في المستعمرات الاغريقية، وفي مختلف المدن خبرة بالحياة السياسية والنظم الاجتماعية، وقد أخذوا على عاتقهم ترقية شؤون التربية، وإعداد النشء لما تقتضيه الحياة الجديدة، حتى يصبح المرء منهم قادراً على معالجة الأحوال السائدة ببلاغة المنطق، وحسن الإلقاء في الخطابة والجدل، وقد نادوا بإعلاء شأن الفرد، وتقديم مصلحته على مصلحة الجميع، وحمايته من تدخل الحكومة. ينظر -حسن خليفة: تاريخ النظريات السياسية وتطورها، ط 1، المطبعة الحديثة، القاهرة، 1929، ص 16.

روسو)، ويعتبر "توماس هوبز"¹ أول من بدأ في إبرازها من خلال كتابه (اللفيثان²) الذي أصدره عام 1561م، وقد أجمع بعده "جون لوك، وروسو" على أن أصل نشأة الدولة وقيام السلطة يقوم على فكرة العقد الاجتماعي³.

وجوهر العقد الاجتماعي والغاية من وجود المجتمع عند الهوبسية يفترضان أن تكون السلطة الاجتماعية سلطة مطلقة، فالأفراد الطبيعيون عندما تخلى كل واحد منهم عن حقه المطلق في كل شيء لمصلحة الحاكم، كان قد تخلى عنه تخلياً نهائياً ومطلقاً وبدون ذلك فإن الحرب الطبيعية ستستمر بين البشر. وبتخليهم المطلق بإرادتهم عن حرية إبداء الرأي في الخير والشر، وتعاهدوا بأن

¹ - توماس هوبز: ولد سنة 1588م من أب بروتستاني، درس اللغة اللاتينية واليونانية في سن السادسة، تابع دراسته الجامعية وحصل على الإجازة في الفنون، نشر مؤلفات في علم النفس والفيزياء، وخلال الثورة الإنجليزية استقر في باريس سنة 1640م واحتك بالفلاسفة أمثال: "ديكار"، وتأثر بالحروب الدينية في فرنسا وإنجلترا، فطور الفلسفة، وأصدر: "عناصر القوانين الطبيعية"، "الطبيعة الإنسانية"، "ركائز السياسة". توفي عام 1679م. ينظر-توماس هوبز: اللقيثان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة: ديانا حرب، ويشرى صعب، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2011.

² - تكمل أهمية كتاب (اللفيثان) أن مؤلفه حدد الأسس الدينية والدنيوية التي تقوم عليها الدولة وشكلها وسلطاتها، واسم الكتاب غريب فقد استعاره "هوبز" من سفر "أيوب" في التوراة، فهذا السفر يتحدث عن حيوان ضخم أو تنين جبار لا تضاهيه أي قوة على وجه الأرض، وكما تعني كلمة (الليفياثان) أكبر سمكة بحرية تأكل الأسماك الأصغر منها لتحمي السمك الصغير، وبالتالي فهي تشبه الدولة التي تحمي الأفراد الضعفاء والمساكين من اعتداء الأقوياء عليهم، كالكنيسة والمنظمات، أو بالأحرى المنظمات الوسيطة بين الدولة والأفراد، وحتى غلاف الكتاب كان غريباً، ففيه صورة لعملاق يتألف جسمه وأطرافه من ألوف الأفراد الصغار، باليد اليمنى يمسك سيفاً سلطاً، وباليد اليسرى عصا الأسقفية، وحوله جيش على أهبة القتال، وفقهاء دينيون يتذاكرون. ينظر - مهدي محفوظ: المرجع السابق، ص 76.

³ - عبد العزيز حسن. الوظائف: العقد الاجتماعي ونشأة الدولة - دراسة تحليلية مقارنة بين الاتجاهات المختلفة لرواد هذه النظرية، مجلة الآداب، العدد 13، جامعة ذمار، الجمهورية اليمنية، ديسمبر 2019، ص 413 - 414.

يروا الخير والعدل في ما يأمر به العاهل ملك السيادة، ولا شك في أن لهذه السلطة المطلقة سيئاتها، ولكن هذه السيئات تفقد قيمتها عند الاختيار بين حرب الكل ضد الكل في غياب السلطة المطلقة، وبين السلام الآمن في ظل السلطة المطلقة، وعليه فليس هناك من خيار لدى "هوبز" إلا السلطة المطلقة أو الفوضى الكاملة، بين حاكم قادر أو عدم وجود مجتمع، فلا وجود لكيان اجتماعي إلا عن طريق السلطات التي ينشئها، وليس لأعضائه حقوق إلا بطريق التفويض منه، وكذلك القوانين والأخلاق يجب أن تنبع من إرادته فقط، وهكذا فإن "هوبز" يحاول التأكيد على أن السيادة يجب أن تكون مطلقة للحاكم وغير قابلة للتجزئة، ويرر رأيه هذا بأن إنجلترا دخلت في الحرب الأهلية بسبب أن الملك لم يحتفظ بالسيادة المطلقة، وأتاح للبرلمان أن يقوى ويصبح قوة مستقلة إلى جانبه، وبذلك أصبح للبلاد سيدان، الأمر الذي يعني فقدان معنى السيادة، لأن تجزئة السيادة يعني فقدانها¹.

وقد طبق "الأمير" نظرية العقد الاجتماعي في تأسيس دولته، واعتبر الفيلسوف "هوبز" أن الاتفاقية المتبادلة العامة التي يجيز فيها أفراد المجموعة للحاكم المطلق للعمل باسمهم، على أنه يُمثلهم، هو من أهم الشروط الأساسية التي يجب توفرها في مسألة هندسة الدولة سياسياً، لأن هذه الاتفاقية أو العقد هي الوجه الأساسي، بمعنى أنها تمنح للدولة السلطة والشرعية للحكم²، وقد أجمعت كل الكتابات التاريخية على توفر هذا الشرط الجوهري في دولة "الأمير"، ومن خلال قراءتنا لنص البيعة نجد أن هناك توافقاً فكرياً وفلسفياً بين منهج "هوبز" ومنهج "الأمير" فيما يخص العقد الاجتماعي، إذ يقول "الأمير": "فإن أهل مناطق ((معسكر)) أجمعوا على مبايعتي أميراً عليهم، وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم، وأولادهم، وأموالهم،

¹ - مهدي محفوظ: المرجع السابق، ص 83.

² - توماس هوبز: المصدر السابق، ص 175.

في إعلاء كلمة الله، وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما قبلت هذا المنصب، مع عدم ميله إليه، مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، وإزالة النزاع والخصام من بينهم، وتأمين السُّبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المُطهرة وحماية البلاد من العدو،... وكشرط لقبولي فرضت على أولئك الذين عهدوا إليّ بالسلطة العليا واجب الامتثال دائماً في جميع أعمالهم إلى تعاليم الشريعة المقدّسة....، وقد ارتضوا بهذا الشرط... إن هدفي الأسمى أن أحقق ما فيه الصلاح"¹، وعليه، فإنّ "الأمير" طبق النظرية الهوبسية في مسألة وجوب الطاعة والامتثال للأوامر التي يصدرها الحاكم، وصاحب السلطة، فقد اشترط عليهم طاعة أوامره، طالما أنه تم اختياره بإجماع من القبائل بمحض إرادتهم دون استعمال أي قوة، فمن باب الثقة منحت لـ "الأمير" السلطة المطلقة، وهو تعهد من جانبه بتوفير الأمن والدفاع عنهم ضد العدو الفرنسي.

لقد أكد "هوبز" على جوب امتلاك الحاكم للسلطة المطلقة²، وقدم لنا كل ما يستطيع الحاكم المطلق أن يقوم به، ومن الصلاحيات التي يتمتع بها الحاكم في ظل العقد الاجتماعي:

¹ - برونو إيتين: المصدر السابق، ص 153.

² - يرى "توماس هوبز" أن السلطة تكتسب بطريقتين: من خلال الولادة، ومن خلال الغزو، فحق السلطة من خلال الولادة هو الحق العائد لأحد الوالدين على أولاده، إنّها السلطة الأبوية، وبما أن الله لطالما شاء أن تكون هناك طاعة للولد في أوامر والديه، ولكن تم منح السلطة أكثر للأب، فالدول غالباً ما أسست على يد الآباء، وليس على يد الأمهات، وأما السلطة المكتسبة عن طريق الحرب أو الغزو يسميها الكتاب السياسيون السلطة الاستبدادية، وهي سلطة سيطرة المولى على خادمه، وهذه السلطة مُكتسبة من المنتصر، فكيف حصل "الأمير" على السلطة حسب "هوبز"؟

لقد حصل "الأمير" على السلطة وفق منظور "هوبز" عن طريق السلطة الأبوية، فحسب تحليلنا الشخصي فإنه ولو لم يكن والده "محي الدين" لم يحصل على السلطة، فسكان الغرب الجزائري كما ذكرنا من قبل اتفقوا على مبايعة "محي الدين" لقيادتهم، ونظراً لكبر سنه، وعدم قدرته على تحمل هذه المسؤولية الكبيرة، ارتأى تسليم السلطة لابنة "عبد القادر" فالتزم هذا الأخير بطاعة والده، وعليه فنلمس توافق كبير بين رأي الفيلسوف الإنجليزي

صلاحية تحديد القواعد والأحكام السلوكية العامة أي تطبيق القوانين المدنية. وإن الحاكم وحده الجهة المسؤولة عن قيادة القوات المسلحة على اعتبار أن هذا الحاكم هو من يملك القرار فيما يخص حالة الحرب والسلم داخل الدولة، وللحاكم الحق في ترشيد وتوجيه الأفراد داخل المجتمع وذلك فيما يتعلق بجميع القضايا العامة. وللحاكم الحق في الإشراف على شؤون الدولة الإدارية. والحاكم له الحق في اختيار المستشارين، القضاة، وكبار موظفي الدولة، وللحاكم الحق في إصدار كافة الأحكام القضائية (المكافأة أو العقوبات)، وله الحق في تحديد الملكية وفقاً لمشيئته أي إشرافه على الشؤون المالية ومراقبتها. وله كافة الحقوق في إصدار وتعطيل القوانين¹.

ومن خلال هذه الصلاحيات فقد منحت الهوبسية الحاكم سلطة غير متناهية الحدود، وبذلك يصبح الحاكم يمثل الشعب أفضل تمثيل وليس ما يقف في طريقه، أو يجد من تصرفاته إلا ضميره والله، فهل توفرت هذه الشرط في "الأمير"؟

وبناءً على ما أوردناه في العنصر المتعلق بسلطات دولة "الأمير" ووظائفها، يمكننا القول إن صلاحيات الحاكم التي ذكرها "هوبز" قد توفرت في "الأمير"، إذ كان هو من يرأس الدولة، وهو من يقوم بتعيين الموظفين، فبعد مبايعته عين رجال الدولة، فاستوزر "محمد ابن العربي"، واستكتب ابن عمه "أحمد بن علي"، و"الحاج مصطفى بن التهامي"، وولى "الحاج بن فريجة" على خزينة المملكة، وكما بث العمال والقضاة في سائر الجهات، وكان يفصل في الخصومات والنزعات باعتباره المسؤول الأول عن العدالة الاجتماعية، بحكم منزلته في الدولة فكان يقود المسلمين. وبعد تفرغ الأمير من شؤون رسم مملكته، بدأ يتنقل لمختلف المناطق لمراقبة الأعمال وضبط الأمور وراقب الثغور، كما

و"الأمير" بأحقية الأب بطاعة ابنه له، وفق ما ينص عليه الدين. ينظر - توماس هوبز: المصدر السابق، ص 207 - 208.

¹ - ينظر الفصل 18 (في حقوق الحكام المطلقين بموجب فعل التأسيس). هوبز: المرجع السابق، ص 182 وما بعدها.

حاول جمع الشمل في سبيل الجماعة والوطن، وكان هو من يقرر الحرب أو السلم إجماع مجلس الشورى فعقد معاهدة "دي ميشال" سنة 1834م، ومعاهدة "التافنة" 1837م¹. وبالرغم من وجود توافق بين حقوق وصلاحيات السلطة المطلقة التي حددها "هوبز"، وسلطات دولة "الأمير" إلى أنه يوجد اختلاف وفوارق جوهرية وملموسة بين المفكر الإنجليزي، والدولة الأميرية فيما يتعلق بمسألة السلطة المطلق التي أكد عليها "هوبز" وأن الحاكم يتمتع بها بشكل مطلق، ولا يجذب مبدأ الشورى وأن يستعين الحاكم بالبرلمان، بسبب ما وقع في إنجلترا من حروب أهلية²، وهنا يكمن جوهر الخلاف مع دولة "الأمير" الذي كان يعتمد على مبدأ الشورى في الحكم بناءً على ما أقره الكتاب والسنة، واعتمد على نظام ديمقراطي أقصى فيه الاقطاعية الوراثية، وعوضها بقيادة مقبولين من الشعب، وكما جسّد مبدأ ازدواجية السلطة التشريعية، بإنشاء مجلسين استشاريين: الأول (المجلس الأميري)، وهو مركز السلطة التشريعية، عدد أعضائه إحدى عشر عضواً، وكان يعالج القضايا الهامة (المصادقة على المعاهدات، الأمور المالية...)، عن طريق التصويت، والثاني (المجلس الاستشاري المحلي)، وهو من يتولى قضايا الدواوير والقبائل، وكما أعطى "الأمير" الاستقلالية للقضاء، فكان القاضي يتمتع بصلاحيات واسعة³.

¹ - الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903، ص 104 وما بعدها.

² - مهدي محفوظ: المرجع السابق، ص 83.

³ - عبد القادر دوحة: التأسيس الدستوري لدولة الأمير عبد القادر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 09، جامعة معسكر، ديسمبر 2014، ص 311 وما بعدها.

الخاتمة والنتائج

من خلال مناقشاتنا آنفاً لموضوع دولة "الأمير" يمكننا القول إنها توفرت فيها كل الشروط التي ذكرناها من قبل، (أركان الدولة المتمثلة في: الإقليم، الشعب، السلطة السياسية، والاعتراف¹ إذ اعترفت بإمارته مختلف القبائل، وكذلك السلطات الفرنسية)، وقد قامت دولته على أسس شرعية وديمقراطية، وبعرضنا لأهم ما قدمه كل من "ابن خلدون" و"هوبز" حول الدولة، وتفسير نشأتها وسلطاتها ووظائفها نجد أن هناك عدة جوانب ونقاط مشتركة جسدها "الأمير" في دولته، نوجزها في النقاط التالية:

◀ الدولة ظاهرة من صنع البشر وبارادتهم، وهي مرحلة ينتقل إليها الإنسان بموجب اتفاق، وميثاق، وعقد [المبايعة والعصية عند "ابن خلدون" تقابلها نظرية العقد الاجتماعي عند "هوبز"]، وهذا يتم بين المجموعة التي تختار شخصاً واحداً ليكون حاكماً، وهو ما جسده "الأمير" في دولته، وهذا دليل على وعيه التام بضرورة تحقيق الالتحام لأنه يساعد على بناء الدولة، في حين أن الانقسامات تؤدي إلى عرقلة البناء، وتؤدي إلى انهيار الدولة القائمة، ولهذا لم يتول "الأمير" السلطة إلا بعد أن تمت مبايعته، وعليه يمكننا القول إنّه كان على دراية كبيرة بفلسفة الدولة وبنائها².

¹ - بعد توقيع معاهدة "دي ميشال" 1834م حصل على اعتراف السلطات الفرنسية بحدود إمارته، وبسلطته ((لقب أمير المؤمنين في المعاهدة))، وإرساله لثلاث قناصل لتمثيله في المناطق الفرنسية (وهران، أرزيو، مستغنام)، كما نصت المادة 06 من المعاهدة على أن كل أوروبي يريد التنقل داخل البلاد سيحمل جواز سفر عليه ختم قنصل الأمير، وختم القائد العام للإقليم، وهذا دليل على الاعتراف بسلطته. وقد أثبتت رسالة القنصل الإنجليزي "كوت" نفوذ الأمير، ففي رسالته إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ 13 سبتمبر 1836م بقوله: "إن سلطة الأمير عبد القادر معترف بها من جبل طارق وحتى طرابلس". للمزيد ينظر -شارل هنري تشرشل: المصدر السابق، ص 300 - 301. وأيضا ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 214.

² - ابن خلدون: المصدر السابق، ص 73 - 74. وأيضا - توماس هوبز: المصدر السابق، ص 175.

◀ عامل القوة ودوره في نشأة الدولة: أكد عليه "ابن خلدون"، والقوة في نظره تكون بالالتحام والعصبية القبلية، والملك هو التغلب والقهر فقال: "الرئاسة لا تكون إلا بالتغلب والغلب إنما يكون بالعصبية"، والفيلسوف "هوبز" هو الآخر أكد على ضرورة استعمال القوة لفرض السلطة، وهو ما توفر في دولة "الأمير" فكانت تملك جيشا عسكريا منظما وعصريا حقق انتصارات عديدة على القوات الفرنسية، كما أُرهب جيش "الأمير" معارضيهِ من القبائل¹.

◀ تحديد صلاحيات الحاكم وتعيين موظفي الدولة: فقد أكد لنا "ابن خلدون" أهمية الوظائف الإدارية لتسيير الدولة، وأن للحاكم الحرية في تعيين الوزراء، والكتاب، والحاجب، والقضاة، وحتى "توماس هوبز" يتوافق معه في هذه النقطة، إذ يرى أن صاحب السلطة من حقه اختيار وتعيين مستشاريه ووزرائه...، وهو ما طبقه "الأمير" فعلاً فبعد مبايعته مباشرة عين وزراءه، والكتاب، والقضاة، وقادة الجيش².

◀ وظائف الدولة ودورها: يتفق المفكرون في هذه النقطة، مؤكدين لنا أن الدولة وجدت لتنظيم الحياة البشرية، وتأطير المجتمع وتنظيمه، من خلال القضاء على الصراعات والفوضى والاضطراب، وبقوة السلطة يتم تحقيق الأمن، والعدالة، ومراقبة الأموال (الحسبة والسكة في الإسلام)، وحماية موارد الدولة، وتطويرها لتوفير الرفاهية، وهذا ما لمسناه فعلاً في دولة "الأمير"، إذ تمكن في وقت وجيز من تنظيم القبائل وتنشيط الحياة الاقتصادية، والفصل في الخصومات، والاهتمام بالتعليم...³.

¹ - ابن خلدون: المصدر السابق، ص 83-85. وأيضاً - توماس هوبز: المصدر السابق، ص 193.

² - ابن خلدون: المصدر السابق، ص 120-124. وأيضاً - توماس هوبز: المصدر السابق، ص 245 وما بعدها.

³ - ابن خلدون: المصدر السابق، ص 114-115، وأيضاً - توماس هوبز: المصدر السابق، ص 252 - 255.

تميزت أفكار كل من "ابن خلدون" و"هوبز" بالعمق، فقد وضعنا لنا، وللفكر السياسي نظرية متكاملة للدولة ونشأتها، وطريقة بنائها وتنظيمها وتطورها، وأكدنا لنا أن الدولة ليست مجرد رئاسة وسلطة، وإنما هي القوة والتغلب والقهر، وأنها تقوم على أساس الوحدة والالتحام، وهو ما يعني أنها مؤسسة اجتماعية طبيعية، وهو ما لمسنا في شخصية "الأمير" أيضا فتميزت أفكاره بالعمق، والتكامل فيما يخص عملية بناء الدولة.

وإذا كانت أفكار "ابن خلدون" و"هوبز" تتوافق في بعض النقاط، والتي تجسدت بشكل فعلي وواقعي في دولة "الأمير"، إلا أننا نجد اختلافا بين المفكرين في:

◀ مسألة السلطة المطلقة، إذ يرى "هوبز" كما ذكرنا سابقا أن الحاكم يتمتع بالسلطة المطلقة، وهو من يقرر ويأمر، وحتى إن أخطأ فلا يجوز معارضته، ويجب ألا يسمح بوجود سلطة غيره، لأن وجود سلطة أخرى يؤدي إلى انهيار الدولة، على عكس "ابن خلدون" الذي أكد أن الحاكم ملزم بالشورى ويخضع للكتاب والسنة، وهو ما كان يطبقه "الأمير" في تسيير شؤون الدولة¹.

◀ كما نجد اختلاف أيضا في مسألة نهاية الدولة وانهيارها، فالمفكر "ابن خلدون" يرى أن الدولة تنمو وتزدهر وتتسع، ثم تبدأ في الانهيار حتى تموت، أي أن الدولة مثل الإنسان تموت، وهو ما كان فعلا في دولة "الأمير"، إذ مرت بنفس المراحل التي حددها: ابن خلدون، فقد استقوى "الأمير" بعد مبايعة القبائل له، وحقق انتصارات مكنته من توسيع حدود دولته، وأصبحت تنافس الوجود الفرنسي، ولكن بعد كل هذه القوة بدأت في الضعف والانهيار حتى كانت النهاية سنة 1948م، وفي هذه النقطة نجد اختلافا مع آراء "هوبز"، والذي يرى أن تجزئة السلطة المطلقة هو

¹ - ابن خلدون: المصدر السابق، ص 598. وأيضا - مهدي محفوظ: المرجع السابق، ص 83.

الذي سيؤدي إلى انهيار الدولة، أي أن غياب السلطة المطلقة يعني بداية الفوضى، وبالتالي انهيار الدولة (الفصل 29 من كتابه اللفيثان)¹.

وبناءً على ما تطرقنا إليه نخلص إلى أن دولة "الأمير" قد توفرت فيها الأركان والشروط المحددة لبناء الدولة، قانونيًا وفلسفيًا وفكريًا وسياسيًا، وحسب ما ذكره "ابن خلدون" والفيلسوف "هوبز"، فقد انبثقت دولته بطريقة شرعية، أي عن طريق العقد الذي تم بين سكان القبائل و"الأمير"، والذي ألزمهم بالخضوع لطاعته، وهو يتولى حمايتهم، وتنظيم المجتمع البشري، وقد حافظ على هذا مبدأ الشورى في تسييره لشؤون الدولة، فكان يتم اتخاذ القرارات بطريقة ديمقراطية على أساس مبدأ (التصويت)، ودولة "الأمير" كانت دولة دستورية (القرآن والسنة، الاجتهاد)، وليست ملكية، وهو جوهر الاختلاف مع "هوبز" الذي دافع عن الملكية في إنجلترا، وكانت دولة "الأمير" دولة مواطنة تقوم على مبدأ الحقوق والواجبات، ودولة قانون أساسها العدل والمساواة وتطبيق القانون على الجميع دون تمييز، والقضاء على النزعات العرقية والاختلافات اللغوية، ولم تشمل العناصر البشرية وتوحيدها لخدمة المصلحة المشتركة (سعى لتطبيق نظرية الأمة الواحدة).

¹ ابن خلدون: المصدر السابق، ص 150 وما بعدها. وأيضاً - توماس هوبز: المصدر السابق، ص 318.

قائمة المصادر والمراجع:

- أباضة نزار: الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1994م.
- الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903.
- الأنصاري محمد جابر: التأزم السياسي عند العرب وموقف الإسلام - مكونات الحالة المزمنة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995.
- إتيين برونو: الأمير عبد القادر، ترجمة: ميشيل خوري، ط1، دار عطية للنشر، بيروت، 1997م.
- بن خلدون عبد الرحمن: المقدمة،
- بوعزيز يحيى: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ط3، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983.
- ثورات القرن التاسع عشر، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- بيرنت يوهان كارل: الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو العيد دود، ط2، دار هومة، الجزائر، 1997.
- بلاح بشير: تاريخ الجزائر المعاصر 1830 إلى 1989م، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006.
- تشرشل شارل هنري: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974م.
- الجابري محمد عابد: فكر ابن خلدون العصبية والدولة - معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994م.
- حيدر محمود: الدولة فلسفتها وتاريخها من الإغريق إلى ما بعد الحداثة، ط1، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 2018.
- حسن خليفة: تاريخ النظريات السياسية وتطورها، ط1، المطبعة الحديثة، القاهرة، 1929، ص 16.
- ساسي محمد الرومي شريفة: نظرية العقد الاجتماعي وشرعية الدولة عند توماس هوبز، رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الماجستير، جامعة الفاتح، الجماهيرية العربية الليبية، 2009 - 2010.
- سعد الله أبو القاسم: خلاصة تاريخ الجزائر - المقاومة والتحرير 1830-1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007م.

- سعيدوني ناصر الدين: عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000.
- الصلابي علي محمد: سيرة الأمير عبد القادر. قائد رباي ومجاهد، دار المعرفة، بيروت.
- محفوظ مهدي: اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1990.
- ورز الدين نورة: "مفهوم الدولة لدى الشباب الجزائري"، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، تخصص علم الاجتماع السياسي، إشراف: أنور مقراني، جامعة محمد لمين دباغين 2، السنة الجامعية 2015/2016م.
- ولد خليفة محمد العربي: الثورة الجزائرية معطيات وتحديات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991م.
- هوبز توماس: اللقيثان الأصول الطبيعية والسياسية لسلمة الدولة، ترجمة: ديانا حرب، وبشرى صعب، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2011.
- الهرماسي محمد عبد الباقي: المجتمع والدولة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 1999.
- مجلة عصور الجديدة، المجلد 1، العدد 1، جامعة وهران 1، 2011 م، ص 207.
- مجلة المعيار، المجلد 24، العدد 50، جامعة الأمير عبد القادر، 2020.
- مجلة الآداب، العدد 13، جامعة ذمار، الجمهورية اليمنية، ديسمبر 2019.
- مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 09، جامعة معسكر، ديسمبر 2014.
- مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 08، العدد 01، 2020.
- من الإنترنت: "مفهوم الدولة" الموقع:

UNIVERSITYLIFESTYLE.NE -Mohamed Chérif Ould El Hocine : De la résistance Al Guerre D'indépendance 1830–1962, Casbah Editions. Alger, 2010.

شخصية الأمير عبد القادر في كتاباته وفكره -رسالته "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" أنموذجا-

د. عايدة حباطي، أستاذة محاضرة قسم أ
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

مقدمة:

ارتبطت الفروسية العربية منذ زمن بعيد بالسيف والقلم، بحثا عن السيادة والرياسة، وهي الثنائية التي نوه إليها عبد الرحمان بن خلدون في الفصل الخامس والثلاثون من مقدمته في قوله: " اعلم أن السيف والقلم كلاهما آله لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره، إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم، أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلم في تلك الحال خادم فقط..."⁽¹⁾ فكانت مظهرا عاما عند العرب تعبيرا عن فروسياتهم وتمسكهم بالحرية، استمرت حتى القرون الأخيرة، ويعد عند الأمير عبد القادر من المعها، حيث سخر سيفه على رقاب المعتدي الكافر الذي انتهك الأرض والعرض، واستطاع طيلة 17 سنة أن يبني لنفسه دولة، وأعطى للجزائريين دلالات جديدة عن معنى المواطنة والانتماء إلى العروبة والإسلام، فبنى دولة دحرت أنف العدو، وأجبره على الجلوس إلى طاولة الحوار والتفاوض. كما جعل من مداد قلمه آلة للتعرف بفكره الإسلامي والإنسانية وانفتاحه على الغير. وهو ما نحاول مناقشته في هذه المداخلة في المحاور الآتي ذكرها: -الأمير عبد القادر المفكر؛

-ظروف بلورة فكرة كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل؛

-قراءة في الكتاب؛

(1) عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر، ص 257.

أولاً- الأمير عبد القادر المفكر:

تعد شخصية الأمير عبد القادر من الشخصيات البطولية التي لطالما ارتبط اسمها في نشأته وشبابه بالعروة والإسلام، عاش غيورا مدافعا عن عرضه وأرضه وإسلامه، ووصف في أكثر من موضع بالعنف في الدفاع عما يعتقد أنه الحق⁽¹⁾ شديد التمسك بدينه. رفع سيفه ولم يرجعه لغمده طيلة ما يقارب سبعة عشر سنة سعيًا وراء حقه وحق شعبه في الحرية والكرامة، وبذل في ذلك المال والدم ما لم تتمكن دول قوية من ثبات عليه أمام قوة العدو. وكان يتمثل في ذلك بالصحابة والخلفاء وأبطال العرب والإسلام في كل أعماله. له حضور قوي في مواجهة الفرنسيين، اللذين كنوا له الاحترام والتقدير، في دولته ومعاهداته وعلاقاتها الدبلوماسية، رغم فشل مقاومته. نال شهرة عالمية في وقفه الحرب الطائفية في الشام (1860). استطاع بفضل مكانته أن يقيم علاقات أخوية وإنسانية، تواصل فيها مع شخصيات وأعلام من المشرق والمغرب العربيين، وأخرى ربطته ببعض الفرنسيين والبريطانيين والأمريكان.

إلا أن شخصيته كرجل فكر متبحر في علوم الدنيا والدين، وعلم من أعلام النهضة العربية، لم تنل حظها من البحث والدراسة!! رغم أن كتاباته أثبت حضوره الفكري، على قدر من المساواة مع حضوره العسكري السياسي.

تعتبر الحياة الفكرية للأمير عبد القادر ثمرة ونتاج لمجموعة من القراءات والأفكار التي تدرج في تلقيها منذ نعومة أظفاره، فكانت الطبيعة الهادئة في منطقتة قد زرعت فيه ملكة التأمل، والتفكير⁽²⁾. وهناك أيضا تلقى مبادئ العلوم في مدرسة والده، كما كان له جولاته التي زار فيها بقاع العالم

(1) الأمير عبد القادر، ديوان الأمير عبد القادر، شرح وتح. محمود حقي، دار اليقظة، ص6.

(2) الأميرة بديعة الحسيني الجزائري، الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، تر. أبو القاسم سعد الله، دار الوعي، الجزائر، 42-43.

الإسلامي ونهل من مراكزها وشيوخها كالزيتونة وفاس والحجاز... وحصل فيها على إجازات بما في ذلك إجازته على الطريقة القادرية⁽¹⁾، وقد ألهمه ذلك حب العلم والقراءة وكانت مكتبته⁽²⁾ التي عبث فيها الفرنسيون خير دليل على ذلك. والأکید أيضا أنه تأثر وتفاعل مع العقل العربي، ومن علماء الغرب فكان صورة ونموذجا لفكر المرحلة التي زواج فيها بين الفكرين العربي في علومه العقلية والنقلية، وما عرفه الغرب حينها من العلوم التحريبية.

لم تمهل الأجواء العامة التي كانت تعيشها الجزائر الأمير عبد القادر الذي سخر نفسه وسيفه لمواجهة الدخيل الفرنسي على أرضه وأرض أجداده، للتفرغ للكتابة وتأليف، لذلك فإن أغلب كتاباته جاءت بعد أن أرجع سيف إلى غمده ورفع بذله قلمه دفاعا عن العروبة والإسلام. فمن أولى كتابته المبكرة كان **وشاح الكتائب وزينة الجند المحمدي الغالب** (1833)⁽³⁾ الذي عكس فكره وحنكته العسكرية؛ لخص فيه الأمير القوانين والتنظيمات العسكرية الذي تخص جيشه. بينما كتاباته الفكرية تزامنت مع خروجه من الجزائر، فرغم قساوة المرحلة التي دامت 8 سنوات قبل استقراره الدائم في دمشق (1855) قضاها مسجوناً ومبعداً عن الديار وصله عنها عن أنصاره ما يؤلم القلب، وهي مرحلة من لا استقرار عند عامة الناس واضطراب في النفسية التي لا تسمح بالكتابة، إلا أنها بالنسبة للأمير كانت ملجأ فر إليه. لكنه لم يكن بالسجين العادي فقد حظي برعاية خاصة في هذا الحصن

(1) الأمير عبد القادر، ديوان الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص16

(2) كانت مكتبة الأمير قد كلفته جهدا كبيرا في جمعها من الأفق ورحلاته، كما كان يعطي جنوده مكافآت

مقابل جمع المخطوطات وكتب التراب، وبالمقابل ييعاقب كل من يتلفها، فبلغ حجمها ما يزيد عن 5000

مخطوط، أتلّفها الفرنسيون الذين هجموا عليه بألبسة تتطابق مع ألبسة جنده في معركة عين النطاقين (1843)،

وحزن عليها الأمير حزنا شديدا، هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر. أبو القاسم سعد الله، ط2، الشركة

الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص139

(3) محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج.1، المطبعة التجارية

عزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903، ص.120-136. الأميرة بديعة، مصدر سابق، ص77.

من طرف الحكومة الفرنسية ومسؤوليها وجنرالاتها ورجال الكنيسة وسيدات المجتمع وخلق هناك صداقات جددت عند الأمير نظرته للفرنسيين، وهو ما نوه إليه الأمير: "وجميع ما قصدناه وظننا في الفرنسيين من الخير والإحسان فعلوه وزادوا فرق ما ظننا فنحن اليوم ملوك على الحقيقة فقد أنزلونا في منزل سلطانهم في قصر بحار فيه الطرف وبقصر دونه الوصف.... مع التعظيم التام من الكبير والصغير والخاص والعام"⁽¹⁾.

كتب الأمير كتابه المقراض الحاد لقطع لسان منقاص دين الإسلام بالباطل والإلحاد⁽²⁾ (1269هـ-1852م) من سجنه في أمبواز⁽³⁾ (Amboise) بعد أن كان مسجوناً في بو (Paul). وهو كتيب في شكل رسالة رد فيه على بعض القساوسة بما في ذلك القس بورقاد (F.Bourgade Abbé) في كتابه أمسيات قرطاجة حوارات بين كاهن كاثوليكي ومفتي وقاضي (Soirées de Carthage, Dialogues entre un Prêtre Catholique un Muphti et un Cadi. المؤلف سنة 1947 الذي أثار فيه مسألة الغدر وعدم الوفاء الذي يجيبه الإسلام، وغير قبيح عند المسلمين. وهي الشبهات التي أثارها القساوسة ونقلها له أحد الضباط المشرفين على القصر. الأمر الذي دفع الأمير إلى كتابة رسالته المقراض التي أرسل بها إلى علماء باريس وللقساوسة دفاعاً عن الإسلام ورفع الشبهات عنه بالحجج والأدلة العقلية والوجودية التي تؤكد وجود الله،

⁽¹⁾ عبد الجليل التميمي، الأمير عبد القادر في دمشق (1855-1860)، المجلة التاريخية المغربية، ع 15-16، تونس، 1979. ص 6

⁽²⁾ تم ترجمة الكتاب إلى الفرنسية في باريس في نفس العام الذي تم طبعه فيها 1852، وقد أعادت دار الحياة في بيروت بإعادة طبعه، سنة 1966. للمزيد ينظر، الأميرة بديدة الحسني الجزائري، المرجع السابق، ص 78.

⁽³⁾ وهو حصن وقلعة عالية الأسوار كانت ملكاً لأحد ملوك فرنسا على ضفاف نهر اللوار.

والدستور الإلهي، ومواضيع الرئيسية عن الفقه الإسلامي والأخلاقيات الإسلامية كالوفاء والعدل ...⁽¹⁾، كما ناقش فيه الجهاد في الإسلام ليس هدفه السيطرة والقتل.

ترجمت هذه الرسالة إلى الفرنسية، مما جعلها موضوع نقاش من علماء الفكر وخلقت أجواء علمية أثارت فيها حركة فكرية جعلت جمعية العلماء في باريس تضع اسم عبد القادر من بين أسماء علماء العالم وعظمائه في ديوان الأمم.

جاء الكتاب في 254 صفحة متوسطة الحجم، قسمه الأمير إلى مقدمة وثلاثة أبواب تضمنت عناوين فرعية، كتعريف العقل، وحاجة كل فرد للآخر، ونعم الله على عباده وإثبات الألوهية والطريق إليها، والروح، كما أثار النبوة والرسالة، وضرورة إثباتها عن طريق العقل. وما شرعه الإسلام من الوفاء والغدر.

وقد اعتمد على مصادر هامة في جانب الاستشهاد بالآيات القرآنية، وكتب الغزالي، وإمام الحرمين وعلي فخر الدين الرازي، وصدر الدين الشيرازي عضد الدين التفتازاني...

ويعتبر هذا الكتاب خلاصة لتجارب مرت به شخصياً؛ بسبب غدر الفرنسيين أنفسهم الذين لم يفوا بوعودهم عند الاستسلام، كما بدى فيها مدافعا عن الإسلام وذود عن حياضه أمام ضربات أعدائه، ولم يتعال بلين مع طاعنين فيه وهو سجين بينهم ورد في عنوان قوي حاد اللهجة، وبأسلوب علمي واضح وبسيط دون تملق أو تصنع في اللفظ بشكل مباشر يتماشى مع المرحلة ومخاطبة الآخر.

شارك الأمير في كتابة سيرته الذاتية أيضا في أمبواز التي أشرف عليها صهره وصديقه وخليفته مصطفى بن التهامي، وكانت كتابة هذه المذكرات تلبية لرغبة بعض المترددين عليه من المثقفين

(1) الأميرة بديعة الحسني الجزائري، المرجع السابق، ص.149.

والمستشرقين، الذين كانوا يرنون لمعرفة نوازه ومواقفه إزاء الحرية والأديان والإنسان والفلسفة ونظم الحكم، فحملت سيرته رغم قلة الصفحات التي حررها فيها سياسته الحربية والقضايا العامة.

قسم الأمير مذكراته إلى سبعة فصول، شملت حياته الشخصية ونسبه وامتداده إلى أجداده، والنبوة والرسالة، حياته في الجزائر وتنقلاته، وأحداث مرتبطة بالحرب والسلام، حتى وصوله إلى بو الفرنسية، وفصولا أخرى تنوع فيها الطرح عن الأنبياء، الكعبة وملوك العرب، وعدد الشهور والسنين، والروابط الأولى بين المسلمين والمسيحيين⁽¹⁾

جاءت المذكرات ليس للتعريف بشخص الأمير ونسبه ومعرفة أفكاره، وإنما كانت أيضا وسيلة للضغط على فرنسا التي أخلفت وعدها وغيرت وجهة إقامته إلى سجون فرنسا (بو وأمبواز)، وقد جاءت بلغة مغايرة للغة التي كانت في مراسلاته ورسائله، فاستعملت فيها العبارات الشعبية الدارجة، وألفاظ فرنسية بحروف عربية (لقير/الحرب)، (الكراريس/السيارات) ...⁽²⁾.

إلى جانب كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل الذي ستكون لنا معه وقفة خلال هذه المداخلة، يعد كتاب **المواقف** للأمير عبد القادر حسب الدارسين من أهم ما كتب الأمير جاء استجابة لطلب جلسائه من العلماء الذين التمسوا من الأمير أن يدون لهم ما يلقى من دروسه في مجالسه فكان خلاصة اعتكاف وانكباب على مدى العقدين الأخيرين من حياته في القراءة والتأمل، وقد وصفه الأمير بقوله: نفثات روحية وإلقاءات سبوحية بعلوم وهبية و أسرار غيبية من وراء طور العقول وظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب و النظر في الكتاب قيدها لإخواننا الذين

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، تحق. محمد صغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح الجون، ط3، الجزائر، دار الأمة، 1998.

(2) عبد القادر بن حرفي، جوانب من شخصية الأمير من خلال مؤلفاته الادبية، مجلة آمال، ع.8، جويلية 1970، ص.10.

يؤمنون بآياتنا إذ لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها تركوها في زوايا أماكنها إلى أن يبلغوا أشدهم ويستخرجوا كتهم⁽¹⁾.

طبع الكتاب في ثلاثة مجلدات، بلغ عدد صفحاته مجتمعة 1416 صفحة، تضم 372 موقفاً، وطبع لأول مرة في 1329هـ/1911م، وصدرت طبعات أخرى في (1344هـ/1925م)، (1966/1362).

عاج الأمير كتابه المواقف الذي كان ذا طبيعة صوفية بأسلوب علمي وموضوعية في الطرح في شكل فرضيات. وقد ترجم الكتاب على يد المستشرق الفرنسي ميشال شود كيفيكس، وكذلك ترجم عام 2000، على يد القس ميشال لقار.

وقد تركت كتابات الأمير وأفكاره صداً واسعاً، تجاوزت الأفاق، خاصة وأن أخباره البطولية قد سبقته قبل مغادرته الجزائر فستقبل في البلاد العربية استقبال الملوك، واعتبر من مجددي الأمة، وهو ما وصف به أحد أدباء المدينة المنورة لتي قصدها حاجا (1280هـ) مما جاء فيها قوله:

أنت المجدد للبرية دينهم بالكتب والسيف الطيرير الباتر

لو جئت في العصر الغواير في الورى لم تلق منهم غير السهم الناصر

وفي العموم أثبتت كتابات الأمير عن حضوره الفكري بالموازاة مع حضوره كبطل وطني وقومي، فكان أنه كان ابن عصره وأكب المناقشات الفكرية والسجلات التي كانت ثمرة احتكاك الشرق والغرب، فشارك بأفكاره وآرائه في العقل والأخلاق والتصوف، كما كان أديبا في النثر والشعر وأغراضه. لكن مثله مثل غير من مفكري عصره في القرن 19 الذين وقعوا في شباك الماسونية فقد أجمعت المصادر والمراجع انتساب عدد من مفكرو العرب للماسونية، وهي الحركة التي أثارت الكثير

(1) الأمير عبد القادر، المواقف، ج.1 ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، 1996،

من الضجة والجدل وأواخر القرن التاسع عشر، بما في ذلك الأمير عبد القادر والأفغاني ولم يكونا الوحيدين المنتسبين لمخفلهما، فقد انتسب لها جل رواد النهضة من المسلمين والمسيحيين، بصفتهم أعضاء ومؤسسين، لما كانت تنطوي عليه مبادئها من نزعة تحررية تنويرية؛ فحاربت استبداد الأباطرة وسلطة الباباوات، وسعيها لإبعاد نفوذ الكنيسة الرجعي عن دوائر البحث العلمي، وتحرير عقول العلماء. وكان ما طرحه هذا المخفل من أفكار حول التسامح الديني والحرية والمساواة والإخاء، أن وجد المثقفون والمفكرون العرب فيه السند الفكري لمواجهة المجتمع التقليدي والتحرر منه، كما لم تظهر على هذا المخفل خلال هذه المرحلة الأثر السياسي أو القيادة اليهودية له.

ونحن هنا لسنا في معرض النفي والإثبات⁽¹⁾، لانتساب الأمير² فالأكيد أن منظمة البنائين الأحرار قد ضمت إليها عددا معتبرا من مفكري العرب، والتي تمكنت من جذبهم إليها ومغالطتهم بشعارتها الإنسانية البارقة. إلا أنها عكست أجواء فكرية سادت أواخر القرن 19. كما نجد اسم الأمير عبد القادر قد ذكر من بين أعضاء الجمعية السرية العروة الوثقى.⁽³⁾ التي نشطت خلال القرن

(1) أثار هذا الموضوع الكثير من المؤرخين؛ ومن بينهم أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص.544.

(2) جرجي زيدان في كتابه تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذا اليوم (1889) إن "الماسونية دخلت دمشق بمساعي الأمير عبد القادر الجزائري. وأن أول مخفل تأسس فيها هو مخفل سوريا بشرق دمشق"، وبدوره يذكر شاهين مكاريوس أن عبد القادر الجزائري قد تأثر بصحيح مبادئها اغتنم فرصة مروره بالإسكندرية في أثناء عودته من الحجاز سنة 1864، فانظم في سلكها في 18 حزيران بمخفل الأهرام التابع للشرق الشامي الفرنسي للمزيد، حسين عمر حمادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، دار الوثائق، دمشق، ص.103-104.

أثار أيضا اكرافيي يابكو مسألة انضمامه لمخافل منظمة البنائين الأحرار ونشر جمعية ذلك مراسلاته معها، ينظر: Xavier Yacono, Abdelkader, franc-maçon, in Humanisme, numéro spécial, Histoire Maçonnique, n57, mi-juin 1966, pp5-37.

وأيا عبد الجليل تميمي، المرجع السابق، 15.

(3) رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، 1. مج، ط.2، دار الفضيلة، القاهرة،

التاسع عشر، وهو ما أشار إليه رشيد رضا. وربطته خلال هذه المرحلة روابط فكرية بعدد من المفكرين كالأفغاني والإمام عبده اللذين عاصرهما، وإن لم تشر المصادر التاريخية عن اجتماع الأمير بهذين المفكرين في مصر أو الحج أو الشام⁽¹⁾، وهي المحطات التي كانوا قد توقفوا فيها زواراً أو مهجرين. كما لم تجمع الأمير مراسلات مع الأفغاني، فلم يأت ذكره ضمن مراسلات الأمير، ولا حتى من المعزين بوفاته (1883).

كما لم تطلعنا المصادر أن الأفغاني جاء ذكره في مؤلفات الأمير، ولا أن الأخير أو الجزائر ذكر في مؤلفات الأفغاني؛ فقد هاجم في جريدته العروة الوثقى الاستعمار، إلا أنه لم يتعرض للمستعمرات الفرنسية التي كانت الجزائر من أولى البلاد العربية التي أخضعتها لسلطتها، ولا إلى تونس بعدها، كما لم تتعرض الجريدة لفرنسا بالنقد. ومرد ذلك الجريدة استهدفت في مهاجمتها الاستعمار الإنجليزي وفضح أساليبه، وهذا الاتجاه يخدم فرنسا بالدرجة الأولى في إطار تنافس الدولتين -فرنسا وبريطانيا-، وتشهير إحداهما بالأخرى، لذلك لم تبد فرنسا امتعاضها من تواجد الرجلين على ترابها، ونشرهما من باريس مقالات العروة الوثقى. فكان صمت الأفغاني عن الضفة الأخرى من العالم العربي، وما يتعرض له على يد الاستعمار الفرنسي، نكايه في الإنجليز وبذلك نستخلص أن دعوة الأفغاني الإصلاحية، التي ثار فيها على الاستعمار وجعل منه علة العلل التي أصابت العالم العربي، كانت دعوة إقليمية لم تتجاوز مستعمرات بريطانيا (الهند ومصر).

1427/هـ/2006م، ج.1، ص.283.

(1) للمزيد ينظر: محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر ج.2، ص.144.

ثانيا-ظروف بلورة فكرة كتاب " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل":

كان تماطل فرنسا في النظر في مطالب الأمير، أن أصبحت مسألة وطنية وقضية دولية تثير الرأي العام الفرنسي، ومبعثا للقلق في الأوساط الأوروبية، فتدخلت لأجلها العديد من الشخصيات لإطلاق سراحه، لتأثيرها على شرف فرنسا حسب تصريح الرئيس الفرنسي (13 سبتمبر 1951) (1).
كان إطلاق سراح الأمير حدثا بارزا بالنسبة له، وقد اختار وجهة استقراره مدينة بورصة (2) العثمانية (16 جانفي 1853)، التي تتمتع بمعاملها ومناظرها الطبيعية وطيبة أهلها، واستقبله والي المدينة صهر السلطان خليل باشا، وهناك أفردت له دار. كانت مبعث استقراره وغبطته (3). وقد استقر به المقام بمرفأ صغير يسمى مودانية على بعد 40 كلم عن بورصة. وهناك عكف على تربية أبنائه والدراسة والتعبد، ورغم أن بورصة كانت مدينة إسلامية إلا أنه ظل يشعر فيها بالاغتراب لافتقاده للغة والأعراف واستمرار مراقبة الفرنسيين لهم عن طريق المترجم العسكري بولاد (Boulade) إلى جانب بيئة المدينة الجيولوجية غير مستقرة بسبب الزلازل.

(1) نصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة ماجد الحكواتي، 2000. 173.

(2) تقع بورصة غرب تركيا، يحدها بحر مرمرة من الشمال الشرقي، ومدينة إسطنبول من الجنوب، وهو أحد أهم المدن العثمانية، عاصمتهم وبوابة لآسيا، كما كانت مركزا للتجارة والثقافة والفن في القرن 19.

(3) فكتب الأمير تعبيرا عن اسفه لمغادرته بعد الزلزال الذي ألم بها فأنشد يعبر عن مدى تعلقه بها اعجابه وفرحه بنزولها في بورصة قائلا: أبي قلبي أن ينسى من برسا
وحبي لها، بين الجوانح قد أرسى

عليّ محال بلدةً غيرها، أرى بها الدين والدنيا طهورا، ولا نجسا

وجامعها المشهور لم يك مثله به العلم مغروس، به كم ترى درس

بها آل عثمان، الجهابذة، الألى أشادوا منار الدين وابتدلوا النفسا

مكارم اخلاق وحسن شمائل ولين طباع، واللطافة لا تنسى

سقى الله غيثا، رحمة وكرامة أراضٍ بما حلّ الأحبة من برسا

للمزيد ينظر: الأمير عبد القادر، ديوان الأمير، مصدر سابق، ص 115-118.

وفي هذه المدينة ألف الأمير رسالته ذكرى العاقل وتنبية الغافل⁽¹⁾ في تاريخ 14 رمضان 1271هـ/1855م وطبعت الرسالة مرتين أولها سنة 1858 وطبعة ثانية سنة 1877م، كما نشرها ابنه محمد باشا مطلع القرن العشرين مقدمة بترجمة عن حياة أبيه⁽²⁾.

والكتاب عبارة عن رسالة كتبها الأمير بعد أن بلغه أن علماء باريس كتبوا اسمه في دفتر العلماء جعلوه عضوا مراسلا لمجمع الخالدين⁽³⁾. وجاء كتاب الأمير ذكرى العاقل "في سياق مخالف لكتاب وفقهاء عصره، الذين كان اهتمامهم بالبحوث الدينية والأدبية⁽⁴⁾ إلى جانب ميوله للمباحث الفلسفية التي درسها أضاف لها معرفة جديدة بعد احتكاكه بعلماء فرنسيين، مدة اعتقاله بأمبواز، وإطلاعه على أفكارهم، كما أن الرسالة محاولة من الأمير عبد القادر أن يُنازل فكرا ناضجا بما رصده من أبحاث الغزالي وابن سينا وابن عربي، مصيغا إياها بأسلوب مرتب متناسق. جاءت تسمية الأمير لهذا الكتاب تعود إلى اطلاعه على عنوان مشابه لدى شيخه محي الدين بن عربي في

(1) اختلف في تحديد المكان الذي تم في تأليف الرسالة حيث قال عبد الرحمان الجيلالي بأنه كان في دمشق، وقدمها آخرون إلى قبل ما خرجوه من فرنسا في أمبواز، لكن الغالب أنها كانت في بورصة.
عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص62.
بقيق الزهراء، الأمير عبد القادر في الأسر (1849-1852)، رسالة ماجستير، جامعة وهران السانية، 2009، ص146.

(2) محمود حقي، ذكرى العاقل، مصدر سابق، مقدمة ص8.

(3) أما بعد، فإنه بلغني: أن علماء باريز - وقَّعهم العليم الحكيم العزيز - كتبوا اسمي في دفتر العلماء ونظموني في سلك العظماء، فاهتزت لذلك فرحاً ثم اغتممت ترحاً؛ فرحت من حيث ستر الله عليّ، حتى نظر عباده بحسن الظنِّ إليّ، واهتممت من كون العلماء استثمنا ذا ورم، ونفخوا في غير ذي ضرم. ثم أشار عليّ بعض المحبين منهم بإرسال بعض الرسائل إليهم. فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء الأعلام، ورميت سهمي بين السهام، وسميت هذه الرسالة ذكرى العاقل وتنبية الغافل. عبد القادر الجزائري: ذكرى العاقل وتنبية الغافل، ص28.

(4) عبد القادر شرشار: «شخصية الأمير من منظور الآخر»، ترجمة كتاب "عبد القادر لقوستاف دوفا أمودجا"، مجلة إنسانيات، ع. 19-20، مركز البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية، الجزائر، ص. 20.

كتابه محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، حيث سمى بابا من أبواب كتابه " تذكرة عاقل وتنبية الغافل، فلعل هذا العنوان ظل راسخا في ذاكرة الأمير ووظفه للتذكير بما سبق وأن أظهره في كتابه المقراض الحاد وكأنها موسوعة فكرية تتواصل حلقاتها من خلال قلم الأمير عبد القادر.

وقدم هذا البحث في نسختين إحداهما باللغة العربية والأخرى بالفرنسية بقلم ترجمان القنصلية في دمشق غوستاف دوقا سنة 1858 (Gustave Dugat) ، وهو مستشرق فرنسي. وقد سمح له الكتاب باكتشاف جانب من شخصية الأمير، كمفكر وأديب متشبع بدينه ومنفتح على الآخر كالفلسفة اليونانية، كما عرفت الفرنسيين بمفكر عربي خاصة النخبة المثقفة، وبدوره رونه خوام (René khawam) أعاد طبعها سنة 1977، بعنوان آخر "رسالة إلى الفرنسيين (Lettre aux français)"⁽¹⁾

كان من الصعوبة إيجاد النسخة الأصلية ورقيا أو إلكترونيا، لضبط دراسة الكتاب دراسة ظاهرية ومعرفة عدد صفحاته وأبعاد صفحاته والخط المعتمد فيه، رغم أن الكتاب تم تحقيقه حسب ما هو موضح أعلاه أكثر من تحقيق، وتم ترجمته أيضا أكثر من ترجمة، وحظي بالدراسة إلا أنها جهود لم تولي هذا الجانب الاهتمام. والنسخة المعتمدة في هذه الورقة البحثية كانت صورة بالماسح الضوئي حيث كانت تتطابق تماما مع تاريخ كتابته 1281هـ، وهي النسخة التي كتبها ابنه محمد باشا بخط مغربي وافتتحه بالسيرة مختصر عن والده دون أن ينسب العمل إليه، ولا بالجهة التي تولت طبعا حيث جاءت رسالة الأمير في 133 صفحة⁽²⁾.

قسم الأمير رسالته إلى الفرنسيين في ثلاث أبواب بعد مقدمة وذيل أبوابها بخاتمة:

(1) عمار طالبي، الأمير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبية الغافل، دار القصة، 2005، الجزائر، مقدمة ص5-

(2) محمد باشا، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، د.ط، د.ت،

مقدمة عرض فيها مضمون رسالته، وضع فيها القارئ على مينة مجملا ما سيفصل فيه وهو أسلوب وطريقة معاصريه، تفادي الحواشي والمختصرات. وهو نمط الكتابة الذي سيعرف تطورا مع مطلع القرن العشرين عند عرب. ومن عناوين الأبواب: -في العلم والجهل- اثبات العلم الشرعي -فضل الكتابة، وكل باب من الأبواب فصل فيه بعناوين فرعية تفصيلية تناول في أكثر من مسألة. كما أعطى للخاتمة عنوانا أنهى به الكتاب.

ثالثا-قراءة في كتاب ذكرى العاقل

تعتبر الكتابة العربية الفكرية في القرن التاسع عشر، بمثابة ثورة على السكونية التي اتسمت بها القرون الأخيرة للعرب والمسلمين ومواجهة الوضعية الاستعمارية التي حاولت إفراغهم من انتماءاتهم، لذلك جاءت سياقات الكاتبات ثائرة على الواقع الموروث، وتكييفها مع مقتضيات العصر بشكل معتدل أو الغلو في الاستلهام من الغير. ولم تخرج كتابات الأمير عن هذه السياقات بما في ذلك رسالته ذكرى العاقل وتنبية الغافل. هذه الأخيرة التي عبرت عن تمازج فكري بين التشبع بمورث حضاري واحتكاك بفكر غربي.

تجاوز الأمير عبد القادر في هذا الكتاب علماء عصره وتناقضاتهم، والصراع الحاد الذي طغى على الأجواء الفكرية، وشغل بال المفكرين. ونقصد بذل كالتقاشات التي أثرت حول القديم والحديث والأصالة والمعاصرة. فاتخذ الأمير موقفا وسطا؛ حافظ خلاله على إرثه وإرث أجداده، لكن دون الانغلاق عليه، فدعا إلى التحديد واستخدام العقل في قوله: «اعلموا أن العقل منيع العلم وأساسه ومطلعه، والعلم يجري من العقل مجرى الثمر من الشجر والنور من الشمس والرؤية من العين...»⁽¹⁾. وذم التقليد واعتبر المقلد مهلكا لنفسه وغيره: «وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره،

(1) عبد القادر الجزائري: ذكرى العاقل وتنبية الغافل، تق، تح: ممدوح حقي، بيروت، 1966، ص.40.

وهو الذي قلد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده، والأعمى لا يصلح أن يقود العميان... وإن البهيمة تقاد أفضل من مقلد ينقاد»⁽¹⁾.

وميز الأمير بين العلوم العقلية والشرعية، وهي تربط الجدلية الدائرة بين العقل والنقل والقديم والحديث والأصالة والمعاصرة في قوله: «فالعلوم التي تجل في العقل تنقسم إلى عقلية وشرعية؛ أما العقلية فينبغي بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع... أما العلوم الشرعية فهي مأخوذة عن الأنبياء، وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وفهم معانيها بعد السماع، وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض... فلا غنى بالعقل عن العلوم الشرعية، ولا غنى بها عن العقل. فالذي يدعو الناس إلى التقليد المحض مع عزل العقل جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور، فإياكم أن تكونوا من أحد الفريقين وكونوا جامعين بينهما، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية...»⁽²⁾. ولم يقدم الأمير إحداهما عن الأخرى (العلوم الشرعية والعقلية)، فالعلاقة بينهما تكاملية. فكان بذلك من رجال النهضة، الذين حملوا على عاتقهم هموم أمتهم، وواجهوا البدع والتقليد والتعصب التي نخرت المجتمع من الداخل، وتصدوا للدخيل الأجنبي في مواجهة خارجية.

لم يكتف الأمير بالإشارة إلى مواطن العلل والتنظير لها، بل سعى إلى التغيير؛ فزواج بين التنظير والممارسة. وكانت دولته التي أسسها وفق نظم حديثة في أجهزتها وقوانينها تضاهي الدول الغربية الحديثة، حافظ فيها على أسس الدولة الإسلامية القائمة على التوحيد والبيعة والشورى. رغم أنه لم يكن قد درس في أوروبا كغيره ممن نظر للفكر التنويري كرفاعة الطهطاوي وخير الدين

(1) المصدر نفسه، ص.35.

(2) المصدر نفسه، ص.82.

التونسي⁽¹⁾. وإنما منطلقه في ذلك كان منطلقا ذاتيا نتيجة معاينته للمجتمع ومعاناته، ورصده لواقع الأمة، في أسفاره التي قادتته إلى البقاع المقدسة ومصر، والأكيد أنه اطلع هناك على إنجازات محمد علي، فأسس دولة جزائرية قائمة على الحداثة، قطع فيها الصلة بالمفاهيم التقليدية للدولة العربية في عصره، فكانت دولته أكثر مركزية وقوة.

اعتمد الأمير واستلهم أفكاره من مجموع قراءاته لأفكار من سبقه، والتي تعتبر مصدر من مصادر المعرفة، بما في ذلك ابن خلدون في تقسيمه للمعمرة وأثر العوامل المناخية، أثر الطبري في تاريخه عن الأنبياء، وأثر الثقافة المتأخرة حول الفلسفة الغربية. ومناقشته لأمر علمية ونظريات حديثة كسرعة انتقال الضوء ويعطي لها تفسيرات على قاعدة المقولات العشر التي سادت الفلسفة الإسلامية⁽²⁾. فأثناء حديثه عن العقل الذي اعتبره مصدرا من مصادر المعرفة أكد على غرار المتكلمين الذين يبدأون بجهنم بالنظر وهي أيضا ما يساوي عند الغربيين نظرية المعرفة⁽³⁾

تجنب الأمير النظريات الغربية الحديثة التي تعطي تفسيرات حسابية وتجريبية في تحليل تسيير الكون، فكان إيمانه العميق بالله تعالى وراء انقياده في عدم مناقشة العلل وارجاع الأمر كله لله تعالى، فبالنسبة إليه فإن الضوء والصوت والكهرباء والمغناطيس والحجم... كلها لا تتنافى مع الإيمان بالله تعالى، فهو وضع للطبيعة هذه القوانين.

الأمر الذي دفع أبو القاسم سعد للقول بغلبة النقول فيها: «أما إنتاجه الآخر فيغلب عليه روح النقل، فكتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل مليء بالنقل الحرفي من إحياء علوم الدين للغزالي». بينما ذهب رابح بونار في كتابه الأمير عبد القادر حياته وأدبه بقوله: «هي قبسة فكر يحاول

(1) إسماعيل زروخي: "الدولة الوطنية وأصالتها عند الأمير عبد القادر" مجلة سيرتا، ع.12، كلية العلوم الاجتماعية، قسنطينة، جوان 1999، ص.139، وما بعدها.

(2) ممدوح حقي، المصدر السابق، ص.10.

(3) عمار طالبي، المرجع السابق، مقدمة ص.6.

الأمير أن ينزل بها فكريا ناضجا بما امتصه من أبحاث الإمام الغزالي وابن سينا وابن عربي وغيرهم، وقد صاغها بأسلوب واضح، وبترتيب متناسق، فكانت درة في الأدب الشرقي بالجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، ترفع من إنتاجنا الفكري وتسبغ عليه هالة من الجلال، وتستحق منا كل عناية والاهتمام»⁽¹⁾.

لم يتمكن الأمير من تجاوز في فكره بعد الأعراف البالية خاصة ما يتعلق بتعليم المرأة⁽²⁾ فخرق بهذه الدعوة كل ما كان يجمع عليه أهل عصره من الفقهاء⁽³⁾ في باب فضل الكتابة، حيث استشهد بنهي الشارع لتعليم البنت في معرض حديثه على أن الكتابة تعبر أفضل مما يعبر عنه الإنسان مشافهة لكن في الحقيقة إن الأدلة على ذلك كانت مستقاة من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية. فقد روى الحاكم في صحيحه من رواية محمد بن إبراهيم الشامي ثنا شعيب بن اسحاق عن هشام عن أبيه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

﴿ لا تسكنوهن الغرف ولا تعلمنهن الكتابة وعموهن الغزل ﴾، وهو في الأصل خبر ضعيف كذبه الدار قطني ورواه ابن عباس مرفوعا ﴿ لا تعلموا نساءكم الكتابة ولا تسكنوهن العاللي ﴾. وقد ساق هذه الأحاديث الضعيفة الأمة الغافلة إلى عدم الاهتمام بتعليم المرأة قرونا. فلم تأثر فيه أيضا الحضارة الأوروبية التي كان قد زارها واطلع هناك على مدى التطور الذي أضحت عليه، وتجاوزت هذه الأفكار الرجعية، وقبل هذا ما نصت عليه الشريعة الغراء في التمييز بين الذكر والأنثى في التعليم سواء آيات قرآنية أو أحاديث نبوية.

وفي الأخير يمكننا القول أنّ كتابات الأمير مثلت مرحلة مضيئة من حياة الرجل، فبطولاته

(1) عبد القادر شرشار: «شخصية الأمير من منظور الآخر»، ترجمة كتاب "عبد القادر لقوستاف دوقا أمودجا"، مجلة إنسانيات، ع. 19-20، مركز البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية، الجزائر، ص. 20.

(2) المصدر نفسه، ص. 25.

(3) الأمير عبد القادر: ذكرى الغافل، ص. 86.

بالسيف لا تقل عن قلمه، فكانت كتابته الفكرية والروحية حلقة من حلقات نضاله المتواصل. أعطت بطولات الأمير في الجزائر مكانة خاصة في الأفاق، فحظي بالتقدير والتبجيل من ملوك الأرض ونخبها، كما أنه أثار اهتمام أكثر الأخرين في معرفته، خاصة الفرنسيين منهم؛ حيث كانوا يتلهفون لترجمة أعماله وهو بين أيديهم وتحت رقابتهم. ميز الأمير أين يضع سيفه وأين يخط بقلمه، فكان فارسا بالسيف والقلم، فهو حسب سعد الله: سطر بسيفه الأحداث الوطنية والمعارك العسكرية، وسطر بقلمه الصفحات الفكرية والوقائع التاريخية.

عرفت كتاباته بترباط أفكاره ومفاهيمه، وأثبت من خلالها مدى اطلاعه على ديانات وفلسفات الأخر وناقشهم في فكرهم ودينهم مناقشة المطع العارف، وعبر فيها عن رقي حضاري، كان منبعه الأول الدين والحضارة الإسلامية.

كان أسلوب الأمير واضح بين، يختلف عن كتابات من سبقوه، بعدة عن التكلف اللفظي من حيث السجع الموشح بالبدعيات فجاء مباشرة بلغة سليمة، خاطب بها الغرب، وهو يمثل بداية جديدة في الكتابة العربية التي ستعرف مع مطلع القرن العشرين تغيرا كبيرا.

قائمة المصادر والمراجع

- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر.
- الأمير عبد القادر، ديوان الأمير عبد القادر، شرح وتح. محمود حقي، دار اليقظة.
- الأميرة بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر حياته وفكره، تر. أبو القاسم سعد الله، دار الوعي، الجزائر.
- هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، أبو القاسم سعد الله، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات الأمير عبد القادر، تحق. محمد صغير بناني، محفوظ سماتي، محمد الصالح الجون، ط3، الجزائر، دار الأمة، 1998.
- الأمير عبد القادر، المواقف، ج. 1 ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، 1996.

- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، دار الغرب الإسلامي، ج.5، بيروت، ط1، 1998.
- حسين عمر حمادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، دار الوثائق، دمشق.
- رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، 1.مج، ط.2، دار الفضيلة، القاهرة، 1427هـ/2006م.
- محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (سيرته القلمية)، ج.2، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الاسكندرية، الجزائر.
- نصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة ماجد الحكواتي، 2000.
- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
- عبد القادر الجزائري، الأمير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبئه الغافل، عمار طالبي، دار القصة، 2005، الجزائر.
- محمد باشا، ذكرى العاقل وتنبئه الغافل، د.ط، د.ت،
- عبد القادر الجزائري: ذكرى العاقل وتنبئه الغافل، تق، تح: ممدوح حقي، بيروت، 1966.
- عبد القادر بن حربي، جوانب من شخصية الأمير من خلال مؤلفاته الادبية، مجلة آمال، ع.8، جويلية 1970.
- بقيق الزهراء، الأمير عبد القادر في الأسر (1849-1852)، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2009، ص146.
- عبد الجليل التميمي، "الأمير عبد القادر في دمشق (1855-1860)، المجلة التاريخية المغربية، ع 15-16، تونس، 1979.
- عبد القادر شرشار: «شخصية الأمير من منظور الآخر»، ترجمة كتاب "عبد القادر لقوستاف دوقا أمودجا"، مجلة إنسانيات، ع.19-20، مركز البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية، الجزائر.
- إسماعيل زروخي: "الدولة الوطنية وأصلاتها عند الأمير عبد القادر" مجلة سيرتا، ع.12، كلية العلوم الاجتماعية، قسنطينة، جوان 1999.
- Xavier Yacono, Abdelkader, franc-maçon, in Humanisme, numéro spécial, Histoire Maçonnique, n57, mai-juin 1966.

صورة المرأة عند الأمير عبد القادر (قراءة في أجوبته للجنرال دوماس)

د. هناء شبايكي، أستاذة محاضرة قسم أ
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

مقدمة:

تندرج الأسئلة التي وجهها الجنرال دوماس DAUMAS إلى الأمير عبد القادر الجزائري في إطار فن التراسل وهو غرض أدبي قائم بذاته، وهو من الفنون الأدبية القديمة ازدهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وقد أحاب الأمير عن التساؤلات بشيء من التفصيل تارة وبمحمل القول تارة أخرى، وذلك بما يراه مناسباً لفكره ومبادئه واعتقاداته وما يؤمن به، ونروم من خلال هذه الورقة البحثية إلى تقديم قراءة فاحصة لهذه المحاورة، ولعل الاهتمام بموضوع المرأة ومكانتها عند الأمير عبد القادر ليس بالأمر الذي يثير الجدل ذلك أن حضورها في حديثه وكتاباتاته أمر متكرر وواضح للعيان، ففي أشعاره كان حضورها متميزاً وقد بدا في أكثر من صورة في نماذج عديدة، صوّرها فأحسن التصوير وتغزل بها فأجاد الغزل، وبكى لفراقها حين حنّ إليها، يقول مشتاقاً وبه لوعة وقد أذهب الشوق عنه نومه:¹

جفاني من أم البنين خيال فقلبي جريح والدموع سجال
لو قلت: دمعي قد ملكت فكاذب بدعواي بل ذا غرة وضلال
وبي ما يزيل العقل عن مستقره فلا تعجبوا إن قيل: فيه خيال

¹ الأمير عبد القادر، الديوان، تح العربي دحو، منشورات تالة، الجزائر، ط3، 2007، ص60.

كما يقول في إحدى مقطوعات ديوانه مخاطبا زوجته وقد أضناه الشوق إليها:¹

ألا قل للتي سلبت فؤادي وأبقتني أهيم بكل واد

تركت الصب ملتها حشاه حليف شجي يجوب بكل ناد

ومالي في اللذائذ من نصيب تودع منه مسلوب الرقاد

أما عن الحنين إلى الأيام والليالي الخالية فيقول:²

أحب الليالي كي أفوز بطيفها وأرجو المنى بل قد أقول أنال

أكلف جفني النوم علي أن أرى مثالا لها يسري وليس مثال

وعن استحالة تخليه وعيشه دونها يقول:³

وما هي إلا الروح بل إن فقدتها فإن بقائي دونها لمحال

وفي التغزل بها نظم على منوال الشعراء القدامى يقول:⁴

أود أن أرى ظبي الصحاري وأرغب طيفه والليل سار

وأطلب قربه فيزيد بعدا قديما من وصال في نفار

وهذا الظبي لا يرعى ذماما ولا يرضى مؤانسة لجار

ويقول متغزلا في قصيدته "ذات خلخال":⁵

خليلي وافت منكم ذات خلخال تتيه على شمس الظهيرة بالخال

تميس فتزري بالغصون تمايلا تروح وتغدو في برود من الخال

¹ الديوان، ص 57.

² الديوان، ص 60.

³ الديوان، ص 60.

⁴ الديوان، ص 58.

⁵ الديوان، ص 62-63.

لها منطق حلو به سحر بابل رخييم الحواشي وهو أمضى من الخال

وفي هذا الإطار يقول الدكتور سليمان عشارتي عن مكانة المرأة في شعر الأمير: "على نهج الشعراء الغزليين، لا يفتأ الأمير يعرب عن ذلته وخضوعه للحبيب، فهي المستبد وهي المتكبرة والعزوف وهو المتهالك المتفاني في الخضوع المتجدد الرجاء بتجدد زواجر اليأس... وتشغل أشعار الغزل من الديوان مساحة مهمة، وتستغرق حوادث الكر والفر بين المحب وحبيبته فضاءات معتبرة، تأخذ المسافات الخطائية والوجدانية فيها مناحي تبدو في ظاهرها مختلفة المرامي متنوعة الملابس"¹.

1- الأمير عبد القادر والجنرال دوماس: أية علاقة؟؟

يعتبر الجنرال دوماس من أهم الجنرالات التي اختارتهم فرنسا لاستعمالهم في الجزائر "ولد عام 1803م ودخل مدرسة الفروسية العليا العسكرية في مدينة سومور SAUMOUR ووصل إلى الجزائر عام 1835م، وكان يحكمها آنذاك الجنرال بيجو الذي عهد إليه بمسؤولية (المشكلات العربية)"². وقد عمدت فرنسا إلى تقريبه من الأمير عبد القادر الجزائري بغية تحقيق عده أهداف استراتيجية إذ يعد "أحد الأشخاص الذين أطلقتهم فرنسا للتأثير على الأمير ومراقبته وتفهم أفكاره وقد تكون ملازمتهم له تركت بعض البصمات على مواقفه، حقا إن الأمير لم يكن بالرجل السهل فكثيرا ما راوده الفرنسيون على التنازل عن بعض حقوقه فلم يفلحوا ولكن هناك نواح أخرى في النفس البشرية لا ندرك معناها بالكلمات والتصريحات والمواقف العاطفية، إن أشخاصا كالجنرال

¹ سليمان عشارتي، الأمير عبد القادر الشاعر، مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة المابعد، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، 2011، ص63.

² سليمان قطاية، خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات الأمير عبد القادر لأوجين دوماس، عرض وتحليل، مجلة عالم الفكر، مج 19، ع4، 1989، ص 269-270.

دوماس والعقيد بواسوني والقسيس دويوش لا بد أن يكونوا قد قاموا بدور عنده وكلهم كانوا الخبراء في الشؤون الأهلية والنفوس العربية".¹

يقول الأمير عبد القادر متكلمًا عن الجنرال دوماس: "وكلف للإقامة معنا في الشهور الأولى، الجنرال أوجان دوماس Eugène Daumas، الذي كان قنصلا للفرنسيين بمدينة معسكر أثناء فترة معاهدة التافنة، ليكون وسيطًا لنا مع السلطات الفرنسية"²، وقد امتدت فترة إقامته ثلاث سنوات "... الذي أقام ثلاث سنوات لديه كقنصل لفرنسا".³

ويتفق كثير من الباحثين على كون إقامة الجنرال دوماس كانت بدافع الحراسة فقد "عين حارسًا على الأمير أثناء مقامه في قلعة لامالغ lamalgue، وكان مهتمًا بالشؤون العربية وعينته فرنسا قنصلا لدى الأمير بعد معاهدة التافنة 1837".⁴

وقد كان لعدد من الفرنسيين بعض الأعمال حول الأمير والبيئة العربية وبشكل أخص البيئة الجزائرية" مثل أعمال "ليون روش" L. ROCHES والجنرال "دوما" DAUMAS الذين كانوا من الضباط والقناصل والمترجمين الفرنسيين الذين شغلوا لدى الأمير مناصب معينة فأعمالهم تدخل في الانطباعات الشخصية والأحداث الشاملة أكثر من كونها أعمالًا متكاملة عن حياته".⁵

وقد كون الجنرال دوماس عن الأمير فكرة وانطباعًا "كان الجنرال دوماس مرافقه الذي لا يتخلف، وإن انطباع هذا الجنرال عن عبد القادر يمكن أخذه من الرسالة التالية التي وجهها إلى

¹ شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1974، ص23-24.

² عبد الكريم منصور بن عوف، حوار مع الأمير عبد القادر، دار القدس العربي، وهران، الجزائر، ط1، 2012.

³ شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص135.

⁴ المرجع نفسه، ص251.

⁵ المرجع نفسه، ص8.

السيد دوبوش DUPUCH أسقف مدينة الجزائر حين قال: إنك ستشاهد سجين قصر بو الشهير، إنك بالتأكيد لن تندم على زيارتك له، إنك عرفت عبد القادر في أيام عزه، عندما كانت كل الجزائر تقريبا تعترف بحكمه، حسنا، إنك ستجده أعظم وأجل في محنته منه في عزه، إنه ما يزال كما عرف عنه يسمو إلى أعلى الدرجات".¹

وللجنرال **دوماس** كتاب عنوانه "خيول الصحراء الكبرى" وثبتت الدراسات التاريخية ومنها مقال للأستاذ سليمان قطاية أن "كتاب الجنرال **دوما** مؤلف من كتاباته ومن ملاحظات الأمير عبد القادر الجزائري".² فاعتبار الجنرال قد شغل بين 1837م و1839م، منصب قنصل فرنسا في "مسكرة" وقرية من الأمير، ثم أصبح مكلفاً بالشؤون العربية في منطقة وهران التي كان يقودها الجنرال **دولا موريسير**، وفي النهاية أصبح المدير المركزي للشؤون العربية في الجزائر أيام حكومة المارشال **دوق ديسلي**.

هذه الوظائف المتعددة جعلت الجنرال **دوما** يعقد صلات مع الزعماء المحليين ومع العائلات الكبرى والنافذة في البلاد، فتعلم لغتهم واستند الى معلوماتهم لإصدار كتب".³ فقد أمضى **دوماس** شطرا كبيرا من حياته العسكرية في الصحراء الكبرى يتعامل مع القبائل العربية، تارة كعسكري مستعمر وتارة كمنظم إداري وتارة كرجل علم فضولي أعجب بالبدو وحياتهم فدرسها بدقة متناهية وتفاصيل مذهلة فوضعها في كتب عديدة وصف فيها البدو وحياتهم وكان آخرها كتابا كرسه

¹ شارل هنري تشرشل، المرجع السابق، ص 257.

² سليمان قطاية، المرجع السابق، ص 270.

³ حسن الشامي، كتاب "خيول الصحراء" للجنرال الفرنسي دوما في حلة جديدة. عرض وضعي وغني بالمعلومات عن الجزائر في القرن الفائت، <https://www.sauress.com/alhayat/31003554>، تاريخ الدخول: 11-2024-02

في الساعة: 20:12.

للحصان العربي أسماه (خيول الصحراء الكبرى)¹. وقد سجلت عليه تعليقات الأمير عبد القادر فيما بعد عندما اطلع عليه في نسخته العربية " فبعد استسلام الأمير وعودة الجنرال دوما إلى باريس نشر كتابه فلاقى استحسانا ونجاحا كبيرين لأنه كان يتجاوب مع الشوق الشديد والفضول الكبير الذي كان يشعر به كل أوروبي نحو كل ما هو شرقي عندئذ أراد الجنرال أن يستفيد من علم الأمير... فأرسل نسخة من الكتاب إلى القومندان بواسوانيه الذي كان مسؤولا عن قصر أومبواز- حيث يقيم الأمير عبد القادر مع عائلته وحاشيته- راجيا أن يترجم ويقرأ بالعربية على الأمير وأن تسجل ملاحظاته عليه، وهكذا كان".

فالجنرال الفرنسي يرى بأن دراسة الخيول الجزائرية التي لا تزال تقدّم "طبائع الأعراق البربرية والعربية" لا تقتصر أهميتها على فن ركوب الخيل فحسب، بل تطاول أهميتها "كذلك قوتنا وسطوتنا في الجزائر"، على أن الجنرال يولي أهمية كبيرة في دراسة من هذا النوع "لدقة المعلومات". وعليه، يخبرنا بمصادر بحثه وتجربته، فيعلمنا بأنه خلال السنوات الست عشرة التي قضاها في أفريقيا، قام بمهمات رسمية وشغل وظائف وضعته في صلة دائمة مع العرب، "مع هذا الشعب الذي لم يُعرف عنه في السابق إلا القليل جداً، والذي ينبغي أن ندرسه كي نتعلّم السيطرة عليه"².

فالجنرال دوماس من أكبر قواد الجنود الفرنسية في الجزائر الذين اشتهروا بالإقدام في حروبها العظيمة ووقائعها الجسيمة مع الأمير "وكان تعين عنده وكيلا بأمر عسكر في المعاهدة الأخيرة وتعلم

¹ سليمان قطاية، المرجع السابق، ص 270.

² حسن الشامي، كتاب "خيول الصحراء" للجنرال الفرنسي دوما في حلة جديدة. عرض وضعي وغني بالمعلومات عن الجزائر في القرن الفائت، <https://www.sauress.com/alhayat/31003554>، تاريخ الدخول: 2024-02-11، في الساعة: 20:12.

اللسان العربي واطلع على أشياء من أحوال أهل الوطن فكتب أسئلة تتعلق بذلك وبعثها إلى الأمير وطلب الجواب عنها"¹، وسنقدم فيما يأتي قراءة في هذه الأجوبة.

2-قراءة في أجوبة الأمير عبد القادر عن أسئلة الجنرال دوماس

إن المتفحص في الأسئلة العشرين التي وردت في كتاب "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر" والتي وجهها الجنرال دوماس إلى الأمير عبد القادر يسجل عدة ملاحظات:

♦ بلغ عدد الأسئلة 20 سؤالاً.

♦ الموضوع المشترك بين الأسئلة كلها هو المرأة.

♦ تميزت الأسئلة بكون أغلبها تشير إلى: مقارنة بين المرأة العربية والمرأة الأوروبية في مسائل الارتباط والانفصال، في تعامل الرجل معها، اهتماماتها، مسألة الميراث والعبادات/مقارنة بين المرأة في الشريعة الإسلامية والمرأة عند النصارى/فيها ازدياء للإسلام والتعاليم الإسلامية/انتقاص للمرأة ومكانتها في بيتها وفي مجتمعها العربي.

يلاحظ من خلال أجوبة الأمير عبد القادر عن جملة أسئلة الجنرال دوماس أنها قد جاءت مفصلة ودقيقة وهو ما عرف به الأمير في كثير من المراسلات التي نصح فيها نصح ما يعرف بالمناظرة، وهي التي يقدم فيها كل طرف جميع الحجج والبراهين لإثبات وجهة نظره وإقناع الطرف الآخر"وتعتمد طريقة مناظرته على الإفاضة الدقيقة المنظمة للأدلة والشواهد، والإحاطة بالعديد من المراجع الشرعية والأدبية والتاريخية، وكذلك الكتب المقدسة القديمة التي تعد معرفة ما فيها جزءا ضروريا لمثل هذه المناسبات في ثقافته، كما تعتمد على مشاهداته وخبراته ومقارناته بين المجتمع

¹ محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (سيرته السيفية)، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، مصر، ج1، دط، 1903، ص 161.

الغربي والمجتمع الشرقي، والإقرار بالفروق التي تعيب الشرقيين، أو بعناصر معينة فيه، والتماس ميزة ما في هذا المجتمع المتخلف على ذلك المتقدم"¹، وفيما يلي نعرض إلى ذلك بشيء من التفصيل.

أ- فيما يتعلق باهتمامات المرأة:

- انطلق سؤال الجنرال دوماس من كون بنات الأكابر من المسلمين، لا همة لهن إلا في زينتهن وتبرجهن، فلا ينظرن إلى غير ذلك ولا يحسن بالمرأة أن تحمل أوقاتها وتفوتها في البطالة، فإن ذلك ينشأ عنه شرور كثيرة؟

- يرى الأمير عبد القادر أن المرأة عماد البيت فلا تترك الاهتمام بشؤون بيتها سواء كان زوجها غنيا أو فقيرا، فاللهو والبطالة ليسا من شيم المرأة العربية، وقد قدم في ذلك عدة أمثلة منها كون والده من الأشراف الأغنياء وكان في بيتهم نحو ستين خادما وخادمة، ورغم ذلك فالنسوة في البيت كن يؤدين الخدمات اللائقة بهن في أوقات مخصوصة، واستشهد هنا ب (خير لعب المرأة بالغزل والإبرة)، كما يرى أن اشتغال المرأة بالزينة إنما هو من متطلبات الحياة العادية.

- فالمرأة عنده متصرفة مديرة في بيتها، على نحو يجعل الرجل لا يتدخل كثيرا في تسييرها له، وفي دراسات أخرى نجده يتمثل والدته التي تشرف على أمور البيت كله تسييرا وإدارة دون تدخل والده.

- فقد فصل الأمير في الرد على الأسئلة المتعلقة باختلاف اهتمامات المرأة العربية المقتدرة عن غيرها وأثبت أن لا فرق بينهما.

ب- فيما يتعلق بتعامل الرجال مع المرأة يرى الأمير عبد القادر:

- يرى الأمير عبد القادر أن المرأة يجب أن تعامل باللطف واللين في كل الحالات ومن يفعل عكس ذلك من الرجال فلا مروءة له ولا دين، وقد وُظف هنا كثيرا من الأسانيد التي تؤيد رأيه من الأحاديث النبوية.

¹ بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، منشورات كلية التربية عين شمس، القاهرة، مصر، دط، 1990، ص32-33

- كما أن المرأة كيان إنساني فلا يحملها الرجال فوق طاقتها فيما تعلق بخدمة البيت خاصة، بل عليهم أن يؤدوا بدلا عنها كثيرا من الأمور لاسيما ما تعلق بالعمل والخدمة خارج بيتها.
- يرى الأمير أن للمرأة كرامة لا تحان ولها حرمة عظيمة عند العرب وفي هذا استدلال بأخلاق النبي الكريم وصحبه من بعده، مفندا رأي الجنرال الذي يرى خلاف ذلك.
- وفي غير الرجال على نساءهن فهي غيرة محمودة ممدوحة فلا هي تجسس خفي ولا مبالغة جلية.

ج- فيما يتعلق بارتباط المرأة وانفصالها:

- يرى الأمير أن مسألة ارتباط المرأة إنما يكون بالشكل الذي يحفظ لها كرامتها وعفتها، وأن أكثر المسلمين لا يرتبطون بالمرأة من أجل مالها، وقد جعل لها الإسلام حقا في مهرها، بالصورة التي تتنافى من السؤال المطروح في كون هذا المهر هو مقابل لتملكها لتصبح في بيت زوجها أمة خادمة.
- ويرى أن التعدد إنما شرع لحكمة، وفصل في ذلك، ناقدا القوانين الأوروبية التي تمنع الرجل عندهم من الارتباط بثانية في حين تسمح له باتخاذ أكثر من خليلية. لما ينجر عن ذلك من سوء أخلاق وفساد.

- أما انفصالها فهو رحمة لكلا الطرفين، والطلاق ليس خاصا بالمسلمين وحدهم وفيه منافع وأضرار.
- وفي سؤال دوماس كون المسلمين يطلقون المرأة إذا اعتبرت ناصية شر، فالأمير يرى أن أهل الدين الصحيح يعتقدون أن الله يفعل ما يريد بالعبد من ربح أو خسران ولا علاقة للمرأة بهكذا أفكار.

د- فيما يتعلق بعبادات المرأة:

- في سؤال دوماس أنّ نساء المسلمين لا يدخلن المساجد للصلاة وأما نساء النصارى فيدخلن الكنائس ويتعبدن مع الرجال، في حين أنّهن لا يمنعن من الذهاب إلى الحج بمفردهن، يرى الأمير عبد القادر أن المرأة في الإسلام لها مطلق الحرية في الذهاب إلى المساجد والصلاة فيها وفق ما

يتطلبه الشرع ومهما كان سنهما، وقد كانت النساء يشهدن الصلوات مع النبي الكريم في المسجد الشريف، أما عن السفر إلى الحج، فيرى ضرورة مرافقة المرأة من طرف أحد محارمها.

هـ- فيما يتعلق بالميراث:

- يرى الأمير ان التفاوت في الميراث بين الرجل والمرأة إنما يعود للمسؤوليات الملقاة على عاتق الرجال، في حين أعفيت منها النساء.

- فالرجال يقومون بعظائم الأمور كمباشرة القتال وتولية الأعمال والمناصب الدينية والدينية فيحتاجون إلى ما يستعينون به على ذلك.

خاتمة

في ختام هذه الورقة البحثية نشير إلى أن صورة المرأة عند الأمير عبد القادر لا تختلف عن تلك الصورة الجميلة والمكانة البهية التي شرفتها بها تعاليم الدين الحنيف ذلك أن مكانة المرأة عند المسلمين عظيمة، كما يتضح من خلال الأجوبة أن الأمير ملتزم أشد الالتزام بالتعاليم الإسلامية، فقد أبانت أجوبته عن تصوره للمرأة القائمة في بيتها تسييرا وإدارة، وأن المرأة مكرمة في مشاعرها وجسدها، وأنها مكفولة الحقوق الشرعية في ارتباطها وانفصالها، كما أنها مستقلة الذمة المالية. في تصوري لقد كانت الأجوبة في مستوى دهاء ومكر واستفزاز الجنرال دوماس بشيء من الشدة أحيانا وبكثير من الحكمة أحيانا أخرى.

ملحق يتضمن الأسئلة العشرين التي وجهها الجنرال دوماس إلى الأمير عبد القادر:

- 1- قد رأينا المسلمين يتزوجون من غير أن ينظر أحدهم إلى من يريد أن يتزوج بها وربما عند الاجتماع يجد كل منهما الآخر منافيا لمطلوبه فيقع النفور من أحدهما أو منهما معا وهذا يؤدي إلى سوء المعاشرة مدة حياتهما أو إلى الفراق لا محالة؟
- 2- إن المسلمين يتزوجون من غير أن يأخذوا من الزوجات مالا وإنما الزوج يدفع للمرأة الصداق وبذلك يحسبها ملكه ويجعلها بمثابة الأشياء التي تشتري؟
- 3- من عادة المسلمين أنهم يتزوجون أربعة من النساء ويتخذون ما يقدرون عليه من الجواري فنحن نتعجب من الحرية كيف تعيش مع الجارية وربما تكون هذه العادة سببا في فساد العشرة ونزاع الورثة وقوة الغيرة ومباغضة الأولاد بينهم فيقلب الأمر المطلوب ويفسد العيال والذي ينبغي للرجل ألا يجب امرأة أكثر من الأخرى فكيف يعمل إذا فسدت العشرة وبماذا يصلح فسادها وما الذي عندكم في الشرع حين تقع المنازعة بين النساء أعني ما الذي يفعله الرجل في الصلح بينهن؟
- 4- رأيت الناس يلومون العرب على ضربهم نساءهم وعلى استعمالهن في الخدمة فوق طاقتهن وعلى قلة المبالاة بهن وهم مستريحون لا يخدمون ولا يعملون شيئا؟
- 5- بنات الأكابر من المسلمين لا همة لهن إلا في زينتهن وتبرجهن بحيث إنهن لا ينظرن إلى غير ذلك ولا يحسن بالمرأة أن تهمل أوقاتها وتفوتها في البطالة فإن ذلك ينشأ عنه شرور كثيرة؟
- 6- إن المسلمين نرى الرجل المسن منهم يخطب البنت الصغيرة ويأخذها وعند النصارى هذا عيب ووقاحة وقليل من يصبر على هذه الوقاحة ويأخذ بنتا صغيرة وهو كبير هرم؟
- 7- المرأة عند النصارى تحب على ما فيها من الخصال الحميدة التي حصنتها وأفعالها الجميلة وأما عند المسلمين فإنها لا تحب إلا على حسب جمالها في الكثير وفي القليل على حسب أصلها؟

8- بلغنا عن العرب أن أحدهم لا يحترم زوجته ولا يحسبها إلا كخادمة له ولا يشاورها ولا يقربها إلا عند قضاء شهوته ولا يعتد بكلامها ونحن عندنا الأمر بخلاف ذلك فنشاور المرأة على كل شيء وهي رئيسة البيت وكيف بالعرب يؤخرون المرأة عن كل الأمور؟

9- الذي يظهر أن غيرة المسلمين غيرة زائدة حتى إن نساءهم لا يخرجن إلا متلحفات ولا يظهرن لأصدقاء أزواجهن ولا لأقاربهم ولا لأقاربهن كابن العم وابن الخال مثلا ونحن عندنا النساء يخرجن باديات الوجوه وبمضورهن مع الأحباب والأقارب يتم البسط ويحصل السرور وبذلك يعشن مع أزواجهن في دعة وهناء فكيف الأمر عندكم وما الأفضل عادتنا أم عاداتكم؟

10- كيف بالعرب يزوجون بناتهم صغارا وربما يكون ذلك قبل البلوغ والمراد من التزويج الذرية والصغيرة التي لم تبلغ لا تحصل منها ذرية فهل ذلك جائز في شرعكم أم لا وربما تلد المرأة وهي بنت اثني عشر عاما أو ثلاثة عشر فلا تقدر على ترقية الولد وترتيبه وعندنا البنات لا يزوجن صغارا بل كبارا حتى لا تفسد صحتهن ولا شباهن وليكون أولادهن صحاح الأجسام وقد رأينا المسلمين يتزوجون كثيرا ولا نرى لهم كثرة أولاد ولا رعية بخلاف غيرهم فإنهم يتزوجون قليلا ومع ذلك تكثر أولادهم وبكثرتهم تكثر الرعية؟

11- إن الطلاق عند المسلمين كثير وعندنا لا يكون ابدا ونحن نلومهم على ذلك لما فيه من الضرر على النساء وعلى الأولاد أيضا لكونهم يقعون في يد من لا يرحمهم كوالدتهم؟

12- إن المسلمين لا يورثون البنت مثل الذكر وكيف ذلك والكل أولاده؟

13- إن نساءنا يدخلن المدارس ويتعلمن الكتابة ويحصلن المعارف والآداب بخلاف نساء العرب وإن العربية إذا تلاقحت مع غيرها تكون غير عارفة ولا كيسة والمومسات من العرب ما أوقعهن في الفساد إلا عدم معرفتهن وإن نساء العرب هن أعرف النساء بآداب المحبة؟

- 14- نساء المسلمين لا يدخلن المساجد للصلاة وأما نساء النصارى فيدخلن الكنائس ويتعبدن مع الرجال؟
- 15- يقال أنّ المسلمين يمنعون نساءهم من الدخول إلى المساجد إذا كن صغيرات وجماليات ولا يمنعنهن من السفر إلى الحج؟
- 16- بلغنا أن بعض الناس يقولون أنّ النساء لا يدخلن الجنة فلا بد أن توضحوا لنا هذا الإشكال؟
- 17- بلغنا أن المسلمة إذا ماتت لا يخرج الناس في جنازتها مثل الرجل فهل لهذا صحة أم هو محض كذب؟
- 18- إن كثيرا من المسلمين لا يأنفون من تزويج المرأة المومسة إذا تابت ولا ينقص ذلك من قدره بخلاف النصارى فإن الذي يتزوج بالمومسة منهم يبتذل بين الناس ولا يبقى له اعتبار عندهم؟
- 19- هل العرب يطلقون المرأة التي لا يربحون عليها بغير سبب آخر أم ذلك كذب؟
- 20- المرأة عند النصارى يسرها ما يسر الجنس ويجزئها ما يحزن الجنس وكلامها مع زوجها يقويه على الحرب وعلى فعل الخير مع جنسه والدفاع عن بلاده وأما المسلمة فقد بلغنا أنّها لا تلتفت إلى ذلك ولا يؤثر فيها؟

المصادر والمراجع:

- 1- الأمير عبد القادر، الديوان، تح العربي دحو، منشورات تالة، الجزائر، ط3، 2007.
- 2- بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، منشورات كلية التربية عين شمس، القاهرة، مصر، دط، 1990.
- 3- سليمان عشراقي، الأمير عبد القادر الشاعر، مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة المابعد، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط1، 2011.
- 4- سليمان قطاية، خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات الأمير عبد القادر لأوجين دوما، عرض وتحليل، مجلة عالم الفكر، مج 19، ع4، 1989.
- 5- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1974.
- 6- عبد الكريم منصور بن عوف، حوار مع الأمير عبد القادر، دار القدس العربي، وهران، الجزائر، ط1، 2012.
- 7- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (سيرته السيفية)، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، مصر، ج1، دط، 1903.
- 8- <https://www.sauress.com>

ملحق الصور:
صور الأمير عبد القادر
وبعض آثاره ومؤلفات عنه

1- صور لشخص الأمير عبد القادر الجزائري

صورة الأمير عبد القادر في كثير من البحوث والكتابات عنه



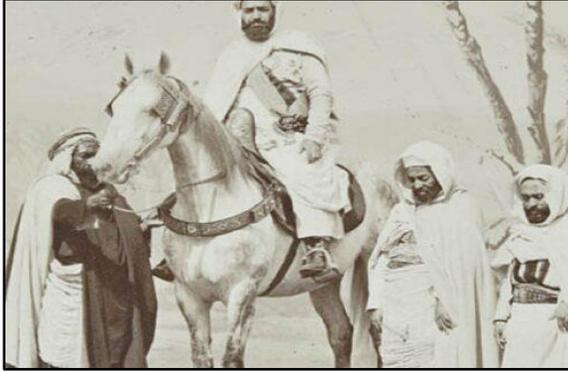
صورة بالأبيض والأسود للأمير عبد القادر بدمشق 1862



صورة للأمير عبد القادر ملونة من طرف سي عمر العنقاوي من الجزائر.



صورة الأمير عبد القادر في ذكرى البيعة المباركة، رفقة بعض أصحابه



صورة تجمع الأمير عبد القادر بالخدوي إسماعيل، حيث يتوسطان الصورة سنة 1869.



لوحة للرسام البلجيكي -جان بابتيست هويسمانس -Jean-Baptist Huysmans- (1826-

1906) تظهر مسيحيين يستجرون بالأمير من بطش الدروز في باب توما في دمشق سنة

1860م.



لوحة زيتية رسمها الرسام البولوني ستانيسلاف شليوفسكي سنة 1866 في القسطنطينية،
(من صفحة الموسوعة الرقمية الحرة ويكيبيديا <https://ar.wikipedia.org/wiki>)



صور أوسمة الشرف التي تقلدها الأمير عبد القادر نظير مواقفه الإنسانية في سوريا.





أوسمة الشرف التي نالها الأمير عبد القادر





أمير المؤمنين

أوسمة الشرف التي نالها الأمير عبد القادر نظير مواقفه الإنسانية في سوريا، من بينها، وسام السنقذ الذي قلده إياه ملك اليونان، وسام النسر الأسود من ملك بروسيا، وسام النسر الأبيض من قيصر روسيا، وسام المجديية من السلطان العثماني، وآخرها وسام الشرف من الامبراطور الفرنسي نابليون في 1860

أوسمة الشرف منحت للأمير عبد القادر بعد مواقفه الإنسانية في «حماية الطوائف المسيحية» في سوريا بغض النظر عن جنسيتهم، حيث كان من بينهم رعايا فرنسيين، مشيراً أن مرسوم الإمبراطور الفرنسي نابليون جاء فيه أن سلوك الأمير عبد القادر النبيل في سوريا دفع بفرنسا إلى رفع الأمير عبد القادر إلى درجة «Grand croix» ليؤكد بذلك - بغض النظر عن خلفيته منح الوسام - الدور البارز للأمير عبد القادر في الدفاع عن حقوق الإنسان.

2- صور لمكان بيعتي الأمير عبد القادر الأولى والثانية

شجرة الدردارة بسهل غريس بولاية معسكر (البيعة الأولى).



مسجد المبايعة (سيدي حسان) بمدينة معسكر (البيعة الثانية)



3- صور بعض أغراض الأمير عبد القادر

بعض أغراض الأمير، في الرواق الخاص به بقاعة العرض الدائم بالمتحف الوطني للمجاهد



بعض أغراض الأمير من دار إقامته في المدينة



سيف الأمير عبد القادر الذي تم استرجاعه باقتنائه من السلطات الفرنسية يوم
2023/10/08، بالتنسيق بين السفارة الجزائرية بباريس ووزارة الثقافة والفنون الجزائرية،

بعد كشف محاولة بيعه عن طريق المزاد العلني،

(<https://www.facebook.com/ministereculturedz>)



بعض أغراض الأمير عبد القادر الجزائري بمتحف MUCEM بمرسيليا فرنسا

(<https://www.24hdz.dz/mucem-emir-abdelkader-dimension-historique->)

(intellectuelle)



4- صور بعض إقامات الأمير عبد القادر داخل الوطن وخارجه

إقامة الأمير بمدينة المدية أيام مقاومته وتواجده بالجزائر والذي تحول إلى معلم ثقافي



قصر أمبواز بمقاطعة "إندر إيه لوار" الفرنسية، سجن ومقر الإقامة الجبرية
للأمير عبد القادر (1848-1852م)، حيث توفي 25 من أهله ومرافقيه.



المقبرة التي دفن فيها 25 من أهل الأمير ومرافقيه بجوار حديقة بقصر أمبواز



قصر الأمير في منطقة الربوة بدمشق بجانب نهر بردى (إحدى إقاماته بدمشق)



5- صور لمعالم تذكارية ورمزية تخليدا لروح الأمير عبد القادر الجزائري

تدشين رئيس الجمهورية عبد المجيد تبون نصبا تذكاريا وساحة باسم "الأمير عبد القادر" بالعاصمة الروسية موسكو يوم 2023/06/14، على هامش زيارة دولة لروسيا.



جامع وجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة



نصب تذكاري شيده الاستعمار في المكان المسمى زمالة الأمير بمعسكر في
1949/10/15



تمثال الأمير عبد القادر بالساحة التي سميت باسمه بالجزائر العاصمة



القادر (ELKADER) مدينة ومقر مقاطعة كلايتون آيوا بالولايات المتحدة الأمريكية، سميت باسم الأمير عبد القادر.



6- صور تبين مراسم جنازته بدمشق ثم نقل جثمانه إلى وطنه الجزائر

صور مراسم جنازة الأمير في دمشق (ماي 1883)، بحضور كبار المسؤولين في الدولة آنذاك



صور نقل جثمان الأمير عبد القادر إلى وطنه الجزائر عام 1966



7- صور فنية لبعض معارك الأمير وجنده

صور فنية تُجسّد معركة المقطع (28 جوان 1835) التي انتصر فيها جيش الأمير



صور فنية تُجسّد معركة نهر السكاك (06 جويلية 1836) قرب مدينة تلمسان



صورة تُجسّد معركة مزغان قرب مدينة مستغانم (06 فيفري 1840)



صورة فنية تُجسّد معركة موزاية (12 ماي 1840)



صورة فنية تُجسّد مدينة زمالة عاصمة دولة الأمير المتنقلة
ومعركة الزمالة (16 ماي 1843) للرسام هوراس فيرينيه



صور تُجسّد معركة سيدي ابراهيم (من 23 إلى 26 سبتمبر 1845) من أهم معارك الأمير
وانتصاراته وفيه تم القضاء على المجرم المقدم لوسيان دو مونتانيك
Montagnac



صورة تمثيلية لفارس جيش الأمير وجندي أول فرقة مشاة للمقاومة



8- صور لأغلفة بعض عناوين المؤلفات عن الأمير عبد القادر



حياة الأمير عبد القادر

تأليف
سازان عذري شكول

تحت إشراف
الكنز زابوا التامر سفلان

هذا كتاب من سلسلة

من سلسلة حياة الجزائر

بني عبد القادر

كتابتها ريتا وكريستال هداستادني



دار ابن حزم

أجوبة التسوي

عن مسائل الأمير عبد القادر

في السياسة

ترجمة
عبد الحفيظ التامر سفلان

دار ابن حزم

سلسلة حياة الجزائر



فارس الجزائر

الأمير عبد القادر

الأمير عبد القادر

الفارس العظيم



ترجمته
د. راج خدوسي

دار المطبعة

الله والإنسان

عند الأمير عبد القادر الجزائري



أحمد محمود الجزار

ترجمته
عبد الحفيظ التامر سفلان

1999

دار الثقافة للغة والنشر والتوزيع

2 ش. سيف الدين القادر

ت. 6966 - 9 الجزائر

سلسلة حياة الجزائر

الأمير عبد القادر الجزائري

المسألة

تجربة عاشها به الظاهر، وأصبح تاريخه في التاريخ

لأنه كان من أعلامه في القرن التاسع عشر، وكان له

سعة من عينه في التاريخ، كما كان له اليد الطولى في

تأليف

في تاريخه كما كان له اليد الطولى في

سلسلة من مطبوعة كتاب

تاريخه في تاريخه، وفي تاريخه في تاريخه

و من تاريخه في تاريخه

دار المطبعة

شهادة الأمير عبد القادر

الأمير عبد القادر في الأسر

1852 / 1848



ترجمته
عبد الحفيظ التامر سفلان

3

الشيخ الجامعي الجديد

سلسلة حياة الجزائر

الأمير عبد القادر الجزائري

ترجمته
عبد الحفيظ التامر سفلان

سلسلة حياة الجزائر

في حياة الأمير عبد القادر

الأمير

عبد الحفيظ التامر سفلان

الكنز زابوا التامر سفلان

سلسلة حياة الجزائر

وبور

والأمير عبد القادر الجزائري



دار ابن حزم

يوهان كارل رينت

الأمير عبد القادر

ترجمة وتقديم
د. أبو العيود دودو

دار ابن حزم

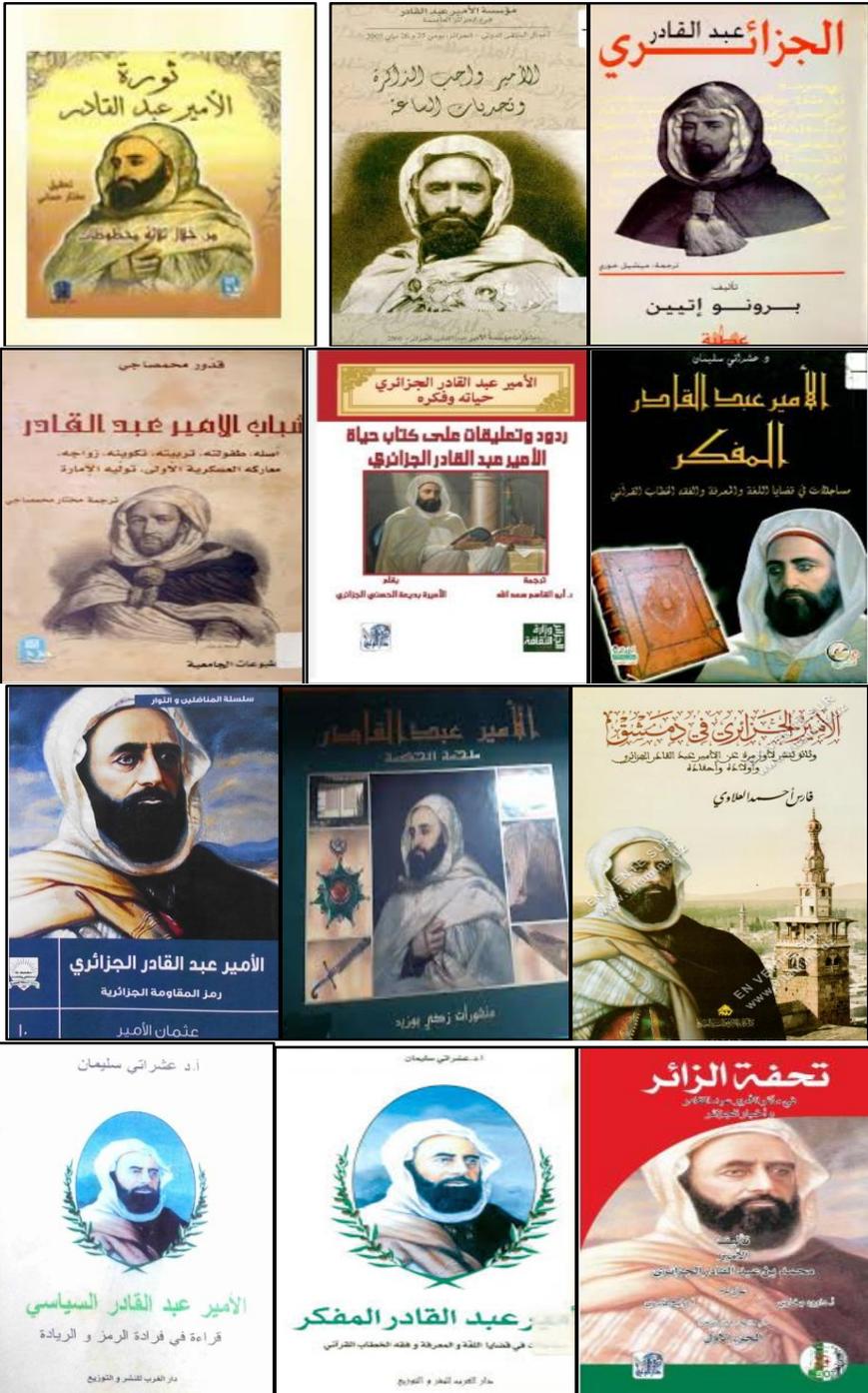
شاعر من الجزائر

(رواية)

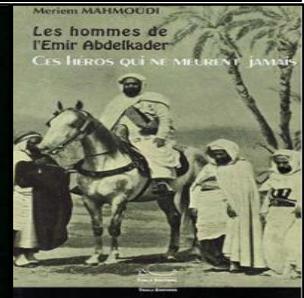
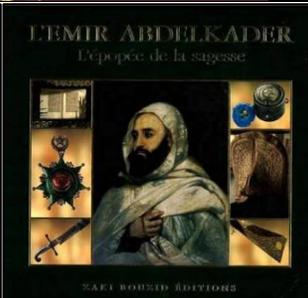
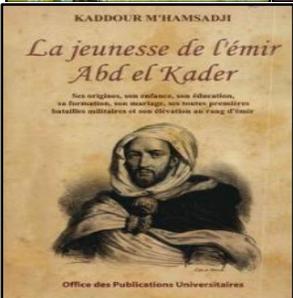
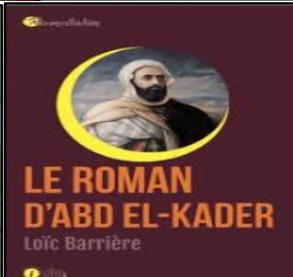
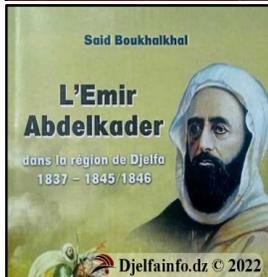
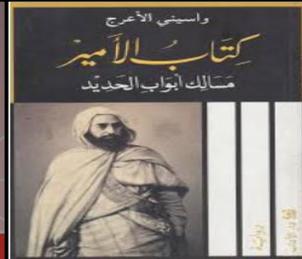
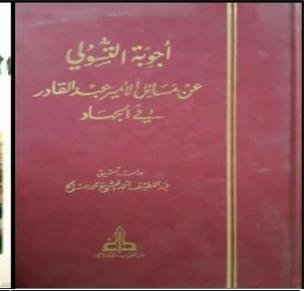
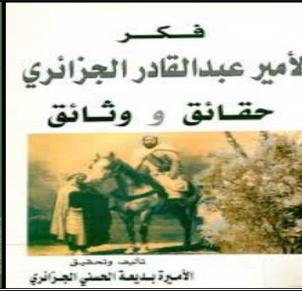
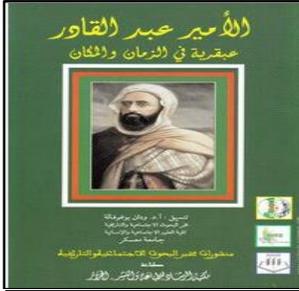
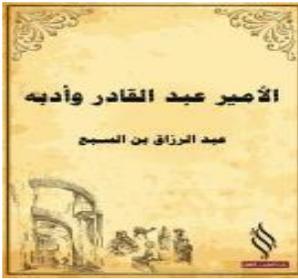


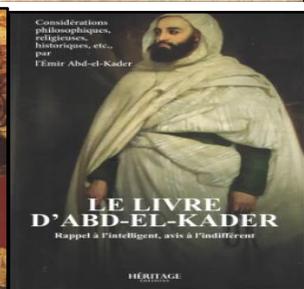
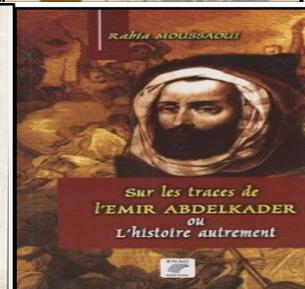
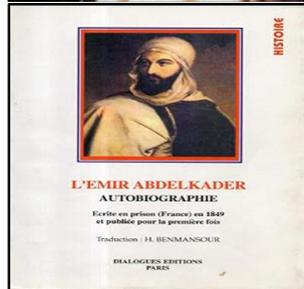
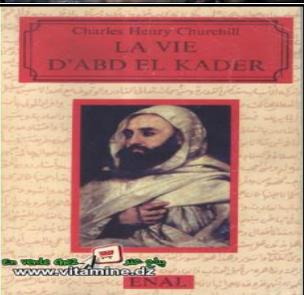
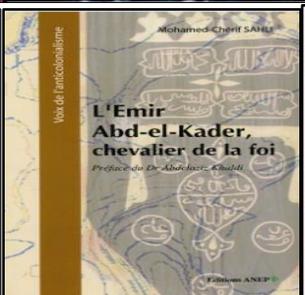
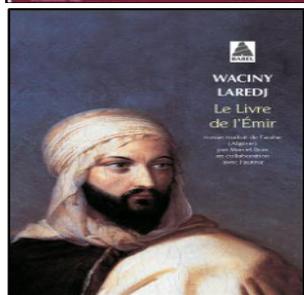
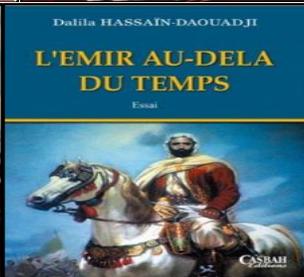
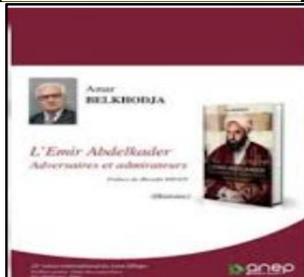
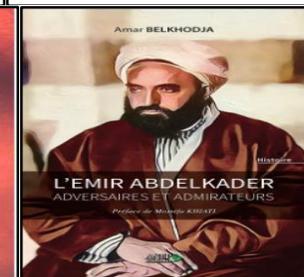
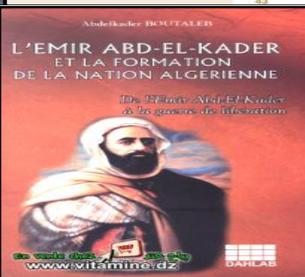
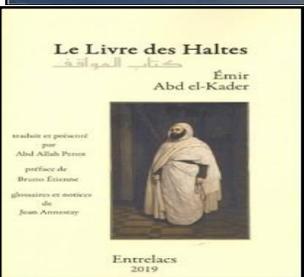
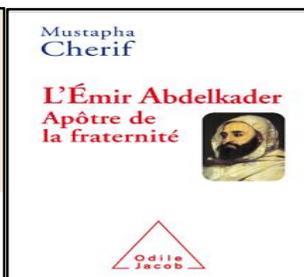
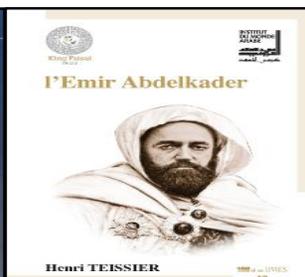
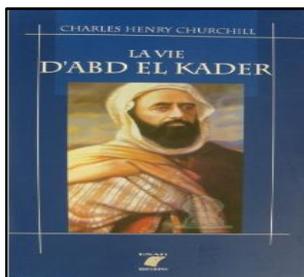
تأليف
عبد القادر سفلان

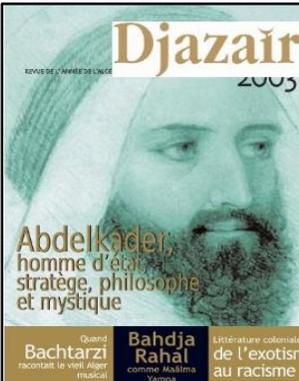
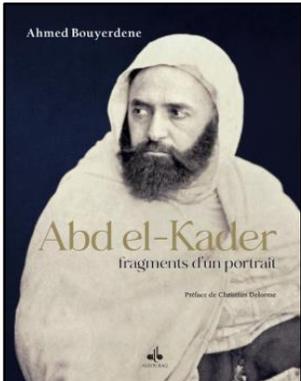
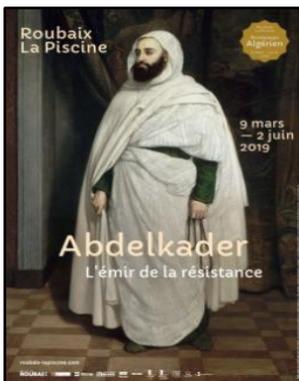
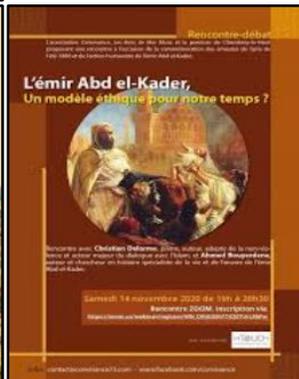
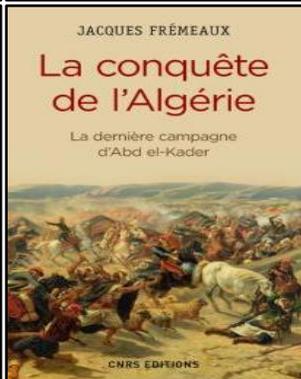
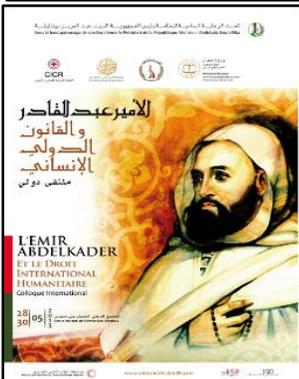
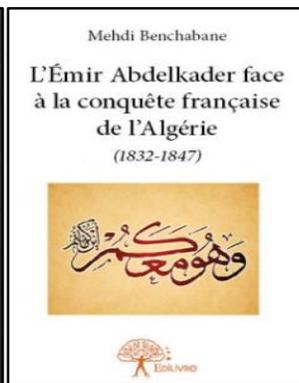
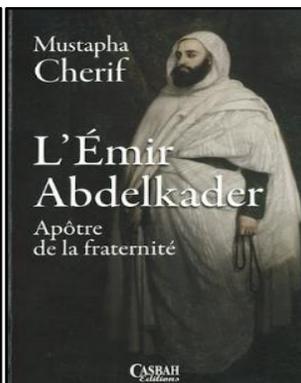
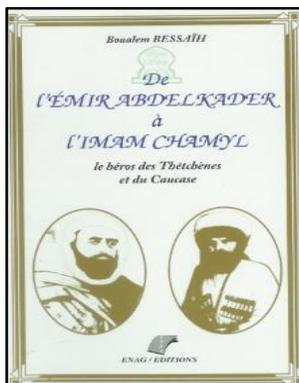
دار ابن حزم











فهرس الكتاب

| صفحة | الموضوع |
|------|--|
| 5 | كلمة الأستاذ الدكتور/ السعيد دراجي مدير الجامعة |
| 7 | تقدم الأستاذ عزيز حداد نائب مدير الجامعة للبيداغوجيا |
| 10 | المحور الأول: شخصية الأمير عبد القادر ومقاومته |
| 11 | مصادر قراءة تاريخ الأمير عبد القادر الدكتور محمد هيشور |
| 55 | جوامع النبوغ في شخصية الأمير عبد القادر من خلال بعض الكتابات الأجنبية والعربية الأستاذ الدكتور/ سعد طاعة جامعة |
| 74 | التنوع الخطابي عند الأمير عبد القادر وأهميته في إنجاح المقاومة الجزائرية 1832-1847 الدكتورة الأستاذة المحاضرة/ حنان لطرش |
| 100 | الجهاد عند الأمير عبد القادر من خلال كتابه المقرض الحادّ لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد الدكتورة الأستاذة المحاضرة/ نجاة بوقزولة |
| 120 | بين المقاومة والشعر، صور الأمير عبد القادر في المجلة الإفريقية، الدكتور الأستاذ الباحث/ كمال بن صحراوي |
| 145 | المحور الثاني: الجانب الروحي والبعد الديني عند الأمير عبد القادر |
| 146 | التحصيل الشرعي للأمير عبد القادر وأثره في بناء الدولة الدكتور/ حاج بن عودة شعالة |
| 174 | البعد الصوفي في شعر الأمير عبد القادر، الدكتور الأستاذ الباحث/ عبد الرحمان بشلاغم |
| 194 | الحب الإلهي في شعر الأمير عبد القادر الأستاذ المساعد مصدق بوعافية |
| 210 | الأثر الصوفي في شرح بيتي الرقمتين للأمير عبد القادر الأستاذ الدكتور/ مراد مزعاش |

| | |
|-----|---|
| 230 | المحور الثالث: البعد الإنساني في سيرة الأمير عبد القادر وفكره |
| 231 | جوانب أخلاقية وإنسانية في حياة الأمير عبد القادر الجزائريالأستاذ الدكتور/ كمال لدرع |
| 288 | دولة الأمير عبد القادر على ضوء نظريتي "ابن خلدون" و "هوبز" -دراسة مقارنة-الدكتورة الأستاذة المحاضرة/ نجاة عبو |
| 316 | شخصية الأمير عبد القادر في كتاباته وفكره -رسائله "ذكرى العاقل وتنبية الغافل" أمودجا-الدكتورة الأستاذة المحاضرة/ عايدة حباطي |
| 334 | صورة المرأة عند الأمير عبد القادر (قراءة في أجوبته للجنرال دوماس)، للدكتورة/ هناء شبايكي أستاذة محاضرة من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة |
| 348 | ملحق الصور: حول الأمير عبد القادر الجزائري وبعض آثاره ومؤلفات عنه.السيد/ عادل صال متصرف مستشار ورئيس مصلحة التكوين المتواصل |
| 370 | فهرس الكتاب |